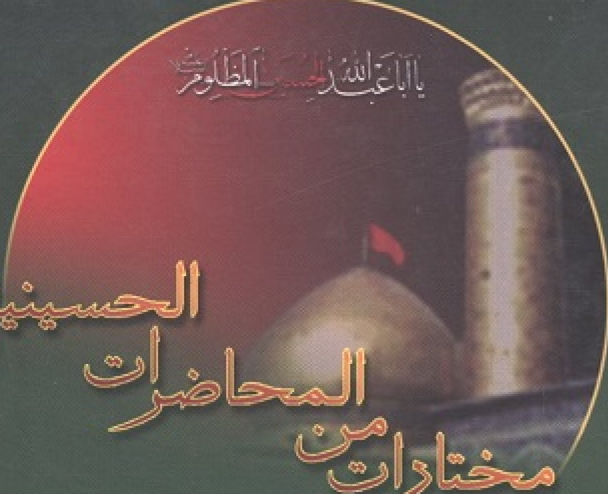


مختارات من المحاضرات الحسينية

محمد مهدي الآصفي

مختارات

من المحاضرات الحسينية

مجموعة منتقاة ومختارة

من المحاضرات الحسينية حول أحداث الطف

ألقاها أو كتبها كبار العلماء والخطباء والمفكرين

الجزء الأول

مجمع أهل البيت عليهم السلام في العراق

موسسة الهدى للنشر و التوزيع
ص. ب: ٤٣٦٣ ـ ١٤١٥٥
تلفون: ٦٦٤٠٦٢٦١ فاكس: ٦٦٤٠٦٢٤٠

الكتاب: مختارات من المحاضرات الحسينية
المؤلف: حضرة آية ا... محمد مهدي الآصفي
الناشر: موسسة الهدى للنشر و التوزيع
سنة الطبع: الطبعة الاولى، ١٤٢٨ هـ. ق
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

المقدمة

يستقطب المنبر الحسيني في شهري محرم وصفر، سيما في العشرة الأولى من محرم جمهوراً غفيراً من المؤمنين في شتى بقاع الأرض من القارات الخمسة... ولا أعرف منبراً يستقطب جمهور الناس، من غير تكلف ولا جهد ولا بذل، مثل منبر الجمعة والمنبر الحسيني.

والمعنيون بالإعلام يعرفون جيداً ماذا أقول.

فما تبذله الدول والمؤسسات الدولية من أموال وجهود لتجميع الناس في مؤتمر أو ملتقى أو ندوة أو مسيرة سياسية يفوق حدود التصور.

بينما لا يتطلب تجميع الناس حول المنبر الحسيني غير أن يرفع صاحب المجلس على باب داره راية خضراء أو سوداء ليجمع حشود الناس بأيسر الأسباب من غير جهد ولا تعب.

ويعطي الناس من الاحترام للمنبر الحسيني ولمنبر الجمعة ما لا أعرفه في العلاقة القائمة بين مخاطِبٍ (بالكسر) ومخاطَب (بالفتح) قط.

فقد يخوض أستاذ جامعي في بحث علمي عميق على مستوى الدراسات العليا فيناقشه الطلاب بحرية ومن دون حرج... وقد يتنازل الأستاذ عن رأيه

للطالب ويعلن ذلك من غير ان يتحرج.

ولكن الخطيب الحسيني إذا رقى الأعواد وأخذ في الحديث فلا يقاطعه أحد ولا يخرج من مجلسه أحد حتى ينتهي من حديثه.

فإذا نزل من المنبر لم يتحرج المستمعون أن يناقشوا محدّثهم في آرائه وأفكاره التي أطلقها من على المنبر.

ولست أعرف حرمة لمنبر بهذا الحد، غير منبر الجمعة والمنبر الحسيني.

والجمهور يبذل من وقته وجهده واحترامه الكثير لهذا المنبر من غير منٍّ ولا حساب.

وحريّ بالمنبر الحسيني أن يقابل هذا العطاء العظيم من قبل الناس للمنبر الحسيني باحترام متقابل، وحريّ بالخطيب الحسيني أن يحترم الجمهور الذي يبذل من وقته وجهده الكثير، فيقابل احترامه وبذله باحترام وبذل يكافؤه، فَيُعِدُّ للمحاضرة التي يلقيها على الجمهور إعداداً مناسباً، ويحاول أن يُسمِع الجمهور الذي يحضر خطابه ومنبره ما ينفعه في دنياه وآخرته، وما يغذيّ عقله وقلبه، ليخرج المستمع من المجلس الحسيني بمعرفة جديدة وفكر وثقافة تنفعه، في نفسه وأهله ومجتمعه.

ولا يتوقف في استعراض حادثة الطف التي تشد الناس إلى المنبر شداً وثيقاً على السرد المتكرر لأحداث هذا اليوم الأليم في تاريخ البشرية، وإن كان سرد تضحيات أنصار الحسين عليهم السلام في هذا الحادث المفجع (هو المسك ما كرّرته يتضوع) ولكن جمهور المستمعين يحبون أن يفتح عليهم المنبر الحسيني آفاقاً جديداً من الوعي والمعرفة في رحاب التضحية

المفجعة في تاريخ البشرية، وهو يوم حافل بالمعرفة والثقافة والفكر.

وانطلاقاً من هذا وذاك قام مجمع أهل البيت عليهم السلام في العراق باختيار مجموعة منتقاة ومختارة من المحاضرات الحسينية ألقاها أو كتبها كبار العلماء والكتّاب والمفكرين المعاصرين، لإغناء المنبر الحسيني المعاصر ومساعدة خطباء المنبر الحسيني في التحضير لمجالسهم ومحاضراتهم لشهري محرم وصفر، وبشكل خاص للعشرة الأولى من شهر محرم.

وعسى أن نكون قد أدينا بهذا الجهد خدمة يسيرة إلى المنبر الحسيني وخطبائه وجمهوره.

والحمد لله رب العالمين

مجمع أهل البيت عليهم السلام في العراق

النجف الأشرف في ذي القعدة ١٤٢٧هـ

نهضة عاشوراء

في كلام الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني*

* كلمات مختارة من خطب وأحاديث الإمام روح الله الموسوي الخميني قدس سره قائد الثورة الإسلامية المعاصرة ومؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران - نشرت في كتاب "نهضة عاشوراء" - ط ١ - ١٩٩٥ - منشورات مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره - الشؤون الدولية.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة الحسين ثورة ضد الظلم والطغيان[1]

إن الذي صان الإسلام وأبقاه حياً حتى وصل إلينا .. هو الإمام الحسين عليه السلام الذي ضحّى بكل ما يملك وقدم الغالي والنفيس، وضحّى بالشباب والأصحاب من أهله وأنصاره في سبيل الله عز وجل، ونهض من أجل رفعة الإسلام، ومعارضة الظلم.

لقد ثار الحسين عليه السلام بوجه تلك الإمبراطورية التي كانت أقوى الإمبراطوريات القائمة آنذاك في هذه المنطقة، بعدد قليل من الأنصار[2]. فانتصر وكان الغالب رغم استشهاده هو وجميع من معه.

ونحن السائرون على نهجه والمقتفون لآثاره، والمقيمون لمجالس العزاء

---

(١) حديث الإمام في جمع من علماء غرب طهران بتاريخ ١٩٧٩/٩/٢١.

(٢) كان عدد أنصار الإمام الحسين عليه السلام في حربه مع جيش إمبراطور زمانه (يزيد بن معاوية) ٧٢ نفراً، في حين بلغ تعداد جند يزيد عشرات الآلاف. واستشهد في هذه الملحمة الدموية الإمام الحسين عليه السلام مع جميع أنصاره، وأقدم الأعداء على أسر أهل بيته.

التي أمرنا بها الإمام جعفر الصادق عليه السلام[١] وأئمة الهدى عليهم السلام إنما نكرر عين ما كان، ونقول ما كان يقوله الإمام ويروم تحقيقه، ألا وهو مكافحة الظلم والظالمين.

ونحن وخطباؤنا إنما سعينا لإبقاء قضية كربلاء[٢] حية ـ قضية مواجهة الثلة المؤمنة القليلة لنظام طاغوتي متجبر، ونهوضها بوجهه ـ مستمرة متواصلة.

إن البكاء على الشهيد يُعدُّ إبقاءً على اتقاد جذوة الثورة وتأججها، وما ورد في الروايات مِن أن مَن بكى أو تباكى أو تظاهر بالحزن فإن أجره الجنة، إنما يفسر بكون هذا الشخص يساهم في صيانة نهضة الإمام الحسين عليه السلام.

لقد حفظت هذه المآتم شعبنا وصانته.. فأعداؤنا كانوا قد درسوا أوضاع الشعوب، وأمعنوا النظر في أحوال الشيعة فتوصلوا إلى حقيقة عدم تمكنهم

---

(١) هو جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سادس أئمة الشيعة في العالم (٨٣ ـ ١٤٨هـ ق). كان له دور استثنائي في إحياء المعارف الإسلامية الأصيلة وتشكيل الحوزات الدراسية العديدة وتربية وتعليم الطاقات المؤمنة وذلك بسبب ظروف زمانه حتى عرف مذهب الشيعة بالمذهب الجعفري تيمناً باسمه.

(٢) ثار الإمام الحسين بن أمير المؤمنين عليهما السلام والذي يعتبر ثالث إمام للشيعة، في عام ٦١ هـ ق ضد الحكم الفاسد يزيد بن معاوية (حاكم زمانه). وتمت المعركة بين العدد القليل لجند الإمام وبين جند يزيد في أرض يقال لها كربلاء. واستشهد في هذه المعركة التاريخية كلاً من الإمام الحسين عليه السلام وأولاده وأنصاره البالغ عددهم ٧٢ شخصاً، وقام جند يزيد بأسر أهل بيته.

من بلوغ غاياتهم وتحقيق مقاصدهم الخبيثة ما دامت هذه المجالس موجودة، وما دامت هذه المراثي تقرأ بحق المظلوم، وما دام يجري من خلالها فضح الظالم وممارساته..، ولذلك فقد ضيقوا الخناق .. على إقامة المواكب والمجالس الحسينية ..، وصدّوا من حرية الخطباء والعلماء في ارتقاء المنبر وممارسة الخطابة والتبليغ، وشنوا حملة تبليغ شعواء، فأعادونا القهقرى ونهبوا كل ثرواتنا.

..ظهرت الآن فئة تقول: لنترك المجالس وقراءة المراثي، إنهم يجهلون أبعاد ومرامي المجالس الحسينية..، إنهم لا يعون أن البكاء على الحسين يعني أحياءً لنهضته وإحياء لقضية إمكانية نهوض ثلة قليلة بوجه امبراطورية كبرى، إن هذه القضية منهج حي لكل زمان ومكان، فـ "كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء"[1] منهج يعني أن علينا أن نستمر في الثورة والقيام والنهوض امتداداً لتلك النهضة في كل مكان وفي كل يوم وطبقاً لهذا المنهج فالإمام الحسين ثار بعدد قليل وضحى في سبيل الإسلام بكل شيء واقفاً بوجه امبراطورية كبرى ليقول "لا".

فلا يتصور أبناؤنا وشبّاننا أن القضية بكاء شعب لا غير ! وأننا (شعبٌ بكّاء) ! على ما يريد الآخرون أن يوحوا لكم به، إنهم يخافون من هذا البكاء بالذات. لأنّه بكاء على المظلوم، وصرخة بوجه الظالم، وهذه المواكب التي تجوب الشوارع للعزاء إنما تواجه الظلم وتتحدى الظالمين، وهو ما ينبغي المحافظة عليه، إنها شعائرنا الدينية التي ينبغي أن تصان وهي شعائر سياسية يلزم التمسك بها. حذار من أن يخدعكم هؤلاء الكتّاب

---

(١) جزء من حديث وارد عن الإمام الصادق عليه السلام سادس أئمة الشيعة في العالم.

الذين يهدفون إلى تجريدكم من كل شيء وذلك تحت أسماء ومرامي منحرفة مختلفة. فهم يرون أن مجالس العزاء هذه وذكر مصائب المظلوم وجرائم الظالم في كل عصر إنما تدفع إلى الوقوف بوجه الظالم.

إن هؤلاء الذين يطالبوننا بالكف عن المآتم والمجالس الحسينية لا يعلمون أن هؤلاء المقيمين لهذه الشعائر إنما يقدّمون لهذا البلد وللإسلام أسمى الخدمات، وعلى شبابنا أن لا ينخدعوا بتخرصات هؤلاء وادعاءاتهم، إنهم ـ أيها الشبان ـ أناسٌ خونة، هؤلاء الذين يوحون إليكم بأنكم "شعب بكّاء" فأسيادهم وكبراؤهم يخشون هذا البكاء..، فينبغي أن لا يتصور شبابنا بأنهم يقدّمون خدمة عندما يغادرون المجلس حينما يتعرض الخطيب لذكر المصيبة، هذا تصرف خاطئ جداً، ينبغي أن تستمر المجالس بإقامة العزاء، ينبغي أن تذكر المظالم كي يفهم الناس ماذا جرى، بل أن هذا يجب أن يقام كل يوم، فأن لذلك أبعاداً سياسية واجتماعية غاية في الأهمية.

قيمة العمل التبليغي وأهمية مجالس العزاء[1]

إن ما أود أن أعرضه على السادة الخطباء هنا هو أن قيمة العمل الذي يقومون به ومدى أهمية مجالس العزاء لم تدرك إلا قليلاً، ولربما لم تدرك بالمرة فالروايات التي تقول إن كل دمعة تذرف لمصاب الحسين عليه السلام لها من الثواب كذا وكذا، وتلك الروايات التي تؤكد أن ثواب من بكى أو تباكى... لم تكن من باب أن سيد المظلومين عليه السلام بحاجة إلى مثل هذا العمل، ولا لغرض أن ينالوا هم وسائر المسلمين هذا الأجر و الثواب بالرغم من أنّه محرزٌ ولاشك فيه حتماً، ولكن لِمَ جُعِلَ هذا الثواب العظيم لمجالس العزاء؟ ولماذا يجزي الله تبارك وتعالى من بكى أو تباكى بمثل هذا الثواب والجزاء العظيم؟.

إن ذلك يتضح تدريجياً من ناحيته السياسية وسيُعرف أكثر فيما بعد إن شاء الله، إن هذا الثواب المخصص للبكاء ومجالس العزاء، إنما يُعطى - علاوة على الناحية العبادية والمعنوية - على الناحية السياسية، فهناك مغزى سياسي لهذه المجالس.

---

(١) حديث الإمام مع علماء ووعّاظ قم وطهران بتاريخ ١٩٨٦/٦/٢١.

لقد قيلت هذه الروايات في وقت كانت هذه الفرقة الناجية مبتلاة بالحكم الأموي[١] وأكثر منه بالحكم العباسي[٢]، وكانت فئة قليلة مستضعفة تواجه قوى كبرى.

لذا وبهدف بناء هذه الأقلية وتحويلها إلى حركة متجانسة، اختطوا لها طريقاً بناءً، وتمَّ ربطها بمنابع الوحي، وبيت النبوة وأئمة الهدى عليهم السلام، فراحوا يخبرونهم بعظمة هذه المجالس واستحقاق الدموع التي تذرف فيها الثواب الجزيل مما جمع الشيعة ـ على الرغم من كونهم آنذاك أقلية مستضعفة ـ في تجمعات مذهبية ولربما لم يكن الكثير منهم يعرف حقيقة الأمر، ولكن الهدف كان بناء هيكل هذه الأقلية في مقابل الأكثرية.

وطوال التأريخ، كانت مجالس العزاء ـ هذه الوسائل التنظيمية ـ منتشرة

(١) الحكم الأموي (بني أمية) هم سلسلة حكام الإسلام من نسل أمية، سيطروا على زمام حكم الممالك الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين في عام ٤٠ هجري (٦٦٢ ميلادي) واستمر حكمهم حتى عام ١٣٢ هجري (٧٥٠ ميلادي). وكان معاوية بن أبي سفيان المؤسس لدولة بني أمية حيث أحيا هو وأهل بيته من جديد النظام الإقطاعي والحكم الملكي الوراثي الذي يعارض بوضوح معتقدات المسلمين. وحدثت في عالم الإسلام خلال العصر الأموي وقائع أليمة منها المجازر والسجن والنفي ضد أتباع أهل بيت النبي واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام بواسطة عمّال يزيد (ابن معاوية).

(٢) الحكم العباسي (بني عباس) هم سلسلة ما يسمى بالخلفاء المسلمين من أولاد العباس بن عبد المطلب ومؤسس هذه السلسلة هو عبد الله السفاح الذي ثار بدعم من الإيرانيين ضد جور وظلم خلفاء بني أمية واستلم خلافة الممالك الإسلامية. وحكم من بني العباس ٣٦ "خليفة" منذ عام ١٣٢هـ ق وحتى عام ٦٥٦هـ ق (٧٥٠ـ١٢٥٨م). وسيطروا على جزء من الممالك الإسلامية وآسيا الغربية.

في أرجاء البلدان الإسلامية.. أخذت هذه المجالس تتحول إلى وسيلة لمواجهة الحكومات التي توالت على سدة الحكم ساعية لاستئصال الإسلام وقلعه من جذوره، والقضاء على العلماء، فهذه المجالس والمواكب هي التي تمكنت من الوقوف بوجهها وإخافتها.

.. القوى الكبرى تخشى هذه المواكب والمآتم، القوى الكبرى تخشى هذا التنظيم الذي لا يستند إلى يد واحدة تحركه، فالشعب يجتمع في هذه المجالس طواعيةً، وتنعقد هذه المجالس في كل أنحاء البلاد، في بلد مترامي الأطراف في أيام عاشوراء وخلال شهري محرم وصفر وفي شهر رمضان المبارك فهذه المواكب والمآتم هي التي تجمع الناس.

وإذا كان هناك موضوع يراد منه خدمة الإسلام وإن أراد امرؤ أن يتحدث عن قضية معينة نرى أن ذلك يتسنى له في كل أنحاء البلد بواسطة هؤلاء الخطباء وأئمة الجمعة والجماعة فينتشر الموضوع المراد تبليغه للناس مرة واحدة في جميع أنحاء البلاد. واجتماع الناس تحت هذا اللواء الإلهي، هذا اللواء الحسيني، هو الذي يؤدي إلى تعبئة الجماهير.

ولو أن القوى الكبرى عزمت على عقد مثل هذه التجمعات الجماهيرية الكبرى في البلدان التي تحكمها فإن ذلك يحتاج منها إلى أعمال ونشاطات وجهود كبرى تستغرق عدة أيام أو عشرات الأيام فهي مضطرة ولأجل عقد تجمع جماهيري في مدينة من المدن يضم مثلاً مائة ألف أو خمسين ألفاً إلى إنفاق مبالغ طائلة وبذل جهود جبارة، لجمع الناس وجعلهم يستمعون لحديث محدثهم.

ولكنكم ترون كيف أن هذه المجالس والمواكب التي ربطت الجماهير ببعضهم، هذه المآتم التي حركت الجماهير، يلتئم شملها من جميع الشرائع الاجتماعية المعزيّة بمجرد أن يحصل أمر يستدعي التجمع، وليس في مدينة واحدة بل في كل أنحاء البلاد، ودون الحاجة إلى بذل جهودٍ كبرى أو إعلام واسع النطاق.

إن الناس يجتمعون على كلمة واحدة لمجرد أنهم يعتقدون أنها خرجت من فم الحسين سيد الشهداء سلام الله عليه.

في الرواية الواردة عن أحد الأئمة (ولعله الإمام الباقرعليه السلام[1]، لا أذكر تماماً) يوصيعليه السلام أن يقام العزاء عليه ويرثى في منى[2] بعد وفاته، ليس ذلك لأن الإمام الباقرعليه السلام بحاجة إلى ذلك، أو أن هناك منفعة شخصية ستعود عليهعليه السلام، ولكن انظروا إلى الأثر السياسي لهذا الأمر، فعندما يأتي الناس من كل أنحاء العالم لأداء مراسم الحج، ويجلس من يندب الإمام الباقرعليه السلام ويقرأ المراثي بشأنه ويوضح جرائم مخالفيه ومن سقوه كأس الشهادة فإن ذلك يخلق أمواجاً من الغضب في كل أنحاء العالم، لكن البعض يستهينون بأهمية هذه المجالس.

---

(١) هو محمد بن علي الملقب بالباقرعليه السلام خامس إمام للشيعة في العالم (٥٧هـ ق ١١٤هـ ق). وعاش الإمام ٥٧ سنة حياةً مباركة، واستمرت إمامته مدة ١٩ سنة. وأطلق عليه لقب "باقر العلوم" بسبب تبحره في العلوم القرآنية والمعارف الإسلامية. وكان الناس يحبونه كثيراً لما له من نفوذ واسع بينهم. ويُستنبط من بعض النصوص أن قيادته الجماهيرية شملت مجالاً أوسع من عالم الإسلام.

(٢) «منى»: مكان بالقرب من مكة يمارس فيه الحجاج الهدي.

قد يسمينا المتغربون بـ (الشعب البكاء)، ولعلّ البعض منا لا يتمكن من قبول أنّ دمعة واحدة لها كل هذا الثواب العظيم، لا يمكن إدراك عظمة الثواب المترتب على إقامة مجلس للعزاء، والجزاء المعد لقراءة الأدعية، والثواب المعد لمن يقرأ دعاء ذا سطرين مثلاً.

إن المهم في الأمر هو البعد السياسي لهذه الأدعية وهذه الشعائر، المهم هو ذلك التوجه إلى الله وتمركز أنظار الناس إلى نقطة واحدة وهدف واحد، وهذا هو الذي يعبئ الشعب باتجاه هدف وغاية إسلامية فمجلس العزاء لا يهدف للبكاء على سيد الشهداءعليه السلام والحصول على الأجر ـ وطبعا فإن هذا حاصل وموجود ـ الأهم من ذلك هو البعد السياسي الذي خطط له أئمتناعليهم السلام في صدر الإسلام كي يدوم حتى النهاية وهو الاجتماع تحت لواء واحد وبهدف واحد، ولا يمكن لأي شيء آخر أن يحقق ذلك بالقدر الذي يفعله عزاء سيد الشهداءعليه السلام.

..ليس بإمكان أية قوة أن تحفظ هذا الشعب الذي هجمت عليه القوى العدوانية من كل حدبٍ وصوب وتآمرت عليه سوى مجالس العزاء هذه.

إن هذه المجالس التي تُذكر فيها مصائب سيد المظلومينعليه السلام وتظهر مظلومية ذلك المؤمن الذي ضحى بنفسه وبأولاده وأنصاره في سبيل الله، هي التي خرّجت أولئك الشبان الذين يتحرقون شوقاً للذهاب إلى الجبهات ويطلبون الشهادة ويفخرون بها، وتراهم يحزنون إذا هم لم يحصلوا عليها.

هذه المجالس هي التي خرّجت أمهات يفقدن أبناءهنّ ثم يقلن بأن

لديهن غيرهم وأنهن مستعدات للتضحية بهم أيضاً.

إنها مجالس سيد الشهداء عليه السلام ومجالس الأدعية من دعاء كميل[١] وغيره، هي التي تصنع مثل هذه النماذج وتبنيها، وقد وضع الإسلام أساس ذلك منذ البداية وعلى هذه الركائز، وقدّر له أن يتقدم ويشق طريقه وفق هذا المنهج.

ولو كان هؤلاء يعلمون حقيقة الأمور ويدركون أهمية هذه المجالس والمواكب وقيمة هذا البكاء على الحسين عليه السلام والأجر المعد له عند الله لما سمونا شعباً بكّاءً بل لقالوا عنا شعب الملاحم.

لو فهموا الآثار التي تركتها أدعية الإمام السجاد عليه السلام[٢] وكيف أن بإمكانها تعبئة الجماهير وتحريكهم وهو عليه السلام الفاقد لتوّه كل أهل بيته في

---

(١) دعاء كميل من الأدعية المشهورة، ينطوي على مفاهيم سامية. والدعاء المذكور بموجب الروايات الواردة هو دعاء الخضر عليه السلام وقام الإمام علي عليه السلام الإمام الأول للشيعة في العالم بتعليمه إلى كميل بن زياد الذي كان يعد من خواص الأصحاب للإمام. ويُقرأ دعاء كميل في ليالي الجمع وليلة النصف من شعبان (يوم ولادة صاحب العصر والزمان المهدي الموعود) للحفظ من شر الأعداء وفتح أبواب الرزق وغفران الذنوب.

(٢) هو علي بن الحسين عليه السلام الملقب بزين العابدين والمشهور بالإمام السجاد عليه السلام رابع إمام للشيعة في العالم. ولادته ٣٨هـ ق / ٦٥٨م، ووفاته ٩٤ هـ ق / ٧١٢م.

عاش الإمام السجاد أسوأ العهود التي مرت على أهل البيت عليهم السلام، وأدى قيام والده والنهاية المأساوية لتلك الانتفاضة في كربلاء إلى إحساس الناس بالخطيئة وشعورهم بالحقد والاشمئزاز من بني أمية. وسخّر الإمام السجاد عليه السلام هذا الإحساس والعامل النفسي لتنفير المسلمين من بني أمَية وتوسيع دائرة الجهاد ضدهم، وحاول أن يبقي هذا الشعور بالذنب مشتعلاً وزاد في لهيبه. وكانت إحدى الطرق التي استخدمها من أجل الوصول إلى هذا الهدف هو أسلوب الدعاء. والأدعية الواردة عنه لها نوع من المعاني التي تكشف

كربلاء والذي عاش في ظل حكومة مستبدة جائرة تفرض هيمنتها على كل شيء لما قالوا لنا ما جدوى هذه الأدعية. ولو أن مثقفينا أدركوا الأبعاد السياسية والاجتماعية لهذه المجالس والأدعية والأذكار لما قالوا: لِمَ تفعلون كل هذه الأمور وتتمسكون بها.

لو أن المتغربين والمثقفين وجميع ذوي القدرة والقوة اجتمعوا لما تمكنوا أن يفجروا انتفاضة كتلك التي حصلت في ١٥ خرداد وإن من يمتلك هذه القدرة على صنع حدث كهذا هو من اجتمع الجميع تحت لوائه.

إننا نصرخ بأننا نريد (الجمهورية الإسلامية ونريد الإسلام، لأننا رأينا أن الشعب بأسره التفّ حول الجمهورية الإسلامية وحول اسم (الإسلامية) بالذات وفي سبيل الله، ولأننا رأينا أن الجماهير إنّما قامت في سبيل الله لأجل ذلك، ولأننا رأينا ما تتمتع به هذه الجمهورية الإسلامية من دعم من شعبنا ومن سائر الشعوب.

ليعلم شعبنا قيمة وأهمية هذه المجالس التي أبقت الشعوب حية، في أيام عاشوراء[1] بنسبة أكبر وفي سائر الأيام بدرجة أقل وبهذا الشكل الذي نراه،

عن الأحداث الحاصلة في عصره وتحمل مفاهيم عظيمة في الدعوة وبناء أساس الأمة. وإن كتاب الصحيفة السجادية المعروفة بـ "زبور آل محمد" هو من آثار ذلك الإمام الهمام. وهذا الأثر يعد ثورة فكرية تختلف عن بقية الآثار لشموله على القواعد الأخلاقية والمبادئ والفضائل وعلوم التوحيد وغير ذلك.

(١) استشهد الإمام الحسين عليه السلام مع ٧٢ نفراً من أنصاره في اليوم العاشر من المحرم عام ٦١ هجري قمري (٦٨٠م)، وأطلق منذ ذلك التاريخ اسم "عاشوراء الحسين" أو "عاشوراء" على ذلك اليوم، ويقيم الشيعة مجالس العزاء في العشرة الأولى من المحرم في كل سنة.

ولو كان المبهورون بالغرب يعرفون البعد السياسي لها، ولو كانوا يدّعون ـ حقاً ـ السعي لتحقيق مصالح الشعب والبلد لرغبوا هم فيها أيضاً ولبادروا إلى إقامتها.

إنني آمل أن تقام هذه المجالس بشكل أفضل وعلى نطاق أوسع. وإن للجميع بدءً من الخطباء وانتهاءً بقراء المراثي والقصائد دوراً وتأثيراً في ذلك، فإن ذلك الذي يقف أسفل المنبر ويقرأ بعض الرثاء، وذلك الذي يرتقي المنبر خطيباً، كلاهما له تأثيره ودوره الطبيعي وإن كان البعض لا يدركُ قيمة عمله، من حيث لا يشعر.

لقد بلغنا مرحلةً أقدمَ فيها شعبنا على صنع ثورة تفجرت فيه قوى معينة بطريقة قلَّ نظيرها في أي مكان، فقد كان هذا الشعب يعاني من التبعية في كل شؤونه، وكان النظام السابق قد عمل على سلبه كل شيء وتقديمه للأجانب حتى أفقد البلد شرفه الإنساني، ثم فجأة حصل الانفجار الشعبي الذي تمَّ ببركة هذه المجالس التي عمت البلد من أقصاه إلى أدناه، تجمع الناس وتوجهت أنظارهم إلى هدف واحد.

إن على السادة الخطباء وأئمة الجمعة والجماعة أن يوضّحوا هذه الأمور للناس أكثر من وضوحها لي، لا يظنوا أننا مجرد "شعب بكّاء" فإننا شعب تمكن بواسطة هذا البكاء والعزاء من الإطاحة بنظام عمّر ألفين وخمسمئة عام.

الإمام الحسين عليه السلام معلّم الإنسانية التضحية والفداء[1]

لقد عَلّم سيد الشهداء عليه السلام الجميع ماذا ينبغي عليهم عمله في مقابل الظلم والحكومات الجائرة. فرغم أنه كان يعلم منذ البداية أن عليه أن يضحي - في طريقه الذي سلكه - بجميع أنصاره وأهل بيته من أجل الإسلام، إلاّ أنه كان يعرف عاقبة هذا الطريق أيضاً.

ولولا نهضة الحسين عليه السلام تلك لتمكن يزيد[2] وأتباعه من عرض الإسلام مقلوباً للناس، فهم لم يكونوا يؤمنون بالإسلام منذ البداية، وكانوا يكنّون الحسد والحقد لأولياء الإسلام.

---

(١) خطاب الإمام قدس سره في جمع من خطباء وعلماء قم وطهران وآذربيجان الشرقية والغربية بتاريخ ١٩٨٢/١٠/١٧.

(٢) في عام ٦٠هـ ق تربع يزيد بن معاوية (٢٦هـ ق - ٦٢هـ ق) على عرش الخلافة بعد والده، وكان شاباً لا يملك من العلم والفضيلة أي شيء، واشتهر بالفسق والفجور. استمر حكمه مدة ثلاث سنوات ونصف، إذ قَتلَ في السنة الأولى الحسين بن علي عليه السلام مع أصحابه وأنصاره، واستباح في السنة الثانية المدينة المنورة (محل حكم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ومكان دفنه)، وهجم في السنة الثالثة على مكة المكرمة.

لقد تمكن سيد الشهداء عليه السلام من خلال تضحيته تلك ـ وعلاوة على إلحاق الهزيمة بهم، وبعد زعزعة أركان حكومتهم، أن أدرك الناس بعد برهة حقيقة المصيبة العظمى التي حلت بهم ـ إرشاد الجميع على مرّ التاريخ إلى الطريق الصائب الذي ينبغي أن يسلكوه.

لقد عَلّم عليه السلام الناس أن لا يخشوا قلة العدد، فالعدد ليس هو الأساس، بل الأصل والمهم هو النوعية، والمهم هو كيفية التصدي للأعداء والنضال ضدهم والمقاومة بوجههم، فهذا هو الموصل إلى الهدف. من الممكن أن يكون عدد الأفراد كبيراً إلاّ أنّ نوعياتهم ليست بالمستوى المطلوب، ومن الممكن أن يكون عددهم قليلاً لكنهم أقوياء أشداء وشامخو الرؤوس.

وعندما نهض الحسين عليه السلام واستشهد مظلوماً أطلق عليه البعض صفة (الخارجي) واتهموه بالمروق عن طاعة "حكومة الحق القائمة آنذاك"، لكن نور الله ساطع وسيبقى ساطعاً وسيمتلئ العالم بنوره.

ما هو واجبنا ونحن على أعتاب شهر محرم الحرام؟ وما هو تكليف العلماء والخطباء الكرام في هذا الشهر؟ وما هي وظيفة سائر شرائح الشعب وفئاته؟ لقد حدد سيد الشهداء عليه السلام وأنصاره وأهل بيته تكليفنا وهو التضحية في الميدان، والتبليغ في خارجه.

فنفس القيمة التي تمتلكها تضحية الحسين عليه السلام عند الله تبارك وتعالى ونفس الدور الذي لعبته في تأجيج نهضته تملكها ـ أو تقاربها ـ خطب

السجاد عليه السلام وزينب عليها السلام[1] أيضاً... فتأثيرها يعادل أو يقرب من تأثير تضحية الحسين عليه السلام بدمه.

لقد أفهمنا سيد الشهداء عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، إنّ على النساء والرجال ألا يخافوا في مواجهة حكومة الجور. فقد وقفت زينب سلام الله عليها في مقابل يزيد ـ وفي مجلسه ـ وصرخت بوجهه وأهانته وأشبعته تحقيراً لم يتعرض له جميع بني أمية طُراً في حياتهم. كما أنها عليها السلام والسجاد عليه السلام تحدثا وخطبا في الناس أثناء الطريق وفي الكوفة والشام، فقد ارتقى الإمام السجاد ـ سلام الله عليه ـ المنبر وأوضح حقيقة القضية وأكد أن الأمر ليس قياماً لأتباع الباطل بوجه أتباع الحق، وأشار إلى أن الأعداء قد شوّهوا سمعتهم وحاولوا أن يتهموا الحسين عليه السلام بالخروج على الحكومة القائمة وعلى خليفة رسول الله!! لقد أعلن الإمام السجاد عليه السلام الحقيقة بصراحة على رؤوس الأشهاد، وهكذا فعلت زينب عليها السلام أيضاً.

---

(١) هي زينب عليها السلام الوليد الثالث للإمام علي عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام. ولادتها عام ٦هـ ق ـ وفاتها عام ٦٥هـ ق. عاصرت زينب عليها السلام الأحداث التي جرت في عهد إمامة والدها وشقيقها الأكبر الإمام الحسن عليه السلام واستشهادهما. وحضرت فاجعة كربلاء وشاهدت استشهاد أخيها وأبناء أخيها وأبنائها، وتبنت مسؤولية الإشراف على قافلة الأسرى بصبر لا نظير له وروحية كبيرة، وذلك عندما قام جيش يزيد بأسر عوائل الشهداء والمتبقين منهم عصر يوم عاشوراء، وأوصلت نداء شهداء كربلاء إلى أغلب الذين واجهتهم على طول الطريق الذي قطعته القافلة من كربلاء إلى الكوفة أولاً ثم إلى الشام (مقر سلطة يزيد) ثانياً. وإن خطبها الثورية والمؤثرة في مجلس عبيد الله بن زياد (حاكم الكوفة) ويزيد (خليفة زمانه) معروفة للجميع.

وهكذا هو الأمر اليوم في بلدنا، فسيد الشهداء عليه السلام قد حدد تكليفنا، فلا تخشوا من قلة العدد ولا من الاستشهاد في ميدان الحرب، فكلما عظم هدف الإنسان وسمت غايته كان عليه أن يتحمل المشاق أكثر بنفس النسبة، فنحن لم ندرك بعدُ جيّداً حجم الانتصار الذي حققناه، وسيدرك العالم فيما بعد عظمة النصر الذي حققه الشعب الإيراني.

وبنفس العظمة التي يتميز بها هذا النصر والجهاد يكون حجم المصائب والتحديات. وينبغي أن لا نتوقع أن لا تمسّنا القوى الكبرى ـ التي قطعنا أيديها عن بلدنا وسنقطعها إن شاء الله عن باقي دول المنطقة ـ بأي سوء أو أذى، وعلينا أن لا نتوقع بعد تحقيقنا لهذه الانتصارات أن نبقى نرفل بالسلامة كما كنا في السابق.

على جميع العلماء والخطباء وأئمة الجمعة والجماعة وكل مَن مِن شأنه الحديث مع الناس أن يوضحوا لهم كيف حصلت نهضة سيد الشهداء عليه السلام وحقيقة هذه النهضة وغايتها وقلة عدد الأنصار الذين خرجوا مع الحسين عليه السلام وما هي المصائب التي انطوت عليها تلك النهضة وكيف بلغت نهايتها وكيف أنها لن تنتهي.

إن علينا وعلى جميع الخطباء الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنه لو لم تقع نهضة سيد الشهداء عليه السلام لما استطعنا نحن اليوم أن نحقق النصر، فوحدة الكلمة التي كانت السبب في انتصار ثورتنا تعود إلى مجالس العزاء، ففيها تم التبليغ للإسلام والترويج له.

لقد هيّأ سيد المظلومين عليه السلام للجماهير وسيلة مكنتها من عقد اجتماعاتها بسهولة ودون الحاجة إلى بذل جهود كبرى. والإسلام جعل من المساجد خنادق ووسائل، لأن هذه المساجد والتجمعات وصلوات الجمعة والجماعة هيأت جميع ما يراد لتحقيق ما فيه مصلحة الإسلام وما يفيض أسباب تقدم النهضة إلى الإمام، وخصوصاً مما تعلمناه من سيد الشهداء عليه السلام مما ينبغي عمله في ساحة الحرب وخارجها، وماذا يجب أن يعمله أولئك الذين يخوضون غمار الكفاح المسلح، وما هي واجبات المبلغين خلف جبهات القتال وكيف يقومون بذلك.

لقد تعلمنا من الحسين عليه السلام كيفية النضال والجهاد وكيفية المواجهة بين قلة من الناس وكثرة كاثرة، وكيفية الوقوف بوجه حكومة تعسفية جائرة تسيطر على كل مكان، كيف نقوم بذلك بعدد قليل... هذه أمور علّمها سيد الشهداء عليه السلام لأبناء شعبنا، كما أن نجله الإمام السجاد عليه السلام وسائر أهل بيته عليهم السلام علّمونا ماذا ينبغي عمله بعد وقوع المصيبة، هل ينبغي الاستسلام؟ هل يجب التخفيف والتقليل من النضال والجهاد؟ أم علينا أن نقتدي بزينب عليها السلام التي حلّ بها مصاب تصغر عنده المصائب فوقفت بوجه الكفر والزندقة وتكلمت وخطبت كلما تطلّب الموقف وأوضحت الحقائق، تماماً كما مارس الإمام علي بن الحسين دوره التبليغي رغم الذي كان يعاني منه.

إنكم أيها السادة العلماء وجميع العلماء الموجودين في أنحاء البلاد مكلّفون بحفظ هذه النعمة الإلهية وهذه المنحة الربانية، مطالبون بشكر الله عليها، والشكر إنما يتحقق بممارسة التبليغ، بيّنوا للناس وأفهموهم ما فعله

سيد الشهداء عليه السلام وما كان يريد تحقيقه والطريق الذي سلكه والنصر الذي تحقق له وللإسلام بعد شهادته، وضّحوا لهم أن ما فعله سيد الشهداء عليه السلام هو الجهاد من أجل الإسلام، وأنه كان يعلم أنه لن يتمكن بما تهيأ له من عدد قليل يقل عن المائة شخص من التغلب على ذلك النظام الظالم الذي يملك كل شيء.

عليكم أن تمارسوا التبليغ، فها قد جاء شهر محرم وعليكم إحياؤه، فكل ما لدينا هو من محرم، ومن هذه المجالس. فحتى مجالس التبليغ تهيأت لنا هي الأخرى من شهر محرم وهي من ثمار مقتل سيد الشهداء عليه السلام واستشهاده.

ينبغي لنا أن ندرك أبعاد هذه الشهادة ونعي عمقها وتأثيرها في العالم ونلتفت إلى أن تأثيرها ما زال مشهوداً اليوم أيضاً. فلولا وجود مجالس الوعظ والخطابة والعزاء والاجتماعات هذه لما تمكن بلدنا من تحقيق النصر. لقد نهض الجميع تحت لواء الإمام الحسين سلام الله عليه..

إن على المبلغين الأعزاء والعلماء والخطباء أن يبينوا للناس ـ خلال الاجتماعات والمجالس التي تعقد في شهري محرم وصفر ـ القضايا المعاصرة، أن يبينوا لهم القضايا السياسية والاجتماعية ويبينوا لهم تكليفهم في مثل هذا الوقت الذي نعاني فيه من كل هؤلاء الأعداء، وعليهم أن يُفهموا الناس أننا ما زلنا في منتصف الطريق وأن علينا الاستمرار في المسيرة حتى النهاية إن شاء الله.

محرّم، صرح الشهادة الدامي[1]

ها قد أطل شهر محرم، شهر الملاحم والشجاعة شهر انتصار الدم على السيف، الشهر الذي دحضت فيه قوة الحق زيف الباطل إلى الأبد ودمغت فيه جباه الجبابرة والظلمة والحكومات الشيطانية بوصمة لا تزول ولا تحول.

الشهر الذي علم كل الأجيال على مدى التاريخ نهج الانتصار على الحراب والأسنة، والشهر الذي شهد هزيمة القوى الكبرى مقابل كلمة الحق، والشهر الذي ينبغي أن تتغلب فيه القبضات المشدودة لعشاق الحرية والاستقلال والحق، على الدبابات والمدافع الرشاشة وجنود إبليس، وتمحو كلمة الحق فيه غبش الباطل.

محرم هو الشهر الذي ثار فيه العدل بوجه الظلم، ونهض الحق ضد الباطل وأثبت أن الحق منتصر على الباطل.

محرم هو الشهر الذي أحيي فيه الإسلام على يد سيد المجاهدين والمظلومين عليه السلام وأُنقذ من تآمر العناصر الفاسدة وحكم بني أمية، الذين

---

(١) هذه والتي بعدها مجموعة كلمات قالها السيد الإمام قدس سره في مناسبات متعددة.

أوصلوا الإسلام إلى حافة الهاوية.

لقد سقيت نبتة الإسلام منذ أول نشوئها بدماء الشهداء والمجاهدين، وآتت أكلها وأعطت ثمارها نتيجة ذلك.

شهر محرم ـ بالنسبة لمدرسة التشيع ـ الشهر الذي تحقق فيه النصر اعتماداً على التضحية والدماء.

كم هو شهرٌ مليء بالمصائب شهر محرم، وكم هو شهر مفعم بالبناء والعنفوان، محرم شهر النهضة الكبرى لسيد الشهداء والأولياء عليه السلام، الذي علّم الناس ـ بثورته بوجه الطاغوت ـ البناء والتسامي، وأوضح لهم أن فناء الظالم وتحطيم الجائر يمكن أن يتم من خلال الفداء والتضحية وتقديم القرابين، وهذه التضحية تأتي على رأس التعاليم الإسلامية التي تلقاها شعبنا إلى آخر الدهر.

والآن حيث يمثل شهر محرم سيفاً إلهياً في يد جند الإسلام والعلماء الكرام والخطباء المحترمين وشيعة سيد الشهداء عليه السلام الأجلاء ينبغي لهم تحقيق أقصى الاستفادة منه، وليقتلوا ـ وبالاتكال على القدرة الإلهية ـ بقايا جذور شجرة الظلم والجور، فشهر محرم شهر هزيمة القوى اليزيدية والحيل الشيطانية.

ينبغي أن نحيي محرم وصفر بذكر مصائب أهل البيت عليهم السلام، فبذكر مصائبهم بقي هذا الدين حياً حتى الآن.

(كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء)

إن مقولة "كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء" مقولة كبرى لكنها تُفْهَمُ فهماً خاطئاً، فالبعض يتصور أنها تعني أننا ينبغي أن نبكي كل يوم، لكن محتواها غير هذا.

لو نظرنا ما هو دور كربلاء، ما هو دور كربلاء في يوم عاشوراء، حينذاك ندرك أن على كل أرض أن تكون كذلك، أن تمارس دور كربلاء الذي يتلخص في أنها كانت ميداناً خاض فيه سيد الشهداء عليه السلام غمار الحرب ومعه ثلة قليلة من الأنصار، فصمدوا وقاوموا ظلم يزيد وتصدوا للحكم الجائر لذلك العصر وضحّوا وقتلوا، ورفضوا الظلم وهزموا يزيد ودحروه.

هكذا ينبغي أيضاً أن تكون بقية البلدان، وينبغي أن يحصل هذا الرفض للظلم في كل يوم، وعلى شعبنا أن يجسد ذلك في كل يوم ويشعر بأنه يوم عاشوراء، وينبغي لنا أن نقف بوجه الظلم ونعتبر أن هذه أيضاً أرض كربلاء وعلينا أن نعيد فيها دور كربلاء.

فليست كربلاء محصورة في أرض معينة ولا في أفراد معينين، وقضية

كربلاء لا تقتصر على جمع من الأشخاص لا يتجاوز الاثنين والسبعين شخصاً أو في رقعة جغرافية صغيرة، بل على جميع البلدان أن تؤدي الدور نفسه وفي كل يوم ينبغي أن لا تغفل الشعوب عن الوقوف بوجه الظلم والتصدي للجور.

لقد علّمنا إمام المسلمين أنه عندما يحكم المسلمين طاغوتٌ جائر فعلى المسلمين وعلينا أن ننهض بوجهه حتى لو كانت قوانا لا تتناسب مع القوى التي يملكها، علينا أن نقوم ونستنكر، علّمنا أن نضحي ونسترخص دماءنا إذا رأينا كيان الإسلام عُرضةً للخطر.

لقد علّمنا سيد الشهداء عليه السلام بنهضته ما ينبغي لنا عمله في ساحة الحرب وخلفها، وماذا يجب أن يعمله أولئك الذين يخوضون غمار الكفاح المسلح وما هي واجبات المبلغين خلف جبهات القتال وكيف يؤدّون ذلك.

تعلمنا من الحسين عليه السلام كيفية النضال والجهاد الذي تقوده قلة من الناس بوجه جحافل الظلمة، وكيف يكون ثلة قليلة بوجه حكومة تعسفية جائرة تسيطر على كل مناحي الحياة.

إن منهج الإمام الحسين سلام الله عليه وأوامره الموجهة للجميع "كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء" تقضي بأن نستمر في الثورة والقيام والنهوض، امتداداً لتلك النهضة وذلك المنهج، فالإمام الحسين عليه السلام ثار ومعه فئة قليلة العدد من الأنصار، ووقف بوجه امبراطورية كبرى وضحى بكل شيء من أجل الإسلام، وأكّد: أنه ينبغي أن يستمر هذا الرفض والقيام في كل زمان ومكان.

في صدر الإسلام وبعد رحلة النبي الخاتمﷺ ـ مرسي أسس العدالة والحرية ـ أوشك الإسلام أن ينمحي ويتلاشى بسبب انحرافات بني أمية وكاد يسحق تحت أقدام الظالمين ويبتلع من قبل الجبابرة..

أوشكت حكومة يزيد وجلاوزته الجائرة أن تمحو الإسلام وتضيع جهود النبيﷺ المضنية وجهود مسلمي صدر الإسلام ودماء الشهداء، وتلقي بها في زاوية النسيان، وتعمل ما من شأنه أن يضيع كل ذلك سدى.

لقد كاد الدين الإسلامي يندثر ويتلاشى نتيجة انحرافات حثالات الجاهلية وخططهم الهادفة لإحياء الشعور الوطني والقومي برفعهم شعار "لا خبر جاء ولا وحي نزل"[(١)]، فقد عَمِلوا على تحويل حكومة العدل الإسلامي إلى حكم ملكي امبراطوري وعزل الإسلام والوحي وإزوائهما..

---

(١) هو جزء من شعر عبدالله بن الزبعري الذي يقول فيه: لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل. وقيل أن يزيد (لعنة الله عليه) استشهد بهذه الأبيات عندما دخل عليه أهل بيت العصمة والطهارة في الشام وكانت بيده عصا يضرب بها على الثغر الطاهر للإمام الحسين عليه السلام.

لقد هدف بنو أمية للقضاء على الإسلام.

أوشك حكم بني أمية المنحط أن يظهر الإسلام بمظهر الحكم الطاغوتي ويشوه سمعة النبي الأكرمﷺ، وقد فعل معاوية وابنه الظالم الأفاعيل ضد الإسلام ...، فقد بدلا أساس عقيدة الوحي ومعالمها إلى نظام شيطاني.

رأى سيد الشهداءعليه السلام أن معاوية وابنه ـ لعنة الله عليهما ـ يعملان على هدم الدين وتقويض أركانه، وتشويه الإسلام وطمس معالمه، لقد جاء الإسلام ليقوّم سلوك الإنسان، ولم يأتِ لكي يستحوذ على السلطة، بل لِيُعِدَّ الإنسان ويبنيه.

حاول ذلك الأب والابن[١] طمس معالم الدين وتشويه صورته الناصعة..، فمعاوية وابنه كانا يشربان الخمر، ويؤمان المصلين أيضاً، وكان مجلساهما من مجالس اللهو واللعب والطرب تمارس فيهما كل الانحرافات، ثم تقام بعده صلاة الجماعة، فيتقدمان هما لإمامة تلك الجماعة، تصوروا لاعب ميسر يصبح إمام جماعة، كانا يتوليان إمامة الجماعة، وكانا يؤمان الجمعة ويرتقيان منبر الخطابة فقد كانا خطيبين يتحركان ضد رسول اللهﷺ باسم خلافة رسول اللهﷺ.

يرفعان عقيرتهما بنداء (لا إله إلاّ الله) لكنهما يقفان بوجه الألوهية، لقد كانت ممارساتهما وأعمالهما شيطانية في حين أنهما كانا يدّعيان أنهما خلفاء رسول اللهﷺ.

..فبأي حجة قام سيد الشهداءعليه السلام ضد سلطان عصره؟ وبأي دليل ثار

---

(١) أي معاوية وابنه يزيد.

على من كان يعد نفسه (ظل الله)[(١)].

ولما كان من غير المناسب مس السلطان، فلماذا ثار ضد سلطان عصره؟ ألم يكن سلطان عصره ينطق بالشهادتين ويقول إني خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله. لقد ثار الحسين عليه السلام بوجهه لأنه كان شخصاً سيئاً، يريد أن يستغل الشعب ويأتي على ثرواته وينهب خيراته، ويستولي عليها هو وجلاوزته.

إن نظام السلطنة وولاية العهد هو نفس ذلك النمط المشئوم من الحكومة التي ضحى سيد الشهداء عليه السلام واستشهد من أجل الحيلولة دون استمرار بقائه، ولما لم يكن يرغب في الخضوع لولاية العهد التي أسندت ليزيد ولم يرغب الاعتراف رسمياً بسلطنته، فقد قام وثار ودعا المسلمين إلى القيام والثورة، فهذه الأمور (السلطنة وولاية العهد) ليست من الإسلام، ليس في الإسلام سلطنة وولاية عهد.

إن الخطر الذي كان يمثله معاوية ويزيد ضد الإسلام لم ينحصر في كونهما غاصبين للخلافة، فهو أهون من الخطر الأكبر الآخر وهو أنهما حاولا جعل الإسلام عبارة عن سلطنة وملكية وأرادا أن يحولا الأمور المعنوية إلى طاغوت، ومحاولتهما ـ وبذريعة أنهما خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله ـ قلب حقيقة الإسلام إلى نظام طاغوتي. لقد كان هذا الأمر مهماً لدرجة أن من

---

(١) ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: "السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض. والسلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف وبه يُنصر المظلوم".

واستغل أغلب حكام الجور والسلاطين المستبدين والقادة الفاسدين في البلدان الإسلامية هذه التعابير الجميلة للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وذلك بسبب جهل عامة الناس وانخفاض مستوى إدراكها السياسي، وأطلقوا على أنفسهم لقب "ظل الله" في الأرض رغم الظلم والفساد الواسع الذي كانت تمارسه حكوماتهم!.

سبقوهم لم يضاهوهم في إلحاق الضرر بالإسلام ولم يبلغوا ما بلغاه. فقد حاولا قلب حقيقة الإسلام. فقد امتلأت مجالسهم بشرب الخمر ولعب القمار.

كان الواحد منهم يزعم أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويشرب الخمر في مجلسه ويلعب القمار! ثم يبقى خليفةً لرسول الله صلى الله عليه وآله ويتوجه إلى الصلاة ويؤم صلاة الجماعة. إن هذا خطر كبير واجه الإسلام مما دفع سيد الشهداء عليه السلام للقيام لرفضه.

لم تكن القضية قضية غصب الخلافة فحسب، لقد كان قيام سيد الشهداء عليه السلام وثورته قياماً ضد السلطة الطاغوتية... تلك السلطنة التي كانت تريد أن تصبغ الإسلام بصبغة أخرى ولو أنها نجحت في ذلك لأصبح الإسلام شيئاً آخر تماماً، ولصار مثل النظام الامبراطوري الذي كان قائما لألفين وخمسمائة عام(١)[في ايران].

إنهم أرادوا مواجهة الإسلام الذي جاء للقضاء على النظام الملكي وإزالة حكم السلاطين وإقامة الحكم الإلهي في العالم، وتحطيم الطاغوت. أرادوا

---

(١) أقام نظام الشاه بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٧١ أكثر الاحتفالات في التاريخ إنفاقاً، يعني احتفالات ذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على الامبراطورية الفارسية، وقرر مجلس النواب ومجلس الشيوخ في اجتماع مشترك في الذكرى السنوية لولادة رضا خان بتغيير التاريخ الرسمي الإيراني من الهجري الشمسي إلى التاريخ الملكي، أي أن يبدأ التاريخ منذ تشكيل الملكية في إيران وبداية عهد الحكم الحخامنشي بواسطة كورش ويقارن ذلك عام ٥٢٩ قبل الميلاد. وهكذا نرى أن الملك كان يفتخر بـ ٢٥٠٠ سنة من التمدن الملكي وذلك رغم الفقر والحرمان الذي كان يعاني منه أغلب أبناء الشعب الإيراني ومنع أي نوع من النشاط السياسي وسيطرة الإرهاب على جميع المجالات.

أن يعيدوا عبادة الطاغوت ونفس الأوضاع التي كانت سائدة في الجاهلية.

كان بنو أمية يريدون القضاء على الإسلام من الأساس وقلع جذوره وإقامة حكم عربي سلطوي. غير أن ثورة سيد الشهداء عليه السلام أفهمت العرب والعجم جميعاً ونبهت المسلمين كلهم إلى أن القضية ليست قضية عرب وعجم إنما هي: الله والإسلام.

عندما رأى سيد الشهداء عليه السلام إن هؤلاء يلوثون بأعمالهم سمعة الإسلام ويشوهون صورته باسم خلافة الرسول ويرتكبون المعاصي ويحكمون بالظلم والجور، وأن انعكاس ذلك على الصعيد العالمي هو أن خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله يمارس هذه الأعمال، رأى من واجبه أن ينهض ويثور حتى لو أدى الأمر إلى مقتله، المهم هو إزالة ما تركه معاوية وابنه من آثار على الإسلام.

لقد تحرك سيد الشهداء عليه السلام مع عدد قليل من الأنصار وثار بوجه يزيد الذي كان حاكماً متجبراً يرأس حكومةً غاشمة جائرة، ويتظاهر بالإسلام ويستغل قرابته وصلته العائلية[1] بالإمام عليه السلام. قد كان رغم تظاهره بالإسلام وزعمه أن حكومته حكومة إسلامية وأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله كان امرءاً

---

(١) إن بني أمية (الأمويين) وبني هاشم (الهاشميين) هما من فروع عبد مناف من قبيلة قريش. وبمجرد أن بعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من بين الهاشميين أصيب الأمويين بالذهول وبدؤا يحاربون الرسول حتى إنهم أجبروه على الهجرة.

التحق بنو هاشم في المدينة بالرسول، ووقعت مكة بيد بني أمية وخضعت كل قريش لهم. وأدى انتصار الرسول وخسارة قريش إلى أن يصبحوا مسلمين جميعاً، لكن عداوة بني أمية لبني هاشم (عشيرة الرسول) استمرت إلى ما بعد ذلك، وتحمل الإسلام على طول التاريخ ضربات شديدة بسبب هذه العداوة.

ظالماً يهيمن علىَ مقدرات بلدٍ دون حق. لذا فإن الإمام أبا عبد الله الحسين عليه السلام ثار بوجهه مع قله الأنصار لأنّه رأى أن واجبه وتكليفه يقتضي ذلك، وأنّ عليه أن يستنكر ما يحدث وأن ينهى عن المنكر.

عندما يرى سيد الشهداء سلام الله عليه أن حاكماً ظالماً يحكم في الناس بالجور والعدوان فإنه يقول: من رأى حاكماً جائراً يحكم في الناس بالظلم والجور فعليه أن يقوم بوجهه ويمنعه من الظلم بمقدار ما يستطيع ولو كان معه بضعة أنصار فقط يقفون معه بوجه ذلك الحاكم ذي الجيش العظيم الجرار.

لما أراد الحسين عليه السلام أن يثور خطب في الناس خطبة أوضح فيها أسباب الثورة[1] وأسقط عذر من يتذرع.

قال أبو مخنف عن عقبة بن أبي العيزار: إن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله".

---

(١) نُقِل أن الإمام الحسين عليه السلام خطب في أصحابه وأصحاب الحر في منطقة "البيضة"، وبعد الثناء والمديح لله، قال: "أيها الناس قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباده بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله". راجع تاريخ الطبري: ج: ٤ ص: ٣٩٤.

فلننظر ماذا فعل يزيد ليثور سيد الشهداءعليه السلام ضده ويصفه بما وصفه وسلك ذلك النهج، فالموضوع الذي تكلم به الإمام سيد الشهداءعليه السلام يخص الجميع، فهو يقول: (من رأى) يعني كل من رأى وعاصر سلطاناً جائراً يتصف بتلك الصفات وبقي ساكتاً أمامه لا يعارضه بقول ولا فعل فإن مصيره ومآله هو ذات مصير ومآل ذلك السلطان الجائر.

لقد كان يزيد امرءاً متشبثاً ـ حسب الظاهر ـ بالإسلام ويعد نفسه خليفة لرسول اللهصلى الله عليه وآله ويؤدي الصلاة أيضاً، ويمارس كل ما نمارسه نحن، ولكن ماذا ارتكب غير ذلك؟ إنه يقترف المعاصي ويخالف سنة رسول اللهصلى الله عليه وآله. وكان يخالف أسلوب رسول اللهصلى الله عليه وآله في معاملة المسلمين وصيانة دمائهم وحفظ أموالهم، فهو يسفك الدماء ويهدر الأموال ويبذرها، وهي ذات الأفعال التي كان يقوم بها أبوه معاوية والتي دعت أمير المؤمنينعليه السلام إلى معارضته، كل ما في الأمر أن الإمام علياًعليه السلام كان يمتلك جيشاً في حين لم يمتلك الحسينعليه السلام سوى عدد قليل في مقابل حكومة مقتدرة.

إن عظماء الإسلام قد ضحوا بأرواحهم عندما رأوا الخطر محدقاً بالإسلام وأن سمعته تكاد تُشَوّه فقد حاول معاوية وابنه يزيد تشويه سمعة الإسلام وتقبيح صورته باسم الخلافة على المسلمين، فقد ارتكبوا باسم خلافة رسول اللهصلى الله عليه وآله تلك الجرائم، وعقدوا تلك المجالس.

وهنا اقتضى التكليف أن ينهض عظماء الإسلام بمهمة المعارضة والمجاهدة وإزالة التشويه الذي يوشك أن يلحقه هؤلاء بسمعة ومكانة الإسلام وما يمكن أن يشتبه المغفلون في إدراكه وهو كون أن هذا هو

الإسلام وأن الخلافة هي هذه التي يتظاهر بها معاوية وابنه يزيد، الأمر الذي يتهدد الإسلام بالخطر، وهذا ما يجب على الإنسان أن يندفع عنده للمجاهدة حتى لو أدى إلى التضحية بالنفس.

لقد بُعِثَ الأنبياء لإصلاح المجتمع، وكلهم كانوا يؤكدون أنه ينبغي التضحية بالفرد من أجل المجتمع مهما كان الفرد عظيماً، وحتى لو كان الفرد أعظم من في الأرض، فإذا اقتضت مصلحة المجتمع التضحية بهذا الفرد، فعليه أن يضحي. وعلى هذا الأساس نهض سيد الشهداءعليه السلام وضحى بنفسه وأصحابه وأنصاره، فالفرد يُفدى في سبيل المجتمع، فإذا اقتضت مصلحة المجتمع وتوقف إصلاح المجتمع على تضحية وجب التضحية، إن العدالة ينبغي أن تحقق بين الناس ﴿**ليقوم الناس بالقسط**﴾[1].

كان هدف الإمام الحسينعليه السلام من الاستشهاد إقامة العدل الإلهي وصيانة بيت الله الحرام.

إن حياة سيد الشهداءعليه السلام وحياة الإمام المهدي صاحب الزمان سلام الله عليه وجميع الأنبياء من آدمعليه السلام حتى الرسول الخاتمصلى الله عليه وآله كانت تدور

---

(١) تقول الآية ٢٥ من سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

حول محور إرساء وإقامة حكومة العدل في مقابل الظلم.

لقد أعلن سيد الشهداء عليه السلام بصراحة أن هدفه من قيامه هو إقامة العدل، فالمعروف لا يعمل به والمنكر لا يتناهى عنه[1]، لذا فهو يريد إقامة المعروف ومحو المنكر، فجميع الانحرافات منشؤها من المنكر، وما عدا خط التوحيد المستقيم فكل ما في العالم منكرات، ويجب أن تزول.

ونحن الموالون لسيد الشهداء عليه السلام السائرون على نهجه ينبغي أن ننظر في حياته، وفي قيامه، الذي كان الدافع إليه النهي عن المنكر ومحوه، ومن المنكر حكومة الجور، وهي يجب أن تزول.

لقد ضحى سيد الشهداء عليه السلام بكل حياته من أجل إزالة المنكر ومحوه ومكافحة حكومة الظلم والحيلولة دون المفاسد التي أوجدتها الحكومات المنحرفة في العالم، كما سعى بجدٍ للإطاحة بحكومة الجور وإزالتها ونشر المعروف والنهي عن المنكر.

لقد ضحى سيد الشهداء عليه السلام بكل ما يملك وضحى بنفسه وأطفاله وبكل شيء وكان يعلم أن الأمر سيؤول إلى ما آل إليه، وإذا رجعنا إلى أقواله وتصريحاته وهو يهمُّ بمغادرة المدينة إلى مكة وعندما خرج من مكة إلى

---

(١) روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه وقف خطيباً في منطقة "ذي حسم"، فقال: "أما بعد فقد نزل من الأمر بنا ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبَرَ معروفُها، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، و إلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً". راجع تحف العقول: ص: ٢٤٩.

كربلاء سنجد أنه بصير بما كان يفعل.

لقد رأى سيد الشهداءعليه السلام إن الدين يوشك أن ينمحي، وقضية قيام سيد الشهداءعليه السلام بوجه يزيد وقيام أمير المؤمنينعليه السلام ضد معاوية، وقيام الأنبياءعليهم السلام بوجه المتسلطين والكفار لم تكن قضية سيطرة وتحكم أو طلب سلطة ورئاسة، فالعالم كله ليس له أية قيمة بنظرهم، وليس همهم طلب الرئاسة والرغبة في السلطة وفتح البلدان للسيطرة عليها.

لم يكن يريد أن يجرب ويجازف في تحركه ليعلم هل ينجح أم لا، بل إنّه كان قد تحرك ليتسلم زمام الحكومة، وهذا مبعث فخر له ومدعاة افتخار، والذين يتصورون أن سيد الشهداءعليه السلام لم ينهض لأخذ زمام الحكم فهم مخطئون، فسيد الشهداءعليه السلام إنما جاء وخرج مع صحبه لتسلم الحكم لأن الحكومة يجب أن تكون لأمثال سيد الشهداءعليه السلام وأمثال شيعته.

إن ما أوصل سيد الشهداءعليه السلام إلى ذلك المصير هو الدين والعقيدة، وقد ضحى سلام الله عليه بكل شيء من أجل العقيدة والإيمان، وكانت النتيجة أن قتل وهَزَمَ عدوه بدمه.

إن شهادة الإمام الحسينعليه السلام لم تكن هزيمة، فثورة سيد الشهداء سلام الله عليه كانت قياماً لله، وليس في القيام من أجل الله أية هزيمة.

ثار سيد الشهداءعليه السلام ضد يزيد وربما لم يكن متيقناً من أنه سيتمكن من الإطاحة بيزيد وإزاحته عن السلطة وتحدثنا الروايات الواردة عنهعليه السلام بأنه

كان مطلعاً على هذا الأمر[1]، لكنه في الوقت ذاته قرر النهوض والثورة ضد نظام ظالم حتى لو أدى ذلك إلى مقتله، وفعلاً تحرك وقام بوجه النظام الظالم وقدم الضحايا وقتل من قتل من أعدائه وقُتل هو بعد ذلك.

لقد كان الحسين عليه السلام يفكر بمستقبل الإسلام والمسلمين باعتبار أن الإسلام سينتشر بين الناس نتيجة لتضحياته ولجهاده المقدس وأن نظامه السياسي والاجتماعي سيقام في مجتمعنا، فرفع لواء المعارضة والنضال والتضحية.

رأى سيد الشهداء عليه السلام أن تكليفه يقتضي أن يقاوم تلك السلطة ويقتل لكي يُغيِّر الأوضاع السائدة آنذاك ولكي يفضح تلك السلطة من خلال تضحيته وتضحيات أنصاره الذين كانوا معه. لقد رأى أن حكومةً جائرةً قد هيمنت على مقدّرات الدولة وأن التكليف الإلهي يقتضي منه أن ينهض ويتحرك ويرفع لواء المعارضة والاستنكار مهما كلفه ذلك ـ ومع أنه كان يعلم وطبقاً للقواعد المتعارفة ـ بأن مثل هذا العدد القليل لا يمكنه مواجهة ذلك الجيش الجرار إلاّ أن التكليف كان يقتضي بتلك النهضة.

كان التكليف يوجب على سيد الشهداء عليه السلام، أن يقوم ويثور ويضحي

---

(١) ثمة روايات عديدة تشير أن الله جل جلاله أخبر الأنبياء بشهادة الإمام الحسين عليه السلام، وأشار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام إلى ذلك أيضاً.

وفي رسالة شخصية بعثها الإمام الحسين عليه السلام إلى واحد من بني هاشم: "أما بعد فمن لحقني فقد استشهد ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح.. والسلام". راجع اللهوف على قتلى الطفوف: ص: ٦٩.

بدمه كي يصلح هذه الأمة، ويهزم راية يزيد، وهذا ما فعله وأنجز ما كان يريد. لقد ضحى بدمه ودماء أبنائه وكل شيءٍ من أجل الإسلام.

لم تكن لدى الإمام الحسين عليه السلام قوة تذكر ومع ذلك نهض وثار، ولو كان ـ والعياذ بالله ـ كسولاً لكان بإمكانه الجلوس والانزواء جانباً والادعاء بأن هذا ليس واجبه الشرعي وأن تكليفه الشرعي لا يحتم عليه الثورة، لو أن هذا هو الذي كان حصل لفرح البلاط الأموي، فالبلاط الأموي يسعده كثيراً بأن يلجأ سيد الشهداء عليه السلام إلى القعود والسكوت وتركهم ليفعلوا ما يحلو لهم.

إلاّ أنه عليه السلام بعث مسلم بن عقيل[1] يدعو الناس إلى مبايعته لكي يقيم حكومة إسلامية ويقضي على تلك الحكومة الفاسدة. ولو أنه كان قد جلس في مكانه ولم يغادر المدينة ورضي بمبايعة والي يزيد التافه على المدينة ـ والعياذ بالله ـ لفرح بنو أمية وابتهجوا ولقبلوا يديه.

لقد ضحى سيد الشهداء بنفسه من أجل الإسلام.

---

(١) أرسل الإمام الحسين عليه السلام ابن عمه مسلم بن عقيل الذي كان من الأبطال والعلماء وأصحاب الرأي إلى الكوفة ليأخذ البيعة من الناس للإمام عليه السلام، وتمكن مسلم أن يأخذ من أهل الكوفة ١٨٠٠٠ بيعة للإمام الحسين عليه السلام، وكتب له رسالة يدعوه للتحرك نحو الكوفة. ومع دخول عبيدالله بن زياد إلى الكوفة وتعيينه من قبل يزيد حاكماً لها، تفرق الناس عن مسلم وتركوه وحيداً، واستغل عبيدالله بن زياد الظرف الحاصل ودعا الناس إلى عدم مبايعة الإمام الحسين عليه السلام، وقتل مسلماً.

وقد استشهد مسلم بن عقيل عليه السلام في التاسع من ذي الحجة عام ٦٠ للهجرة (٦٨٠م).

ضحى سيد الشهداء سلام الله عليه بجميع أصحابه وشُبّانه وبكل ما يملكه، في سبيل الله ولتقوية الإسلام ومكافحة الظلم، ومعارضة الإمبراطورية التي كانت قائمة آنذاك وهي أكبر من الإمبراطوريات الموجودة الآن.

وقد قتل سيد الشهداء عليه السلام، ولم يكن طامعاً في الثواب، فهو عليه السلام لم يُعِرْ هذا الأمر كثير الاهتمام، لقد كانت نهضته لإنقاذ الدين ولإحياء الإسلام ودفع عجلته إلى الأمام.

لقد تعرض النبي صلى الله عليه وآله في بعض الحروب للهزيمة العسكرية، وكذا أمير المؤمنين عليه السلام في مقابل معاوية، كما أن سيد الشهداء عليه السلام قتل أيضاً، إلا أن مقتله كان طاعة منه وتقرباً لله وفي سبيل الله، وكل ما حصل كان مزيداً من السمو له عليه السلام، لذا فليس في الأمر هزيمة أو انكسار للإمام عليه السلام، كل ما كان هو نوع من الطاعة لله.

لو لم تكن عاشوراء ولولا تضحيات آل الرسول لتمكن طواغيت ذلك العصر من تضييع آثار بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وجهوده الشاقة. ولولا عاشوراء لسيطر المنطق الجاهلي لأمثال أبي سفيان[1] الذين أرادوا القضاء على الوحي والكتاب، فقد هدف يزيد ـ حثالة عصر الوثنية والجاهلية المظلم ـ إلى استئصال جذور الحكومة الإلهية ظناً منه أنه يستطيع بواسطة تعريض أبناء الوحي للقتل والشهادة أن يضرب أساس الإسلام، فقد كان يعلن صراحة: "لا خبرٌ جاء ولا وحي نزل". ولا ندري لو لم تكن عاشوراء ما الذي كان حصل للقرآن الكريم والإسلام، لكن إرادة الله تبارك وتعالى شاءت ـ وما تزال ـ أن يخلد الإسلام المنقذ للشعوب والقرآن الهادي لها، وأن تحييه دماء شهداء من أمثال أبناء الوحي وتصونه من أذى الدهر،

(١) كان أبو سفيان رئيساً لقبيلة قريش وأعدى الأعداء للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وكان يقود الكفار والمشركين لمخالفة الإسلام وإلحاق الأذى بالمسلمين. ولم يسلم حتى انتصار المسلمين وفتحهم لمكة. وتفيد الروايات الموجودة أنه آمن ظاهراً ولم يعتقد بالإسلام في باطنه.

فتبعث الحسين بن علي عليه السلام ـ عصارة النبوة وتذكار الولاية ـ وتستنهضه كي يضحي بنفسه وبأرواح أعزته فداءً لعقيدته ومن أجل أمة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله العظيمة كي تبقى دماؤه الطاهرة تغلي على امتداد التاريخ وتجري دفّاقةً لتروي شجرة دين الله وتصون الوحي وتحفظ معالم الدين.

لقد أثمرت شهادة سيد المظلومين وأتباع القرآن في عاشوراء خلود الإسلام وكتبت الحياة الأبدية للقرآن الكريم، إن الشهادة المأساوية والأسر الذي تعرض له آل الله عرّضت عروش اليزيديين وسلطتهم ـ التي أرادت محو أساس الوحي باسم الإسلام ـ إلى الفناء وإزاحة السفيانيين عن مسرح التاريخ إلى الأبد.

لقد حفر اليزيديون في يوم عاشوراء قبورهم بأيديهم الآثمة وتسببوا هم بهلاك أنفسهم ومحق نظام حكمهم الظالم المتعسف...

لقد قامت تلك الشخصية العظيمة التي نفذت من عصارة الوحي الإلهي وتربت في أحضان سيد الرسل محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسيد الأولياء علي المرتضى عليه السلام ونشأت وترعرعت في أحضان الصديقة الطاهرة عليها السلام، ونهضت وقدّمت التضحيات المنقطعة النظير فهزت ومن خلال تضحياتها وملحمتها الإلهية عروش الظالمين وحطمتها وأنقذت الإسلام عبر تلك الواقعة الكبرى.

لقد فجر سيد الشهداء عليه السلام نهضة عاشوراء العظيمة، فأنقذ ـ من خلال تضحيته العظيمة بدمه ودماء أعزته ـ الإسلام العدالة وقوّض أركان حكم بني أمية.

لولا تضحيات حرّاس الإسلام العظماء واستشهاد أنصار أبي عبدالله عليه السلام البطولي لشوهت صورة الإسلام على يد بني أمية من جرّاء تعسفهم وبطشهم، ولذهبت جهود النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحابه المضحين أدراج الرياح.

إن معظم الأئمة الأطهار عليهم السلام إما أنهم قتلوا أو تعرضوا لغير ذلك، لكن مدرستهم وخطّهم بقيا محفوظين. فسيد الشهداء عليه السلام قتل، لكن نهجه ومدرسته ظلت خالدة، بل إنه أحيى الإسلام بمقتله.

إن معظم أصحاب الحق قد غلبوا، لكن الدين بقي مصاناً محفوظاً. فسيد الشهداء عليه السلام قد قُتل وقُتل معه أصحابه وعشيرته لكنهم دفعوا عجلة الدين وقدموا له خدمة عظيمة، فالدين لم يتعرض بعملهم لهزيمة بل حقق تقدماً، أي أنه هزم بني أمية إلى الأبد.

لقد سعى بنو أمية في تشويه الإسلام والعمل خلافاً للموازين الإنسانية تحت غطاء الخلافة الإسلامية، فنهض سيد الشهداء عليه السلام وضحى بدمه فأطاح بذلك النظام الفاسد ودمره.

إن أولياء الله ينكسرون أيضاً، فلا شك أن أمير المؤمنين عليه السلام انكسر عسكرياً في حربه ضد معاوية[1]، ولا شك أن الإمام الحسين عليه السلام انكسر عسكرياً في حربه ضد يزيد، لكنهما في الحقيقة انتصرا، فما وقع كان هزيمةً ظاهريةً ونصراً حقيقياً.

إن الإسلام عزيز لدرجة جعلت الأئمة عليهم السلام من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله يضحون بأنفسهم من أجله. فسيد الشهداء عليه السلام قتل وأولئك الشبان والأنصار في سبيل الإسلام، فضحوا بأرواحهم وأحيوا الإسلام.

لقد خاض سيد الشهداء عليه السلام غِمار النضال والجهاد ضد الحكومة الطاغوتية التي كانت قائمةً آنذاك، واستشهاده لم يَضُرَّ بالإسلام بل خدم الإسلام ودفع به إلى الإمام، فلولا شهادته لكان معاوية وابنه قد تمكنا من إظهار الإسلام للعالم

---

(١) يقصد الإمام حرب صفين، إذ قام أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في بداية إمامته بعزل معاوية الذي كان يحكم الشام منذ زمن الخليفة الثاني.
وقد تمرد معاوية على هذا الأمر، وجمع الناس حوله بذريعة الثأر لعثمان وتحرك نحو الكوفة لمقاتلة الإمام. وتقابل الجيشان في منطقة بالقرب من نهر الفرات تسمى صفين. وتلاقى الجيشان ٩٠ مرة في هذه المعركة، ولجأ معاوية في النهاية إلى حيلة عمرو بن العاص عندما أحس بقرب هزيمته فأمر جيشه برفع المصاحف على الرماح والتحكيم ووقف الحرب.
أثرت خديعة عمرو بن العاص، وحصل اختلاف في جيش الإمام واضطروه إلى قبول التحكيم.
بدأت حرب صفين في شهر صفر من عام ٣٧ هجري قمري، واستمرت مدة ١١٠ يوماً. ومجموع القتلى في هذه المعركة هو ٧٠٠٠٠ شخصاً، وقتل من جيش معاوية ٤٥٠٠٠ نفر.

بشكل آخر تحت ستار خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وتحت غطاء الذهاب إلى المسجد وإقامة صلاة الجمعة وإقامة صلاة الجماعة وإمامتها.

كان معاوية وابنه يزعمان خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن حكومتهما حكومة الإسلام، لكن محتوى حكمهما كان غير ذلك، فلا الحكومة حكومة إسلامية ـ من حيث المحتوى والجوهر ـ ولا الحاكم حاكم إسلامي.

ولما رأى سيد الشهداء عليه السلام ما يقوم به هؤلاء من دور لمحو الإسلام وإعادة الوضع إلى ما كان عليه في الجاهلية، وإظهار الإسلام وكأنه نظير لما كان سائداً من الأوضاع في الجاهلية، تحرك عليه السلام وأحبط مساعيهم.

إن شهادة سيد الشهداء عليه السلام أحيت الدين، لقد استشهد هو وأحيا الإسلام ودفن النظام الطاغوتي لمعاوية وابنه يزيد، فشهادة سيد الشهداء عليه السلام لم تكن شيئاً مضراً بالإسلام، وإنما كانت لمصلحة الإسلام، فهي التي أحيته.

لولا سيد الشهداء عليه السلام لاستطاع هؤلاء تقوية وتدعيم نظامهم الطاغوتي ولأعادوا الوضع إلى ما كان عليه في الجاهلية، لولا هذه الثورة المباركة لكنا أنا وأنتم الآن مسلمين من النوع الطاغوتي لا على النهج الحسيني... لقد أنقذ الإمام الحسين عليه السلام الإسلام

لقد تعرض الإمام الحسين سلام الله عليه للهزيمة عسكرياً إلاّ أنّ النصر النهائي كان من نصيبه، فخطُّه ونهجه لم يُهزما بمقتله، بل إن عدوه هو الذي ذاق الهزيمة، وكان نصيبه الفناء، فقد كان معاوية يريد أن يحوّل حكومة

الإسلام إلى حكومة إمبراطورية ملكية ويعيد الأمور إلى ما كانت عليه في عصر الجاهلية، فنهض الإمام سيد الشهداء عليه السلام وأفشل مساعيه، ودُفن يزيد وأتباعه وظلت لعائن الناس تلاحقهم إلى الأبد كما انصبت عليهم اللعنة الإلهية أيضاً.

إن مجيء سيد الشهداء عليه السلام إلى مكة وخروجه منها[1] بتلك الحال يُعد حركةً سياسيةً كبيرةً. ففي الوقت الذي كان فيه الحجيج يدخلون مكة كان الحسين عليه السلام يغادرها، وهي حركةٌ سياسيةٌ، فكل سلوكات الحسين عليه السلام وأعماله كانت سياسية إسلامية، وهي التي قضت على بني أمية، ولولا تلك التحركات لسحق الإسلام وانتهى.

إن سيد الشهداء عليه السلام قد أنقذ الإسلام ووفّر له الوفاء والحماية على مدى الزمن.

لقد ورد في الرواية أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: **«حسين مني وأنا من حسين»**[2].

---

(١) غادر الإمام الحسين عليه السلام المدينة إلى مكة بعد أن امتنع عن مبايعة يزيد. وبعد أن أقام أربعة أشهر في مكة تحرك نحو الكوفة بسبب الدعوات التي استلمها عليه السلام من أهل الكوفة وبيعتهم له والظروف التي أوجدها عمال يزيد في مكة، وغادرها في اليوم الثامن من ذي الحجة عام ٦٠هـ ق رغم إقامة مراسم الحج. وخرج الإمام من مكة في وقت كان يتوجه إليها المسلمون من مناطق مختلفة للمشاركة في المراسم العبادية السياسية للحج.

(٢) روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: "حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً. حسينٌ سبطٌ من الأسباط". راجع الإرشاد للشيخ المفيد: ص: ٢٣٣.

ومعنى ذلك أن الحسين عليه السلام سيكون امتداداً لي ويحيا الدين الذي أُرسلتُ به على يديه. كل هذه من بركات شهادته، رغم أن العدو أراد أن يمحو آثار النبي صلى الله عليه وآله، فهم كانوا يقولون: "لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزِّل". كانوا يريدون قلع الإسلام من جذوره واستئصال بني هاشم وإقامة دولة عربية قومية.

لقد ضحى الإمام الحسين عليه السلام بنفسه وبجميع أبنائه وأقربائه، فقوي الإسلام بشهادته.

صحيح أن سيد الشهداء عليه السلام قد قُتل لكنه لم يُهزم ولم يندحر، بل إنه ألحق الهزيمة النّكراء ببني أمية بحيث أنه سلبهم القدرة على فعل أي شيء حتى النهاية.

لقد انتصر الدم على السيف انتصاراً ترون آثاره باقية حتى اليوم، حيث ظل النصر حليفاً لسيد الشهداء عليه السلام، بينما الهزيمة ليزيد وأتباعه.

كان سيد الشهداء عليه السلام على حق، ونهض بثلة قليلة من الأنصار ونال منزلة الشهادة هو وأبناؤه لكنه أحيى الإسلام وأذلّ يزيد وبني أمية.

لقد نهض سيد الشهداء سلام الله عليه بعدد قليل من الأصحاب وثلة قليلة من أرحامه ومخدراته من نساء بني هاشم، ولأن قيامه كان لله فإنه حطّم تلك الحكومة الملكية، وصحيح أنه قُتل غير أنه قلع الحكم الملكي من الجذور، فقد كانت تلك الحكومات تحول الإسلام إلى سلطة طاغوتية ملكية.

من يرد أن يعمل لله، فليس في عمله هزيمةٌ مطلقاً، ونحن حتى لو قتلنا فإننا لن نهزم فسيد الشهداء عليه السلام قتل أيضاً ولكن هل هزم؟ كلا، فلواؤه اليوم مرفرف خفاق في حين لم يبق ليزيد أثر يذكر.

العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية*

الشهيد الشيخ مرتضى المطهري

---

*بحث مستل من كتاب "الملحمة الحسينية - ج٢" للشهيد الشيخ مرتضى المطهري قدس سره - من كبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين - ط٣ - مطبعة اسماعيليان - قم - ١٤١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إنّ بحثنا يتناول عامل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في النهضة الحسينية، ولا بد منذ البداية من السؤال عمّا إذا كان هذا العامل مؤثراً في النهضة الحسينية أصلاً، أم لا؟

بعبارة أخرى ينبغي التساؤل فيما إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العوامل التي دفعت بالحسين بن علي عليه السلام للقيام والثورة أم لا؟

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٦ محرم من العام ١٣٩٠هـ

(٢) التوبة: ١١١ـ١١٢.

ومن ثم ثانياً مدى تأثير مثل هذا العامل؟

الكل يعرف أنّ فلسفة إقامة العزاء، وإحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام، التي يوصينا الأئمة الأطهار بالمداومة عليها، عاماً بعد عام، إنّما هي فلسفة تربوية، يُقصد منها التعلُّم، وإدراك المعارف، من ذلك الدرس التاريخي الكبير جداً.

وحتى يستطيع الإنسان الاستفادة من أي درس، لابد له أولاً من فهم ذلك الدرس جيداً واستيعابه تماماً.

سأتحدث إليكم عن مجموع العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية بشكل مجمل، ثم أعرّج بكم للحديث عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، باعتباره العامل الأساس لهذه النهضة. وسأتناول هذا الموضوع بالتفصيل، والشرح المسهب والموسع، إن شاء الله...

ففي هذه الواقعة تواجهنا قضايا عديدة:

فمرة هناك قضية أخذ البيعة ليزيد، وامتناع الإمام عليه السلام عن هذه البيعة.

وهناك قضية دعوة أهل الكوفة للإمام وقبول الإمام لهذه الدعوة.

وفي مكان آخر من الحدث، نرى أنّ حديث الإمام لا يتناول بأيّ شكل من الأشكال قضية البيعة، وامتناعه عليه السلام عن المبايعة، كما أنه لا يتطرق بالمرة إلى موضوع دعوة أهل الكوفة له، ومبايعتهم له، بل إنّ حديثه يتطرق على العموم إلى الأوضاع الحكومية الفاسدة، وبالتالي فإنه يوجه النقد اللازم لوضع حكومة العصر، وكيف أنها تحاول تغيير ماهية الإسلام، ويُبين مدى تحول الحرام إلى حلال، والحلال إلى حرام، وأخيراً تذكير الناس بواجبهم

الإسلامي في مواجهة مثل تلك الأوضاع وضرورة عدم الرضوخ لها أو السكوت عليها.

وهنا نرى أنّ الإمام لا يتطرق إلى موضوع البيعة، ولا إلى موضوع دعوة أهل الكوفة. وكأنه ليس هناك مسألة باسم البيعة ليزيد، ولا قضية باسم دعوة أهل الكوفة له.

فأين يكمن السبب إذن في حصول النهضة؟ هل المسألة مسألة البيعة؟ أو إنّ القضية هي قضية الدعوة التي تلقاها من أهل الكوفة؟ أو إنها، لا هذه ولا تلك، بل إنها مسألة المعارضة والنقد؟ أم شيوع المنكرات وضرورة محاربتها؟

فأية قضية من تلك القضايا كانت الباعث الحقيقي؟ وكيف نبرر هذه الحالة وما هو تفسيرنا لها؟ ثم ما هو الفرق الواضح والبيّن الذي يمكن عرضه بين عصر الإمام، أي عصر حكومة يزيد مع العصور التي ما قبلها؟ لا سيما مع عصر معاوية الذي صالحة الإمام الحسن عليه السلام في حين إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم تكن لديه أية نية للصلح مع يزيد، كما أنه لم يكن يجيز لنفسه مثل هذا الصلح.

والحقيقة إن كل هذه العوامل مجتمعة كانت مؤثرة. أي إنّ هذه العوامل كانت موجودة بأجمعها. وإنّ الإمام الحسين عليه السلام قد أبدى ردود فعله المناسبة تجاه كل عامل من هذه العوامل. فجزء من تحركه استند في الواقع إلى موقف الامتناع عن البيعة ليزيد، في حين أنّ بعض قراراته قامت على أساس دعوة أهل الكوفة له، بينما كان البعض الآخر يقوم على أساس

محاربة الفساد والمنكر الذي كان شائعاً على كل حال في ذلك الزمان.

كل هذه العوامل كانت مؤثرة في واقعة كربلاء، تلك الواقعة التي هي عبارة عن مجموع ردود الفعل والقرارات التي تم اتخاذها من قبل الوجود القدسي العظيم لأبي عبد الله الحسين عليه السلام.

في البداية سنبحث موضوع البيعة، ومدى تأثيرها في الواقعة، وردّ الفعل المعاكس الذي أظهره الإمام مقابل مطالبتهم إياه بمبايعة يزيد، والتكليف الذي كان يحمله الإمام مقابل هذه البيعة؟

كلنا يعرف كيف وصل معاوية بن أبي سفيان إلى رأس الهرم في السلطة، وتربع على كرسي الخلافة. وقد اضطر الإمام إلى التوقيع على معاهدة مؤقتة مع معاوية، لم يعترف فيها له بمشروعية الخلافة، أو الحكم، وإنما على أساس تخلّيه عليه السلام عن الحكم له مؤقتاً، مقابل تعهد معاوية بإفساح المجال للمسلمين بانتخاب الحاكم الذي يرغبون بانتخابه خليفة على المسلمين.

وبعبارة أخرى إفساح المجال للمسلمين بانتخاب من يرونه صالحاً، وكفؤاً للخلافة، ممن عيّنهم النبي الأكرم2 للولاية من بعده.

وكلنا يعرف أيضاً بأنه حتى عهد معاوية كانت مسألة الخلافة والحكم خارجة عن نطاق الوراثة تماماً، ورأي المسلمين بشأنها ينقسم إلى قسمين.

قسم يرى بأنّ الخلافة من حق ذلك الشخص الذي عيّنه النبي بأمر من الله سبحانه و تعالى للخلافة.

وقسم يقول بحق الناس في انتخاب الخليفة المناسب.

ولكن على كل حال لم يكن مطروحاً بعدُ أن من حق الخليفة الحاكم تعيين الخليفة الذي يليه، وبالتالي فرضه على الناس ولياً للعهد من بعده، وأنّ هذا الأخير يعينّ الذي يليه، وهكذا دواليك... وبالتالي خروج مسألة الخلافة من دائرة البحث فيما إذا كان الأمر يعود لنص النبي الأكرم، أو حق المسلمين في انتخاب الحاكم المناسب.

إنّ أحد بنود اتفاقية الصلح، التي عقدها الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، والتي لم يعمل بها معاوية، بل ونقضها صراحةً (تماماً كما عمل مع بقية البنود)، كان ينص على عدم وجود أي حق لمعاوية في تعيين مصير المسلمين من بعده، ولذلك تراه يتآمر في قتل الحسن، عن طريق تسميمه، حتى لا يبقى أثر أو شاهد على هذه الاتفاقية، أو بالأحرى يتم القضاء على المدعي في هذا النزاع.

فالحسن كان يريد القول من خلال اتفاقية الصلح: إنّ معاوية شر أصاب المسلمين، وها نحن قد تجرّعناه، ولكن الأمر بعده لا بد وأن يعود بيد المسلمين، وفي كل الأحوال ليس بيد معاوية.

لكن معاوية، وكما يؤكد المؤرخون، كان يسعى منذ اليوم الأول، لجعل الخلافة تصبح نوعاً من أنواع السلطنة، ومن ثم ضمان بقائها في عائلته، وقومه، فلا تخرج أبداً من عشيرته.

لكنه كان يعرف قبل غيره بأنّ هذا الأمر لم يكن بالأمر الهيّن، ولا توجد له الأرضية المساعدة. ولذلك تراه كان يفكر كثيراً حول هذا الموضوع، ويتشاور مع أصحابه، وأعوانه خاصة، لكنه لم يكن يتجرأ بالإعلان عن

نواياه الحقيقية تلك إذ إنه لم يكن يتصوّر أن يكون مشروعه مشروعاً عملياً.

المؤرخون يكتبون في هذا المجال، بأنّ الذي شجّع معاوية، وأدخل الاطمئنان إلى قلبه بإمكانية تحقيق مثل هذا الحلم، هو (المغيرة بن شعبة) الذي كان بدوره يبحث عن تأمين ولاية الكوفة لنفسه، لا سيما وأنه كان والياً على الكوفة في الماضي، غير أنّ معاوية كان قد أصدر لتوه أمراً بعزله عنها، مما أزعج المغيرة كثيراً.

والمغيرة هذا معروف عنه بأنه من شياطين القوم ومُخططي العرب ودهاتها.

فهو ومن أجل العودة مجدداً إلى كرسي الولاية، فقد ذهب إلى الشام، والتقى بيزيد بن معاوية، وقال له:

لا أدري ماذا ينتظر معاوية، ولماذا يتماهل بشأن ولاية العهد؟

فقال له يزيد: إنّ أبي يتصور بأنّ هذا الأمر ليس عملياً.

فقال: بلى، إنه عملي، فممّن تخافون؟ وأين تتصورون أنّ الناس سوف لن تتجاوب معكم؟

فالناس في الشام مطيعة لأمر معاوية وتعليماته، وأما المدينة فأنا أنصحكم بإرسال فلان إليها، وهو قادر على تنفيذ هذه المهمة لكم. يبقى المكان الأخطر والأهم، من كل مكان آخر، وهو العراق (الكوفة) وهذه المهمة اتركوها لي فأنا كفيل بها.

ويذهب يزيد إلى معاوية، ويخبره بما يقوله المغيرة بهذا الخصوص، فيطلب معاوية المغيرة ليتحدث إليه.

ومن خلال المنطق القوي الذي يحمله المغيرة، يستطيع إقناع معاوية بأنّ الأرضية مهيأة لطرح فكرة ولاية العهد، وأنّ المشكل الوحيد الذي سيواجه هذا الطرح هو موقف أهل الكوفة الذي هو بدوره على استعداد لحله، ومواجهة صعابه.

وهنا يقرر معاوية تولية المغيرة على الكوفة مرة أخرى. (كل هذا يحدث بالطبع بعد شهادة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، والذي يصادف في السنين الأخيرة من عهد معاوية) والحكاية متشعبة كثيراً.

ولكن يمكن تلخيص ما جرى كما يلي:

أهل الكوفة والمدينة لم يقبلوا بالفكرة، وأجبر معاوية على الذهاب بنفسه إلى المدينة وهناك دعا وجهاء المدينة، أي أولئك النفر الذين يحترمهم الناس فيها، ويجلون شخصياتهم، وهم الحسين بن علي عليه السلام، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر، وطلب إليهم بلسان معسول، الموافقة على فكرة حكومة يزيد، من خلال طرح فكرة المصلحة الإسلامية العامة التي تتطلب مبايعة يزيد للحكم والخلافة ظاهرياً، على أن يكون الحكم الحقيقي والفعلي بيد هؤلاء الوجهاء الثلاثة، وذلك من أجل المحافظة على وحدة المجتمع، ودفع الاختلاف بين الناس.

لكنه فشل في إقناعهم بفكرة مبايعة يزيد، وبالتالي فإن الأمور لم تسر على الشكل الذي أراد له معاوية أن يتم، حتى بعد استخدامه أسلوب الخداع، والمكر، والاحتيال، وذلك من خلال محاولة إعطاء الانطباع للناس، في مسجد المدينة، بقبول هؤلاء الثلاثة، بفكرة البيعة ليزيد، الأمر

الذي لم يتم تحقيقه، والوصول إليه كذلك.

إنّ معاوية كان قلقاً جداً بشأن مستقبل ابنه يزيد، وقد قدم إليه بعض النصائح في أيام عمره الأخيرة عندما قال له:

تصرف هكذا مع عبدالله بن الزبير لأخذ البيعة منه وتصرف هكذا مع عبدالله بن عمر لنفس الغرض، ولكن إيّاك أن تتصرف بخشونة وعنف مع الحسين بن علي عليه السلام!! بل ونصحه باستخدام الرفق واللين معه تماماً، وأضاف:

إنه ابن النبي، وإنّ له مكانة عظيمة عند المسلمين، فإياك واستخدام الخشونة مع الحسين بن علي.

إنّ معاوية كان يعي جيداً ويعرف تماماً بأنّ معاملة يزيد للإمام الحسين بخشونة، وتلطيخ يديه بدم الحسين، كان يعني سلب الخلافة من يزيد، وضياعها بسرعة، وخروج الخلافة من عشيرة آل سفيان نهائياً.

لقد كان معاوية رجلاً داهية، وكانت تنبؤاته مثل كل تنبؤات السياسيين الآخرين، غالباً ما تصدق على الواقع، أي إنه كان رجلاً يستوعب حركة الأمور جيداً، وقادراً على قراءة المستقبل بشكل جيد.

على العكس تماماً مما كان ابنه يزيد، فهو شاب مغرور أولاً، ورجل أمارة مدلّل، قضى أيام شبابه في حياة البذخ والقصور، ولم يخرج من دائرة اللهو واللعب والأنس، وهو لم تكن لديه حاسة الإدراك والشم السياسي، وقد تسلطت عليه وغلبته آفات الغرور؛ غرور الشباب، والسلطة، والثروة، والشهوة...

بعد أن توفي معاوية في (الخامس عشر من شهر رجب من العام الستين للهجرة)، أرسل ابنه يزيد رسالة إلى حاكم المدينة، الذي كان من بني أمية. يخبره فيها بموت معاوية، ويطلب منه أخذ البيعة له من الناس.

لقد كان يعرف بالضبط أنّ المدينة مركز الدولة الإسلامية، وأنّ الناس جميعاً يشخصون بأبصارهم إلى المركز، ولذا تراه يبعث إليه برسالة أخرى معها يطلب إليه فيها استدعاء الحسين بن علي، وأخذ البيعة منه، وأن يبعث إليه برأس الحسين في حالة رفضه للبيعة.

وبناء عليه، فإنّ إحدى القضايا التي كانت تواجه الإمام الحسين، هي طلب البيعة ليزيد بن معاوية بتلك الصورة التي مر ذكرها، والتي علاوة على كل المفاسد الأخرى، فإنّ مفسدتين خاصتين تبرزان هنا، لم تكونا موجودتين حتى مع معاوية.

إحداهما هي أنّ البيعة مع يزيد كانت تعني إضفاء المشروعية على الخلافة الوراثية من قبل الإمام الحسين، أي إنّ موضوع الخلافة لم يعد موضوع الموافقة على فرد معين، بقدر ما كانت تعني الموافقة على مبدأ الخلافة الوراثية.

والمفسدة الثانية كانت تتعلق بشخص يزيد بالذات، الذي كان وضعه يختلف عن وضع كل الأزمنة والعصور الأخرى، فهو لم يكن رجلاً فاسقاً وفاجراً فحسب، بل إنه كان يتظاهر بالفسق، ويجهر بفساده و فجوره، ويفتقد مع ذلك إلى الكفاءة، واللياقة السياسية تماماً...

ان يزيد بن معاوية كان يشرب الخمرة علنا في المجالس الرسمية،

ويسكر حتى الثمالة، ثم يبدأ بالهذيان الكامل. كتب المؤرخون جميعاً عنه: أنّه كان يُمارس هواية ملاعبة القردة و... لقد كان يملك قرداً سمّاه أبا قيس، وكان يحبه كثيراً.

ولّما كانت أمّه من أهل البادية، وقد نشأ هو أيضاً في البادية، ولذلك تراه يحمل عادات و أخلاق أهل البادية حيث كان يحب كثيراً القردة والكلاب و... ويأنس لمعاشرتهم.

وفي هذا الخصوص ينقل المسعودي في (مروج الذهب) أنه ـ أي يزيد ـ كان يُلبس القرد الألبسة الحريرية الفاخرة والجميلة، ويجلسه كثيراً إلى جانبه أكثر مما يُجلس رجال الدولة والجيش! حتى قال الإمام الحسين عليه السلام عنه:

«**وعلى الإسلام السلام إذْ قد بُليت الأمة براع مثل يزيد**»[1].

فهناك فرق بينه وبين الحكام الآخرين: فهذا الشخص وجوده بحد ذاته كان يُمثّل حرباً على الإسلام.

ومثل هذا الشخص يُراد من الإمام الحسين عليه السلام أن يُبايعه! وطبيعي أنْ يمتنع الإمام عن البيعة ويقول: «**مثلي لا يبايع مثله أبداً**». وأهل الحكم من طرفهم أصروا على طلب البيعة.

وهذه الحالة كانت تُمثّل عاملاً من عوامل النهضة الحسينية، ولهذا فإن الحكم كان مُصراً على ضرورة حصول المبايعة من قبل الحُسين عليه السلام

---

(١) مقتل المقرم ص: ١٤٦.

بالذات. (وعندما يرفض رجل مثل الحسين أن يبايع يعني أنه قد قرر الوقوف بوجه الحكم والسلطان، وصار بالتالي من رجال المعارضة).

وعليه فإنهم لم يكونوا على استعداد أن يروا الحسين يسيرُ حُراً بين الناس، وهو لم يُبايع الحاكم الجديد، لأن عدم البيعة هذه كانت تُشكّل خطراً على نظام الحكم العتيد.

وقد شخصوا الموقف تشخيصاً سليماً لأن الأمر كان يعني هذا بل وأكثر من هذا: فعدم مبايعة الإمام كانت لا تعني المخالفة والاعتراض على الحكم فحسب، بل تعني أنّ طاعة يزيد ليست واجبة على الناس، وإنما الواجب يستدعي الاعتراض على الحكم الجديد.

لقد كانوا يُصرّون على البيعة، وهو كان يُصرّ على عدم البيعة.

والآن ماذا كان مطلوباً حقاً من الإمام عليه السلام في مقابل هذا الإصرار والإلحاح على البيعة؟

الحقيقة أنه لم يكن أمامه أيّ تكليف آخر، غير تكليف رفض البيعة.

إذاً هل تبايع؟ كلاّ.

إنْ لم تبايع سَتُقْتَل!

مستعدّ للموت ولن أرضخ للبيعة مهما كلّف الأمر.

كان هذا هو رد الفعل الطبيعي الوحيد المتوقع من الإمام الحسين عليه السلام.

حاكم المدينة وهو أحد أفراد بني أمية طلب أن يأتوا إليه بالإمام. (طبعاً لا بد من القول إنّ أغلب أفراد بني أمية من العناصر الفاسدة، لكن هذا الرجل كان يختلف بعض الشيء عن الآخرين) وفي تلك الأثناء كان الإمام

في مسجد النبي في المدينة، وكان إلى جانبه عبدالله بن الزبير.

رسول الحاكم الذي جاء إلى المسجد، وأبلغ الاثنين استدعاء الحاكم لهما، عاد من حيث أتى ليُبلِّغ سيده أنهما في الطريق إليه.

وفيما هما جالسان يُفكران بسبب الاستدعاء، سأل عبد الله بن الزبير الإمام قائلاً:

وماذا تظن يكون سبب استدعاء الحاكم لنا في هذا الظرف؟

فيجيبه الإمام: «**أظنُ أن طاغِيَتُهم قد هلك...**» وأنه يطلب منا مبايعة الحاكم الجديد.

فرد عبد الله بن الزبير إن حدسك بمحله، وأنا أظن كذلك، فماذا أنت فاعل؟

فقال الإمام سأذهب إليه، وماذا تفعل أنت؟

سأرى...

عبدالله بن الزبير، خرج مع ظلام تلك الليلة، وفر إلى مكة، هرباً من لقاء حاكم المدينة، وتحصّن هناك بالحرم المكي.

أما الإمامعليه السلام فقد ذهب إلى الحاكم، مصطحباً معه عدداً من شباب بني هاشم، وقال لهم: انتظروني هنا في الخارج، فإذا سمعتم صوتي قد علا، ادخلوا علينا، وفي غير ذلك لا تدخلوا علينا.

مروان بن الحكم، حاكم المدينة السابق، وهو من الأمويين المشهورين

بالفساد، كان حاضراً في المجلس أيضاً[1]. حاكم المدينة استقبل الإمام بقراءة الرسالة العلنية التي وصلته من يزيد، بشأن خبر موت معاوية.

ولَما أنهى الرسالة قال له الإمام: وماذا تريد مني؟

فرد عليه الحاكم بلغة لطيفة، في محاولة منه لكسب ود الإمام، بأنّ الناس قد بايعت يزيد الحاكم الجديد، وأن رأي معاوية كان كذلك أيضاً، والمصلحة الإسلامية تستدعي مبايعة الجميع... ولذا أرجو أن تبايع أنت بدورك فتكون المصلحة الإسلامية قد تحققت بعملك هذا.

ثم أضاف بأنّ أوامر الإمام ستكون مطاعة إن شاء الله، وأن كل النقائص سيتم رفعها، وأنّ الأمور ستسير على ما يرام إن شاء الله.

فقال له الإمام: ولماذا أنتم تريدون البيعة مني؟ هل تريدونها من أجل الناس؟ فأنتم لا تريدونها من أجل الله قطعاً! كما أن الموقف الشرعي لا يهمكم أيضاً، فأنتم لستم بفكر شرعية الخلافة، أو عدم شرعيتها، حتى تريدوا مبايعتي مثلاً كي تصبح شرعية، إنكم تريدون البيعة مني حتى تواجهوا الناس بهذه الحقيقة وتجبروهم على المبايعة، أليس كذلك؟

فقال له حاكم المدينة نعم. إنه كذلك.

فقال الإمام: إذاً لا فائدة من بيعتي لكم في هذه الحجرة المغلقة حيث لا أحد يشهد المبايعة سوى نحن الثلاثة.

فرد الحاكم عندها مقتنعاً بقول الإمام، وموافقا على تأجيلها إلى وقت آخر.

---

(١) لقد حكم هذا الرجل المدينة مدة طويلة وقد عمّر فيها كثيراً. فهناك عين ماءٍ لا زالت تجري مياهها حتى اليوم وهي من أعمال مروان بن الحكم في المدينة.

وهنا نهض الإمام مستئذناً بالخروج فوافق الحاكم، لكن مروان بن الحكم انتبه هنا لحركة الإمام، فخاطب حاكم المدينة على الفور، محذراً إياه من عاقبة خروج الحسين دون مبايعة، وقال له: إن خروجه من هنا دون مبايعة يعني أنه سوف لن يبايع، ولذا ينبغي عليك تنفيذ تعليمات الخليفة.

فأخذ الإمام مروان بن الحكم من رقبته، ورفعه إلى الأعلى، ثم شدّة بقوة نحو الأرض، وقال له:

إنك أصغر من هذا!!

وخرج الإمام من عند الحاكم دون أن يبايع للخليفة الجديد، وبقي ثلاثة أيام في المدينة، كان يذهب خلالها كل ليلة لزيارة قبر النبي2، ويجلس عند رأس مدفن النبي، ويدعو ربه قائلاً: ربي افتح لي طريقاً يكون فيه رضاك.

في الليلة الثالثة، وبينما كان الإمام عند مدفن رأس الرسولﷺ، وأثناء انشغاله بالدعاء، والتهجد، والبكاء، والبكاء، فإذا به يستسلم إلى النوم، فيرى النبي الأكرم في عالم الرؤيا، ويكون هذا الحُلم بالنسبة له بمثابة الوحي، والإلهام الربّاني القادم إليه عبر جده.

ولّما طلع فجر اليوم التالي غادرعليه السلام المدينة متوجهاً نحو مكة سالكاً الطريق الرئيسية، وليس الطريق الثانوية.

فجاء بعض أصحابه يعاتبونه على سلوكه لهذه الطريق قائلين له:

يا بن رسول الله! لو تنكبت الطريق الأعظم، لكان أفضل لك، مثلاً، فقد يواجهك الحاكم بجنده، أو رجال أمنه في الطريق، فُيجبروك على الرجوع،

ويسبّبوا لك المصاعب، وقد تحصل بعض المواجهات؟ (ولكن الروح الشجاعة، والقوية، والمقتدرة، لا تقبل بالرضوخ لمثل تلك التعليلات أبداً)

فيقول لهم عليه السلام: إنني لا أريد أن أظهر بمظهر المتمرد والفار، ولذلك فإنني أسلك الطريق العام، وليكن ما يريده الله ويشاؤه، فرضانا من رضا الله.

على كل حال، يمكن القول بأنّ القضية الأولى والعامل الأول في الواقعة الحسينية، وهو العامل الذي لا تردد في صحة سنده التاريخي، هو عامل البيعة، تلك البيعة التي طلبت من الإمام الحسين عليه السلام، من قبل يزيد، وهو ما جاء في النص التاريخي المؤكد، حيث جاء في رسالة يزيد الخاصة إلى حاكم المدينة:

خُذ الحسين بالبيعة أخذاً شديداً[1].

لكن الإمام الحسين عليه السلام قد وقف بشدة أيضاً بوجه هذه المطالب، فهو لم يكن على استعداد للمبايعة بأي شكل مع يزيد، وجوابه كان سلبياً، منذ اللحظة الأولى وحتى الأيام الأخيرة من عمره الشريف، حيث جاء إليه عمر بن سعد محاولاً مفاوضته بشأن الصلح مع يزيد، ذلك الصلح الذي كان يعني البيعة دون أية مواربة.

لكن الإمام لم يكن على استعداد أبداً كما أسلفنا، وكما جاء في خطبته يوم العاشر من محرم، يبدو واضحاً تماماً، بأنه ظل مستقيماً وثابتاً في موقفه الذي أعلنه في اليوم الأول عند حاكم المدينة.

فكلامه في هذا المجال صريح للغاية حيث يقول في عاشوراء:

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص: ١٤٠.

«**والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ إقرار العبيد**»[1]. أي إنني لن أبايع، أو أمد يدي لمبايعة يزيد، تحت كل الظروف، مهما ساءت. حتى وإن كانت الظروف المرافقة لقتلي وقتل أحبتي. وأصحابي، وأعواني، وأسر أهلي وعشيرتي.

ومتى برز مثل هذا العامل إلى الوجود؟ منذ القسم الأخير من عهد معاوية، إلاّ أنّ اشتداده، وفوريته، لم تبرزا إلا بعد موت معاوية، وصعود يزيد إلى سدة الخلافة.

أمّا العامل الثاني: فهو عامل الدعوة، وربما تكونون قد قرأتم في بعض الكتب عن هذا الموضوع لا سيما في كتب التاريخ المدرسية التي توزع على تلاميذ المدارس في بلادنا هنا! فهم يكتبون هكذا بأنه، ومع دخول العام الستين للهجرة فقد مات معاوية، ثم كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين يدعونه لقبول منصب الخلافة الذي اختاروه له، وأن الإمام الحسين توجّه بالفعل إلى الكوفة، إلاّ أنّ عدم الوفاء والغدر الذي أبداه أهلها تجاه إمامهم، وعدم معاونتهم له في المهمة، أدى إلى مقتله!

فعندما يقرأ الإنسان مثل هذا التاريخ، يُخيّل إليه أنّ الإمام الحسين ليس سوى رجل هاديء كان جالساً في بيته بِدعَة واطمئنان، ولا دخل له بشأن أحد من الناس، ولا يُفكّر بأي موضوع كان، وأن الشيء الوحيد الذي حرّكه عن تلك الدعة، وذلك الاسترخاء هو دعوة أهل الكوفة له!

في حين أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان قد بدأ حركته منذ أواخر شهر

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص: ٢٣٥.

رجب، وذلك في أوائل حكومة يزيد، عندما خرج من المدينة قاصداً مكة، حيث الحرم الإلهي الآمن الذي يوفر الأمن والفضل، وبالإضافة إلى الاحترام الكبير الذي يُبديه المسلمون تجاه ذلك المكان المقدس، الأمر الذي يُجبر أجهزة السلطة على احترام ذلك المكان (وهي الأيام الأولى التي أعقبت موت معاوية، الخبر الذي ربما لم يكن قد وصلت أصداؤه بعد إلى الكوفة).

واختيار الإمام لمكة إذاً لم يكن بسبب موقعيتها الأمنية فحسب، بل بسبب مركزها الاجتماعي ـ السياسي المهم أيضاً ـ حيث صادف كل ذلك مع اقتراب مواسم العمرة والحج.

في شهري رجب وشعبان، حيث أيام العمرة، يتقاطر الناس من الأطراف والأكناف، إلى مكة، فيصبح بالإمكان إرشاد الناس، ووعظهم، بنحو أفضل من سائر فصول العام.

ثم بعد ذلك يأتي موسم الحج، الفرصة مؤاتية أكثر من ذي قبل للتبليغ والدعاية.

بعد مرور حوالي شهرين على مغادرته للمدينة، وصلت رسائل أهل الكوفة إليه. فرسائل أهل الكوفة وكتبهم لم تصل إلى المدينة، والحسين عليه السلام في مقابل ذلك انطلق في حركته الجهادية العامة من المدينة.

إذاً رسائل أهل الكوفة وصلت إلى الإمام وهو في مكة، أي بعد أن كان قد اتخذ من قبل قراره بالامتناع عن مبايعة يزيد، وهو القرار الذي كان قد وضع الإمام في المواجهة والخطر.

والإمام نفسه، كان يعرف كما يعرف الجميع بأن السلطة لم تكن على استعداد للتسامح معه بشأن البيعة، وفي المقابل، فإنه هو كذلك، لم يكن على استعداد للتراجع عن موقفه الرافض للبيعة، ومعنى ذلك أن دعوة أهل الكوفة للإمام ليست العامل الأساس في نهضة الإمام، بل كانت عاملا ثانوياً، وأكثر ما يمكن القول فيها إن مثل هذه الدعوة قد أعطت للإمام، وهيأت له، من ناحية حكم التاريخ والشعب في المستقبل، ظروفاً مناسبة للاستمرار في النهضة.

لقد كانت الكوفة آنذاك ولاية كبيرة من ولايات الدولة الإسلامية، ومركز الجيش الإسلامي[1]. وهذه المدينة التي أسسها عمر بن الخطاب ما هي في الواقع إلاّ مدينة عسكرية، كان لها تأثير كبير للغاية في مصير البلاد الإسلامية آنذاك، ولو ظل أهل الكوفة على عهدهم مع الإمام لكان احتمال نجاح نهضته الفوري عليه السلام، كبيراً جداً.

إنّ الكوفة آنذاك لم تكن تُقارن بالمدينة أو مكة، لا بل وحتى بخراسان، وإن منافستها الوحيدة هي الشام، وإن الحد الأكثر لتأثير عامل دعوة أهل الكوفة في النهضة الحسينية، تمثّل في شكل النهضة وهيئتها العامة، أي أن ينتقل مركز النهضة إليها بدلاً من أن يبقى في مكة ولكن لا بد من القول إنّ مكة كانت موقعا خطرا، ولم يكن بالإمكان تحويلها إلى مركز التحرك الحسيني. نعم فقد رفض عليه السلام اقتراح ابن عباس بالذهاب إلى اليمن، والاحتماء بجبالها، كما ترك مدينة جده وراءه، وتوجه إلى الكوفة، كل

(١) كان هناك مركزان للقوة في الدولة الإسلامية آنذاك هما: الكوفة والشام.

هذا يعني أن دعوة أهل الكوفة لعبت دور العامل الفرعي في التحرك الحسيني بحيث ينتقل التحرك إلى العراق، ولم تكن الدعوة عاملاً أساسياً في حصول التحرك والنهضة.

عندما يصل الإمام إلى حدود الكوفة، يصطدم بجيش الحر بن يزيد الرياحي، فيقول لأهل الكوفة: بأنكم دعوتموني فإنْ تراجعتم عن دعوتكم عدتُ من حيث أتيت.

ولم يكن معنى هذا أن الإمام كان يقصد بذلك تخلّيه عن التحرك، والقبول بمبايعة يزيد، والتخلّي عن كل ما قاله في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشيوع الفساد، والواجب المُلقى على عاتق المسلمين في مثل تلك الظروف، وبالتالي الجلوس في البيت، والسكوت عن كل تلك المنكرات.

أبداً، فالإمام كان رأيه واضحاً، فالحكومة غير صالحة، والواجب يتطلب مناهضتها، ولّما كان أهل الكوفة قد دعوه لينتقل في التحرك إلى الكوفة، فلا بد له من الذهاب إليها. فأهل الكوفة قالوا: بنصرة الحسين! وإنهم مستعدون لدعمه ومساعدته، في تحركه المناهض للبيعة ليزيد، والمطالب بالعمل بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي دعوة لنصرة معارضته، ونهضته، وثورته.

ولذا فإن الإمام جاء إلى من أعلنوا النصرة، ووعدوه بها، فإن هم تراجعوا عنها، فإنه سيعود إلى مركزه الأصلي، أي إلى المدينة، والحجاز، أو مكة، وليفعل الله ما يشاء بمستقبل النهضة.

فعلى أي حال ليس هناك أي مجال للبيعة مع يزيد، حتى وإن أدى ذلك إلى القتل.

وعليه يمكن القول بأنّ الحد الأكثر لتأثير هذا العامل، أي دعوة أهل الكوفة، هو سحبهم للإمام من مكة نحو الكوفة...

العامل الثالث للنهضة الحسينية هو عامل الأمر بالمعروف، وهذا بدوره يبرز في نص كلام الإمام، وفي هذا الشأن يذكر لنا التاريخ بأن محمد بن الحنفية، وهو شقيق الإمام الحسين عليه السلام، كان في تلك الأيام قد أصيب بشلل في يديه، وأنه أصبح غير قادر على الجهاد، ولذا فإنّ الحسين عليه السلام يتركه وراءه، ويكتب له كتاباً يوصيه قائلاً: «**هذا ما أوصى به الحسين بن علي أخاهُ محمداً المعروف بابن الحنفية**».

وهنا نرى الإمام يُقسم بوحدانية الله، ورسالة النبي (ذلك أن الإمام يعرف بأنّ البعض سيُشيع حوله بأنه قد خرج من دين جده)، ويمضي في حديثه حتى يصل إلى الحديث عن السبب الكامن وراء نهضته فيقول:

«**إني ما خرجتُ أشراً، ولا بطراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، إنما خرجتُ لِطَلَب الإصلاح في أمةِ جدي، أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي. وأبي علي بن أبي طالب**»[1]

حيث ترون أنّ المسألة ليست مسألة دعوة أهل الكوفة، بل وليست كذلك الامتناع عن البيعة، يعني أنّ الأمر كان يتعدى طلب البيعة منه

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ج: ١ ص: ١٨٨.

وامتناعه عليه السلام عن المبايعة، ومعنى ذلك أنهم حتى لو لم يطلبوا منه البيعة لم يكن ليهدأ أو يسكت على ما كان يجري. وليعرف العالم:... «**ما خرجت أشراً ولا بطراً**»...

فالحسين بن علي لم يكن يطلب الجاه، ولا السلطان، أو الثروة، ولم يكن كذلك رجلاً مُفسداً، أو مُخلاً بالأمن والنظام، أو ظالماً، بل إنّه ذلك الإنسان الُمصلح الذي يُريد الإصلاح في أمة جده...

«**ألا وإنّ الدعيَّ، قد ركَّز بين اثنتين، بين السِّلة والذِّلة، وهيهات منّا الذلة! يأبى الله لنا ذلك، ورسوله، والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطَهُرتْ**»[1].

إنّ هذه الروح ظلَّت تتجلى في وجود الحسين بن علي، وشخصيته المقدسة، منذ اليوم الأول حتى اللحظات ألاخيرة من عمره، ولم يكن بالإمكان أن تُفارق الإمام أو تنفصل عنه.

ففي اللحظات الأخيرة من حياته الشريفة، كان أبو عبد الله الحسين عليه السلام، وهو في تلك الحفرة القاتلة، حيث قد فقد القدرة على الحركة، والقدرة على محاربة العدو، والقدرة على الوقوف على رجليه، يتجلّى عزةً، ويمتلئ حديثه غيرةً، ويتعاظم وجوده ويتألق كبرياء وجلالاً، لقد كان الجُند يُريدون قطع رأسه عن بدنه، لكن الشجاعة والهيبة اللتين خبروهما تماماً تمنعانهم من ذلك.

كان البعض يقول: عسى أن لا يكون الحسين قد ابتدع حيلةً حربية

---

(١) تحف العقول ص: ٢٤١.

جديدة، حتى يستطيع الإغارة على كل من يحمل عليه، ويُنهي مقاومته أمامه، فيبدأون بالتخطيط لعمل دنيء وجبان يتلخص: بالهجوم على خيامه، زاعمين أنه سوف لن يتمكن من الدفاع عن الحرم، وفعلاً يُهاجم الجند خيام حرم الإمام، فيرتفع صوت أحدهم في هذه الأثناء صارخاً:

وهل أنت حيٌ يا حسين؟! إنهم هاجموا مخيم الحرم!

وهنا ينهض الإمام بقوة، ولكن بصعوبة على ركبتيه، ثم يسند قسميه العلوي على حربته وينادي عالياً:

«**ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دين، ولا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم**»[١].

فيرد عليه أحدهم: ما تقول يا بن فاطمة؟

فيرد عليه الإمام قائلاً: «**أنا أقاتلكم، وأنتم تقاتلونني، والنساء ليس عليهُنّ جناح**».

نعم فهذا بدن الحسين أمامكم، مزّقوه ما استطعتم بالسيوف والحراب، لكن روح الحسين الحية لا تقبل أن يقترب أحدكم من خيام حرمه...

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) اللهوف ص: ٥٠.

من وحي الطف*

دلالات وتوجيهات

السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم

---

* البحث مطبوع بكتاب يحمل نفس العنوان للسيد محمد سعيد الحكيم حفظه الله ـ من مراجع التقليد والفقهاء المعاصرين من النجف الأشرف ـ ط٢ ـ لعام ١٤٢٥ ـ قم ـ دار الهلال.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة: ١١١

صدق الله العلي العظيم

نرفع تعازينا ـ ونحن نستقبل شهر محرم الحرام شهر التضحية والفداء في سبيل الإسلام ـ إلى النبي الأعظمﷺ، وإلى آله المظلومينعليهم السلام، ولاسيما بقية الله في الأرض وإمام العصر الإمام المهدي المنتظرعليه السلام.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويجعلنا من أنصاره وأعوانه، حينما يأذن له بأخذ ثأره من الظالمين، ويطهر الأرض منهم، ويملؤها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

وبعد..

فنحن نستقبل هذه الأيام موسماً من المواسم الدينية العظمى ذات الطابع العقائدي والجهادي والعاطفي والتاريخي.

وإذا كان قد تعذر علينا أن نتحدث للمؤمنين عنه علناً في عهد النظام السابق نظام الظلم والطغيان ومصادرة الحريات وانتهاك الحرمات ـ ذلك النظام الذي نصب العداء لأهل البيت عليهم السلام ولشيعتهم ومواليهم ـ فنرى لزاماً علينا أن نتحدث للمؤمنين عنه الآن بعد زوال ذلك الكابوس الخانق، حيث يأخذ المؤمنون وفقهم الله تعالى فيه حريتهم، ويسعهم أن يمارسوا نشاطاتهم التي حرموا من كثير منها مدة طويلة في عهد ذلك النظام. وإن استطاعوا الحفاظ على كثير من تلك النشاطات بصبر وتصميم، وإرادة صلبة على طول المدة وشدة المحنة، متحدّين طغيان النظام وغطرسته وقمعه وقسوته.

حتى انتهى الأمر في كثير من الحالات إلى مواجهات عنيفة ومصادمات دامية وتضحيات غالية ليست غريبة على هذه الطائفة التي استهدفت من قبل الطغاة والمنحرفين، وتعودت على المزيد من التحدّيات و المواجهات، وقدّمت الكثير من الخسائر والتضحيات، عبر تاريخها الطويل، من أجل الدعوة إلى الله تعالى، والتزام خط أهل البيت عليهم السلام، والإنكار على الظالمين وتعريتهم، ورفض انحرافهم وبدعهم.

فشكر الله تعالى لتلك النفوس المؤمنة جهودها وجهادها، ورفع درجات الماضين منهم وألحقهم بأوليائهم الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين)، ووفق من بقي منهم للمضي في ذلك الطريق و ممارسة تلك الأنشطة على

أفضل الوجوه وأكملها، بعد أن منّ الله تعالى عليهم، فقمع عدوهم وأذلّه، وأعاد لهم حريتهم بعد طول عناء وشدة بلاء.

وصدق الله عز وجل حيث يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[1].

وحيث يقول: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[2].

وبعد كل ذلك فيحسن بنا أن نتعرض في حديثنا هذا لأمور:

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

الأمر الأول: أنّ حزن شيعة أهل البيت (وفقهم الله تعالى وأعزهم) بمناسبة مقتل سيد الشهداء الإمام الحسين (صلوات الله عليه)، وسائر مصائب أهل البيت عليهم السلام، وإحياء مراسم العزاء وإقامة شعائره، والإغراق في ذلك وتحرّي المناسبات له، ليست أموراً اعتباطية جرّهم إليها التعصب والشقاق، ولا هي عادات محضة أخذوها عن أسلافهم وجروا عليها تقليداً لهم، كسائر التقاليد والعادات التي تزاولها بعض المجتمعات، والتي ما أنزل الله بها من سلطان. وإنما هي نشاطات لها جذور دينية أصيلة، وقد قامت عليها أدلة محكمة رصينة، أخبتوا لها وتحملوا من أجلها ما تحملوا من مصاعب ومصائب.

فكما ألزمتهم الأدلة القاطعة بالتأسي برسول الله صلى الله عليه وآله والقبول منه، والتمسك بأهل بيته (صلوات الله عليهم) والائتمام بهم في دينهم، كذلك قد حَمَلهم النبي والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) بأقوالهم وسلوكهم على التعامل مع تلك الأحداث الفجيعة بهذا النحو من التعامل.

فقد استفاض عن النبي صلى الله عليه وآله في أحاديث الفريقين أنه أخبر عن ظلامة أهل بيته (صلوات الله عليهم)، ولاسيما الإمام الحسين عليه السلام، وذكَر مصائبهم

فأكثر من البكاء عليها قبل وقوعها[١]. وكذلك الحال في أمير المؤمنين عليه السلام[٢].

بل بكت الأنبياء عليهم السلام على الإمام الحسين عليه السلام في أعماق التأريخ[٣]. وبكته بعد مقتله الأرض والسماء دماً، كما روى ذلك الفريقان[٤]. بل ورد أن جميع الموجودات قد بكته[٥] في تفاصيل لا يسعنا سردها[٦].

وقد عدّ في النصوص من البكّائين الصديقة الطاهرة الزهراء عليها السلام، لأنها أكثرت من البكاء على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، والإمام زين العابدين عليه السلام،

---

(١) انظر: كامل الزيارات: ١٢٧، مسند أحمد ٣: ٢٤٢، مجمع الزوائد ٩: ٨٨١

(٢) كتاب صفين: ١٤٠.

(٣) كامل الزيارات: ١٣٧.

(٤) منها ما أخرجه الطبري وغيره من بكاء السماء على الحسين عليه السلام، انظر: جامع البيان للطبري ٢٥: ١٦٠، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ١٤. ومنها ما عن الزهري انه لم ترفع حصاة في بيت المقدس إلا ووجد تحتها دم عبيط، قال ابن حجر: رواه الطبراني ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٩: ١٩٩. ومنها ما جاء في نوح الجن الذي رواه جمع منهم الطبراني في المعجم الكبير ٣: ٢٢١، وأخرجه في مجمع الزوائد ٩: ١٩٩، معلقاً عليه بقوله: «ورجاله رجال الصحيح». وعن أبي جناب الكلبي قال أتيت كربلاء فقلت لرجل من أشراف العرب بها: بلغني أنكم تسمعون نوح الجن؟ قال: ما تلقى حراً ولا عبداً إلا أخبرك أنه سمع ذاك...»، انظر: البداية والنهاية ٨: ٢١٧، تهذيب الكمال ٦: ٤٤١، سير أعلام النبلاء ٣: ٢١٦، وغيرها.

(٥) كامل الزيارات: ١٧٩.

(٦) روى البيهقي بأسناده عن أبي قبيل قال: لما قتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) كسفت الشمس كسفة بدت الكواكب نصف النهار. (السنن الكبرى ٣: ٣٣٧) .

لأنه أكثر من البكاء على أبيه الحسين عليه السلام[(١)].

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «**إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني العبرة لذلك**»[(٢)].

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام عنه عليه السلام قال: «**وكان جدي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه**»[(٣)].

وفي حديث أبي عمارة المنشد قال: «ما ذكر الحسين بن علي عليهما السلام عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام فرُئيَ أبو عبد الله ذلك اليوم متبسماً إلى الليل»[(٤)].

وكان هو وبقية الأئمة عليهم السلام يتحرّون المناسبات للحديث عن تلك الفجائع، والبكاء عليها، والحثّ على ذلك، وعلى إقامة المجالس المذكّرة بها. وما أكثر المآتم التي كانوا يقيمونها عليهم السلام بأنفسهم حينما يفد الشعراء عليهم ليذكروا مصائبهم.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ولقد شققن الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي. وعلى مثله تلطم الخدود وتشق الجيوب**»[(٥)].

---

(١) الخصال: ٣٧٢، الأمالي للصدوق: ٢٠٤.

(٢) الخصال: ٣٧٢، الأمالي للصدوق: ٢٠٤.

(٣) كامل الزيارات: ١٦٨، ٢١٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تهذيب الأحكام ٨: ٣٢٥.

وعنه عليه السلام: «**إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليهما السلام فإنه فيه مأجور**»(١).

وفي دعائه عليه السلام الطويل لزوار الحسين عليه السلام: «**اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم بخروجهم، فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشمس... وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا...**»(٢).

وفي حديث مسمع كردين البصري بعد أن وصف حزنه على الحسين عليه السلام، قال له أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**رحم الله دمعتك، أما انك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا، ويأمنون إذا آمنا، أما انك سترى عند موتك حضور آبائي لك ووصيتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، وملك الموت أرق عليك واشد رحمة لك من الام الشفيقة على ولدها.**

قال: ثم استعبر واستعبرت معه، فقال: **الحمد لله الذي فضلنا على خلقه بالرحمة، وخصنا أهل البيت بالرحمة...**»(٣).

وفي حديث الريان بن شبيب عن الإمام الرضا عليه السلام انه قال ـ في حديث ـ: «**يا بن شبيب إن سرك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان فاحزن لحزننا وافرح لفرحنا وعليك بولايتنا فلو ان رجلاً أحب حجراً**

(١) كامل الزيارات: ٢٠١.

(٢) كامل الزيارات: ٢٢٩، ٢٠٣.

(٣) كامل الزيارات: ٢٢٩، ٢٠٣.

لحشره الله عز وجل معه يوم القيامة»[١].

وفي المأثور عنهم عليهم السلام: «**شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا، يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا**»[٢].

إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة. وقد خُصّصت كتب كثيرة لجمعه وتبويبه بنحو يسهل التعرف عليه.

وحقيق بشيعة أهل البيت، بل بالمسلمين عامة، أن يتعرّفوا على الكمّ الهائل مما ورد في ذلك. ولاسيما بعد أن صار في المتناول وسهل التعرف عليه بسبب حملة الطبع والنشر الحديثة. ليكونوا بذلك على بصيرة من الأمر، وتتجلى لهم هذه الحقيقة، وليعرفوا أنهم لم يؤدوا بعد ولا يؤدون حق ذلك مهما جهدوا.

على أن النظرة الموضوعية البعيدة عن التعصب لتلك الأحداث الفجيعة تكفي في حمل المسلم على القيام بذلك والإغراق فيه.

لأن أهل البيت ليسوا أناساً عاديين. بل هم القمة في القدسية والطهارة وسمو الذات، والفناء في الله تعالى والجهاد في سبيله. كما يشهد بذلك ما ورد في حقهم من الكتاب المجيد، وأحاديث الفريقين التي تتجاوز حد الإحصاء.

وقد أمر الله تعالى هذه الأمة بالتمسك بهم والرجوع لهم والائتمام بهم. وجعلهم أماناً لها من الضلال والانحراف والتفرق والاختلاف، وأوجب

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٩.

(٢) شجرة طوبى ١: ٣.

حبهم ومودتهم[١].

كما شرفهم بموقعهم من النبيصلى الله عليه وآله الهادي لهذه الأمة والمنقذ لها وصاحب الحق الأعظم عليها، فهم منه وهو منهم، يرضيه ما يرضيهم ويسخطه ما يسخطهم، سلمهم سلمه وحربهم حربه، ووليهم وليه وعدوهم عدوه[٢].

وكانصلى الله عليه وآله يضفي عليهم من مظاهر الحب والعطف والتكريم والتعظيم ما لا يستوعبه البيان، ويوصي أمته بهم، ويؤكد على أن تحفظه وترعى حقه فيهم.

ولكن الظالمين قد تجاهلوا ذلك كله واتخذوه وراءهم ظهرياً، وأقدموا على انتهاك حرمة أهل البيت وحرمة النبيصلى الله عليه وآله فيهم، فجدوا في ظلمهم قتلاً وأسراً ونهباً، وسجناً وتشريداً وتطريداً، بأفظع الوجوه وأقساها، وهتكوا حجابهم، ولم يقفوا في ذلك عند حدّ.

ويزيد في جريمة هذه المصائب أمور:

تحريف الظالمين

أحدها: أن الظالمين حاولوا وحاول أتباعهم إضفاء الشرعية على تلك الجرائم والظلامات واختلاق الأعذار لها و المبررات، وفتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه، تحريفاً للحقائق وتجاهلاً لها، حتى قيل عن فاجعة الطف

---

(١) انظر في رحاب العقيدة ١: ٢٢٤ / ٢: ١٩٩.

(٢) المصدر السابق.

على بشاعتها: إن الحسين قتل بسيف جده صلى الله عليه وآله[١]، وحتى بلغ الأمر أن اتخذ يوم عاشوراء عيداً في كثير من بلاد الإسلام.

سبب المصائب

ثانيها: أن ما وقع على أهل البيت (صلوات الله عليهم) إنما كان بسبب انحراف الحكم والسلطة في الإسلام عن المسار الصحيح الذي أراده الله تعالى، لحفظ دينه ونشر العدل في بلاده، ذلك الانحراف الذي يعاني منه المسلمون حتى اليوم الأمرّين، في بعدهم عن الإسلام، واستهانتهم بحدوده وأحكامه، وتحللهم عن مُثُله وأخلاقياته، وفي اختلافهم في دينهم، وتشرذمهم وتفرقهم وضرب بعضهم لبعض، وضعفهم ووهنهم وهوانهم، واكتساح الأعداء لهم... إلى غير ذلك مما لا يحتاج إلى بيان.

زهد أهل البيت عليهم السلام بالدنيا

ثالثها: أن أهل البيت (صلوات الله عليهم) مع أنهم أصحاب الحق، ومن حقهم المطالبة به، إلا أنهم لم يقفوا في وجه الظالمين من أجل استرجاع حقهم رغبة منهم في الدنيا وحباً للحكم والسلطان، بل من أجل خير الإسلام والمسلمين، والحفاظ على حدود الله تعالى وأحكامه، وصلاح

(١) قال المناوي في فيض القدير: «وقد غلب على ابن العربي الغض من أهل البيت حتى قال قتله بسيف جده». وقال في موضع آخر: «وليس ذلك بأول عجرفة لهذا المفتي وجرأته وإقدامه فقد ألف كتابا في شأن مولانا الحسين رضي الله عنه وكرم وجهه، وأخزى شانئه زعم فيه أن يزيد قتله بحق بسيف جده، نعوذ بالله من الخذلان»، ج ١: ٢٦٥/ ج ٥: ٢١٣.

عباده، ونشر العدل في بلاده، كما استفاض ذلك في أحاديثهم، وظهر من مواقفهم وسيرتهم.

يقول أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه): «**اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك**»(١).

ويقول الإمام الحسين عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية: «**وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين**»(٢).

وقال عليه السلام في خطبته لأصحابه لما نزل كربلاء: «**ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله...**»(٣)... إلى غير ذلك من تصريحاتهم صلوات الله عليهم وما هو المعلوم من واقعهم.

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٣، خطبة ١٣١.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٣) تاريخ دمشق ١٤: ٢١٧.

أما خصومهم فتطغى على سلوكهم وأحاديثهم روح الاستعلاء والغلبة والاستغلال والظلم والتحلل والاستهتار بأفظع وجوهها، كما هو أظهر من أن يحتاج إلى بيان.

ونتيجة لاختلاف الأهداف اختلفت الوسائل، فكانت المثالية والخلق السامي الصفة الظاهرة في وسائل أهل البيت (صلوات الله عليهم)، وتميزت وسائل الآخرين بالاستهتار والاستغلال والمكر والخديعة، وغير ذلك من مظاهر التدهور للحضيض.

فحينما امتنع جماعة من بيعة أمير المؤمنين عليه السلام تركهم وشأنهم ولم يجبرهم على بيعته، كما فعل غيره، وقد قال صلوات الله عليه: «**قد يرى الحوّل القُلّب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله فيدعها رأي العين، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين**»[١].

ويشير عليه بعض خواصه أن يتألف الوجوه والرؤساء بالأموال فيقول: «**أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟! لا والله لا أطور به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجماً**»[٢].

وحينما أراد الإمام الحسين عليه السلام الخروج إلى العراق خطب الناس في مكة وأعلمهم بمصيره المحتوم، ثم قال: «**ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطِّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا...**»[٣].

---

(١) نهج البلاغة ١: ٩٢، خطبة ٤١.

(٢) المصدر السابق ٢: ٦، خطبة ١٢٩.

(٣) كشف الغمة ٢: ٢٣٩.

وكذا الحال لمّا بلغه في الطريق قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر، وخذلان الناس له، خطب أصحابه وكان قد تبعه بعد خروجه من مكة خلق كثير، فأخبرهم بذلك، وأذن لمن شاء أن ينصرف، فتفرق الناس عنه، ولم يبق معه إلا من خرج معه من مكة[١].

كل ذلك لأنه لا يريد إغفال الناس وإحراجهم، بل يريد أن يعرفوا على ماذا يقدمون، ويقتصر على أهل البصائر منهم الذي يوطنون أنفسهم على الموت... إلى غير ذلك من مواقفهم عليهم السلام المثالية.

أما خصومهم فهم على النقيض من ذلك، كما هو أظهر من أن يحتاج للبيان. ويكفي قول معاوية في خطبته حينما دخل الكوفة: «ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا. وقد أعرف أنكم تفعلون ذلك. ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون»[٢].

وقال عن شروط الصلح التي أعطاها للإمام الحسن عليه السلام: «ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به»[٣].

وبذلك يكون الصراع في حقيقته بين الحق والدين والاستقامة من جانب والباطل والانحراف والتحلل من الجانب الآخر، وكانت مصائب أهل البيت (صلوات الله عليهم) وظلاماتهم في حقيقتها مصائب الحق والدين والأخلاق والمثل، وظلم لجميع ذلك.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٠، البداية والنهاية ٨: ١٨٢.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٤١٠، تاريخ دمشق ٩٥: ١٥٠.

(٣) مقاتل الطالبيين: ٤٥.

ومن ثم حق لأهل البيت (صلوات الله عليهم) أن يكونوا ثأراً لله تعالى، كما ورد في زيارة الحسين: «**السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره والوتر الموتور**»[(١)].

هذه هي الدوافع والمبررات لموقف الشيعة من الظلامات والمصائب والفجائع التي نزلت بأهل البيت صلوات الله عليهم، وتعاملهم معها، ولا أظن المنصف بعد ذلك يلومهم على ذلك.

---

(١) كامل الزيارات: ٣٢٨.

الأمر الثاني: قد أكدنا في مناسبات مختلفة على أهمية إحياء أمر أهل البيت (صلوات الله عليهم) بزيارة مشاهدهم الشريفة، وبإحياء مناسباتهم في مواليدهم واستشهادهم.

وقد أطلنا الكلام في ذلك في رسالتنا التي وجهناها للشعب العراقي بعد سقوط النظام.

وحان الوقت لأن يأخذ المؤمنون ـ بعد انحسار النظام السابق ـ حريتهم في مزاولة نشاطاتهم المختلفة، وإبداء مشاعرهم وعواطفهم المتأججة نحو أهل البيت (صلوات الله عليهم)، خصوصاً في هذا الموسم العظيم، موسم الصرخة من أجل أهل البيت عليهم السلام في مأساتهم الكبرى، وملحمتهم العظمى المضمخة بالدماء الزكية.

ونحن في الوقت الذي نشجع على تلك الأنشطة ونؤكد على أهميتها نلفت أنظار المؤمنين عامة إلى أنه ينبغي لهم:

الحذر من كيد الأعداء

أولاً: أن يكونوا على حذر من كيد الأعداء والمفسدين الذين يستغفلون الناس ويقومون بأعمالهم التخريبية التي ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء.

فعلى المؤمنين عامة أن لا يكون انشغالهم بنشاطاتهم المذكورة وتفاعلهم معها بنحو يغفلهم عمّا يراد بهم، فينفذ المفسدون بينهم ويخترقوهم، ويقضوا مآربهم الإجرامية فيهم، بل يكونوا على مزيد من الحذر واليقظة والانضباط، ويستنفروا طاقاتهم في مراقبة المفسدين وتعقبهم، ويتعاونوا مع الجهات المسؤولة لحفظ الأمن والاستقرار. مع المزيد من التوكل على الله تعالى، والتوسل إليه ببركة أهل البيت (صلوات الله عليهم) في أن يسددهم في ذلك ويحوطهم برعايته وعنايته، ويكفيهم شر الظالمين، ويرد كيد المعتدين والباغين إلى نحورهم. إنه الرؤوف بالمؤمنين الرحيم بهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الشعور بوحدة الهدف

وثانياً: أن يشعروا أنفسهم عند القيام بهذه الأنشطة المباركة بوحدة الهدف وشرف الغاية وقدسيتها بسبب انتسابها لأهل البيت (صلوات الله عليهم)، الذين هم القمة في الكمال والفناء في ذات الله تعالى، ليكون ذلك محفزاً لهم على جمع كلمتهم وتثبيت ألفتهم وأخوتهم، وغض النظر عن بعض الهفوات العفوية التي قد تصدر من بعضهم.

ويترفعوا عن المباهات والمفاخرة و التسابق والتناحر، حيث قد يحاول

الشيطان الرجيم أن يلقيها في روعهم ويزرعها في صدورهم، ليذهب ببهاء عملهم ويحبط أجرهم، ويفرق كلمتهم، ويشتت جمعهم، ويلقي بأسهم بينهم. وليتعوذوا بالله تعالى من كيده وشره ووسوسته وخدعه وغروره وفتنته. فإن ﴿الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١).

المحافظة على الطابع الديني

وثالثاً: أن يحافظوا في تلك الأنشطة على طابعها الديني والروحاني، وذلك بالحفاظ على حدود الله تعالى، وإقامة الفرائض عند حلول أوقاتها، وحسن الخلق، وحفظ اللسان، وصدق اللهجة، وغير ذلك، مما يناسب قدسيتها وانتسابها لأهل البيت (صلوات الله عليهم).

ولاسيما أن هذه الأنشطة والفعاليات تثقل على كثير من الناس ـ من الأعداء والمنحرفين ـ وهم يحاولون بجهدهم منعها. وإذا لم يستطيعوا منعها بالقوة يحاولون تتبع العثرات واستغلال الثغرات، وبث الدعايات الكاذبة، وتضخيم ذلك من أجل تهجين هذه الأنشطة وتبشيع صورتها وتنفير الناس عنها، بنحو قد يبرر منعها، أو تحديدها وتقليصها.

ونأمل بالمؤمنين وفقهم الله تعالى أن يحولوا دون ذلك بسلوكهم وانضباطهم وحسن تصرفهم وتعاملهم مع الأحداث ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

---

(١) فاطر: ٥.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

ورابعاً: أن الهدف من هذه الأنشطة لما كان هو الانشداد لأهل البيت (صلوات الله عليهم)، وأداء حقهم، ومواساتهم في أحزانهم وأفراحهم، فاللازم التركيز على هذا الهدف النبيل وعدم إغفاله.

وإذا أراد بعض الأشخاص أن يبدع ويجدد فيما يتعلق بهذه النشاطات ـ كاختراع الأدوار في إنشاد الأشعار، ورفع اللافتات ونحو ذلك ـ فعليه أن يجعل إبداعه وتجديده لخدمة هذا الهدف والتركيز عليه، ولا يكون همه الإبداع من أجل الفن والتجديد، من دون اهتمام بالهدف المذكور. فضلاً عما إذا كان يخل به، ويسير باتجاه اللهو والترف، والتفاخر، ونحو ذلك.

ولاستيضاح الحال، وتمييز المبدع لهدفه، عليه أن يلتفت إلى حاله لو فرض مشاركة أحد المعصومين ـ كالصديقة الزهراء (صلوات الله عليها) والإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) ـ ويرى بوجدانه هل أن التجديد والإنتاج الذي يزاوله يتناسب مع حضورهم (صلوات الله عليهم) أو لا يتناسب؟ فإنهم (سلام الله عليهم) إن لم يحضروا فلا أقل من أن يطلعوا على نشاطات شيعتهم وأعمالهم هذه ويشرفوا عليها.

ولاسيما إمام العصر (عجل الله فرجه) الذي ورد في نصوص كثيرة أن أعمال الشيعة تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وعليه[1].

فاللازم اختيار ما هو الأنسب بنهجهم والأقرب لرضاهم، والأدعى لحضورهم ومشاركتهم. والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك محيط، وهو على كل شيء رقيب شهيد.

---

(١) الكافي ١: ٢١٩.

الأمر الثالث: أن شيعة أهل البيت (رفع الله تعالى شأنهم) يملكون ـ ببركة أئمتهم (صلوات الله عليهم) وبفضل توجيهاتهم ـ تجمعات ثقافية لا يملكها غيرهم، وهي التجمعات التي يعقدونها كثيراً في المناسبات التي تخص أهل البيت (صلوات الله عليهم) في مواليدهم وأفراحهم واستشهادهم وأحزانهم. وهم يبذلون في سبيلها طاقات مادية ومعنوية هائلة.

وتمتاز هذه التجمعات بأنها تجمعات طوعية، يندفعون إليها وينشدّون لها تبعاً لروابطهم الدينية، المشفوعة بمزيد من التقديس والعاطفة، والمبتنية على ما تجذر في أعماقهم من الولاء لأهل البيت (صلوات الله عليهم). ونتيجة لذلك فهم يتفاعلون مع تلك التجمعات، ومع ما يلقى فيها من مواد تثقيفية تتناسب معها.

ومن هنا فاللازم أن يفوزوا بثمرات مناسبة لذلك في تثقيفهم دينياً، وشدهم عاطفياً نحو مبدئهم ورموزه الذين هم القمة في الكمال والقدسية والفناء في الله تعالى والتضحية في سبيله.

وليس من الإنصاف أن تكون نتيجة هذه التجمعات أحاديث وخطابات شكلية غير مثمرة، وتذهب تلك الجهود ضياعاً. فضلاً عن أن تبتني عن الانحراف عن الأهداف السامية التي أقيمت لها تلك التجمعات، ودعا لها أئمتنا صلوات الله عليهم، وحثوا شيعتهم عليها.

وإن من أهم هذه المناسبات واقعة الطف الكبرى، لما امتازت به من التضحيات الجسام من سيد الشهداء والصفوة من أهل بيته وصحبه (صلوات الله عليهم)، وتضمخت به من دمائهم الزكية، مشفوعة بالإباء والكرامة والمثاليات السامية والخلق الرفيع. وكان في مقابل ذلك من خصومهم المزيد من الظلم والطغيان والبشاعة والقسوة والخسة والإسفاف في الهبوط إلى الحضيض.

ومن ثم كان شهر محرم الحرام من أهم مواسم أهل البيت (صلوات الله عليهم) وشيعتهم، التي تعيد لمبادئهم الرفيعة حيويتها، وتجدد لها نشاطها على مرّ العصور وتعاقب الأجيال، والتي تُسمِع صوتهم للعالم في دعوتهم للحق وإنكارهم على الباطل، وصرختهم في وجه الظلم والطغيان.

وعلى المبلغين والخطباء (سددهم الله تعالى) في هذا الموسم الشريف أن يُشعروا أبناء هذا البلد العزيز بواجبهم في هذه الظروف الحرجة، ويحملوهم على إشغال الساحة، والحذر من أن يُستغفلوا ويُغلبوا على أمرهم وتُهضم حقوقهم، وأن يحافظوا على وحدة كلمتهم وألفتهم.

أما فيما يخص وظيفتهم التثقيفية والتبليغية في مناسبات أهل البيت (صلوات الله عليهم) عامة وهذه المناسبة خاصة فعليهم:

أولاً: أن يجدّوا في تثقيف المؤمنين بأمور دينهم وتعريفهم بخصوصيات الأحكام الشرعية وتفاصيلها، لحاجتهم عموماً لذلك، لأهميته في الواقع الديني العملي، وعدم تيسر الإطلاع على هذه الأمور والإلمام بها لولا التعليم المستمر والتثقيف المركز.

ويزيد الأمر أهمية في هذا البلد العزيز، نتيجة الفراغ الهائل، بسبب موقف النظام السابق في عهده الطويل من هذا الأمر، ومحاربته له بوجه مبرمج مدروس، ومحاولة اجتثاثه من جذوره، لولا عناية الله تعالى ورعايته.

التركيز على الجانب العقائدي

وثانياً: أن يركزوا على الجانب العقائدي. ولاسيما ما يتعلق برفعة مقام أهل البيت (صلوات الله عليهم) عند الله، وما ورد في حقهم في الكتاب المجيد والسنة النبوية الشريفة، وما طفح به التاريخ من ثباتهم على الحق، وتمسكهم بالمثاليات ومكارم الأخلاق، ورفضهم للظلم والباطل. مع التأكيد على خسة خصومهم وعدوانهم، وبشاعة جرائمهم، وسوء سيرتهم وسلوكهم.

فإن لذلك أعظم الأثر في شدّ الناس بعقولهم وقلوبهم وعواطفهم نحو أهل البيت (صلوات الله عليهم) ونحو مبادئهم الرفيعة وتمسكهم بها، ونفرتهم من الظلم والظالمين ومن أتباعهم، وإنكارهم عليهم. وذلك من أهم شؤون العقيدة الحقة.

والمؤمنون وإن كانوا ملمّين بذلك في الجملة، إلاّ أن كثيراً منهم في غفلة عن تفاصيل ذلك، وعن أدلته، فاللازم أن يستوضحوا التفاصيل وتتركز الأدلة في نفوسهم، ليزدادوا بصيرة في دينهم، وليتسلحوا بالمناعة ضدّ موجة التشكيك والخصومة التي يملك الدافعون لها قدرات إعلامية هائلة لا تسهل مجاراتها.

التركيز على الظلامة

وثالثاً: التركيز ـ ولاسيما من الخطباء ـ على ظلامة أهل البيت (صلوات الله عليهم) ومصائبهم، وعلى بشاعة ما جرى عليهم من الظالمين، والتفجع لذلك، على اختلاف أساليب الكلام ـ نظماً ونثراً ـ من أجل استثارة العاطفة واستدرار الدمعة، وتخصيص قسم معتد به من المحاضرة والحديث لذلك.

لأن لذلك أعظم الأثر في شدّ الناس نحو أهل البيت (صلوات الله عليهم)، وتنفرهم من أعدائهم وقد أكد على ذلك أئمتنا (صلوات الله عليهم) قولاً وعملاً بوجه مذهل، لا يدع مقالاً لقائل، ولا عذراً لمعتذر. ولا يسعنا التعرض لما ورد عنهم في ذلك، لأنه فوق حدّ الإحصاء.

ويحسن بالخطيب والمبلغ التعرض لما يتيسر له من أحاديثهم وما ورد عنهم في ذلك، حسب اختلاف المقامات، لأنه أوقع في التفجع وأدعى للدمعة، تأسياً بهم وتفاعلاً معهم (صلوات الله عليهم).

التأكيد على الاستشهاد بالقرآن والسنة

ورابعاً: محاولة ربط المعلومة التي يلقيها المبلغ والخطيب في الجانب العقائدي والتربوي والعاطفي بما ورد في الكتاب المجيد وأحاديث النبي وأهل بيته عليهم السلام، ليشعر السامع بأنه قد أخذها من الأصول الأصيلة والمنابع الصافية، وليست هي تخرصات واجتهادات، أو تقليديات ما أنزل الله بها من سلطان. ولذلك أعظم الأثر في سكون النفوس للمعلومة التي يتحدث عنها المتحدث، وانشداد الناس نحوها، وتركزها في نفوسهم وتفاعلهم معها.

بل يحسن الإكثار من تطعيم الحديث الذي يلقيه الخطيب والمبلغ بالآيات الكريمة، وبما ورد عن النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين)، من خطب وأحاديث وأدعية، لا من أجل الاستدلال بها فحسب، بل من أجل شدّ السامع لحديث المبلغ والخطيب وتجاوبه معه، لأن تلك النصوص الشريفة تمتاز بالقدسية والروحانية، مع فصاحة وبلاغة، وقوة ورصانة، وسمو وجمال، ورونق وبهاء.

ومن ثم تكاد تكون معجزة تشهد برفعة مقام قائليها (صلوات الله عليهم) وجلالة شأنهم وعظم خطرهم. كما أنها وسام شرف لشيعتهم وأوليائهم، يمتازون به عن غيرهم، ويشهد بصدق انتسابهم لأهل البيت (صلوات الله عليهم) وتشرفهم بالأخذ منهم، حيث خصّوهم عليهم السلام بها وأودعوها عندهم، فرعوها ووعوها، ووفقوا لحفظها ونشرها وتعريف الناس بها.

الأمر الرابع: يشيع من أهل الحديث من الفريقين والمؤرخين عامة عرض حادثة الطف الفجيعة والحديث عنها.

ولهم في ذلك اتجاهان:

التخطيط بشري

أولهما: أن التخطيط لها كان بشرياً، وأن الإمام الحسين صلوات الله عليه قد خطط للثورة وفق قناعاته وحساباته المادية من أجل الاستيلاء على السلطة. وقد حاول بخروجه تنفيذ مخططه، إلا أنه لم يتسن له ما أراد، لخطئه في تقييم الأوضاع التي عاشها، وحزم خصومه، وخيانة من دعاه وتعهد بنصره، حتى انتهى الأمر إلى قتله وقتل من معه والإجهاض على مشروعه، كما توقع ذلك كثير من أهل الرأي، ونصحه كثير منهم ـ من أجل ذلك ـ بعدم الخروج.

وهذا هو الذي يظهر من كثير ممن تعرض لحادثة الطف.

التخطيط للنهضة الهي

ثانيهما: أن التخطيط لها إلهي، وأن الله سبحانه وتعالى قد عهد للإمام الحسين (صلوات الله عليه)، وأمره بتنفيذ مشروع ينتهي باستشهاده واستشهاد من معه وجميع ما حدث من مآس وفجائع. كل ذلك لمصالح عظمى تناسب حجم التضحية وأهميتها قد علم الله تعالى بها. وربما ظهر لنا بعضها.

وقد نجح صلوات الله عليه في مشروعه وحقق ما أراد. وأن من أشار عليه بعدم الخروج قد خفي عليهم وجه الحكمة، كما خفي على المسلمين وجه الحكمة في صلح الحديبية، فاستنكروه من النبي صلى الله عليه وآله، وكما خفي على كثير من أصحاب الإمام الحسن (صلوات الله عليه) وغيرهم، وجه الحكمة في صلحه لمعاوية، فأنكروا عليه... إلى غير ذلك من الأمور الغيبية التي قد يخفى وجهها، والناس أعداء ما جهلوا. بل قد يكونوا معذورين لجهلهم.

ونحن الشيعةَ حيث كنّا نؤمن بعصمة الإمام الحسين وسائر الأئمة (صلوات الله عليهم) لابد أن نتبنى التفسير الثاني للنهضة المباركة، ولجميع ما صدر من الأئمة (صلوات الله عليهم).

ومع ذلك فنصوصنا مستفيضة عن النبي والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) بما يؤكد التفسير المذكور. نكتفي منها بحديث العمري عن الإمام الصادق عليه السلام:

قال: «**إن الله عز وجل أنزل على نبيه صلى الله عليه وآله كتاباً قبل وفاته، فقال: يا محمد هذه وصيتك إلى النُجَبَة من أهلك... فدفعه النبي صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأمره أن يفك خاتماً منه ويعمل بما فيه، ففك**

أمير المؤمنين عليه السلام خاتماً وعمل بما فيه، ثم دفعه إلى ابنه الحسن عليه السلام، ففك خاتماً منه وعمل بما فيه، ثم دفعه إلى الحسين عليه السلام، ففك خاتماً فوجد فيه: أن اخرج بقوم إلى الشهادة، فلا شهادة لهم إلا معك، واشتر نفسك لله عز وجل، ففعل، ثم دفعه إلى علي بن الحسين عليه السلام...»[1].

بل نحن نرى أن التفسير الأول ظلم لسيد الشهداء (صلوات الله عليه) واستهوان بنهضته المقدسة ، لا من أجل اعتقادنا بعصمته، ولا من أجل الأحاديث التي أشرنا إليها، بل لأمرين:

النهضة لا تناسب الانتصار مادياً

أولهما: أن الظروف التي أحاطت بنهضته المباركة وخروجه من مكة المكرمة إلى العراق لا تناسب انتصاره مادياً. ولا أقل من أنها كانت تقتضي مزيداً من الاحتياط والتلبث، كما يشهد بذلك إجماع آراء من نصحه، فإنهم ذكروا لتوجيه آرائهم أموراً لا تخفى على كثير من الناس، فضلاً عن الإمام الحسين (صلوات الله عليه)، فإقدامه مع ذلك على تلك النهضة وما استدعته من تضحيات جسام لابد أن يكون لهدف آخر غير الانتصار المادي المنظور لهم.

---

(١) الكافي ١: ٢٨٠.

معرفة الحسين عليه السلام بالمصير المحتوم

ثانيهما: أن التاريخ الإسلامي العام قد تضمن كثيراً من الأمور التي تشهد بمعرفة الإمام الحسين (صلوات الله عليه) وكثير من الناس بالمصير الذي ينتظره، فقد استفاض عن النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ـ بل عن الإمام الحسين عليه السلام نفسه ـ الإخبار بمقتله في هذه النهضة، بل الإخبار ببعض تفاصيلها وخصوصياتها والتهيئة لذلك. فلو لم يكن موفقاً فيها لكان على النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام أن يحذراه من تلك النهضة، ويمنعاه منها، وما كان عليه السلام ليخالفهما في ذلك قطعاً، لما هو المعلوم من رشده ودينه وورعه.

بل ورد عنهما الأمر بنصره والتبكيت على خذلانه[1]، ولم يرد عنهما الأمر بنصحه بعدم الخروج ومنعه منه.

كما أنه يوجد في زوايا التاريخ بعض النكات التي تشهد بأن الحسين عليه السلام كان مصمماً على التضحية، ولا يريد التشبث بأسباب العافية والسلامة. ولا يسعنا تفصيل الكلام في ذلك في هذه العجالة.

---

(١) كما في أنس بن الحارث، قال ابن الأثير: «وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله من أهل الصفة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله والحسين في حجره يقول: ان ابني هذا يقتل في أرض يقال لها العراق، فمن أدركه فلينصره، فقتل أنس بن الحارث مع الحسين».
والبراء بن عازب قال له أمير المؤمنين عليه السلام يوماً: يا براء ، أيقتل الحسين وأنت حي فلا تنصره! فقال البراء: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين. فلما قتل الحسين عليه السلام كان البراء يذكر ذلك ، ويقول: أعظم بها حسره إذ لم أشهده وأقتل دونه. انظر: أسد الغابة ١: ٣٤٩، البداية والنهاية ٨: ٢١٧، تاريخ دمشق ٤١: ٢١٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٥.

ونكتفي بما أشار إليه عليه السلام وأجمله في كتابه من مكة المكرمة إلى من بقي من بني هاشم في المدينة، حيث قال فيه: «**أما بعد فإن من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح. والسلام**»[1].

وبذلك تتجلى عظمة الإمام الحسين (صلوات الله عليه) وروح التضحية التي يتحلى بها وقوة العزيمة والتصميم التي يحملها.

فإن المضحين غالباً إما أن يتشبثوا بأمل السلامة ونجاح المشروع الذي يخططون له فيشرعوا في تنفيذه ويدخلوا في المعركة، حتى إذا أخطؤوا وفشل مشروعهم أبت لهم كرامتهم وحميتهم التراجع والاستسلام من أجل السلامة، فيثبتون حتى النهاية، وإما أن يفاجأوا بالمعركة من دون تخطيط سابق لها وتنسد أمامهم طرق النجاح فتمنعهم حميتهم أيضا عن الاستسلام طلباً للسلامة، ويثبتوا حتى النهاية.

أما أن يدخل الإنسان في مشروع طويل الأمد يعلم مسبقاً بأنه ينتهي بمثل هذه التضحيات الجسام والفجائع الفادحة، ويخطط لتنفيذه بصلابة وعزم، فهو أمر يحتاج إلى قابلية استثنائية.

والناظر في تفاصيل واقعة الطف ـ بموضوعية وإنصاف ـ يرى أن الإمام الحسين (صلوات الله عليه) منذ امتنع من بيعة يزيد في أواخر شهر رجب، وتحرك ركبه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، صمم على أن يُقتل هو وأهل بيته، نجوم الأرض من آل عبد المطلب ـ كما تقول العقيلة زينب عليها السلام ـ مع الصفوة من أصحابه، ثم ما يتبع ذلك من نهب رحله، وانتهاك حرمته،

---

(١) كامل الزيارات: ١٥٧، دلائل الإمامة: ١٨٨.

وسبي عياله والتشهير به وبهم ، وتركهم غنيمة بأيدي تلك الوحوش الكاسرة والنفوس المغرقة في الجريمة والرذيلة.

ولم يمنعه شيء من ذلك عن التصميم والتخطيط والإصرار والاستمرار حتى النهاية التي حصلت بعد ما يقرب من ستة أشهر.

كل ذلك لفنائه في ذات الله تعالى، ولأن هدفه الأسمى رضاه جل شأنه. كما أفصح عن ذلك في خطبته الجليلة حينما أراد الخروج من مكة، حيث قال فيها:

«خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة. وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه. كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً. لا محيص من يوم خط بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت. نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين...»[1].

و الملفت للنظر ـ مع كل ذلك ـ أنه صلوات الله عليه استطاع أن يختار لنهضته الشريفة من أهل بيته وأنصاره من لا يتراجع عنها بعد أن اقتنع بها، وكان بوسعهم التراجع في أي وقت أرادوا.

لكنهم آمنوا بقيادته، واستسلموا له حتى النفس الأخير مع قوة البصيرة ومزيد من السرور والشعور بالفوز والسعادة. بل آمنوا بمشروعه كما آمن

---

(١) كشف الغمة ٢: ٢٣٩.

هو عليه السلام ولذا تشبثوا به ولم يتركوه حتى بعد أن أذن لهم بالانصراف وجعلهم في حل من بيعته.

وحتى عائلته التي رأت من بعده الأهوال لم ينقل عن أحدهم أي استنكار لموقفه عليه السلام أو شكوى منه في استمراره الى النهاية المفجعة.

وهذا أمر نادر لا يسهل حصوله لولا العناية الإلهية والتسديد الرباني.

دعوة للمثقفين

ويحسن بالباحثين المثقفين ـ بما فيهم الخطباء والمبلغون ـ أن يتوجهوا لذلك، ويبحثوا بموضوعية وإنصاف في نكاة الأحداث وفلتات التاريخ وزواياه، ويقارنوا بين معلوماتهم حينئذ، ليتضح لهم ذلك، ويوضحوه للغافلين والمغرر بهم.

كل ذلك خدمة للحقيقة، ودفاعاً عن سيد الشهداء الإمام الحسين (صلوات الله عليه) الذي قدم الكثير، وقد ظلمه التاريخ، وظلم جميع أهل البيت (صلوات الله عليهم)، وظلم خطهم ودعوتهم.

كما يحسن بهم أن يتوجهوا ـ مضافاً إلى ذلك ـ للبحث في أمرين:

١ـ ثمرات هذه النهضة المباركة، وما جناه منها الإسلام عموماً وخط أهل البيت (صلوات الله عليهم) خاصة من مكاسب جليلة.

٢ـ توقيت هذه النهضة بعصر الإمام الحسين (صلوات الله عليه)، حتى كان هو المنفذ لها دون غيره من الأئمة (صلوات الله عليهم)، مع أنهم في العلم والشجاعة سواء ـ كما ورد عنهم عليهم السلام ـ وهم من نور واحد، وعلى نهج

واحد، وإن اختلفت ظروفهم وسيرتهم. فإن لذلك أهمية كبرى في خدمة خط أهل البيت (صلوات الله عليهم)، والتعرف على واقعهم.

ولا يسعنا فعلاً الحديث في ذلك، وإنما نكله لطلاب الحقيقة من الباحثين... ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا و على جميع الباحثين بالتوفيق لتحقيق الحقائق، والتسديد في الدعوة لها، وأن يزيدنا إيماناً وتسليماً، ويكفينا وجميع المؤمنين شر الظالمين والمفسدين إنه أرحم الراحمين، وخير الناصرين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وجهان لواقعة الطف*

الوجه الملحمي والوجه المأساوي

الشهيد
الشيخ مرتضى المطهري

* بحث مستل من كتاب "الملحمة الحسينية ـ ج١" للشهيد الشيخ مرتضى المطهري قدس سره ـ من كبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين ـ ط٣ ـ مطبعة اسماعيليان ـ قم ـ ١٤١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾[١]

إنّ موضوع بحثنا هو الملحمة الحسينية أو (الحماسة الحسينية) ولا بد لي أولاً من توضيح كلمة الحماسة التي تستخدم كثيراً في اللغة الفارسية.

إن كلمة الحماسة تعني: الشدة والصلابة، وفي أحيان أخرى يمكن استخدامها بمعنى الشجاعة والحمية. إنّ أهل الأدب، والمتخصصين في شؤون الشعر، يُقسِّمون أنواع المنظومات الشعرية، من حيث المحتوى والجوهر والهدف، إلى أقسام مختلفة: فهناك الشعر الغنائي (الغزل) والشعر الحماسي (الملحمة) والشعر الرثائي، إضافة إلى شعر الحكمة والمديح وغير ذلك من أنواع الشعر المختلفة. فدواوين سعدي وحافظ وشمس

---

(١) يونس: ٧١.

تبريزي مثلاً يمكن اعتبارها من القسم الغزلي أو الغنائي للشعر. صحيح أنّ الهدف الكامن وراء هذه الأشعار هو العرفان إلا أنها على الأقل ظاهرياً تُعطي طابعاً غزلياً في أسلوبها ونسيجها الشعري من حيث إنها تتحدث عن التشبيب، واللغة المستخدمة فيها هي لغة العُشاق، والحديث فيها لايتم إلا عن جمال المحبوب أو عدم اكترائه بالحبيب، وألم الفراق، وطول ليله، وقصر أيام الوصال، إلى ما هنالك من تعابير غزلية يزخر بها الشعر الفارسي عموماً؟...

أما الشعر الرثائي، الذي غالباً ما ينظم بشأن الأئمة والشخصيات الدينية والإصلاحية البارزة في مختلف المجتمعات، تلك الشخصيات التي تكون منشأ للخير والبركة، فهو نوع آخر من الشعر.

بعد انقراض البرامكة مثلاً خرج من بينهم عددٌ لا بأس به من الشعراء الذين عملوا معهم في السلطة، وصاروا يرثونهم بعد ذلك بشعر رثائي خاص. الشاعر الإيراني الشهير «حافظ» هو الآخر تراه يرثي ابنه بمرثيه متميزة...

إنّ شعر الرثاء كثير كذلك، وأما شعر المديح والتمجيد فإنه إلى ما شاء الله كثير لا سيما شعر التملق والمراءاة!!

لكن الشعر الحماسي شعر من نوع آخر، وهو الشعر الذي عادةً ما يتطلب موسيقى ولحناً خاصاً، إنّ الشعر الحماسي هو ذلك الشعر الذي تفوح منه رائحة الغيرة والشجاعة والحمية والرجولة. إنه الشعر الذي يحرك الروح ويهيجها ويثيرها.

إنّ هذا التقسيم لا يختص بالشعر فقط. إنّه تقسيم أدبي عام ينطبق على النثر أيضاً، فهناك النثر الحماسي والنثر الغزلي ونثر المديح والرثاء إلى غير ذلك من أنواع النثر.

في حرب صفين وعندما كانت المواجهة لا تزال في أولها بين جيش علي عليه السلام وجيش معاوية، فإنّ علياً عليه السلام لم يكن يريد أن يكون البادىء بالحرب وكان يبذل قصارى جهده ليحل المشاكل القائمة بين الطرفين بقدر المستطاع بالحسنى على أمل أن يعود بمعاوية وأصحابه إلى رشدهم، ويصدهم عن غيهم. لكنه فوجىء بجيش معاوية وقد بادر إلى قطع الطريق على جيشه وحاصر شريعة الماء مما دفع به إلى تكثيف الجهود الرامية إلى حل الإشكالات القائمة، عن طريق المفاوضات ولّما يئس من إمكانية قبول الطرف الآخر فإنّه صار على مفترق طرق بين أن يموت جيشه من العطش وبين أن يواجه الحرب التي فرضها عليه العدو بحرب أشد منها وعندها توجه إلى أصحابه يستثيرهم ويُشعل هممهم.

وكما جاء في (نهج البلاغة) فإنّ علياً عليه السلام هنا تراه يقف أمام الجمع من أنصاره حانقاً شديد التأثر ويوجه لهم خطبة حماسية يقول فيها:

«...قد استطعموكم القتال... فأقِرّوا على مذلَّة وتأخير محلَّة أو روُّوا السيوف من الدماء تروُوا من الماء!... فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»[1].

---

(١) نهج البلاغة ـ فيض الإسلام ـ الخطبة ٥١، ص: ١٣٨.

لقد استطاع علي عليه السلام من خلال خطبته الحماسية هذه أن يُهيج المشاعر في جنده ويُعبئهم تعبئةً نفسيةً كان نتيجتها طرد العدو من شريعة الماء في فترة لم تتجاوز الساعتين والسيطرة على الفرات. لكن علياً عليه السلام أمر جنوده أن يتركوا المجال مفتوحاً لجند معاوية للوصول إلى الماء لأخذ ما يحتاجونه يومياً. ولَما اعترض جنده عليه وطالبوه بقطع المياه عن العدو كما قطعوها عنهم عندما كانوا مُسيطرين عليها أجابهم علي عليه السلام بأنّ الماء حق طبيعي من حقوق كل الأحياء وقطع الماء من الآخرين عمل غير إنساني، ولا نقوم به.

وبناءً عليه يتبين أنه من الممكن للحديث أن يكون حديثاً حماسياً. والحديث الحماسي يعني الحديث الذي تفوح منه رائحة الغيرة والشجاعة والرجولة، حديث مُشبع بالصمود والمقاومة، وعندما يكون الشعر أو النثر مطبوعاً بهذه الخصوصيات عندها ندعوه بالأدب الحماسي.

الآن وبعد أن أدركنا معنى الحماسة بالإجمال نستطيع البحث حول معنى الحماسة الحسينية.

فهل يمكن اعتبار واقعة الحسين بن علي عليه السلام واقعة حماسية؟ وهل يمكننا تسمية الحسين بن علي عليه السلام بالشخصية الحماسية أو لا؟ لا بد لنا من معرفة شخصية الحسين بن علي عليه السلام تلك الشخصية الإنسانية الكبرى بالنسبة لنا. فهذا الرجل الذي نصرف كل تلك الأموال من أجله، ونبذل كل تلك الجهود والأوقات في سبيله، ونعطِّل كل تلك الأيام سنوياً باسمه، لا بد لنا من معرفة سماته وخصوصياته المميزة لشخصيته. ومن جملة ما يجب

معرفته هو شخصيته وهل هي حماسية بالفعل؟ ثم إذا ما كانت واقعة الحسين بن علي عليه السلام وسيرته تُثير فينا الشعور بالحماس أو الشعور بالتراجيديا والمصيبة والرثاء والضياع؟

وهنا أرى من الواجب علي أن أقدّم توضيحاً:

إنّ الشخصيات الحماسية والملحمية التي ترد في الغالب في المنظومات الأدبية الحماسية تراها في الواقع ذات طابع عنصري وقومي... بينما ملحمة الحسين عليه السلام ملحمة من نوع آخر.

إنّ الحسين بن علي عليه السلام شخصية ملحميّة بالفعل لكنها ملحمة الإنسانية، ملحمة البشرية وليس ملحمة قومية. إنّ حديث الحسين عليه السلام وعمله وواقعه وروحه وكل شيء فيه عبارة عن غليان وحركة ودرس وعبرة وتدفق للقوة. ولكن أي تدفق للقوة؟ وأي نوع من الدروس والعبر؟ ألأنّه ينتسب إلى قومية معينة مثلاً؟! لأنه شرقي مثلاً؟ أو لأنه عربي أو غير عربي؟ أو كما يقول بعض الإيرانيين بأنّ زوجته إيرانية؟!

إنّ ملحمة الحسين عليه السلام لا يمكن لها أن تكون من هذا النوع من الملاحم لأنه شخصية مختلفة تماماً وسبب جهلنا له يكمن في هذه النقطة تماماً. لأن ملحمته فوق الملاحم لذلك لا ترى إلا القليل ممن يقدر على معرفته.

إنك لن تجد في العالم كله شخصية ملحمية مثل شخصية الحسين بن علي عليه السلام إن من زاوية سموّ جوانبها الحماسية، أو من زاوية علوّها وارتفاعها أي من زاوية جوانبها الإنسانية، وليس الجانب القومي أو الوطني. إنّ الحسين عليه السلام نشيد الإنسانية ولهذا فهو ليس له نظير. وأقولها بكل جرأة،

نعم ليس له نظير ولا ند.

إنّك لن تجد ملحمة حماسية مثل ملحمة الحسين بن علي عليه السلام سواء على صعيد درجة القوة والطاقة الكامنة أو من جهة العلو والسموّ الإنسانيّين وللأسف يجب القول بأننا لم نعرف بعدُ هذه الملحمة.

إنّ واقعة عاشوراء ومعركة كربلاء لها وجهان، وجه أبيض ونوراني والآخر مظلم و أسود قاتم السواد وكلتا الصفحتين إما لا نظير لهما أو نادرتان جداً. أما الصفحة السوداء والمظلمة فإنها كذلك لأنها عبارة عن جريمة نادرة أولا نظير لها أبداً.

لقد فكرتُ مرة بدرجة وحجم الجريمة المرتكبة في عاشوراء فرأيت أن واحداً وعشرين نوعاً من أنواع الرذالة واللؤم قد ارتكب كحد أدنى في هذه الواقعة ولا أعتقد أنّ هناك واقعة أخرى في الدنيا يمكن لها أن توازي مثل هذه الواقعة في حجم تنوعها. بالطبع يوجد هناك في تاريخنا الحروب الصليبية التي لم يترك فيها الأوروبيون مجالاً للتعجب عندما يُنظر إلى سواها من حوادث التاريخ الإجرامي.

وإذا كنتُ قد ترددت في الادعاء بعدم وجود شبيه لحادثة كربلاء من ناحية حجم الجريمة فالسبب إنما يعود لحجم الجريمة التي ارتكبها الغربيّون في المعارك الصليبية وكذلك الجرائم التي ارتكبها هؤلاء الأوروبيون أنفسهم في الأندلس الإسلامية وهي عجيبة للغاية. وفي هذا المجال أدعوكم للرجوع إلى كتاب «تاريخ الأندلس» للمرحوم آيتي المطبوع من قبل جامعة طهران وهو كتاب تحقيقي نفيس.

يقول المؤلف في هذا الكتاب: «إنّ الأوروبيين كانوا قد سمحوا لمائة ألف من الرجال والنساء والأطفال أن يخرجوا من منازلهم ويتوجهوا حيث يشاؤون ولكنهم ما أن تحركوا بشكل جماعي حتى نقض الأوروبيون العهد وربما كانت الخطة خدعة مدبرة من الأساس للإيقاع بهم. على أي حال فإنه ما أن تحركت الجموع حتى صدرت الأوامر بارتكاب المجزرة وقطع رؤوس الجميع بعد تقتيلهم شر قتلة».

إنّ الشرق لن يصل في حجم جرائمه إلى الغرب. إنك لو طالعت تاريخ الشرق كله بما فيه التاريخ الأموي فإنك سوف لن تعثر على هذين النوعين من الجرائم وهي حرق البشر وهم أحياء والثانية ممارسة القتل الجماعي للنساء لكنك ترى مثل هذا النوع من الجرائم في تاريخ الغرب يتكرر باستمرار. إنّ قتل النساء أمر شائع في تاريخ الغرب. لا تصدقوا بأن الغربيين يملكون روحاً إنسانية في داخلهم. إن ما جرى في فيتنام يُشكل امتداداً لروح الحروب الصليبية ومعارك الأندلس. إنّ قتل مئات الألوف من الناس وهم أحياء من خلال رميهم في أفران الغاز حتى وإن كانوا مجرمين أمر لا يفعله الإنسان الشرقي، ولا يمكن لمثل هذه الجريمة أن تحصل على يد الشرقيين. إنّ هذا العمل لا يحصل إلاّ على يد غربيي القرن العشرين فقط.

إنّ جريمة ترك عشرات الألوف من الأسرى يموتون في صحراء سيناء من الجوع والعطش خوفاً من تبعات أسرهم عمل لا يصدر إلا من الغرب والغربيين. إنّ الشرقي لا يرتكب مثل هذه الجريمة. إنّ اليهودي الفلسطيني أشرف من اليهودي الغربي مائة مرة. لو كانت المعركة تدور مع يهود

فلسطين المحليين لما ارتكبت مثل هذه الجرائم وهي من صنع اليهودي الغربي. على كل حال فإنني لا أستطيع القول بأنّ جريمة مثل جريمة كربلاء لم تقع ولن يقع مثلها في العالم لكنني استطيع القول بأنها لا مثيل لها في العالم الشرقي.

من هذه الزاوية يمكننا القول بأنّ واقعة كربلاء تمثل مأساة كاملة، ومصيبة عظمى، وملحمة رثائية. وعندما نتفحص في هذا الوجه منها نرى قتل الأبرياء والشباب والأطفال الرُضَّع، وسحق جثث الموتى بحوافر الخيل، ومنع المياه عن الإنسان، ومعاقبة النساء والأطفال بجريمة آبائهم وأزواجهم، وتعذيب الأسرى من خلال إجبارهم على ركوب الجمال وهي عارية من سروجها.... الخ، فمن هو بطل الواقعة من وجهة النظر هذه؟

إنّه لأمر واضح هنا بأنّ البطل من هذه الزاوية الجنائية ليس ذلك الذي يتحمل الضربات فهو لا شك المظلوم في هذا الجانب. إنّ بطل الواقعة من هذه الزاوية هو يزيد من معاوية وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وخولي وآخرون، ولذلك فإننا عندما نطالع الصفحة السوداء من هذا التاريخ سنرى صورة الجريمة والرثاء فقط لعالم البشرية. فلو أردنا قول الشعر هنا ماذا علينا أنّ نقول؟ علينا أن نقرأ المنظومات الرثائية ولا نجد شيئاً نقوله سوى الرثاء.

ولكن هل إن تاريخ عاشوراء هو هذه الصفحة فقط؟

هل إنّ عاشوراء عبارة عن رثاء فقط؟ هل هي مصيبة وليست شيئاً آخر؟

إنّ خطأنا هنا بالذات، حيث هذه الواقعة لها صفحة أخرى بطلها هذه

المرة ليس ابن معاوية وليس ابن زياد وليس ابن سعد ولا الشمر. بطلها هنا هو الحسين عليه السلام. وفي هذه الصفحة ليس للجريمة مكان ولا مكان للمأساة أيضاً، إنها صفحة الحماس والملاحم النورانية وتجلي الحقيقة والإنسانية وتقديس الحق، وعندما نقرأ هذه الصفحة نستطيع القول بأنّ من حق البشرية أن تطير من الفرح. لكننا عندما نطالع تلك الصفحة المظلمة نرى أن البشرية قد نكّست رأسها خجلة مفضوحة وهي ترى نفسها مصداق الآية الشريفة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

من الطبيعي أنه ليس جبرائيل الذي يسأل الله سبحانه وتعالى هذا السؤال عندما سمع ربه يقول: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. بل إنهم أولئك القسم من الملائكة الذين كانوا لا يرون إلا ذلك الوجه المظلم للبشرية عندما غاب عن أنظارهم ذلك الوجه الآخر المشرق، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يردُ عليهم قائلاً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

إنّ تلك الصفحة التي اعترض عليها الملائكة يكون فيها البشر مُنكّسي الرؤوس بينما تلك الصفحة الأخرى يكونون فيها رافعي الرؤوس فخراً؛ فلماذا ترانا لا نطالع ولا نتحدّث عن واقعة كربلاء إلاّ من زاوية صفحتها السوداء المظلمة فقط؟ ولماذا لا نتحدث إلاّ عن جرائم كربلاء فقط؟ ولماذا لا نُطالع شخصية الحسين بن علي إلا من زاوية كونه مُعتدىً عليه؟

(١) الآية وسابقتيها من سورة البقرة: ٣٠.

ولماذا لا نرفع من الشعارات باسم الحسين إلا تلك المأخوذة من صفحة عاشوراء المظلمة؟ لماذا ترانا نُقلّل من أهمية تلك الصفحة النورانية من واقعة كربلاء في الوقت الذي نعلم فيه أن الجانب الحماسي لهذا الواقعة يُعادل مائة مرة الجانب الجنائي والمأساوي فيها، وأن الوجه النوراني لهذه الواقعة يفوق بكثير وجهها المظلم.

لذلك يجب علينا أنْ نعترف بأننا في عداد الجناة المساهمين في جريمة واقعة كربلاء حيث إننا لا نقرأ إلا صفحة واحدة ولا نرى إلا وجهاً واحداً من وجوه الواقعة وبالتالي فإننا مساهمون في عملية التحريف وكل من يساهم في حرف معركة كربلاء عن أهدافها الحقيقية يمكن اعتباره من الجُناة بحق الإمام الحسين عليه السلام.

لقد تم قتل الحسين عليه السلام في يوم واحد وفي ذلك اليوم أيضاً فصلوا رأسه عن جسده، لكنه ليس جسماً فقط وليس مثلي ومثلك إنه مدرسة تحيا وتكبر بعد موتها.

لقد تصورت أجهزة السلطة الأموية أنها بقتلها للحسين عليه السلام قد أجهزت عليه، وأنهت وجوده وتأثيره، لكنها أدركت فيما بعد بأن الحسين عليه السلام ميتاً ينافسها أكثر مما هو حياً، فقد أصبحت تربة الحسين كعبة العاشقين، وقد قالت زينب عليها السلام ليزيد نفس هذا الكلام: «**فكِدْ كيدَكَ، واسعَ سعيك، وناصِب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تُميتَ وحينا**»[1].

---

(١) بحار الأنوار ج: ٤٥ ص: ١٣٥، اللهوف ص: ٧٧.

إنّ شعراء الرثاء في ذلك الزمان ليسوا مثل شعراء الرثاء في هذا العصر. «فالكُميت» كان شاعر رثاء و«دعبل الخزاعي» أيضاً كان شاعر رثاء فدعبل الخزاعي مثلاً وهو صاحب القول المعروف بأنه ظل يحمل خشبة إعدامه خمسين عاماً على كتفه، وكان عندما يُنظم مرثيته تهتز عروش الخلفاء الأمويين والعباسيين لسماعهم لها، بينما شعراء عصرنا الحاضر يعتبرون أنّ القدر الحاقد والدهر الأعمى هما المسؤولان عن شهادة الحسين عليه السلام في حين أن الكُميت كان يُزلزل الدنيا بقصيدته وهو يرثي الحسين عليه السلام فيها.

إنّ اسم الحسين عليه السلام وتاريخه ومرثيته كانت أسلحة تعبوية آنذاك. حتى قبره الشريف كان بحد ذاته يُشكل مشكلة قائمة بذاتها. لذلك تراهم قرروا هدمه ومحو آثاره. وتسوية الأرض التي دفن عليها ثم رشوا الماء الكثير هناك حتى لا يعرف أحد البقعة التي دفن فيها ولكن ماذا حصل؟ لقد ازداد توجه الناس والتفاتهم نحو زيارة قبره عليه السلام.

يُحكى أن المتوكل كان يبحث يوماً عن معلمة للغناء والرقص في قصره وأنه بحث في كل مكان عنها فلم يجدها، ولّما ألح في السؤال عنها قالوا له يبدو أنها في سفر، ولّما عادت من السفر، استدعاها وسألها أين كانت؟ فقالت له: إنها كانت في زيارة مكة المكرمة. فقال لها بأنّ الوقت ليس وقت الزيارة إلى مكة وأضاف: فنحن الآن لسنا في ذي الحجة حتى تقولين إنك كنت في الحج ولا في شهر رجب حتى تقولين إنك ذهبت إلى العمرة! وبعد إلحاح شديد اكتشف أنها كانت في زيارة قبر الحسين بن علي عليه السلام فاشتعل غضباً وأدرك أنه ليس بالإمكان محو ذكر الحسين عليه السلام.

من جهة أخرى فأنا لا أعرف من هو المجرم أو المجرمون الجُناة الذين ارتكبوا هذه الجريمة بحق الحسين بن علي عليه السلام عندما حرَّفوا هدف نهضة الحسين بقولهم إنّ الحسين قد عرَّض نفسه إلى القتل ليحمل على كتفه ذنوب أمته وهو القول الشائع بين المسيحيين عن المسيح عليه السلام. فهل أرادوا لأنفسهم من وراء ذلك أن يرتكبوا ما استطاعوا من المحرمات دون خوف أو وجل. وهل كان المذنبون قلائل حتى يزيد عددهم بهذا التحريف؟! ولذلك ترى أن الوجه الذي يسود معركة عاشوراء بعد هذا الانحراف هو ذلك الوجه المظلم والأسود للمعركة وصرنا لا نسمع إلا الرثاء ولا نسمع إلا المصيبة حول عاشوراء. وأنا لا أقول بعدم ضرورة رؤية وقراءة ذلك الوجه المظلم لكنني أرى أن هذا الرثاء الحسيني لا بد وأن يأتي ممزوجاً بالحماس فعندما يقال بأنّ رثاء الحسين بن علي عليه السلام يجب أن يُخلّد فإنّ ذلك حقيقة نطق بها رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصى بها أئمتنا عليهم السلام. إنّ هذا الرثاء وهذه المصيبة يجب ألا تُنسى، وهذه الذكرى يجب أن تظل خالدة ولا بد لنا من إبكاء الناس عليها باستمرار ولكن في رثاء البطل.

إذاً لا بد لنا أولاً من تثبيت شخصية الحسين عليه السلام البطلة في أذهاننا، ومن ثم نجلس لنرثيه في ذكراه، نرثيه بطلاً وإلا فإن رثاء رجل مسكين مستكين مظلوم لا حيلة له ولا يد فيما جرى ويجري في التاريخ أمر لا يحتاج إلى بكاء ولا معنى لبكاء الأمة عليه.

ابكوا البطل وأقيموا مجالس الرثاء والعزاء للبطل حتى تولدوا إحساساً بالبطولة والشجاعة في أنفسكم واجلسوا في رثاء البطل عسى أن تنعكس

ظلال روح البطل على أرواحكم وتزداد غيرتكم تجاه الحق والحقيقة وتنذروا أنفسكم للعدالة وتصبحوا من المقاتلين ضد الظلم والظالمين وتصبحوا أحراراً وتُقدِّروا معنى الحرية. اجلسوا في رثاء البطل حتى تعرفوا معنى عزة النفس، وما معنى الشرف والإنسانية، حتى تعرفوا ما معنى الكرامة.

ان حادثة الطف ذات وجهين وصفحتين: والجريمة والمأساة احدى هاتين الصفحتين واستناداً إلى هذا الوجه الأسود فإن روايتنا الجنائية هذه لها أبطالها الذين يُمثلون دور الأبطال الجُناة وهم ابن معاوية وابن زياد وابن سعد وعدد آخر من الجناة من أبطال هذه القصة والواقعة الجنائية. لكن هذه الرواية ليست مظهراً للجريمة فقط أي روايتنا ليست ذات وجه واحد بل ذات وجهين.

فالقصة لا تنتهي عند ذلك العمل الإجرامي الذي ارتكبه عدد من الجناة ضد جمهور من الأطهار والأبرياء

نعم هناك في التاريخ قصص ليس لها إلا بعد واحد هو البعد الجنائي وهي القصص المملوءة بالجريمة فقط لا غير. مثال ذلك قصة ولدي مسلم بن عقيل القاصرين والتي تتلخّص في عثور أحد الجناة عليهما في أحد المخابيء أثناء فرارهما من ملاحقة قتلة أبيهما من جماعة ابن زياد، ثم قتله لهما طمعاً في الحصول على المكافأة المالية الموضوعة للجاني. فنحن إذ نقرأ قصة هذين الطفلين نرى أن أحد وجوهها هو الجريمة بينما في وجهها الآخر صورة طفلين بريئين قاصرين غريبين ارتكبت بحقهما جريمة بشعة

وهما غير قادرين على الكلام أو ممارسة عمل يدفع الجريمة، باعتبارهما كانا لم يتجاوزا سن البلوغ بعد.

إنّ هذه القصة قصة جنائية محضة وهي كذلك أيضاً من ناحية الطفلين إذ هي بالنسبة لهما لا تولد إلا الرثاء والمصيبة والمظلومية. بينما قصة كربلاء ليست كذلك أبداً.

إنّها قصة ذات وجهين وجهها الآخر هو الوجه الأكثر قابلية للمطالعة والدرس والتحقيق. إنّ وجهها الآخر له صفة إيجابية واضحة وصورة نشطة فعالة، فهو استعراض مثير للعظمة وسمو البشرية ورفعتها. وتصوير رائع للمعالي والمكارم الإنسانية. ووجه طافح بالحماسة والعظمة والشجاعة. إنه أمواج المطالبة بالحقوق وتقديس الحق. ومن هذا الجانب يصبح أبطال القصة غير ابن معاوية وابن زياد وابن سعد بل إن البطل أو الأبطال هذه المرة هم الحسين بن علي والعباس بن علي وأختهما زينب عليها السلام وإلى جانبهم عدد لا بأس به من الرجال المضحين الأفذاذ الذين يمجّدهم الحسين عليه السلام أفضل تمجيد وهو الإمام الذي لا يقبل ولا يرضى لكلامه أن تشوبه شائبة المبالغة أو التهويل.

نعم فالإمام الحسين عليه السلام حيّاً أصحابه ومجّدهم في ليلة العاشر من محرم، إنه لم يصفهم بمجموعة من الأبرياء المساكين الذين سيقتلون غداً وتنقضي آجالهم، بل إنه قال عنهم عليه السلام:

«فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي»[١]، نعم إنه فضلّهم على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله الذين حضروا بدراً إلى جانب جده، على أصحاب أبيه علي عليه السلام وعلى أعوان الرسل وأنصارهم الذين ذكرهم القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾**[٢]

أي إنّه يعترف لهم جميعاً بأنهم نعمَ الأبطال، وهو قد بدأ حديثه معهم بقوله: «مرحباً، مرحباً بجماعة الأبطال». وبناء عليه وبعد أن فهمنا أنّ هذه القصة لها وجهان نريد الآن أن نقرأ الوجه الآخر ونعترف بأننا أخطأنا في الماضي عندما تناولنا جانباً واحداً فقط من تلك القصة وكُنّا نضع الجانب الآخر مسكوتاً عنه في الأعم الأغلب. أي إننا كنا ولا زلنا لا نعرض إلا بطولات الجناة من أمثال يزيد بن معاوية وابن زياد وعمر بن سعد.

إنني في الحقيقة أكُنُّ تقديراً بالغاً لهذه المجموعات الحسينية[٣] لأنها بعملها هذا تريد إبراز أحاسيسها وهي الأحاسيس الطبيعية والصادقة مائة

---

(١) بحار الأنوار ج: ٤٤ ص: ٣٩٢، إرشاد الشيخ المفيد ص: ٢٣١، أعلام الورى ص: ٢٣٤، مقتل الحسين للمقرم ص: ٢٥٨، تاريخ الطبري ج: ٦ ص: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، الكامل لابن الأثير ج: ٤ ص: ٢٤. مقتل الحسين للخوارزمي ج: ١ ص: ٢٤٧.

(٢) آل عمران: ١٤٦.

(٣) يقصد الشهيد هنا تلك المجموعات التي تلطم على الصدور وتضرب بالسلاسل الحديدية على ظهورها في عزاء الحسين عليه السلام.

بالمائة والنابعة من الإيمان والتمسك بالعقيدة. إن أولئك الذين يدركون مدى أهمية وجود الأحاسيس الطبيعية النابعة من الإيمان والعقيدة حول أبطال الأمة العظام يعرفون ما أريد قوله هنا، ولا يجوز لنا إلغاء مثل هذه المظاهر الحسينية كما لا ينبغي إعلان الحرب على مثل هذه الأعمال بل علينا إصلاح هؤلاء وتوجيههم. وإصلاح مثل هذه الأحاسيس العظيمة والعظيمة جداً النابعة من محض التمسك بالعقيدة والإيمان...

إنّ ابراز الأحاسيس الصادقة بشأن الأبطال والعظماء في التاريخ ليس عملاً خاطئاً. إنّه يخطيء فقط من زاوية كونه بهذا العمل وبهذه الطريقة التي يبرز بها إحساساته إنما يعرض بطولة الجناة ومظلومية ذلك البطل الذي يعشقه ويتعلق به. إنه لايعرف ولا يدري بأنه ما دام قد قرر أن يعرض الحادثة فعليه أن يعرض جانب الحماسة والملحمة الحسينية منها، ويبرز للعالم ذلك الجانب النوراني المشرف لتاريخ عاشوراء.

ذلك هو الوجه المتمثل بروح الحسين بن علي عليه السلام. ولحسن الحظ يمكن القول إنّ مثل هذا الوعي قد بدأ يظهر وينمو بين الناس وإنّ الإنسان ليرى بعض المجموعات التي أدركت هذا المعنى وعرفت واجباتها بهذا الخصوص.

إنّ الرجل الكبير تكون روحه روحاً ملحمية وروح حماسة، سواء عمل من أجل ذاته أو من أجل شعبه أو من أجل البشرية والإنسانية عامة أو حتى من أجل أهداف تفوق مستوى البشر والإنسانية ذلك عندما يجعل نفسه خادماً للأهداف الكلية للخليقة ويسميها رضا الله وبعبارة أخرى عندما يعمل

المرء من أجل المسار والهدف العام الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لخلقه الذين أنشأهم أحسن الإنشاء فهذا هو طريق رضا الله...

فالحماسة والملحمة المقدسة لها مميزات وصفات أخرى سأعرضها عليكم: إنها مميزات لا يمكن للإسكندر ولنابليون أن يصبحا معها مظهراً من مظاهر الحماس المقدس. فرمز الملحمة المقدسة هو ذلك الشخص الذي تعلو روحه إلى ما فوق ذاته وما فوق العرق القومي الذي ينتمي إليه شعبه والقارة التي تقع فيها بلاده. إنه ذلك الرمز الذي لا يمكن أنْ يرى شخصه في الميزان، إنه لا يرى أمامه إلاّ الحق والحقيقة وإذا لم نشأ التقليل من أهميته ينبغي لنا القول بأنّه يرى البشرية أمامه.

فالآية الكريمة التالية آية من آيات الحماس. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾...[1]

نعم، فالدعوة واضحة وصريحة تعالوا يا من تدعون بأنكم أهل الدين! تعالوا لننسى ذواتنا وأنفسنا وشخصياتنا ولا نرى إلا عقيدة واحدة أمامنا ولنضع أمامنا هدفاً وغاية وفكرة واحدة فقط: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ﴾. ونلغي الاستغلال والاستعباد وعبادة العباد ونطبّق العدل والمساواة بين بني البشر. ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾.

العلامة الثانية لقدسية مثل هذه النهضات والملاحم هي وقوعها في

(١) آل عمران: ٦٤.

ظروف خاصة للغاية، أي في ظل أجواء لا يتوقعها أحد على الإطلاق بعبارة أخرى ترى أن أمر حدوثها يشبه انبلاج نور شعلة كبيرة في ظل جو مظلم وقاتم السواد للغاية وهو أشبه ما يكون بنداء العدالة الصارخ بوجه الاستبداد والظلم المطلق، إنه حركة وسط السكون، وحالة الرعب السائدة، وهو ذلك الكلام والخطاب الهادف في ظل جو من الظلمة القاتلة.

والمثال على ذلك هو في بروز ظاهرة نمرود وسيطرته على الأجواء قاطبة وإذا بالنهضة المقدسة نهضة إبراهيم عليه السلام تواجه هذه الظاهرة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾[1] أو أن يظهر فرعون في ظاهرته الفرعونية الظالمة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[2] لكنه يواجه موسى عليه السلام. أو كما حصل في عصر بعثة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله عندما كانت الدنيا كلها تعيش في الظلام وفي جو من الفوضى والهرج والمرج وإذا بصوت ترعدُ له السماء يقول: «**قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا**».

لقد كانت الدولة الأموية قد عبأت كل القوى والإمكانيات إلى جانبها بما في ذلك قوة الدين. وعلى هذا الأساس قامت بشراء ذمم المحدِّثين والرواة من ضعاف النفوس لوضع جملة من الأحاديث لصالح النظام الأموي. حيث يقال مثلاً إنّ أحدهم قال: «إن الحسين قُتل بسيف جدّه»[3]

---

(١) النحل: ١٢٠.

(٢) القصص: ٤.

(٣) مقتل الحسين للمقرم ص: ٦ والعبارة لأبي بكر ابن أبي العربي الأندلسي في العواصم ص: ٢٣٢.

والمقصود هنا واضح. فهو يريد القول بأنّ الحسين قد قُتل بحكم دين جده، ونحن نقول إنّ هذا القول لقول صادق في أحد معانيه ذلك أنّ بني أمية استطاعوا استغلال الإسلام وتحريفه ثم استخدامه في تعبئة جمهور من العامة ممن ضعُف دينهم أو خبا نور إيمانهم حتى اندفعوا لمقاتلة الحسين تحت راية الجهاد المُزيّفة. وكما جاء في الحديث: «**كُلٌّ يتقرب إلى الله عزّوجلّ بدمه...**»[1].

بل إنهم تمادوا في غيهم إلى درجة أنهم قاموا ببناء عدة مساجد للتعبير عن شكرهم لله في مساعدته لهم لإنجاز تلك المهمة! فتصوروا درجة الظلمة والعتمة المحيطة!

في مثل هذه الظروف تنبلج الشعلة الحسينية، وأيّ ظروف! في ظروف كان فيها المرء لا يستطيع نقل أي حديث أو جملة حول علي عليه السلام بل وحتى أي حديث للنبي صلى الله عليه وآله يخص علياً عليه السلام. حيث كان الواحد من شيعته عندما يريد نقل قضية ما أو خطبة ما عن علي عليه السلام يذهب بصاحبه إلى مكان مقفل يشبه الصندوق ثم يُغلق الباب بإحكام وبعد أن يُحلِّف الطرف الآخر الأيمان المُغلَظة على أنه لن ينقل هذا الحديث لأي أحد ما لم يكن موثوقاً.

أما الميزة الثالثة لقدسية النهضة الحسينية فهي درجة النضوج الفكري التي تتصف بها النهضة، والنظر الثاقب البعيد النظر لصاحب النهضة، أي إنّ

---

(١) بحار الأنوار ج: ٤٤ ص: ٢٩٨.

هذه الملحمة والنهضة إنما تتبلور قدسيتها في صاحب النهضة الذي يرى ما لا يراه الآخرون كما يقول المثل المعروف: «يرى في الآجرّ ما لا يراه الآخرون في المرآة».

وهو بالتالي يرى ويلمس آثار حركته إذ إنّ منطقه هو فوق منطق الأفراد العاديين في المجتمع، بل وهو فوق منطق العقلاء من أبناء الأمة. نعم فابن عباس وابن الحنفية وابن عمر وعدد آخر من رجال الجزيرة العربية يطلبون إليه جميعاً بنية خالصة عدم التوجه إلى كربلاء. وكانوا منسجمين مع منطقهم لكن الحسين عليه السلام كان يرى ما لا يرون. فلا هم كانوا قادرين على إحساس مدى الخطر الذي وصلت إليه الحالة بمقدار حسّ الحسين عليه السلام له، ولا كان باستطاعتهم إدراك الآثار الكبيرة التي ستترتب على مثل هذه النهضة في المستقبل، لكنه عليه السلام كان يرى كل ذلك بوضوح. فهو قد قال عدة مرات: «والله إنهم سيقتلوني ووالله إنّه بقتلي ستنقلب أوضاعهم رأساً على عقب». إنّها النظرة الثاقبة لهذا الرجل العظيم.

إنّ الحسين بن علي عليه السلام عبارة عن روح كبيرة وروح مقدسة، وعندما تكبر الروح يتعذب البدن الذي يحملها ولكن ما أن تصغر الروح حتى يرتاح البدن ويستقرّ، وهذا حساب خاص بحد ذاته. أنْ يأتي ابن عباس وغيره وينهوا الحسين عليه السلام عن الخروج أمرٌ لا يُفيد، لأنّ روح الحسين عليه السلام لا تُجيز لصاحبها القعود والسكينة. يقول شاعر العرب الشهير المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعِبَتْ في مرادها الأجسامُ[1]

الأجـــــــــــــسامُ[١]

نعم فعندما تكبـر الـروح يـضطر الجـسم لأن يلحـق بهـا ويتبعهـا وبالتـالي يتحمل المشاق معها. لكـن الـروح الـصغيرة هـي التـي تـذهب نحـو تحقيـق رغبات البدن، فتصبح طائعة لكل تعليماته، والروح الـصغيرة تراهـا منهمكـةً أبداً في تهيئة لقمة العيش للبدن حتى وإنْ تطلـبِ الأمـر الاسـتعانة بأسـاليب التملق والخنوع والمراءاة وهي تبحث عن السلطة والمقام حتـى وإنْ تطلـب الأمر ارتهان ناموس الإنسان وشرفه وضميره وهـي جـاهزة لتقبـل كـل أنـواع الـذل والتعاسـة مـن أجـل الحـصول علـى الثـروة والأثـاث ووسـائل الراحـة والترفيه والنوم المستقر الهادئ.

لكن الروح الكبيرة تُطعم البدن خبز الشعير ثـم تُنهـضه وتقـول لـه: أحـي الليـل حتـى الـصباح. إنّ الـروح الكبيـرة عنـدما تـرى أي تقـصير فـي أداء الواجب تأمر البدن على الفور بأنْ يـذهب بـالرأس إلـى داخـل التنـور حتـى يحـسَ بحرارتـه ومـن ثـم لا يُقـصِّر بعـد ذلـك فـي رعايـة أمـور اليتـامى والأرامل[٢] الروح الكبيرة تجعل صاحبها يطلب مـن الله أن يقتـل فـي سـبيل الأهداف الإلهية وأهداف الروح الإنسانية الكبرى وعندما ينزل حدّ الـسيف على فرقه يشكر الله[٣]. وعندما تكبر الروح لا بد لبـدن صـاحبها أن يتعـرض

(١) ديوان المتنبي ج٢: ص: ٢٦٧ طبع دار البيان بغداد.

(٢) إشارة إلى علي عليه السلام وقصته المعروفة مع التنور واليتامى.

(٣) إشارة إلى علي عليه السلام حينما ضربه ابن ملجم وهو يُصلي صلاة الصبح حيث قال عليه السلام قولته الشهيرة: «فزت وربّ الكعبة».

إلى ثلاثمائة جُرح في يوم عاشوراء، شاء ذلك أم أبى.

وإنّ ذلك البدن الذي تسحقه حوافر الخيل إنما يدفع في الواقع غرامة تلك الروح الكبرى، غرامة الملحمة، غرامة تقديس الحق، غرامة روح الشهيد الصاعد. نعم لقد صدق المتنبي عندما قال:

وإذا كانت النفوس كباراً تَعبت في مرادها الأجسامُ

فعندما تكبر الروح تقول للجسم بأنها تريد أن تعطي للدم ثمناً وقيمة. أتعرفون من هو الشهيد؟ ففي اليوم الواحد يسقط الكثيرون قتلى كأن تسقط طائرة ضخمة ويموت جميع ركابها فلماذا لا نقول عن هؤلاء القتلى بأنهم شهداء؟ ولماذا كل هذه الهالة القدسية حول كلمة الشهيد؟ ذلك أن الشهيد هو ذلك الإنسان الذي يملك روحاً كبيرة، وروحه تملك هدفاً مقدساً يُقتل من أجل العقيدة، إنه الإنسان الذي لم يكن يعمل لذاته إنّه الإنسان الذي خطا بخطواته في سبيل الحق والحقيقة والفضيلة. إنّ الشهيد يُثّمن دمه عالياً ويُقدره أحسن التقدير تماماً كما يُعطي صاحب المال قيمة لثروته عندما يستخدمها في سبيل الخير ولا يتركها مُجمَّدةً في البنوك. حتى أنّ الريال الواحد من ريالاته تصبح مساوية لمئات الألوف من ريالات الآخرين، نعم فهو من خلال تحويل ثروته المُجمّدة إلى مؤسسة خيرية عامة نافعة ثقافية كانت أو دينية أو أخلاقية يكون بعمله هذا قد منح قيمة عاليةً لأمواله. والكاتب بدوره أيضاً عندما يكتب كتاباً علمياً مفيداً ويضعه في خدمة العامة يكون قد أعطى لفكره ثمناً عالياً، والآخر عندما يضع ذوقه الفني في خدمة الناس ويُقدّم الصناعة والحرف المفيدة للبشرية، يكون كذلك.

وهكذا ترى الشهيد يُقدّم دمه فداءً على طريق رفاه البشرية وراحتها، فأي واحد هنا يكون الخادم الأكبر؟

ربما تتصورون أنّ العلماء والمخترعين والمكتشفين والأثرياء هم الأكثر خدمةً للبشرية، كلا ليس هناك أحد خدم البشرية بمقدار ما خدمها الشهداء؛ لأنهم وحدهم هم الذين يفتحون الطريق للآخرين، ويُمهدون الحرية لأفراد المجتمع البشري، إنهم الذين يوفرون ظروف وشروط العدالة للمجتمع البشري حتى يتمكن العالم من الانشغال بعلمه، ويعمل المخترع براحة البال المطلوبة، ويتاجر التاجر بتجارته، ويذهب الطالب لتحصيل علمه وينشغل كل واحد بإنجاز عمله فهم الذين يخلقون الظروف الملائمة والمحيط المناسب للآخرين. مثلهم مثل القنديل والنور، فلولا القنديل والنور والضياء ماذا كان بإمكاني وإمكانك أن نفعل؟

إنه ليس باستطاعة هؤلاء جميعاً أن يُنتجوا شيئاً لولا بركة دماء الشهداء وظلالهم الوارفة على رؤوس البشرية.

الشهداء هم الذين أسسوا وبنوا تلك الحضارة الإسلامية العظيمة وهم الذين أزالوا الموانع من طريق تقدم البشرية، وهم الذين أشرقوا كالقناديل في الظلمات وضحوا بأنفسهم لإضاءة الطريق. وهم الذين كانت حياتهم ملحمة إلهية شاملة، وجودهم كله يعجُ بطلب الحق، وتقديس الحق، وظلوا كذلك في حياتهم حتى تمكنوا من تثبيت علم التوحيد في الدنيا، وهو يرفرف اليوم بفضلهم.

إنهم صوت العدالة الدائم، صوت الحرية والتحرر. فأنا وأنت اللذان

نجلس هنا الآن مدينان لقطرات دمائهم، مدينان لملاحمهم، فالحسين بن علي عليه السلام كان شعلة حماسية شاملة.

إن علماء النفس لا سيما أولئك الذين يهتمون بكتابة السيرة يسعون على الدوام من أجل اكتشاف مفتاح شخصية كل عَلَم من الأعلام حتى يتسنى لهم فهم روحيته.

ولذلك فهم يقولون إنّ لكل شخص مفتاحاً خاصاً يُطلقون عليه مفتاح الشخصية وإذا ما تم اكتشافه فإنه من السهل عندئذ فهم سيرة حياة ذلك الشخص كلها. لكن اكتشاف مفتاح شخصية الأفراد بالطبع أمر صعب للغاية لا سيما إذا كانوا من نوع الشخصيات العظيمة. يقول عباس محمود العقاد المفكر المصري الشهير في كتابه (عبقرية الإمام علي): «لقد وجدت أنّ مفتاح شخصية علي هو في فروسيته. فعلي رجل تملأ حياته كلها روح الرجولة والفروسية سواء في ميدان الحرب أو في محيط العائلة ـ في محراب الصلاة أو في مقام الحكم أو في أي مكان كان. نعم فالفروسية تعني وقفة الرجولة والإباء وهي ما فوق الشجاعة».

فالعقاد إذن يرى أن مفتاح شخصية علي هو الرجولة. وهذا ما اكتشفه في شخصية علي الملا الرومي قبل حوالي سبعمائة عام عندما قال: «إنني أرى في علي شيئاً هو ما فوق الشجاعة».

ونحن إذ نطالع سيرة علي ترانا نتوقف مثلاً عند تلك القصة الشهيرة التي حصلت له مع عمرو بن ود العامري وهي: إنه لما أوقعه علي على الأرض وتقدم نحوه ليقتله، إذا بذلك الرجل يبصق بوجه علي فما كان من علي إلا

أن رجع قليلاً إلى الوراء، ثم عاد لتنفيذ المهمة مجدداً وعندها سأله ذلك الرجل: ولماذا لم تقتلني منذ البداية؟ قال لَما كنت قد وقعتُ تحت تأثير الغضب الشخصي لم أرد تحريك يدي نحو رأسك وتأثير الغضب الشخصي لا يزال عندي فيكون لغضبي الشخصي تأثير في قتلك ولأنني أردتُ قتلك خالصاً في سبيل الله وتحقيق الأهداف العامة للخلق تراجعت قليلاً إلى الوراء لإزالة مفعول الغضب الشخصي أولاً...

الحقيقة أنّه ليس من السهل على الإنسان الادعاء بأنه اكتشف مفتاح شخصية امرئ مثل علي أو الحسين بن علي عليه السلام وأنا من جهتي لا أتجرأ أنْ أقول مثل هذا الكلام، لكنني أستطيع القول بأنني وفي حدود معرفتي للحسين عليه السلام وتاريخ حياته الذي اطلعت عليه و خطاباته و أقواله القليلة[1] للأسف الشديد، وفي حدود دراستي أيضاً لواقعة عاشوراء التي سجّلها لنا التاريخ بدقة والحمد لله ومن خلال وصايا ونصائح وتوجيهات الحسين عليه السلام المختلفة التي اطلعتُ عليها، أستطيع القول بأنني أعتقد بأنّ مفتاح شخصية الحسين عليه السلام يبرز ويتبلور في حس الحماس و الحس الملحمي، في عظمته وصلابته وشدة بأسه وصموده وتقديسه للحق.

إنّ الأحاديث التي تروى عن الحسين بن علي عليه السلام نادرة، ولكن المقدار المتوفر يدلُ على هذه الروح العالية. لقد طُلب من الحسين بن علي عليه السلام

---

(١) السبب في ندرة أقوال الحسين عليه السلام هو عصر الاختناق والقمع والرقابة الأموية الشديدة التي كانت تمارس بحق علي وأبناء علي عليه السلام.

يوماً أن ينقل أو يروي حديثاً سمعه بنفسه عن رسول الله صلى الله عليه وآله. لاحظوا هنا انتخابِ الحسين لنوع الحديث النبوي، إنّ هذا الانتخاب بحد ذاته يُحدِّثك عن روحيته وشخصيته المتميزة.

قال الحسين عليه السلام: **سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّ الله تعالى يُحبُ معالي الأمور وأشرافها ويكرهُ سَفَاسِفها»**[١].

انظروا إلى الرفعة والعظمة التي يتميز بهما الإمام فهو عندما ينتخب الحديث النبوي لا يقع اختياره إلاّ على حديث الروح العالية. في الواقع إنه يُبرز شخصيته بهذا الحديث. لقد وصلتنا بعض أبيات من الشعر نُسبت إلى الحسين عليه السلام تتجلى فيها كذلك هذه الروح الحسينية:

سبقتُ العالمين إلى المعالي ... بحسن خليقة وعلو همهْ

ولاح بحكمتي نور الهُدى في ... ليال في الضلالة مُدلهمهْ

يُريد الجاحدون لِيُطفئونا ... ويأبى الله إلاّ أنْ يتمّهْ[٢]

إضافة إلى بعض الأقوال الأخرى التي وصلتنا منسوبة إلى الإمام الحسين عليه السلام أيضاً وفيها نفس هذه الروح والهمة العالية، وهي لا ترتبط بواقعة عاشوراء بل إنها قيلت قبل ذلك. هناك حديث آخر يُنقل عن الحسين عليه السلام يقول فيه: **«موتُ في عز خيرُ من حياة في ذل»**. وآخر يقول

---

(١) جامع الصغير ج: ١ ص: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار ج: ٤٤ ص: ١٩٤. (ولعل التعبير: ليطفئوه، وليس ليطفئونا، فيعود الضمير إلى النور).

فيه: «**إنّ جميع ما طلعت عليه الشمس في مشارق الأرض ومغاربها، بحرها وبرها، وسهلها وجبلها، عند ولي من أولياء الله وأهل المعرفة، بحق الله، كفيء الظلال**»(١).

وهنا بالذات تكتشف اختلاف المرء صاحب الحماس الرباني عن غيره من الأشخاص. إلى أن يضيف عليه السلام قائلاً: «**ألا حُرٌّ يدعُ هذه اللُّماظة لأهلها**»(٢). أين هو ذلك الرجل الحر الذي ينظر إلى الدنيا وما فيها نظرته إلى اللُّماظة؟ فالذي يُريد لنفسه أن تكون عابدة ساجدة ولا تطمع إلا برضا الله ولا يُشبعها إلا العبودية لله وحده لاترى الدنيا وما فيها إلاّ لماظة، فهل تدري ما اللُّماظة؟ هي بقَايا الأكل في الأسنان التي عادة ما يُخرجها المرء بعود الخلال المنظّف للأسنان ويرميها جانباً. فيزيد ومُلكه والدنيا وما فيها مثل اللّلماظة في منطق الحسين عليه السلام، ثم يقول لهم أيها الناس إنكم لن تجدوا غير الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا جدير بأن تضحوا بأرواحكم وأنفسكم في سبيله. فلا تبيعوا أنفسكم لغير الله وكونوا أحراراً ولا تكونوا مرتزقة تابعين.

حديث آخر للإمام الحسين يشرح فيه طبيعة الناس وصفاتهم التي تميز أغلبهم مهما تبجحوا وادعوا: «**الناس عبيد الدُّنيا والدينُ لعق على ألسنتهم يحوطونَهُ ما دَرّت معائشهم فإذا محِّصوا بالبلاء قل الديّانون**».

---

(١) لمعة من بلاغة الحسين نقلاً عن (نفس المهموم) للحاج الشيخ عباس القمي.

(٢) المصدر نفسه.

عثمان بن عفان يُبعد أباذر الغفاري ويُعلن عدم جواز مشايعته وتوديعه من قبل أحد لأنه مُطارد من وجه العدالة الحكومية! لكن علياًعليه السلام لا يُبدي اهتماماً لهذا البلاغ الخليفي ويذهب هو و الحسن والحسينعليهما السلام ويودعون جميعاً أباذر ويشايعونه. نعم وكل واحد منهم عنده حديث مع الغفاري. والحسين بن عليعليه السلام هنا عنده حديث في هذا المجال تبين فيه ظلال روحه.

إنّ أباذر الغفاري رضوان الله عليه من شيعة علي وله من العمر بمقدار عمر عليعليه السلام وربما أكثر أيضاً ولذا فإن الحسينعليه السلام يُناديه: عمي العزيز! ويقول له نصيحتي لك هي التالية: «**اسأل الله الصبر والنّصر، واستعذ به من الجشع والجزع**»[(١)]. نعم فهو يوصي أباذر بعدم الرضوخ للضغوط وتحمل أنواع الظلم ورفض الاستسلام وعدم اليأس والجزع.

فما أكبر هذه الروح العالية العظيمة التي تتجلى فيه باستمرار والتي يجهلها أغلبنا ويغفل عنها، عودوا إلى حديثه الأول مرة أخرى وتأملوا فيه: «**خُطّ الموتُ على وِلد آدم مَخَطّ القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف**»[(٢)].

في الطريق إلى كربلاء يأتي إليه البعض ويحاول منعه من التوجه إلى كربلاء ويقول له بأن الحالة خطيرة فيرد عليه الحسينعليه السلام بهذه الأبيات من

---

(١) الغدير ج: ٨ ص: ٣٠٢.

(٢) بحار الأنوار ج: ٤٤ ص: ٣٦٦ اللهوف ص٢٥. مقتل الحسين للخوارزمي. نفس المهموم ص:١٠٠. ملحقات إحقاق الحق ج: ١١ ص: ٥٩٨. كشف الغمة ج: ٢ ص: ٢٩.

الشعر:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارقَ مثبوراً وخالَفَ مجرما
أقدّم نفسي لا أريدُ بقاءها لتلقى خميساً في الهياج عرمرما
فإن عشتُ لم أندَم وإن متُ لم ألم كفى بك ذُلاً أنْ تعيش وتُرغما[١]

إنكم تطلبون مني عدم الخروج والذهاب. لكنني سأمضي وتقولون إنني سأواجه خطر الموت، وهل موت الحر عار؟ أبداً، فالموت يكون عاراً عندما يكون الهدف دنيئاً ويكون الإنسان قد قُتل من أجل الرئاسة والسيادة فيقولون عندئذ إنه لم يصل إلى هدفه، لكن الموت ليس عاراً بالنسبة إلى ذلك المرء الذي يقاتل من أجل إعلاء كلمة الحق ذلك أنه يكون قد مضى على طريق سبقه إليه الصالحون وعباد الله الأخيار.

إذن عندما يكون المرء قد اختار طريق مخالفة شخص هالك تعيس مجرم مثل يزيد فلا مانع من الموت في هذا الطريق. وأنا إنْ عشت فسوف لن يأتي أحد ويقول لي لماذا بقيت حياً. وإنْ متّ سوف لن يلومني أحد عندما يعرف الهدف الذي من أجله قُتلت. إنها الملحمة الحسينية مرة أخرى. وفي الطريق إلى كربلاء يتحدث إلى أصحابه مرة أخرى

---

(١) في رحاب أئمة أهل البيت ج: ٣ ص: ٩٧. مناقب ابن شهرآشوب ج: ٤ ص: ٦٩. مقتل الحسين للمقرم ص: ٢١٧. بحار الأنوار ج: ٤٥ ص: ٢٣٨. إرشاد الشيخ المفيد ص: ٢٢٥ لقد ذكر البيتين الأول والثاني فقط في كتاب أعلام الورى في ص: ٢٣٠ كما أن البيت الرابع لم يذكر في بعض الكتب المذكورة أعلاه.

فيقول عليه السلام: «**ألا ترون إنّ الحق لا يُعمَلُ به وإنّ الباطِلَ لا يُتناهى عنه**» إلى أن يضيف: «**إني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما**»[1].

إنني لا أستطيع الآن الخوض بالتفصيل في كل خطب الحسين عليه السلام فالمجال لا يسمح بذلك ولكنني أتحدث قليلاً عن ليلة عاشوراء.

لو واجهت أية شخصية تاريخية أخرى ما واجهه الحسين بن علي عليه السلام في ليلة العاشر من محرم حيث كانت العوامل المساعدة في انتصاره معدومة، والطرق الدنيوية كلها قد سُدّت في وجهه وصار يقيناً أمر حتفه وحتف أصحابه على يد العدو. في مثل هذه الظروف كان لا بد لأي امرىء أن يتوجه بلومه وعتابه على الدهر وهذا ما يثبته التاريخ. فأغلب الناس عندما تواجه مثل تلك الظروف المثبّطة والقائمة تقول مثلاً: أفٍّ لك من دهر. ويا للأسف فالدهر لم يساعدني أو لم يقف معي. يقولون إن نابليون عندما واجه مثل هذه الحالة في موسكو قال: للأسف فإن الطبيعة قد خالفتني لساعات عدة فقط. وآخرون ربما كانوا يضربون الكف بالكف ويقولون: سود الله وجهك أيها الدهر اللعين لما فعلته بي... الخ.

لكن الحسين بن علي عليه السلام يجمع أصحابه وتراه وكأن روحه قد تلألأت بين جنبيه لرؤية علامة التوفيق والنجاح ويقول مخاطباً صحبه الميامين:

---

(١) بحار الأنوار ج: ٤٤ ص: ٣٨١، تحف العقول ص: ١٧٦. اللهوف ص: ٣٣. مقتل الحسين للمقرم ص: ٢٣٢. تاريخ الطبري ج: ٦ ص: ٢٢٩. تاريخ ابن عساكر ج: ٤ ص: ٣٣٣. كشف الغمة ج: ٢ ص: ٣٢.

«أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السّراء والضّراء، اللهم إنـي أحمدُك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلّمتنا القرآن وفقّهتنا في الدين»[1].

إنّه يتحدث وكأنّ الشروط المساعدة كافة قد اجتمعت له. نعم وهو كذلك لأنه الذي يتشاءم في مثل هذه الظروف هو ذلك الساعي إلى السلطة الدنيوية فقط.

أما المرء الذي يُريد الحكم والحكومة في سبيل الحق و الحقيقة ويعرف أنه على هذا الطريق سوف يمضي، فإن مثل هذه الظروف مساعدة له. فهو لا يرى سوى الحمد والشكر. ولذلك فإن أحد شعارات الحسينعليه السلام في يوم عاشوراء هي:

الموتُ أولى من ركوب العـار والعارُ أولى من دخول النار[2]

لقد ظل، حتى آخر لحظة من لحظات حياته ونشاطه وحركاته وسكناته وقوله، مثلاً وشاهداً على عبادة الحق تعالى ونموذجاً للمطالبين بالحق وموجاً يتصاعد بالحماس.

في ليلة التاسع من محرم يعرضون عليه للمرة الأخيرة: الموت أو التسليم! فيرد عليهم: **«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفِر فِرار**

---

(١) بحارالأنوار ج: ٤٤ ص: ٣٩٢. مقتل الحسين للخوارزمي ج: ١ ص: ٢٤٦. مقتل الحسين للمقرم ص: ٢٥٧. إرشاد الشيخ المفيد ص: ٢٣١. أعلام الورى ص: ٢٣٤.

(٢) بحارالأنوار ج: ٤٥ ص: ٥٠. مناقب ابن شهرآشوب ج: ٤ ص: ٦٨ و ١١٠. اللهوف ص: ٥٠ كشف الغمة ج: ٢ ص: ٣٦.

العبيد»[(١)].

وفي الساعات الأخيرة من حياته ظلّ كذلك أيضاً. فلا تُصدّقوا أنّ أبا عبدالله الحسين سلام الله عليه قد قال هذه الجملة: اسقوني شربة من الماء فقد نشفت كبدي. فأنا من جهتي لم أعثر في الكتب على مثل هذه الجملة والحسين ليس ممن يطلبون مثل هذا الطلب. إنه ذلك الإمام الذي يقف في مواجهة معسكر العدو وهو يُنادي: **«ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعيّ قد ركز بين اثنتين بين السّلة والذّلّة وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسولُه والمؤمنون وحُجورٌ طابت وطهرت»**[(٢)].

نعم فجدي رسول الله صلى الله عليه وآله، والحجر الطاهر لأهل بيت النبوة يأبى ذلك ولا يرضى لنا الذلة، وهيهات منّا الذلة. إنها الملحمة، لكنها ليست من تلك الملاحم الشخصية أو القومية. فليس فيها حب الذات وتقديسها بل إنها عبادة الله خالصة. إنه يقاوم حتى اللحظة الأخيرة في يوم عاشوراء إلى أن يفقد القدرة البدنية تماماً. في تلك اللحظة يضع أحد الرماة رمحاً مسموماً ويوجهه إلى صدره الطاهر الشريف فيخر صريعاً دون اختيار فماذا تراه يقول في تلك اللحظة؟ فهل يستسلم للذل؟ أو يرجو شيئاً من العدو؟ أبداً فهو بعد أن أتم مرحلة الحرب والمقاومة يوجه نفسه كالمة لله سبحانه

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ص: ٢٣٥. مقتل الحسين للمقرم ص: ٢٨٠.

(٢) اللهوف ص: ٤٧. مقتل الحسين للخوارزمي ج: ٢ ص: ٧٦. تاريخ الشام لابن عساكر ج: ٤ ص: ٣٣٣. نفس المهموم ص: ١٤٩. ملحقات إحقاق الحق ج: ١١ ص: ٦٢٤ ـ ٦٢٥. مقتل الحسين للمقرم ص: ٢٨٧. تحف العقول ص: ١٧٤.

وتعالى باتجاه القبلة التي ما انحرف عنها لحظة ويقول: «**رضا بقضائك وتسليماً لأمرك ولا معبود سواك يا غياث المستغيثين**»[1]. هذه هي الحماسة والملحمة الإلهية، الملحمة الإنسانية الرائعة.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) ورد شبيه لهذه العبارة في القيام للزخار ص: ٤٦٣. ومقتل الحسين للمقرم ص: ٣٥٧.

نبذة من السياسة الحسينية*

الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء

* بحث مستلّ من كتاب «نبذة من السياسة الحسينية» للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قدّس سرّه ـ من مراجع التقليد وكبار الفقهاء المعاصرين ـ نشر في مجلة تراثنا العدد المزدوج ٧٩ـ٨٠ ـ رجب ١٤٢٥ ـ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

بسم الله الرحمن الرحيم

كَتَبْتَ إليَّ أيّها الفاضل[1] - مدّك الله منه بالعون والعناية - تذكر سؤال الناقد المشكّك عن الحسين عليه السلام إذا كان عالماً بقتله في خروجه إلى كربلاء وسبي عياله، فقد عَرَّضَ بِعِرْضِهِ إلى الهتك.

وأنّك أجبت: بـ «أنّ الهتك فيه مزيد شناعة لأعمال الأُمويّين لم تكن تحصل بقتله فحسب»، وذكرت أنّ المشكّك لم يقنع بهذا الجواب، وطلبت

---

(١) هو الشيخ عبد المهدي بن عبد الحسين مطر، كتب رسالة الى الشيخ رحمه الله حول بعض المشككين، جاء فيها: ... يسأل المشكّك أو الناقد عمّا إذا كان الحسين عليه السلام عالماً بقتله في خروجه إلى (كربلاء) وسبي عياله، فقد عرَّضَ بعِرْضِهِ إلى الهتك، وليس في تعريضه هذا شيء من الحسن العقلي المعنوي يوازي قبح الهتك، وكُنْتُ قد أجبتُ: أنّ الهتك فيه مزيد شناعة لأعمال الأُمويّين لم تكن تحصل بقتل الحسين عليه السلام فحسب، وكانت الغاية للحسين عليه السلام في خروجه إطفاء نائرة الأُمويّين، والبروز في المظلومين بكلّ مظاهرها، من قتل، وحرق، وسبي.

غير أنّ المشكّك لم يقنع أن تكون وسائل الإطفاء قد قلّت على الحسين عليه السلام وهو بذلك المظهر الديني، حتّى احتاج إلى عرض عائلته على الهتك...(المصحح).

منّا جليّ البيان ليقف المشكّك على صراط الاعتقاد.

فنقول والله المستعان:

أوّلاً: إنّ هذا السؤال وأمثاله من البحث والنظر الذي يتمخّض عن الاعتراض والتحدّي لأعمال الأئمّة، بل ولأعمال رسول الله وخلفائه المعصومين سلام الله عليهم، لا موقع له على أُصول مذهبنا معشر الإمامية، الّذين قادنا الدليل والبرهان إلى القول بعصمة أُولئك النفر المخصوص[1].

فليس عندنا في مناهجهم الخاصّة، وأعمالهم التي تصدر عنهم طول حياتهم بين البشر، إلاّ كمثل رَجُل عَرَفَ مِنْهُ المَلِكُ تمام الكَفاءَةِ، وأحْرَزَ مِنْهُ صِدْقَ الطاعةِ، فأرسلَه سفيراً إلى قوم، يَبُثُّ بينهم الدعاية، ويقوم فيهم بالإرشاد والهداية، وزوّده بمناهج مخصوصة، وألزمه أن لا ينحرف عنه قيد شعرة.

ولكلّ واحد من الأنبياء والأئمّة سجلٌّ خاصٌّ به، من بدء قيامه بالسفارة والدعوة إلى منتهى أجله، حسب المصالح ومناسبات الظروف الخاصّة، والحِكَمِ التي اقتضت لذلك المَلِك الحَكيم أن يسجّلها على ذلك السفير، مِن قتل، أو سمّ، أو أسر، أو غير ذلك من قضايا التضحية والمفاداة.

وعبء السؤال وعبء البحث عن تلك الحِكَم والأسرار مطروحٌ عن الرعية، وهو تكلّفٌ زائد، بل ربّما يكون نفس السفير غير واقف عليها تماماً، إنّما يجد في سجلّ أحواله: عليك أن تبذل نفسك للقتل في الوقت الفلاني؛

---

(١) راجع مباحث الإمامة في: دلائل الصدق ٤ / ٢٠٥ وما بعدها.

فيقول: سمعاً وطاعة ؛ وليس له حقّ السؤال والمراجعة عن الحكمة أو المصلحة بعد أن كان من اليقين على مثل ضوء الشمس أن قضايا ذلك الحَكَم[1] وعزائِمَهُ كُلُّها مُنبَعِثَةٌ عن أقصى ما يمكن من الصلاح ومعالي الحكمة، ليس في الإمكان أبدع ممّا كان.

وكلّ هذه النظريات سلسلة عقائد يبتني بعضها على بعض، وكلّها مدعومة بالحجّة والبرهان ممّا تمخّضت عن عقول الفلاسفة وآراء الحكماء من معاهد العلم والتأريخ، وكلّها فروع أصل واحد، ينتهي إليه البحث والجدل، وتنقطع عن الخصومة.

وما هو إلاّ إثبات العناية الأزلية والقوّة القاهرة الشاعرة، وأنّها هي المدبّرة لهذه العوامل، لا الطبيعة العمياء والمادّة الصمّاء الفاقدة للحسّ والشعور، وبعد إثبات تلك العناية ورسوخ الاعتقاد بها يهون ويسهل إثبات ما يتفرّع عليها من تلك النظريات.

وأنّ مِنْ لازم تلك العناية، بعث الهُداة والمُرشدين البالغين أقصى مراتب الكمال البشري ؛ لتكميل الناقصين من بني جنسهم، ولا يتسنّى التكميل والاهتداء إلاّ بالتسليم والانقياد لهم، واليقين بعصمتهم عن الخطأ والخطيئة، وأنّهم مؤيدون بتلك العناية.

وبعد الإلزام بكلّ هاتيك المبادئ عن براهينها، لا يبقى مجال للشكّ

---

(١) كذا في الأصل، والظاهر أنّه تصحيف: « الحكيم »، بقرينة: « الملِك الحكيم » التي جاءت قبل عدّة أسطر.

والارتياب، والنقد والاعتراض في شيء من أعمالها مهما كانت في الفظاعة والاستنكار في مطارح العقول المحدودة والأفكار المحجوبة.

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[(١)].

ولعلّ إلى ذلك أشاروا سلام الله عليهم بقولهم ـ إنْ صحّ الحديث ـ: « **نحن أسرار الله المودعة في هياكل البشرية؛ يا سلمان! أنزلونا عن الربوبية ثمّ قولوا فينا ما استطعتم، فإنّ البحر لا ينزف، وسرّ الغيب لا يعرف، وكلمة الله لا توصف، ومن قال هناك: لِم؟ وممّ؟ وبمَ؟ فقد كفر** »[(٢)].

ولعلّ المراد بالكفر معناه الأوّل، وهو الظلام..

... *** إنْ صحّ أنّ الليلَ كافِرْ[(٣)]

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) اللمعة البيضاء ـ للتبريزي ـ: ٦٤ ـ ٦٥ عن معاني الأخبار، الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة ـ للسيّد عبد الله شبّر ـ: ٢٠١.

(٣) عجز بيت من قصيدة للشاعر بهاء الدين زهير، المتوفّى ٦٥٦ هـ وتمامه في الديوان، ص ١٥٦:

لي فيكَ أجرُ مجاهِد ... إنْ صحَّ أنّ الليلَ كافِرْ

والكَفر ـ لغةً ـ: ستر النعمة، وأصله الكَفر ـ بالفتح ـ؛ أي: الستر، ومنه سُمّيَ المزارع كافراً لستره البذر، وقيل: الليل كافر؛ لأنّه يستر بظلمته كلّ شيء، وكَفَر الليلُ الشيءَ، وكَفر عليه؛ بمعنى غطّاه.

يعني: إنْ تعرّضَ لتلك الاعتراضات فقد ظَلَمَ وأظلمَ كمن خاض في لُجَجَ من الظلمات.

وما ذكرتُ هذ النبذة إلاّ للإشارة إلى جواب ذلك السؤال من الوجهة الدينية محضاً، وإن كنت أعلم أنّ ذلك ممّا لا يُعَوِّل عليه المشكّك الناقد، ولا يعتدّ به المُعْتَرِضُ المُتَحَيِّر، سيّما لو كان ممّن لا يعرف الحسين عليه السلام كما تعرفه علماء الشيعة وخواصّها، إماماً معصوماً لا يتطرّق إليه العبث والعيث[1]، فضلاً عن الغلط والاشتباه، بل غاية ما يقول فيه أنّه من عَلِيّةِ الرجال وأفاضلهم، نسباً ونفساً وشجاعة وبراعة، لكن لا يمنع كُلُّ ذلك مِنْ أنْ يجري عليه ما يجري على غيره مِن نوابغ الدهر، وأفذاذ البشر، من الصواب تارة، والخطأ أُخرى، والاستقامة أحياناً، والالتواء حيناً، وكرم سجاياه وعظم مزاياه لا يقع سدّاً بين العقول وبين النقد عليه في بعض سيرته وسياسته، إن لم يكن في كلّها ؛ والكمال لله.

وحينئذ فلنفرض الحسين عليه السلام ـ كما يفترضه السائل ـ زعيماً من الزعماء يرى نفسه بما أُوتي من شرف الحسب والنسب أوْلى بالخلافة من يزيد[2]،

انظر: تفسير الطبري ١ / ١٤٣، فيض القدير في شرح الجامع الصغير ١ / ٢٢، لسان العرب ١٢ / ١٢٠ مادّة « كفر »، تاج العروس ٧ / ٤٥٢ مادّة « كفر ».

(١) العَيْثُ: مصدر عاثَ يعيثُ عَيثاً وعُيوثاً وعَيثاناً: أفسد وأخذ بغير رفق، وقيل: هو الإسراع في الفساد. انظر: لسان العرب ٩ / ٤٩١ مادّة « عيث ».

(٢) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وُلد سنة ٢٢ وقيل سنة ٢٧ هجرية، ثاني ملوك الدولة الأُموية، ترعرع في تدمر فنشأ نشأة بدوية، وكان دائم الشغل بالصيد والعبث واللهو والشراب، يدخل المغنّين إلى قصر معاوية « الخضراء » في جوف الليل مع علم معاوية.

وأحقّ بالمُلكِ منه، ولا جرم أنّه يبذل كلّ ما في وسعه لاستعادة ذلك الحقّ المغصوب منه ومن أبيه.

أوّلا: فعلى الأقلّ أنّه لا يبايع يزيد ويصير رعية له، مع ما هو المعلوم من

أمّه: ميسون بنت بحدل بن حنيف الكلبية، و « كلب » قبيلة كانت نصرانية، أسلمت بعد الفتح الإسلامي للشام.

كان يزيد أوّل من سنّ الملاهي في الإسلام، وآوى المغنّين، وأظهر الفسق وشرب الخمر، وكان ينادم عليها جون ـ مولاه ـ والأخطل الشاعر، وظهر الغناء بمكّة والمدينة في أيّامه، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان يفعل فعل المجوس من نكح الأُمهات والمحارم، ويتّخذ الغلمان والقيان.

ذكر المؤرّخون أنّه أمر مسلم بن عقبة باستباحة المدينة ثلاثة أيّام في وقعة الحرّة، وقتل أهلها الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ وحتّى بقيّة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأمر أيضاً الحصين بن نمير بإحراق الكعبة بالمنجنيق ورميها بالنار والحجارة حتّى هدّمت وأُحرقت البنية.

إضافة إلى كلّ هذه الأفعال الشنيعة، فإنّه ارتكب جريمة يندى لها جبين البشرية ووجه التاريخ إلى يوم القيامة، ألا وهي جريمة قتل سبط النبيّ صلى الله عليه وآله وسيّد شباب أهل الجنّة الإمام الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأخذ عياله ونسائه سبايا، فهذه الجريمة النكراء هي وحدها كافية بأن تخرج يزيد اللعين من الدين والملّة.

انظر: الطبقات الكبرى ـ لابن سعد ـ ٤ / ٢١٢، أنساب الأشراف ٥ / ٢٩٩ ـ ٣٧٦، الإمامة والسياسة ١ / ٢٣٤ ـ ٢٣٩ و ج ٢ / ٥ ـ ١٧، تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٤ ـ ١٦٨، تاريخ الطبري ٥ / ٦٢٣، الفتوح ـ لابن أعثم ـ ٣ / ١٨٠ ـ ١٨٨، البدء والتاريخ ٢ / ٢٤١ ـ ٢٤٤، العقد الفريد ٣ / ٣٦٢، مروج الذهب ٣ / ٦٧ ـ ٧٢، الأغاني ٨ / ٣٣٦، البداية والنهاية ٨ / ١٨١ ـ ١٨٩. وللمزيد من التفصيل راجع: كتاب « يزيد في محكمة التاريخ » لجواد القزويني.

المجاهرةِ بإحياءِ كُلِّ رذيلة، وإماتةِ كُلِّ فضيلة.

وعليه: فالجواب الذي ذكرته إذا كُسي حلّة أُخرى من البيان لم يكن للخصم لو أنصف أن لا يقتنع به.

وهل من سبيل إلى الكشف عن نفسية يزيد وخسّة طبعه وعدم أهليّته، من حيث لؤم عنصره، وخبث سريرته، وقبح سيرته ـ مع قطع النظر عن الدين والشرع ـ أقرب وأصوب وأعمق أثراً في النفوس عامّة والعرب خاصّة والمسلمين بالأخصّ من هتك حرم النبوّةﷺ وودائع الرسالة، وجلبهم أُسارى من بلد إلى بلد، ومن قفر إلى قفر؟!

وهل أعظم فظاعة وشناعة من التشفّي والانتقام بالنساء والأطفال بعد قتل الرجال؟!

وأيُّ ظفر وغلبة على يزيد أعظم من إشهار هذه الجرائم عنه؟!

أمّا القتل ؛ فقد كان عند العرب أهون شيء، وهو أمر معتاد متعارف لا شيء فيه من الفظاعة والغرابة، فكان الحسينعليه السلام أعرف أنّ يزيد وابن زياد من خبث الذات وسوء المَلَكة مستعدّان لتلك الجرائم ؛ فأراد أن يبرزها منهم إلى الوجود وتكون الناس منهم على بيّنة محسوسة، ثمّ يكون الغالب بعدها هو المغلوب، والقاهر هو المقهور.

نعم، يزيد قتل الحسينعليه السلام وأنصارَه، ولكنّ الحسين قتل يزيد وكلَّ بني أُميّة بأعظم من قتلهم له بألف مرّة ؛ قتلهم يزيد يوماً واحداً، وقتلوه وقومه إلى آخر الأبد.

فأي الظفرين أعظم؟! وأيّ القتلين أكبر؟!

وهذه الفلسفة قد أدركها حتّى الباحثون من الأجانب عن الإسلام، وقد ألمح إليها المستشرق الألماني (المسيو ماربين)، حيث قال: « لمّا كان الحسين يعلم عداوة بني أُميّة وبني هاشم، ويعرف أنّه بعد قتله يأسِرونّ عياله وأطفاله، وذلك يؤيّد مقصده ويكون له أثر عظيم في قلوب المسلمين، سيّما العرب، كما وقع ذلك، جلبهم معه وجاء بهم من المدينة...

إلى أن قال: ولمّا كانت أنظار المانعين محدودة، وأفكارهم قاصرة، ولا يدركون مقاصد الحسين العالية، وآخر ما أجابهم به: إنّ الله شاء ذلك، وجدّي أمرني به[١]، فقالوا: إن كنت تمضي إلى القتل فما وجه حملك النسوة والأطفال؟

فقال: إنّ الله شاء أن يراهنّ سبايا »[٢]. انتهى[٣].

أقول: وهذا الجواب ليس كما تخيَّلَهُ المستشرق جواباً إقناعياً، ودفعاً وقتياً، بل له مقامه الراهن من الحقيقة، ولعلّ الله سبحانه، وجدّهﷺ، إنّما أمراه بذلك كي يُفتضَح يزيد ويظهر حاله للناس، نحن لا نقول: إنّ الطريق لهتك يزيد انحصرت بهتك العيال ؛ ولكن نقول: إنّه كان أحد الطرق التي لها التأثير الكبير في المقصود.

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٨ / ١٣١.

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف: ١٢٨، بحار الأنوار ٤٤ / ٣٦٤، ينابيع المودّة ٢ / ٦٠.

وانظر: أُسد الغابة ١ / ٤٩٨ رقم ١١٧٣، ترجمة الإمام الحسين ـ لابن سعد ـ : ٥٩، تاريخ دمشق ١٤ / ٢٠٩.

(٣) السياسة الإسلامية ـ لماربين ـ.

والقول: إنّه لا يجوز في الدِّين أن يُعَرِّضَ نساءه للهتك مهما كان الأمر ؛ فهو منبعث عن البساطة والسذاجة، فإنّ الذي لا يساعد عليه الدِّين، بل ولا تسمح به الغيرة، هو تعريض الإنسان عِرْضَهُ للهتك الموجب لِما يمسّ الشرف، ويخدش رواق العفّة والصيانة، وسرادق النجابة والحصانة.

أمّا الهتك الذي تستحكم به عرى القدس والطهارة والعزّة والمنعة، فذلك ممّا لا يشين ولا يهين، وتلك الحرائر صلوات الله عليهنّ مهما سَفِرْنَ فَهُنَّ محجّبات، ومهما تَبَذَّلْنَ فهنّ مَصونات، وهنّ بحيث النجم من يد المتناول[1].

يَشُعُّ على وجهِ البراقِعِ نورُها فيحسب راء أنَّهُنَّ سَوافِرُ[2]

والغرضُ: إنّ هذا الجواب محكم رصين، وله حظّه من الحقيقة، وإذا لم يقنع به الناقد والمشكّك فهناك:

وجه ثان وجيه أيضاً، وهو: إنّ الحسين عليه السلام في كلّ أدواره وأطواره،

---

(١) المراد أنّ حرائر الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام كالنجم في البعد وعلوّ المرتبة، وفي منزلة يستحيل معها الوصول إليهن أو مسّهنّ بما يخدش عفّتهنّ، روحي وأرواح العالمين لهنّ فداء.

(٢) البيت للشاعر جواد بدقت الأسدي، ضمن قصيدة من ٣٥ بيتاً، مطلعها:

بواعث أنّي للغرام موازرٌ رسوم بأعلى الرقمتين دوائرُ

إلى أن يقول:

يطوف على وجه البراقع نورها فيحسب راء أنّهنّ سوافِرُ

ويقول في آخر القصيدة:

فيا ليت صدري دون صدرك موطئٌ ويا ليت خدّي دون خدّك عافرُ

انظر: أدب الطفّ ٧ / ١٤٤ ـ ١٥١.

ومنذ نشأ وشبَّ إلى آخر نفَس من حياته كانت شيمته الشمم والشهامة، وعزّة النفس والإباء والكرامة، تتجلّى وتشعّ من جميع حركاته وسكناته، وكلّ أحواله وملَكاته، ولو ذهبنا إلى سرد الشواهد على هذا لجاء كتاباً مفرداً، ومجموعاً وافياً.

ويخطر لي أنّ الحسن عليه السلام لمّا صالح معاوية على الشروط التي لم يفِ بشيء منها، وكان قد حضر عند معاوية مع خواصّ أصحابه للبيعة، فبايع الحسن ومن معه، وطلب معاوية البيعة من الحسين عليه السلام، فقال: دعه! فإنّه لا يبايع، ولكن لا يأتيك منه سوء.

فقال: حسبنا منه ذلك[١].

وبعد أن تمّ الأمر لمعاوية كان الحسين عليه السلام إذا اجتمع به في حشد من محافل الشام أو الحجاز يناضله ويناظره فيرضخه من القول بالصَّلادِم[٢]، ويصكّ جبهته بما هو أمضّ من الصَّوارِم[٣] ـ **ورُبّ قول أنفذ من صول**[٤] ـ

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ـ لابن شهر آشوب ـ ٤ / ٤٠.

(٢) الصِّلْدِمُ والصُّلادِمُ ـ : الشديدُ الحافر، وقيل: الصِّلْدِمُ: القويّ الشديد من الحافِر، وجمعه: صَلادِم ـ بالفتح ـ وفرسٌ صِلْدِمٌ ـ بالكسر ـ : صُلْبٌ شديد، ورأسٌ صِلْدِمٌ وصُلادِمٌ ـ بالضمّ ـ : صُلْب. وهي هنا كناية عن قوّة حجّة الإمام الحسين عليه السلام وبلاغته. انظر: لسان العرب ٧ / ٣٨٧ مادّة « صلدم ».

(٣) أي: أحدّ من السيوف.

(٤) من حِكَم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، انظر: نهج البلاغة: ٥٤٥ رقم ٣٩٤.

ومعاوية يحتمل كلّ ذلك منه لِما يعلم من عزّة نفسه وشدّة شكيمته.

مرّ على الحسين عشرون عاماً ـ مدّة خلافة معاوية ـ ما ذاق فيها طعم الخضوع والاستكانة، حتّى إذا هلك معاوية وامتنع عن البيعة ليزيد، ورأى من السداد الهجرة عن المدينة ؛ ليعرف العالم الإسلامي امتناعه عن البيعة، فخرج من المدينة بأهل بيته قاصداً مكّة، ولزم الطريق الأعظم (الدرب السلطاني)، فقيل له: « لو تنكّبت الطريق كما فعل ابن الزبير؟

فقال: **لا والله لا أُفارقه أو يقضي الله ما هو قاض** »[1].

فالحسين ـ وعلى ذِكره السلام، هو يحمل بين جنبيه هذه النفس الكبيرة ـ لمّا أراد الخروج من مكّة إلى العراق أبت نفسه الكريمة، وأنفت همّته القعساء[2] أن يخرج هو وولدانه وغلمانه على ظهور خيولهم خروج المتشرّد الخائف، والنافر الفزع، ولم يرض لنفسه إلاّ أن يظهر بأسمى مظاهر الأُبّهَةِ والهَيْبَةِ والجَلالِ والحِشْمَةِ في الموكب الملوكي، وفخامة الملك والسلطان.

ومن المعلوم أنّ لحمل الحرم والعائلة من لوازم الفخامة والعظمة،

---

(١) مقتل الإمام الحسين ـ لابن أعثم الكوفي ـ ٣٠.

(٢) القَعَس: نقيض الحَدَب، وهو خروج الصدر ودخول الظهر ؛ قَعِسَ قَعَساً، فهو أقْعَس ومُتقاعِس، والمرأة قعساء، والجمع: قُعْس.

و « همّته القعساء » هنا كناية عن علوّ همّة الإمام الحسين عليه السلام وارتفاع عزيمته وسموّ شأنه. انظر: لسان العرب ١١ / ٢٤٣ مادّة « قعس ».

وشوكة المناطق والسرادق، ما لا يحصل بدونها، ولو خرج سلام الله عليه من أوطانه وترك عقائله في عقر دارهم لكان خروجه أشبه ما يكون بصعاليك العرب وأهل الغزو والغارات والمتلصّصين، وحاشا لسيّد أهل الإباء أن يرضى لنفسه بتلك المنزلة والخطّة السافلة، بل سار بأهله وذراريه ليكون على مهاد الدعة والسكينة والهدوء والطمأنينة، كَسَيْر أكبر ملك من ملوك الدنيا وأوسعهم في القدرة والسلطان.

ولا تخالنّ في كلمتي هذه ضرباً من الخيال، أو شيئاً من المبالغة والغلوّ؛ كلاّ، فإنّك لو نظرت إلى بعض الخصوصيات في سيره لوجدت منها أوثق شاهد لك على ما ادّعيناه.

أنْعِمِ النظر في قصّة الحرّ التي اتّفقت على نقلها أرباب المقاتل وأُمناء التاريخ والسيَر[1]، حيث التقى بالحسين في قفر من الأرض لا ماء فيه ولا كلاء، وقد أمضّ به وبأصحابه العطش، وَهُمْ زُهاءَ ألف فارس على ألف فرس، فقال الحسين عليه السلام لفتيانه: « **اسقوا القوم وأوردوهم الماء، ورشّفوا الخيل ترشيفاً** »، ففعلوا وأقبلوا يملأُون القِصاع[2] والطِساس[3] من

(١) انظر تفصيل الحوار الذي دار بين الإمام أبي عبد الله عليه السلام وبين الحرّ بن يزيد الرياحي في: تاريخ الطبري ٣ / ٣٠٥ ـ ٣٠٦ حوادث سنة ٦١ هـ مقتل الحسين ـ لابن أعثم ـ: ٨٩ ـ ٩٦، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ١ / ٣٢٩ ـ ٣٣٣.

(٢) القَصْعَةُ: الصَّحفة أو الضَّخمة منها تشبع العشرة، والجمع: قِصاعٌ وقِصَعٌ وقَصَعات. انظر مادّة « قصع » في: لسان العرب ١١ / ١٩٣، تاج العروس ١١ / ٣٧٥.

(٣) الطَّسُّ: الطَّسْتُ من آنية الصفر، أنثى تُذكَّر، وهي فارسية، والجمع: طِساس. انظر: تاج

الماء، ثمّ يدنونها من الفرس، فإذا عبّ فيها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقي آخر حتّى سقوها عن آخرها.

فانظر أوّلاً واعجب ما شئت بهذا الحنان والرحمة والعطف والإشفاق، فإنّ القوم الّذين سقاهم الحسين عليه السلام كانوا أعداءه، وقد جاءوا مِنْ قِبَل ابن زياد للقبض على الحسين عليه السلام، حتّى إنّ عليّ بن طعّان المحاربي ـ وهو عراقي من أصحاب الحرّ ـ لم يعرف كيف يشرب من الراوية[1] وكيف يخنث[2] السقاء كما يفعله الحجازي، فكان يشرب والماء يسيل على أشداقه وثيابه، فنزل الحسين عليه السلام بنفسه وخنث السقاء حتّى شرب وارتوى[3].

واعجب ثانياً لإيثاره بالماء في بادية قحلاء وصحصحان أجرد[4]، والماء فيه أعزّ من الذهب، وقد لا يجدونه في يومين أو ثلاثة أو أكثر،

العروس ٣ / ٩٠ مادّة « طست » و ج ٨ / ٣٤٠ مادّة « طسس ».

(١) الراوية: هو البعير أو البغل أو الحمار يُستقى عليه الماء، والراوية هنا هي المِزادة والوعاء الذي يكون فيه الماء، سمّيت راوية لمكان البعير الذي يحمله.

انظر: لسان العرب ٥ / ٣٨٠ مادّة « روي ».

(٢) خَنَثَ: ثَنَى وكَسَرَ، خنثَ فَمَ السِّقاء: ثنى فاهُ وكَسَرَه إلى الخارج، فشرب منه، وإن كَسَرَهُ إلى الداخل فقد قَبَعَهُ. انظر: تاج العروس ٣ / ٢٠٧ مادّة « خنث ».

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٣ / ٣٠٥، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ١ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٤) الصَّحصحان: ما استوى من الأرض وجَرَد، والجمع: الصحاصِحُ ؛ والصَّحصحُ: الأرض الجرداء المستوية ذات حصىً صغار، وأرض صحاصحُ وصحصحان: ليس بها شيء ولا شجر ولا قرار للماء. انظر: لسان العرب ٧ / ٢٨٨ مادّة « صحح ».

فأيّ سخاء هذا السخاء؟! وأيّ نفس تلك النفس؟!

واعجب ثالثاً ـ وهو محلّ الغرض ـ كم كانت سعة ذلك الموكب السلطاني وإدارة ذلك الركاب الملوكي؟!

وكم كان يحمل من الماء؟! حيث سقى نفسه وأعداءه، سقى ألف فارس وألف فرس، وعلى أقلّ تقدير أنّ النفوس التي كانت مع الحسين عليه السلام، من أولاده وأنصاره وعيالاتهم ألف نفس، وحمولهم[1] (المِكارَهْ) التي تحمل خيامهم وأمتعتهم، وما إليها من قدور وقصاع وطساس، ونحو ألفين من الخيل والبغال غير الإبل، فتكون النفوس المحتاجة إلى الإرواء بالماء في ذلك الموكب ـ على أقلّ التقادير ـ خمسة آلاف أو أربعة آلاف نسمة، غير الفضلة الاحتياطية التي سقى منها الحرّ وأصحابه وخيولهم.

فالموكب الذي يحمل من الماء ما يروي ستّة آلاف أو سبعة آلاف نسمة، كم ترى يكون ضخامة ملكه وفخامة سلطانه؟!

وإذا صحّ ما رواه الطريحي في « مجمع البحرين » من أنّ الحسين عليه السلام لمّا نزل كربلاء اشترى أرض نينوى والغاضرية من بني أسد بستّين ألف درهم، واشترط عليهم أن يدلّوا زوّاره على قبره ويضيّفوهم ؛ انتهى

---

(١) الحُمُول: الإبل وما عليها من الهوادج والأثقال. انظر: لسان العرب ٣ / ٣٣٤ مادّة «حمل».

بمعناه[١]؛ فكم كان معه من الأموال والنقود التي يكون فضلتها ستّون ألفاً؟!

وأزيدك شاهداً على ذلك من عظمة الملك والسلطان قضية محمّد بشير الحضرمي[٢] ـ الذي رواه السيّد ابن طاووس وغيره حين قيل له ليلة عاشوراء ليلة القلق والأرق، الليلة التي كانت المَنايا فيها على الحَوايا[٣]، والحِمام يحوم فيها على الخيام ـ قيل له: « إنّ ابنك أُسر في ثغرَي الريّ؛ فقال: عند الله أحتسبه ونفسي، ما أُحبّ أن يؤسر وأنا أبقى بعده؛ فسمع الحسين عليه السلام قوله، فقال له: **رحمك الله، أنت في حلّ من بيعتي، فاعمل**

---

(١) انظر: مجمع البحرين ٥ / ٤٦١ مادّة « كربل ».

(٢) كذا في الأصل، والظاهر أنّ كلمة « بن » ساقطة؛ لأنّ بعض المصادر التي نقلت القصّة ذكرت أنّه « محمّد بن بشير الحضرمي »؛ كما في: ترجمة الإمام الحسين ومقتله ـ لابن سعد ـ: ٧١، تاريخ دمشق ١٤ / ١٨٢، اللهوف على قتلى الطفوف: ١٥٣، بغية الطلب في تاريخ حلب ٦ / ٢٥٩٢، تهذيب الكمال ٤ / ٤٨٣.

ومصادر أُخرى ذكرت أنّه « بشير بن عمرو الحضرمي »؛ كما في: مقتل الحسين ـ لأبي مخنف ـ: ١٥٦، تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٠.

وترجم له صاحب « تنقيح المقال » قائلاً: « بشر بن عمرو بن الأحدوث الحضرمي الكندي، كان من حضرموت وعداده في كندة، وكان تابعيّاً، وله أولاد معروفون بالمغازي، وكان ممّن جاء إلى الحسين عليه السلام أيّام المهادنة ». انظر: تنقيح المقال ١ / ١٧٣ رقم ١٣٣١.

(٣) الحويّة: كساء محشوٌّ حول سنام البعير، وهي السويّة، والحويّة لا تكون إلاّ للجمال، والسويّة قد تكون لغيرها، لذا تقول العرب: المَنايا على الحَوايا؛ أي قد تأتي المنيّة للشجاع وهو على سرجه. انظر: لسان العرب ٣ / ٤٠٩ مادّة « حوا ».

في فكاك ابنك.

فقال: أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك.

قال: فاعط ابنك هذه الأثواب البرود يستعين بها في فداء أخيه.

فأعطاه خمسة أثواب قيمتها ألف دينار »[١].

وعليه: فيكون قيمة كلّ ثوب مئتي دينار (مئة ليرة ذهب).

وأنا لا أدري ما كانت تلك الثياب التي قيمة الواحد مئة ليرة؟! وكم كان معه مثلها؟! ولماذا يحملها وأمثالها معه في تلك المراحل؟!

هذه سؤلة لعلّك في غنىً عن الجواب عنها، ولكن أيّها الناقد المشكّك! أتحسب أنّ الحسين عليه السلام كان صعلوكاً من صعاليك العرب، ولئيماً من لئامها، كابن الزبير، الذي يقول لجنده: « أكلتم تمري وعصيتم أمري »[٢]؟!

ويقول للوافد عليه، المستجدي منه، بعد أن قال له: إنّ ناقتي قد نقبت[٣].

---

(١) انظر: ترجمة الإمام الحسين ومقتله ـ لابن سعد ـ: ٧١ رقم ٢٩٢، تاريخ دمشق ١٤ / ١٨٢، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٥٣ ـ ١٥٤، بغية الطلب في تاريخ حلب ٦ / ٢٥٩٢، تهذيب الكمال ٤ / ٤٨٣، بحار الأنوار ٤٤ / ٣٩٤.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة ٢ / ١٢٣، تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٦٦.

(٣) النَّقِبُ: رقّة الأخفاف، نَقِبَ البعيرُ ينقبُ فهو نَقِبٌ، بالكسر إذا رقّت أخفافه.

انظر: لسان العرب ١٤ / ٢٤٩ مادّة « نقب ».

فقال: ارقعها بهلب[١]، واخصفها بسبت[٢].

فقال الوافد: لعن الله ناقةً حملتني إليك.

فقال: إنّ وراكبها »[٣].

لا يا هذا! الحسين أكبر ممّا تظنّ، الحسين أكبر من أن يتخلّص من طواغيت بني أُميّة الّذين أرادوا سفك دمه في حرم الله فتنتهك به حرمة الحرم، كما فعل ابن الزبير وفعلوا به، هو أكبر من أن يخلص بنفسه ويترك عياله يشرئبّون إليه ويتطلّعون إلى أخباره ويناشدون الركبان عنه.

وأمّا ما تخيّلْتَهُ من أنّ هتك الحريم لا يقدم الغيور عليه مهما كان الأمر، فهو وَهمٌ زائف، وقد عرّفناك أنّ الهتك المُشين هو الذي يلمس أذيال العفّة، ويمسّ ذلاذل[٤] الشرف، لا الذي تستحكم به أسوار الصون وسياج العفاف.

---

(١) الهُلْبُ: الشّعر كلّه، وقيل: هو في الذّنب وحده ؛ وقيل: هو ما غلظ من الشعر، والهُلْبةُ شعر الخنزير الذي يخرز به. انظر: لسان العرب ١٥ / ١١١ مادّة « هلب ».

(٢) السِّبْتُ ـ بالكسر ـ جلود البقر المدبوغة بالقَرظ، تحذى منه النّعال السبتية.

انظر: لسان العرب ٦ / ١٤٠ مادّة « سبت ».

(٣) انظر: الأغاني ١ / ١٨ ـ ١٩، تاريخ دمشق ٢٨ / ٢٦١ و ج ٤٨ / ٢٨٥، النهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ٧٨، شرح نهج البلاغة ٢٠ / ١٣٩.

وذكر القصّة ابن منظور في لسان العرب ١ / ٢٤٤ مادّة « أنن » وقال: « إنّ وراكبها » ؛ يعني: نعم مع راكبها.

(٤) ذلاذل القميص: ما يَلي الأرض من أسافله. الواحد ذُلذُلٌ. انظر: لسان العرب ٥ / ٥٧ مادّة « ذلل ».

وبعد هذا كلّه، فهل أقنعك هذا الوجه، وعرفت كيف كانت منزلة الحسين عليه السلام من عظمة الشأن وسموّ السلطان؟!

وهناك وجه ثالث لحمل العيال، وهو: كما كانت العرب عليه من أنّهم إذا أرادوا أن يستميتوا في الحرب، ويصبروا للطعن والضرب، جعلوا الحريم خلفهم، واستقبلوا العدوّ، فأمّا الحتف أو الفتح، ويستحيل عندهم النكوص أو الفرار، وترك الحريم للذلّ والإسار، ويشهد لهذا عدّة وقائع لا تغيب عن الضليع في تاريخ العرب[1]، عليه حَمَلَ العيال كي يستميت أصحابه دونها، وينالوا درجة السعادة بالشهادة كما فعلوا.

وهناك وجه رابع لعلّه أوجه من تلك الوجوه، وأقربها إلى الحقيقة، وإنْ كانت للحسين عليه السلام ملحوظة وراء التعبّد والانقياد والرضا والتسليم للمشيّة القاهرة، وكانت سياسة عن فلسفة نظرية، وتدابير بشرية، فهي هذه الملاحظة التي سوف نبديها ونشير إليها على الجملة حيث لا سعة للتفصيل.

تقول أيّها الناقد: « إنّ الحسين عليه السلام كان يعلم أنّه يقتل »..

نعم، وأنا أقول كذلك، بل يعلم أنّ جميع مَنْ معه مِن الرجال، بل وكثير من الأطفال يُقتلون حتّى الرضيع[2]، ولا يفلت إلاّ وَلَدهُ

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ١ / ٤٧٦ ــ ٤٨٢ أحداث معركة ذي قار، و ج ٢ / ١٦٦ أحداث غزوة حنين سنة ٨ هـ.

(٢) انظر: مقتل الحسين ـ لابن أعثم الكوفي ـ: ١٤٠، تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٢، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٦٨ ـ ١٦٩.

زين العابدين من أجل العلّة والمرض.

فلمّا عَلِمَ ذلك كُلّه، وَعَلِمَ أنّ بني أُميّة وأشياعهم سوف يموّهون، بل كانوا قد موّهوا على المسلمين أنّ الحسين عليه السلام خارج على إمام زمانه، وهو يزيد المنصوب بالنصّ عليه بالاستخلاف من الخليفة الذي قبله وهو معاوية، فالحسين عليه السلام بخروجه باغ، وحكم الباغي القتل ﴿**فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾[1]، فتكون هذه الفتوى وهذا التمويه أعظم على الحسين مِن قتله.

وهذا الطلاء المبهرج، وإنْ كان لا يخفى على العارفين والناقدة، ولكنّهم بالضرورة خاضعون للسلطة، قد شملتهم الذلّة، وأخملتهم القلّة، وألجمهم الخوف والتقيّة، سيّما بعد الفراغ من أمر الحسين عليه السلام، فلا رحمة لأحد بعده ولا حرمة، والناس كما قال هو سلام الله عليه يوم الطفّ، وكما هو حالهم اليوم: « **عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم** »[2]، فمن ذا يقدر أن ينبس[3] بالحقيقة، فضلاً عن الإصحار[4] بها، وسيوف

(١) الحجرات: ٩.

(٢) انظر: تحف العقول: ١٧٤، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ١ / ٣٣٧، كشف الغمّة ٢ / ٣٢.

(٣) نَبَسَ ينبسُ نبساً: وهو أقلّ الكلام: وما نبس، أي: ما تحرّكت شفتاه بشيء، وما نبس بكلمة ؛ أي: ما تكلّم. انظر: لسان العرب ١٤ / ٢٠ مادّة « نبس ».

(٤) الإصحار: المجاهرة بالشيء، وأبرز له ما في نفسه صَحاراً: أي: جاهره به جهاراً. انظر: لسان العرب ١٧ / ٢٨٩ مادّة « صحر ».

يزيد وابن زياد فوق أرؤسهم، وأموالهم نصب أعينهم؟!

وتعلم كيف يلعب الرجاء والخوف في النفوس، فحينئذ فلا يمرّ حول أو حولان إلاّ وقد سجّل التاريخ أنّ الحسين عليه السلام ـ وأستغفر الله ـ باغ عات وقد قُتل بحكم شريعة جدّه.

وبَعّدَ الناقدُ فريتَه بقوله: هلاّ بايع كما بايع أخوه الحسن عليه السلام ودفع عن نفسه وأهله القتل؟!

كيف؟! وقد قال بعض النواصب في القرون الوسطى: إنّ الحسين قتل بسيف شريعة جدّه.

وهذه عند الحسين ـ وهو عَلَمُ الحقّ، ومنارُ الهُدى، وجسمُ روحِ الغيرة والإباء ـ رزيّة لا رزيّة فوقها، ومصيبة لا مصيبة أعظم منها.

فعلى من يعتمد الحسين عليه السلام في دفع هذه الغائلة[1]، وتفنيد هذه الضلالة، وإنقاذ المسلمين من هذه الورطة المهلكة؟!

أعَلى رجال وكلّهم سوف يقتلون معه بعلم منه؟!

أم على زين العابدين، وهو أسير مشغول بعلّته، وقتله أهون عليهم من قتل ذبابة؟!

فمَن يقوم للحسين بهذه المهمّة بعد قتله؟!

ومَن ذا يقرع بالحجّة، ويوضح المحجّة، ويكشف الحقيقة، ويتعقّب

(١) الغائلة: الحِقد الباطن. انظر: لسان العرب ١٠ / ١٦١ مادّة «غيل».

القضية، ويخطب في النوادي الحاشدة، والجوامع الحافلة، تلك الخطبة البليغة، والحجج الدامغة؟!

تصوّر ذلك العصر مليّاً، واستوسع التأمّل في تلك الأوضاع، وانظر هل كان من الممكن أن يقوم بشيء من ذلك أكبر رجل باسل؟!

وهب أنّ الممكن أن يفادي رجلٌ بنفسه للحقّ وإبداء الحقيقة، ولكن هل يمهلوه إلى أن يستوفي الغرض ويبلغ الغاية؟!

أوَليس عبد الله بن عفيف الأزدي، ذلك البصير الذي ذهبت عيناه، واحدة يوم الجمل والأُخرى بصفّين ؛ نعم، ذهبت عيناه، ولكن فتح الله له في قلبه عشرة عيون، وسقط الجهاد عنه بيده، ولكن جاهد في لسانه بعشرة أسياف إلى أن أحرز الشهادة في هذا السبيل.

فإنّه لمّا سمع خطبة ابن زياد على منبر الكوفة بعد قتل الحسين عليه السلام وهو يقول: « الحمد لله الذي نصر أمير المؤمنين يزيد وأشياعه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب »، نهضت به الحمية والحماية للحقّ، وفادى بنفسه في ذلك الحشد الرهيب، فقام وقطع عليه خطبته قائلا له: « إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت ومن استعملك يا عدوّ الله، تقتلون أولاد النبيّين وتتكلّمون بهذا الكلام على منابر المسلمين.

فغضب ابن زياد وقال: من هذا المتكلّم؟!

فقال: أنا المتكلّم يا عدوّ الله!

أتقتل الذرّيّة الطاهرة الّذين أذهب الله عنهم الرجس وتزعم أنّك على

دين الإسلام؟!

وا غوثاه! أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقموا من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان محمّد صلى الله عليه وآله[1]؟!

فازداد غضب ابن زياد حتّى انتفخت أوداجه، وقال: عَلَيَّ به!

فقام الجلاوزة فأخذوه، وقامت الأشراف من الأزد عشيرته فخلّصوه، وانطلقوا به إلى منزله».

ولكن هل خلص ونجا من ذلك الطاغية؟! وهل كان آخر أمره إلاّ أن

---

(١) هنا إشارة إلى تفسير الآية الكريمة: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الإسراء ١٧: ٦٠، التي نزلت في بني أُميّة الّذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وقد نقلت ذلك كتب التفسير والحديث والتاريخ، انظر مثلاً: تفسير الثعلبي ٦ / ١١١، تفسير ابن جزيّ الكلبي ٢ / ١٧٤، تفسير القرطبي ١٠ / ١٨٣ ـ ١٨٤، تفسير الفخر الرازي ٢٠ / ٢٣٩، زاد المسير ٥ / ٤٠ ـ ٤٢، البحر المحيط ٦ / ٥٤ ـ ٥٥، تفسير ابن كثير ٣ / ٤٨، تفسير البيضاوي ١ / ٥٧٥، الكشّاف ٢ / ٤٥٥، الدرّ المنثور ٥ / ٣٠٩ ـ ٣١٠، تفسير غرائب القرآن ـ للنيسابوري ـ ٤ / ٣٦١ ـ ٣٦٢، فتح القدير ٣ / ٢٣٨ ـ ٢٤٠، فتح الباري ٨ / ٥٠٨ ح ٤٧١٦، عمدة القاري ١٩ / ٣٠، لباب النقول في أسباب النزول ـ بهامش تفسير الجلالين ـ: ٢٣٥، مجمع البيان ٦ / ٢٥٠، شرح نهج البلاغة ٩ / ٢٢٠ و ج ١٢ / ٨١، مسند أحمد ٢ / ٥٢٢، مجمع الزوائد ٥ / ٢٤٠ ـ ٢٤١، تاريخ الطبري ٥ / ٦٢١ حوادث سنة ٢٨٤ هـ، الخلفاء الراشدون ـ للذهبي ـ: ٢٠٩ و ٢١٠، البداية والنهاية ٦ / ١٧٦ ـ ١٧٧ و ١٨٢، تاريخ الخلفاء ـ للسيوطي ـ: ١٦.

أُحضر بين يديه فضرب عنقه صبراً وصلب جثمانه في السبخة[١] في قصّة طويلة، وما ظفر ابن زياد به إلاّ بعد حرب سجال وتحريش منه خبيث بين اليمانية والمضرية على قاعدة التفرّق[٢].

نعم، ما أنكر على ابن زياد إلاّ عبد الله بن عفيف رضوان الله عليه، وإلاّ ذلك الصحابي الضعيف بكلّ مواقع الضعف، ألا وهو زيد بن أرقم، فإنّه حين رأى رأس الحسينعليه السلام بين يدَي بن زياد وهو يضربه بعوده، قال له: «ارفع عودك عن هاتين الشفتين! فوالله لطالما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلهما.

ثمّ بكى زيد، فقال له ذلك الخبيث: أتبكي لما فتح الله للأمير؟! لولا أنّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لأخذت الذي فيه عيناك!

فخرج زيد وهو يقول: ملَكَ عبدٌ حرّاً، أنتم يا معشر العرب عبيد بعد اليوم، قتلتم ابن بنت رسول الله وأمَّرْتُم ابن مرجانة»[٣].

---

(١) السبخة: أرضٌ ذات ملح ونَزّ، وجمعها سِباخ.انظر: لسان العرب ٦ / ١٤٨ مادّة « سبخ ».

(٢) انظر: أنساب الأشراف ٣ / ٤١٣ ـ ٤١٥، تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٧، مقتل الحسين ـ لابن أعثم الكوفي ـ: ١٥٢ ـ ١٥٦، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ٥٨ ـ ٦٢، الردّ على المتعصّب العنيد: ٤٤، الكامل في التاريخ ٣ / ٤٣٦.

(٣) انظر: أنساب الأشراف ٣ / ٤١٢ ـ ٤١٣، تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٦، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ٥٨ ـ ٦٢، الردّ على المتعصّب العنيد: ٤٤، الكامل في التاريخ ٣ / ٤٣٦، أُسد الغابة ٢ / ٢١ ترجمة الإمام الحسين، البداية والنهاية ٨ / ١٥٢.

ولا أستحضر مُنْكِراً على ابن زياد غير هذين الرجلين، وكلماتهما وإنْ كانت ذات قيمة ثمينة في مثل تلك الأيام العصيبة والمواقف الرهيبة، ولكن أيّ شيء لها من التأثير؟!

وما ميلها في تلك التيارات الجارفة والزوابع القاصفة؟!

وهل هي إلاّ كلمات قيلت وذهبت أدراج الرياح؟!

وهل كانت تكفي لإيجاد بواعث الثورة، وتكوين الانقلاب على بني أُميّة وتحرير النفوس وغليان الأفكار وتأجيج النار لطلب الثار؟!

كلاّ ثمّ كلاّ، فإنّ الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك، يحتاج إلى المثابرة والتعقيب في الخطب الرنانة والكلمات المهيّجة، وتشهير المثالب والمساوئ، ونقد السيّئات ونعيها على تلك الدولة الغاشمة والسلطة الظالمة والحكومة الجائرة.

فإنّ بهذا ومثله تتكوّن في الأُمّة روح ثورة وانفجار يكتسح ظلم الظالمين، وتقتلع عروق الجور والاستبداد.

قل لي برأيك أيّها الناقد، أيّ رجالات ذلك العصر كان يقدر على القيام بتلك المهمّة، ويقوى على النهوض بذلك العبء؟!

أليس قصارى أمره مهما كان من البسالة والجرأة أن يقول الكلمتين والثلاث، فيقال: خذوه فاقتلوه فاصلبوه في السبخة أو في الكناسة؟!

أليس زين العابدين عليه السلام مع أنّه عليل أسير ـ والأسير لا يُقتل ـ قد أمر

ابن زياد بقتله لجواب خفيف وقول طفيف، فإنّ ابن زياد بعد أن فرغ من تحدّي زينب وأخرجته بقوّة العارضة والبيان من الميدان مكعوماً[١] بالخزي والخذلان التفت إلى زين العابدين، فقال: « من هذا؟!

فقيل له: هو عليّ بن الحسين عليه السلام.

فقال: أليس قد قتل الله عليّاً؟!

فقال سلام الله عليه: **كان لي أخ يقال له عليّ قتله الناس.**

فقال ابن زياد: بل الله قتله!

فقال الإمام: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٢].

فقال له: أوَبِكَ جرأةٌ على ردّ جوابي؟! يا غلمان! خذوه فاضربوا عنقه!

فتعلّقت به زينب، وقالت: يا بن زياد! حسبك من دمائنا ما سفكت، فإن عزمت على قتله فاقتلني معه.

فقال الطاغية: عجباً للرحم! فوالله لَوَدَّتْ أن تموتَ دونه، اتركوه لِما به»[٣].

وما تركه رحمةً لها، ولكن قد رأى أنّ العلّة والإسار والأغلال

(١) الكعام: شيء يجعل على فم البعير، كعم يكعمُ كعماً، فهو مكعوم وكعيم: شدّ فاه، والجمع: كُعُم. انظر: لسان العرب ١٢ / ١١٠ مادّة « كعم ».

(٢) الزمر: ٤٢.

(٣) انظر: ترجمة الإمام الحسين ـ لابن سعد ـ: ٧٩، تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٧، مقتل الحسين ـ لابن أعثم الكوفي ـ: ١٥٠ ـ ١٥١، الكامل في التاريخ ٣ / ٤٣٥.

والجامعة[١] ستقضي عليه وتكفي ابن زياد مؤنة قتله.

فإنّ سلامة زين العابدين وبقاء حياته كان من خوارق العادة، وعلى خلاف مجاري الأسباب، ولو قُتل أو مات في تلك البرهة لانقَطَعَ نسل الحسين، ولكن مشيئة الله سبحانه وقضاءه السابق بأنّ الأئمّة من ذرّيّته لا يردّ ولا يُغلب، وكانت زينب هي السبب في حفظه على الظاهر.

فليكن هذا وجهاً خامساً لحمل العيال، فلعلّ الحسين عرف العلّة والمرض لا يكفي في سلامة ولده، وأنّهم قد يقتلونه على مرضه، وأنّ لزينب موقفها الباهر في المفاداة والدفاع عنه.

وكلّ غرضنا من سحب أذيال هذا المقال، أن يتجسّم لديك كيف كان الحال في كمّ الأفواه، وعقل الألسن، وإرجاف القلوب، ومشق الحسام لضرب الهام على أقلّ الكلام.

إذاً فمَن يَردّ تلك الأمانة ويؤدّي تلك الوديعة، وديعة الحقّ، وأمانة الصدق، والانتصار للحقيقة، وإزهاق الباطل؟!

نعم، قُمْنَ بكلّ تلك الوظائف على أوفى ما يرام، وأتمّ ما يحصل به الغرض، قُمْنَ به ودائع النبوّة وحرائر الوحي والرسالة، نهضن بتلك الأعباء الثقيلة التي تعجز عنها الأبطال وأُسود الرجال.

---

(١) الجامعة: الغُلُّ ؛ لأنّها تجمع اليدين إلى العنق. انظر: لسان العرب ٢ / ٣٥٩ مادّة « جمع ».

كأنّ الحسين عليه السلام علم ـ ولا شكّ أنّه علم ـ أنّه سيُقتل هو وجميع أهل بيته وأنصاره، ولا يبقى رجل يتسنّى له الكشف لجمهرة ذلك الخلق التعس عن فظاعة تلك الجناية وشناعة تلك الجرائم السيّئة، ولو أهمل هذه الناحية المهمّة لذهب قتله سدىً، ولفات الغرض والغاية، فلم يجد بُدّاً من حمل تلك المصونات معه لتكميل ذلك المشروع الذي ابتذل نفسه ونفوس أعزّته في سبيله.

وعلم سلام الله عليه أنّ بني أُميّة مهما بلغوا في خرق النواميس وهتك الحرمات والتجاوز على الشناشن[1] العربية، والشرائع الإسلامية، ولكنّهم لا يقدرون على قتل النساء ؛ لا يقدرون على قتل امرأة مصابة مفجوعة تكلّمت بشيء من الكلام تبريداً وتسكيناً للوعتها.

ويوم الطفّ وإنْ قَتَلَ حزبُ بني أُميّة عدّةً من النساء الوديعات[2]، كما

(١) الشِّنْشِنة: الطبيعة والخليقة والسَّجيّة، والشناشن العربية: يعني السجايا والأخلاق والطبائع العربية. انظر: لسان العرب ٧ / ٢٢٠ مادّة « شنن ».

(٢) استُشهدت مع الإمام الحسين عليه السلام يوم الطفّ امرأةٌ واحدة، هي: أمّ وهب النمرية القاسطية، ذكر ذلك الطبري في تاريخه، بعد أن سرد قصّة التحاقها هي وزوجها عبد الله بن عمير الكلبي بركب الإمام عليه السلام يوم الطفّ، وخروج زوجها للمبارزة والقتال بين يدي الإمام عليه السلام، وخروجها هي أيضاً للقتال شاحذةً همّة زوجها، مناصرةً لإمام زمانها، ولكنّ الإمام عليه السلام منعها وردّها إلى الخيام، قائلا لها: ارجعي رحمك الله إلى النساء، فإنّه ليس على النساء قتال.

قال: وخرجت إلى زوجها بعد أن استشهد حتّى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب

قتلوا الأطفال(١)، ولكنّ الحربَ لها أحكام وشواذّ لا تجري في غيرها.

لا، وكلاّ، لا يستطيع ابن زياد ـ مهما طغى وتجبّر ـ أن يقتل ساعة السلم امرأة عزلاء، أسيرة بين يديه، لا تحمل من السلاح إلاّ قلبها

وتقول: هنيئاً لك الجنّة ؛ فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام له يسمّى رستم: اضرب رأسها بالعمود! فضرب رأسها فشدخه فماتت مكانها.

تاريخ الطبري ٣ / ٣٢١ ـ ٣٢٢ و ٣٢٦، وانظر: أنساب الأشراف ٣ / ٣٩٨، الكامل في التاريخ ٣ / ٤٢٢، البداية والنهاية ٨ / ١٤٥.

إلاّ أنّ ابن أعثم الكوفي وابن شهر آشوب والخوارزمي وابن طاووس رووا أنّها كانت مع ولدها وهب وزوجته، التي حاولت أن تثنيه عن الخروج والقتال مع الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام في بادئ الأمر، لكنّ أُمّه كانت تشدّ من أزره وتحثّه على الاستشهاد بين يدي الإمام عليه السلام ليكون شفيعاً له عند ربّه يوم القيامة، إلاّ أنّ زوجته أخذت ـ بعد ذلك ـ عموداً فأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأُمّي! قاتل دون الطيّبين حرم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فأقبل ليردّها إلى النساء، فأخذت بثوبه وقالت: لن أعود دون أن أموت معك ؛ وظلّت تقاتل معه إلى أن ردّها الإمام الحسين عليه السلام إلى الخيمة.

انظر: الفتوح ـ لابن أعثم الكوفي ـ ٥/ ١١٦ ـ ١١٧، مناقب آل أبي طالب ـ لابن شهر آشوب ـ ٤/ ١٠٩ ـ ١١٠، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ١٥ ـ ١٦، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٦١.

(١) واستُشهد مع الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام يوم الطفّ من الأطفال الّذين لم يبلغوا الحلم خمسة، وهم: عبد الله بن الحسين الرضيع، وعبد الله بن الحسن، ومحمّد بن أبي سعيد، والقاسم بن الحسن، وعمرو بن جنادة الأنصاري ؛ وقد ذكر أصحاب السير والتواريخ كيفية استشهادهم.

انظر: تاريخ الطبري ٣ / ٣٣١ ـ ٣٣٤، الكامل في التاريخ ٣ / ٤٢٨ ـ ٤٣٣، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ٢١ ـ ٢٢، مناقب آل أبي طالب ٤ / ١٠٤.

ولسانها، قلبها درعها، ولسانها [سيفها]، لا يستطيع أن يقتل امرأة مهما تجرّأت عليه، بل ولا يستطيع أن يمدّ يده إليها فيضربها.

إنّ زينب العقيلة لمّا سوّدت وجه ابن زياد ولطمته تلك اللطمة السوداء بقولها: « ثكلتك أُمّك يا بن مرجانة! »، اسودّت الدنيا في عينه، حيث عرف والحاضرون ما أرادت، فَهَمَّ أن يضربها، ولكنّ عمرو بن حريث، وهو من أكبر القوّاد في جند ابن سعد، وكان أميراً على الرجّالة بعد أن كان من خواصّ أمير المؤمنين في صفّين، أنكر عليه وجاءه بحجّة، وهي أنّها امرأة، والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها، فقال ابن زياد: « أما تراها كيف تجرّأت عليّ؟! »[1].

كان الحسين وأنصاره قد وقفوا يوم الطفّ موقفاً تجسّمت فيه روح الشجاعة والبسالة، وأصبح المثل الأعلى للعزم والإقدام والاستهانة بهذه الحياة في سبيل العزّ والإباء، ودون موارد الذلّ!

وقفوا موقفاً ما حدّثنا التاريخ بمثله، ولا سمع الدهر بنظيره!

وقف سبعون رجلاً في مقابل سبعين ألفاً، ومددهم إلى الكوفة، بل إلى الشام متواصل، وهؤلاء لا مدد لهم، هؤلاء على شاطئ النهر يكرعون منه، وينتهلون كلّ حين، وأُولئك قد حُبسوا عن الماء يومين أو ثلاث، والعطش وحرّ الهجير ورمال الصحراء أحرق أجسادهم، وفتّت أكبادهم،

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٧.

وأطفالهم يتصارخون من العطش نصب أعينهم، وعلى احتفاف أضعاف ذلك الرزايا والمحن بهم.

نعم، ومع كلّه ما هانوا ولا استكانوا، ولا فشلوا ولا ذلّوا، بل كانوا يزدادون بشراً وطلاقة، وعزماً وصلابة، وعزّاً وشهامة.

حقّاً إنّه لموقف باهر، ومقام قاهر، وحديث مدهش، ونفوس غريبة، بل وفوق الغرابة بمكان!

ولكن ألا أدلّك على أدهى من موقف أنصار الحسين عليه السلام وأدهش وأبهى وأبهر؟! هو موقف عقائل النبوّة في مجلس يزيد وابن زياد!

أتستطيع أن تستحضر في نفسك، وتتمثّل في أمّ رأسك مجلس ابن زياد في قصر الإمارة بالكوفة وقد أدْخَلوا عليه السبايا والرؤوس، وفيهنّ الحرّة الحوراء زينب الكبرى، وهو سكران بنشوة الفتح والظفر، ورؤساء الأرباع والأسباع[1]، ورؤوس القبائل مثول بين يديه، والدنيا مقبلة بكلّ وجهها عليه؟!

دخلت عليه تلك العقيلة وجلست ناحية متنكّرة، فأبت نفسه الخبيثة أن

---

(١) الأرباع: جمع الرَّبع ؛ أي المنزل والمحلّة والدار. والأسباع: جمع السُّبع ـ بالضمّ ـ: وهي جزء من سبعة.انظر: لسان العرب ٥ / ١١٥ مادّة « ربع »، تاج العروس ١١ / ١٩٩ مادّة « سبع ». ورؤساء الأرباع والأسباع كناية عن رؤساء العشائر والأحياء والمجاميع التي كانت حاضرة مجلس ابن زياد حين دخول حرم رسول الله سبايا إلى قصره.

يصفح صفح الكرام، ويغضي إغضاء الأماجد، أبت نفسه إلاّ إظهار الشماتة، ولؤم الملَكة، وخبث الظفر، وسوء الاستيلاء، وقبيح الأثرة، فسأل ـ ولا شكّ أنّه.......[1]، ويهتكها ـ وهو المهتوك ـ وقال: « مَن هذه المتنكّرة؟!

فقيل له: هي زينب بنت عليّ عليه السلام.

فقال لها قول الشامت الشاتم: أرأيت كيف صنع الله بأخيك الحسين والعتاة المردة من أهل بيته؟!

فقالت ـ قول الثابت الجَنان، المتدرّع بدلاص[2] اليقين والإيمان، المستحقر له ولكلّ ما له من قوّة وسلطان ـ: **ما رأيت إلاّ جميلاً، أُولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجّ وتخاصم فانظر لمن الفلج[3]؟! ثكلتك أُمّك يا بن مرجانة!**

فلمّا لطمته بهذه اللطمة السوداء لم يجد سبيلاً للتشفّي منها والانتقام إلاّ بأسوأ الكلام من السباب والشتيمة، فقال: الحمد لله الذي قتلكم

---

(١) كذا في الأصل، والظاهر أنّ هناك سقطاً في الفقرة.

(٢) الدّلاص من الدروع: الليّنة، ودرعٌ دِلاص: برّاقة ملساء ليّنة بيّنة الدَّلَص، والجمع: دُلُصٌ. انظر: لسان العرب ٤ / ٣٨٨ مادّة « دلص ».

(٣) الفَلْجُ: الظَّفَرُ والفوز، وقد فَلَجَ الرجلُ على خصمه يفلجُ فلجاً. انظر: لسان العرب ١٠ / ٣١٤ مادّة « فلج ».

وفضحكم، وأكذب أُحدوثتكم.

فقالت ـ غير طائشة ولا مذعورة ـ: **إنّما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا.**

وقف الحسين وأنصاره ظهيرة عاشوراء وهم على خيولهم الجياد، وفي أيمانهم البيض الحداد[١]، وعلى متونهم السمر الصِعاد[٢]، قد رفلوا بأبراد العزّ، وتكلّلوا بتيجان الشرف، لا يُقتل منهم واحد حتّى يَقتلوا ألفاً من عدوّهم[٣]، وهم ضاحكون مستبشرون، ثقة بما يصيرون إليه بَعدُ من منازل الفردوس الأعلى في دار النعيم.

كان هذا موقف الحسين وأنصاره يوم الطفّ.

ووقفت زينب بنت عليّ عليها السلام والخفيرات من أهل بيتها في مجلس ابن زياد وهم في قيد الإسار، وذلّ الصغار، لا ترى أمام عينها إلاّ عدوّاً شاتماً، أو كاشحاً[٤] شامتاً، أو قاتلا لحُماتها وسُراتها، واليتامى والأيامى حولها،

---

(١) البيض الحِداد: السيوف الحداد القاطعة التي شُحذت ومُسحت بحجر أو مبرد.

انظر: لسان العرب ١ / ٥٥٥ مادّة « بيض » و ج ٣ / ٨٠ مادّة « حدد ».

(٢) الصعدَةُ: القناة، وقيل: القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى التثقيف، والجمع: صِعاد، وقيل: هي نحوٌ من الألَةِ، والألَّةُ أصغَرُ من الحربة. انظر: لسان العرب ٧ / ٣٤٤ مادّة « صعد ».

(٣) جهة الالتئام دقيقة مع ما سبق [ذكره]: « وقف سبعون رجلاً في مقابل سبعين ألفاً »، بالمبالغة هنا والحقيقة هناك. منه قدس سره.

(٤) الكاشح: العدوّ المبغض الذي يضمر لك العداوة ويطوي عليها كشْحَهُ، أي: باطنه.

كلّ هذه الشؤون والشجون ممّا تذيب القلب، وتذهل اللبّ، وتطيش عندها الأحلام، وتخرس الألسنة، وتموت الفطنة، ولا يستطيع أجلد إنسان أن ينبس بكلمة في مثل تلك الكوارث.

أفهل تخشى ـ لو تصوّرت مزايا تلك الرزايا لزينب ـ أن تقول: إنّ موقفها عند ابن زياد كان أعظم من موقف أنصار الحسين يوم الطفّ عند جند ابن سعد؟!

قل ولا تخف، وعلَيَّ الإثبات.

هل أحسستَ في تلك الساعة الرهيبة من زينب أمام عدوّها القاسي الظالم الشامت الشاتم أن تلجلج لسانها؟! أو اضطرب جَنانها؟! أو ظهر عليها ذرّة من الذلّ والاستكانة؟! أو خضعت فانقطعت؟! أو عجزت عن ارتجال الخطب البليغة التي لو جاء بها الوادع الساكن والمطمئنّ الآمن بعد ليال وأيّام لكانت آية من آيات الإبداع، ورمزاً من رموز البراعة؟!

فكيف وقد اندفعت بها في حشد الرجال على سبيل الارتجال، وهي على ما عرفتَ من الوضع ؛ عنه يقال في الشدّة: « بين ذارعي وجبهة الأسد »[1]، تتقاذفها لهوات الكُرب، وتلوكها وتمضغها أنياب النوب، حتّى

انظر: لسان العرب ١٢ / ٩٩ مادّة « كشح ».

(١) عجز بيت للفرزدق، وتمامه:

يا مَن رأى عارضاً أسرَّ به ـــ بين ذراعي وجبهة الأسدِ

انظر: شرح ديوان الفرزدق: ٢١٥، كتاب سيبويه ١ / ١٨٠، إملاء ما مَنَّ به الرحمن: ٤٨٠

إنّ ابن زياد أعجَمَ عُودَها[1]، فرآها صلباً مرّاً، لا يلين لغامز، ولا يلذّ لماضِغ، وأنّها لا تنقطع ولا تكلّ، ولا تعرف للرهبة وللخوف معنىً، وخشي أن لا تُبقي من هتكه وفضيحته باقية، وأن تقلب عليه الرأي العامّ، وتُحْدِث في جماعته فتقاً لا يرتق، غيَّرَ من خطّته، وتنازل عن غُلوائه[2] وشدّته، فكان آخر كلامه معها بعد أن شفت غليلها منه: لعمري إنّها لسجّاعة، ولقد كان أبوها أسجع منها[3]؟!

لا يا بن مرجانة! ما هي بسجّاعة، هي أُمثولة الصبر والثبات، ورمز غلبة الحقّ على الباطل، واحتقار الحكم الزائف والملك الزائل، وسلطنة الخداع والمكر.

لا يا بن مرجانة! هذه زينب بنت عليّ الذي عَلَّمَ الناس الفصاحة، والبراعة، والشجاعة، والسجاعة.

تفسير الروم، خزانة الأدب ٢ / ٢٨١ ـ ٢٨٢. وأورده صاحب مغني اللبيب: ٤٩٨ رقم ٧٠٧ وفي ص ٨٠٩ رقم ١٠٤٧ دون أن ينسبه لأحد.

(١) العَجْمُ: عَضٌّ شديدٌ بالأضراس دون الثنايا، وعجم الشيء يعجمه عجماً وعجوماً: عضه ليعلم صلابته مِن خَوره ورَخاوته. انظر مادّة « عجم » في: لسان العرب ٩ / ٧٠، تاج العروس ١٧ / ٤٦٣. وأعجمَ عودَها: يعني اختبر قوّتها وصلابتها سلام الله عليها.

(٢) الغُلْواء ؛ سرعةُ الشباب وشِرّته، وغُلَواءُ كلِّ شيء أوّله وشِرّته. انظر: لسان العرب ١٠ / ١١٤ مادّة « غلا ».

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٧، مقتل الحسين ـ لابن أعثم الكوفي ـ ١٥٠، الكامل في التاريخ ٣ / ٤٣٥، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ٤٧ ـ ٤٨.

هذه زينب بنت الزهراء البتول، لا كمرجانة وسميّة ذوات الأعلام في الجاهلية والإسلام[١].

هذه زينب بنت الطاهرة العذراء، لا كهند الخرقاء[٢]، صاحبة القارعة[٣] والفاكّة[٤]، التي يقول فيها حسّان شاعر النبيّ صلى الله عليه وآله:

---

(١) سميّة: هي جارية للحرث بن كلدة، الطبيب الثقفي، كانت من البغايا ذوات الرايات بالطائف، وتسكن حارة البغايا خارجاً عن الحضر، وتؤدّي الضريبة للحرث، وكان قد زوّجها من غلام رومي له اسمه: عبيد، وفي أحد أسفار أبي سفيان للطائف طلب من أبي مريم الخمّار بغيّاً، فقدّم له سميّة فعلقت بزياد ووضعته على فراش عبيد سنة إحدى من الهجرة، وكان يُنسب إليه، ألحقه معاوية بأبيه أبي سفيان فقيل له: زياد بن أبي سفيان.

ومرجانة: هي زوجة زياد بن أبي سفيان، وأُمّ عبيد الله بن زياد.

انظر: الاستيعاب ٢ / ٥٢٣ رقم ٨٢٥، أُسد الغابة ٢ / ١١٩ رقم ١٨٠٠، مروج الذهب ٣ / ٦.

(٢) الخُرق: الجهل والحُمق ؛ خَرُقَ خُرقاً، فهو أخرق، والأُنثى خرقاء، وامرأة خرقاء: أي غير صَنَاع ولا لها رِفق، فإذا بنت بيتاً انهدم سريعاً.انظر: لسان العرب ٤ / ٧٤ مادّة « خرق ».

(٣) قارعة الدار: ساحتها، وقارعة الطريق: أعلاه، وقيل: وسطه، وقيل: هو نفس الطريق. وصاحبة القارعة: كناية عن المرأة التي تكثر الجلوس على قارعة الطريق ولا يسلم من لسانها المارّة، ولا تبالي بما يقال فيها. انظر: لسان العرب ١١ / ١٢٣ مادّة « قرع ».

(٤) الفاكُّ: الهَرِمُ من الإبل والناس، فَكَّ يَفُكُّ فكّاً وفكوكاً، وشيخ فاكٌّ إذا انفرج لحياه من الهَرم. انظر: لسان العرب ١٠ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ مادّة « فكك ».

لمن الصبيُّ بجانبِ البطحاء***............البيتين[١]

وما كانت تلك الشجاعة منها سلام الله عليها في مرّة أو مرّتين، بل كانت كلّما ضاق الأمر، واشتدّت المحنة، وتجمهر المتفرّجون عليهم عند دخولهم الكوفة، وعند خروجهم منها، وفي قصر الإمارة، وفي مجلس ابن زياد؛ في كلّ ذلك تتحدّى فتُدْهش، وتحتجّ فتُفْلج، وتخطب فتُعْجب، تخطب خطبة البليغ المُدِرِّ[٢]، والمِصْقَع[٣] المُفوَّهِ[٤] الذي تهيّأت له كلّ أسباب الدَّعَة[٥] والراحة والفراغ والطمأنينة.

دخل السبي إلى الكوفة بحال (يذوب الصفا منها ويشجي

---

(١) قال حسّان بن ثابت لهند ابنة عتبة بن ربيعة:

لمن الصبيُّ بجانبِ البطحاء ملقىً عليه غيرَ ذي مَهْدِ
نَجَلَتْ بِهِ بيضاءُ آنِسَةٌ مِن عَبْدِ شَمْس صَلْتَةُ الخَدِّ

انظر: ديوان حسّان بن ثابت ١ / ٣٩٦.

(٢) المُدِرُّ: المكثِر السّيّال، ودَرّت السماء بالمطر دَرّاً، إذا كثر مطرها، وسماء مِدرارٌ أي: تدرّ المطر. وهي هنا كناية عن غزارة علم عقيلة بني هاشم السيّدة زينب سلام الله عليها وبلاغتها. انظر: لسان العرب ٤ / ٣٢٤ ـ ٣٢٦ مادّة « درر ».

(٣) المِصْقَعُ: البليغ الماهر في خُطبته، والجمع: مصاقِع. انظر: تاج العروس ١١ / ٢٧٥ مادّة « صقع ».

(٤) المُفوَّهُ: الرجل الذي يجيد القول. انظر: لسان العرب ١٠ / ٣٥٦ مادّة « فوه ».

(٥) الدَّعَةُ: السكينة والوقار والتَّرَفُّه. انظر: لسان العرب ١٥ / ٢٥٠ ـ ٢٥١ مادّة « ودع ».

المحصبُ)[١]، فجعل أهل الكوفة ينوحون ويبكون، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام وقد أنهكته العلّة: « تقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم، فالحَكَمُ بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء »[٢].

ثمّ تعاظمت الفجيعة فصار الرجال والنساء يبكون معاً، فقال عليه السلام: « أتبكون وتنوحون لنا؟! فمن قتلنا؟! »[٣].

قال بشر بن خزيم الأسدي[٤]: ونظرت إلى زينب بنت عليّ عليه السلام يومئذ

---

(١) عجز بيت للشيخ هاشم الكعبي، من قصيدة طويلة يرثي بها الإمام الحسين عليه السلام في ٩٩ بيتاً، مطلعها:

مُنى القلب أن تدنو منّي بعولة ... وللركب قصدٌ دون ذاك ومطلبُ

إلى أن يقول:

ورحن كما شاء العدوّ بعولة ... يذوب الصفا منها ويشجى المحصبُ

ويقول في آخر القصيدة:

ولي منك موعودٌ أرجى نجاحه ... وبموعدك الحقّ الذي ليس يكذبُ

انظر: الديوان: ١ ـ ٦، أدب الطفّ ٦ / ٢١٨.

(٢) الكلام لأُمّ كلثوم بنت الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كما في: ينابيع المودّة ٣ / ٨٦، بحار الأنوار ٤٥ / ١١٥.

(٣) انظر: مقتل الحسين ـ لابن أعثم الكوفي ـ: ١٤٧، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ٤٥، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٢.

(٤) كذا في الأصل، وقد اختلف أصحاب السير والتواريخ في ضبط اسمه، ففي بلاغات النساء: ٧٤ ـ ٧٧: حذام الأسدي، ومرّة أُخرى حذيم، وفي الأمالي ـ للشيخ المفيد ـ: ٣١٢: حذلم بن ستير، وفي نسخة بدل: حذلم بن بشير، وفي الاحتجاج ٢ / ٢٩ و ٣١:

فلم أرَ خفرة قطّ أنطق منها كأنّما تنطق عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا، فارتدّت الأنفاس، وسكنت الأجراس[١]، ثمّ قالت:

« الحمد لله، والصلاة على أبي محمّد وآله.

أمّا بعد.. يا أهل الكوفة! يا أهل الختل[٢] والغدر! أتبكون؟! فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم كمثل التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[٣].

واندفعت كالسيل المنحدر، إلى أن قالت:

أتبكون وتنتحبون؟!

إي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها[٤].

حذيم بن شريك الأسدي، وفي مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ٤٥: بشير بن حذيم الأسدي، وفي الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٢ ـ ١٩٤: بشير بن خزيم الأسدي، وفي الرجال ـ للشيخ الطوسي ـ ٨٨ باب الحاء: حذيم بن شريك، وقد عدّه من أصحاب الإمام عليّ ابن الحسين عليه السلام.

(١) الجَرْسُ والجِرْسُ والجَرَسُ: الصوت الخفي، والحركة والصوت من كلّ ذي صوت، والجَرَسُ: الذي يُضرَب به، والجمع: أجراس. انظر: لسان العرب ٢ / ٢٤٨ مادّة « جرس ».

(٢) الختل: تخادع عن غفلة، خَتَله يختُله ويختِله ختلا وختلاناً، وخاتلهُ: خدعه عن غفلة، والختل: الخديعة. انظر: لسان العرب ٤ / ٢٤ مادّة « ختل ».

(٣) النحل: ٩٢.

(٤) الشّنار: أقبح العيب والعار. انظر: لسان العرب ٧ / ٢١١ مادّة « شنر ».

ويلكم! أتدرون أيَّ كبد لرسول الله فريتم؟! وأيَّ كريمة له أبرزتم؟! وأيَّ دم له سفكتم؟!

أفعجبتم أن قطرت السماء دماً ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾[(١)] وأنتم لا تنصرون، فلا يستخفنّكم الجهل، فإنّه لا يحفزه البدار[(٢)]، ولا يخاف فوت الثار، وإنّ ربّكم لبالمرصاد.

قال: فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً يبكي حتّى اخضلّت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم، كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل، لا يذلّ ولا يخزى »[(٣)].

---

(١) فصّلت: ١٦.

(٢) بادَرَ الشيء مبادَرَةً وبداراً وابتَدَرَهُ وبَدَرَ غيره إليه يَبْدُرُه: عاجَلَهُ، ولا يحفزه البِدار ؛ أي لا تدفعه المعاجلة، والضمير عائد إلى الله سبحانه.انظر: لسان العرب ١ / ٣٤٠ مادّة « بدر ».

(٣) انظر: الأمالي ـ للشيخ المفيد ـ: ٣٢١ ـ ٣٢٤، الأمالي ـ للطوسي ـ: ٩١ المجلس الثالث رقم ١٤٢، الاحتجاج ٢ / ١٠٩ ـ ١١٤، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ ٢ / ٤٥ ـ ٤٧، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٢ ـ ١٩٤. وقد أورد ابن طيفور الخطبة كاملة، إلاّ أنّه نسبها إلى أمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال: «.... عن حذام الأسدي ـ وقال مرّة أُخرى: حذيم ـ قال: قَدِمْتُ الكوفة... إلى أن قال: ورأيت أُمّ كلثوم ـ رضي الله عنها ـ ولم أرَ خفرة... إلى أن قال: ورأيت شيخاً كبيراً من بني جعفي، وقد اخضلّت لحيته من دموع عينه، وهو يقول:

كهولكم خيرُ الكهول ونَسْلُهُمُ إذا عُدَّ نسلٌ لا يبورُ ولا يُخزى »

انظر: بلاغات النساء: ٧٤ ـ ٧٧.

ثمّ خطبت أُمّ كلثوم بخطبة بليغة[١].

ثمّ خطبت فاطمة الصغرى بخطبتها التي تقول في أوّلها: «**الحمد لله عدد الرمل والحصى، وزنة العرش إلى الثرى...**»[٢] إلى آخر ما قالت.

هذا كلّه وهم سائرون يساقون في السبي على الهوادج والمحامل، وفي الكوفة، وعند ابن زياد.

ولكن هلمّ معي ندخل مع هذا السبي إلى الشام وننظر كيف دخوله على يزيد ووقوفهم بين يديه، ولنستبق إلى مجلس يزيد نتبوّأ لنا موقفاً منه قبل ازدحام المتفرّجين وتزاحم النظّارة..

ووقفنا في حاشية النادي الأُموي نتطلّع..

هذا يزيد جالس على السرير فوق المصطبة العالية، وهو مخمور يرنّح[٣] أعطافه[٤] من خمرتين: خمرة العُقار[٥]، وخمرة الانتصار، ومنتش

---

(١) انظر: بلاغات النساء: ٧٤، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٨.

(٢) الاحتجاج ٢ / ١٠٤ ـ ١٠٨ رقم ١٦٩، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٩٤ ـ ١٩٧.

(٣) التَّرنُّحُ: تَمَزُّز الشراب، ورنَّحَ الرجلُ وغيره وتَرنَّحَ: تمايل من السُكر وغيره.
انظر: لسان العرب ٥ / ٣٣١ مادّة « رنح ».

(٤) العِطفُ: المَنكِبُ، منكِب الرجل عطفه، وإبطه عِطفُهُ، والعُطوف: الآباط، وعِطفا الرجل والدابّة: جانباه عن يمين وشمال، وشِقّاه من لَدُن رأسه إلى وركه، والجمع أعطاف وعِطاف وعُطوف: وعِطفا كلّ شيء: جانباه. انظر: لسان العرب ٩ / ٢٦٩ مادّة « عطف ».

(٥) العُقار: الخمر، سُمّيت بذلك لأنّها عاقرت العقل، يقال: عاقره إذا لازمه وداوَمَ عليه، والمعاقرة: إدمان شرب الخمر. انظر: لسان العرب ٩ / ٣١٧ مادّة « عقر ».

بنشوتين: نشوة الملك، ونشوة الفتح والظفر(١)، ودونه طواغيت بني أُميّة من الأعياص والعنابسة(٢) من بني عبد شمس، وهم على كراسي الذهب والعاج، يرفُلون(٣) بحلل الديباج..

---

(١) أقول: نقل لنا أصحاب السير والتواريخ أنّ الله عزّ وجلّ نغّص نشوة يزيد بقتله أبي عبد الله الحسين عليه السلام في لحظات، ولم يدعه يهنأ بهذه النشوة ؛ ذلك حين جبهه يحيى بن الحكم أخو مروان، قائلاً:

لهام بِجَنْبِ الطَّفِّ أدنى قرابةً ... مِن ابن زياد العبدِ ذي الحسب الوغل

سُميّة أضحى نسلُها عَدَدَ الحصى ... وبنتُ رسولِ الله أضحتْ بلا نسل

وكذلك عندما اعترض عليه أبو برزة الأسلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قائلاً: « ويحك يا يزيد! أتنكث بقضيبك ثغر الحسين ابن فاطمة؟! أشهد لقد رأيت النبيّ يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن، ويقول: أنتما سيّدا شباب أهل الجنّة، فقتل الله قاتِلَكُما ولعنه، وأعدّ لهم جهنّم وساءت مصيراً ». انظر: أنساب الأشراف ٣ / ٤١٢، تاريخ الطبري ٣ / ٣٣٨ ـ ٣٤١، البدء والتاريخ ٢ / ٢٤٢.

(٢) كان لأُميّة بن عبد شمس من الوَلَد أحدَ عشرَ ذكراً، كلُّ واحد منهم يُكنّى باسم صاحبه، فمنهم: الأعياص، وهم: العاص وأبو العاص، والعيص وأبو العيص، والعويص لا كَنِيَّ له.

والعنابس، وهم: حرب وأبو حرب، وسفيان وأبو سفيان، وعمرو وأبو عمرو ؛ وإنّما سُمّوا العنابس لأنّهم ثبتوا مع أخيهم حَرب بن أُميّة بعكاظ، وعقلوا أنفسهم وقاتلوا قتالا شديداً فشُبِّهوا بالأسد، والأسود يقال لها العنابس، واحدها عنبسة. انظر: الأغاني ١ / ١٧ ـ ١٨، لسان العرب ٩ / ٤١٥ مادّة « عنبس ».

(٣) الرَّفْلُ: جَرُّ الذيل ورَكْضُه بالرِّجل، ورَفَلَ الرَّجُلُ في ثيابه يَرفُلُ إذا أطالها وجرّها متبختراً. انظر: لسان العرب ٥ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦ مادّة « رفل ».

وهـذه أقـداح الـشراب والخمـور، ونخـب الفـرح والـسرور تـدار عليـه وعليهم، والأعواد والمزامير تضرب لديهم..

فبينما [هم] على هذا ومثله، إذ أدخلوا سبي آل محمّدﷺ مربّقين[١] بالحبال، بين نساء وأطفال..

هناك استفزّته نشوة الأُنس والطرب، وتمنّى حضور أشياخه قتلى بـدر، من عتبة وشيبة والوليد[٢] ؛ ليشاهدوا أخذه بثأرهم، وقيامه بأوتـارهم، وأنّـه زاد على أخذ الثار بقتل الرجال وسبي العيال، قائلاً:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ***............[٣]

---

(١) الربقة: الحبل، أو عروة في الحبـل تُجعـل فـي عنـق الحيـوان، والربـق بـالفتح: مـصدر قولك: رَبَقْتُ الشاة والجدي أرْبُقها وأربِقُها ربقاً، وربّقها: شدّها في الربقة.

انظر: لسان العرب ٥ / ١٢٣ مادّة « ربق ».

(٢) لقد برز عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد يوم بدر إلى القتال، فبرز لهـم الإمـام أميـر المـؤمنين علـيّ بـن أبـي طالـبعليه‌السلام وحمـزة عـمّ النبـيّﷺ وعبيـدة بـن الحارث ؛ فقتل أميرُ المؤمنين الوليدَ بن عتبـة، وقتـل حمـزةُ شـيبةَ بـن ربيعـة، واختلـف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهمـا أثبـت صـاحبه، وكـرَّ الإمـام عليّعليه‌السلام علـى عتبـة فقتله. وعتبة بن ربيعة، هو والد هند زوجة أبي سفيان، أُمّ معاوية وجدّة يزيد ؛ لـذا هـو يستذكر هنا أجداده من مشركي قريش الّذين هلكوا في معركة بدر الكبـرى علـى يـد أمير المؤمنين عليّعليه‌السلام، ويعدّ انتصاره على الإمام الحسينعليه‌السلام هـو أخـذٌ بثـارات بـدر.

انظر: تاريخ الطبري ٢ / ٣٢.

(٣) صدر بيت للشاعر عبد الله بن الزِّبَعْرى من قصيدة قالها يوم أُحد، جـاءت فـي ١٦ بيتـاً، مطلعها:

يا غرابَ البين ما شئت فقلْ … إنّما تندبُ أمراً قد فُعِلْ

ثمّ يقول:

ليت أشياخي ببدر شهدوا … جزع الخزرج من وقع الأسلْ

إلى أن يقول:

بسيوف الهند تعلو هامهم … عَلَلا تعلوهُمُ بَعدَ نَهَلْ

هكذا أوردها ابن هشام في السيرة النبويّة ٤ / ٩٢ ــ ٩٣، وانظر نسبة القصيدة وبعض أبياتها في: طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٣٧ ــ ٢٣٩، الحيوان ــ للجاحظ ــ ج ٥ م ٢ / ٣٤٤، مقاتل الطالبيّين: ١١٩، المؤتلف والمختلف ـ للآمدي ـ: ١٩٤ ـ ١٩٥.

أمّا بالنسبة للأبيات التي كان يتغنّى بها يزيد ـ ورأس الإمام الحسين عليه السلام بين يديه مرّة، وأُخرى عندما أرسل مسلم بن عقبة رؤوس أهل المدينة له بعد وقعة الحرّة المشهورة ـ فقد ذكرها الخوارزمي في مقتل الحسين ٢ / ٦٥ ــ ٦٦، قال: فكشف عن ثنايا الحسين بقضيبه ـ أي: يزيد ـ فقال له بعض جلسائه: ارفع قضيبك! فوالله ما أُحصي ما رأيت شفتَي محمّد صلى الله عليه وآله في مكان قضيبك يقبّله، فأنشد يقول:

١ يا غراب البين ما شئت فقلْ … إنّما تندبُ أمراً قد فُعِلْ

٢ كلّ مُلك ونعيم زائل … وبنات الدهر يلعبن بكلْ

٣ ليت أشياخي ببدر شهدوا … جزع الخزرج من وقع الأسلْ

٤ لأهلّوا واستهلّوا فرحاً … ثمّ قالوا: يا يزيد لا تشلْ

٥ لست من خِندفَ إن لم أنتقم … من بني أحمد ما كان فعلْ

٦ لعبت هاشم بالملك فلا … خبر جاء ولا وحيٌ نزلْ

٧ قد أخذنا من عليٍّ ثارنا … وقتلنا الفارسَ الليثَ البطلْ

٨ وقتلنا القرم من ساداتهم … وعدلناه ببدر فاعتدلْ

إنّ الأبيات من ٤ ـ ٧ المذكورة أعلاه لم ترد في السيرة النبويّة ـ لابن هشام ـ ؛ لذا ذهب بعض أصحاب السير والتواريخ إلى أنّها من إنشاء يزيد وزياداته على القصيدة:

● يقول ابن أعثم في مقتل الحسين، ص ١٦٠: ثمّ زاد فيها ـ أي في القصيدة ـ هذا البيت:

لستُ من عتبة إن لم أنتقم ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ من بني أحمد ما كان فعلْ

● ويقول سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواصّ، ص ٢٣٥: قال الشعبي: وزاد فيها يزيد، فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ خبر جاء ولا وحيٌ نزلْ

لست من خِندفَ إن لم أنتقم ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ من بني أحمد ما كان فعلْ

● ويقول ابن كثير في البداية والنهاية ٨ / ١٨٠: وقد زاد بعض الروافض فيها، فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ خبر جاء ولا وحيٌ نزلْ

● وأورد صاحب العقد الفريد ٣ / ٣٧٤ البيتين ٣ و ٤ المذكورين أعلاه، وعلّق عليهما المحقّق قائلا: بأنّ البيت الثاني من إضافات يزيد.

● ويقول الطبري في تاريخه ٥ / ٦٢٣: فقال ـ أي يزيد ـ مجاهراً بكفره، ومظهراً لشركه ؛ وذكر الأبيات ٨، ٣، ٤، ٥، ٦، المذكورة أعلاه.

أقول: إنّ قصيدة ابن الزِّبَعْرى هذه كانت من الشهرة بمكان حتّى كان يتناقلها الرواة من قبل أن يتغنّى ويتمثّل بأبياتها يزيد، وبعد أن تمثّل بها يزيد وأضاف فيها ما أضاف من الأبيات ـ في مجالس الشرب والغناء التي كان يقيمها وهو واضع رأس الإمام الحسين عليه السلام أمامه ـ تناقلها الرواة كلٌّ حسب هواه، فمنهم من لم يشأ إظهار كفر يزيد بحذفه بعض ما أضافه يزيد من الأبيات، ومنهم من اتّهم بعضَ الشيعة بوضعها، ومنهم من نقلها كما هي أمانةً للتاريخ، مضيفين إليها ما في ذاكرتهم من الأبيات ؛ ولذا كان هذا الاختلاف في بعض ألفاظ الأبيات التي رويت على لسانه.

هنالك قامت العقيلة زينب فقالت، واسمع ما قالت، وانظر كيف خطبت، وهل راعها أو هالها شيء من تلك المظاهر الهائلة، وتأمّل في فقرات خطبتها التي قصمت بها الفَقار[1] من ظهر يزيد، وكانت أشدَّ عليه من ضرب الحسام في يد الضرغام، وانظر كيف صيّرته ـ وهو بتلك الأُبهة ـ أحقر من قلامة[2]، وأقذر من قمامة، قامت صلوات الله عليها فقالت:

« صَدَقَ اللهُ كَذلِكَ حينَ يَقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾[3].

أَظَنَنْتَ يا يَزيد حَيْث أَخَذْتَ عَلَيْنا أَقطارَ الأَرْضِ وَآفاقَ السَماء، فَأَصْبَحْنا نُساقُ بَيْنَ يَدَيْكَ كَما تُساقُ الأُسارى، أنّ بنا عَلى الله هَواناً وَبِكَ عَلَيهِ كَرامَة، وَأَنّ ذلِكَ لِعِظَمِ خَطَرِكَ عِنْدَه؟! فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ، وَنَظَرْتَ في عِطْفِكَ، جَذلان مَسْروراً، حَيْث رَأَيْتَ الدُّنْيا لَكَ

والحاصل: إنّ النتيجة واحدة، سواء كانت الأبيات ليزيد أو لابن الزِّبعرى، فترديد يزيد وتغنّيه بها على إثر ما يعدّه انتصاراً في واقعتين كبيرتين ـ بل في جريمتين كبريتين ـ سوّدتا وجه التاريخ، دليل على كفره وشركه وانحرافه عن الدين والملّة.

(١) الفِقرة والفَقَرَة والفَقار ـ بالفتح ـ واحدة فَقار الظهر، وهو ما تنضّد من عظام الصلب من لَدُن الكاهل إلى العَجب، والجمع: فِقَر وفَقار، وقيل: فِقْرات وفِقَرات.
انظر: لسان العرب ١٠ / ٣٠٠ مادّة « فقر ».

(٢) القُلامة: اسم ما قطع من طرف الظفر. انظر: لسان العرب ١١ / ٢٩١ مادّة « قلم ».

(٣) الروم: ١٠.

مُسْتَوْسِقة[١]، وَالأُمور مُتّسقَة، وَحِينَ صَفا لَكَ مُلْكُنا وَسلطانُنا.

فَمَهْلاً مَهْلاً! أَنَسيتَ قَولَ الله عَزّ وَجَلّ: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٢]؟!

أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا؟! قد هتكت ستورهنّ، وأبديت...

وكيف يُرتجى مراقبة مَن لفظ فوه أكبادَ الأزكياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟!

ثمّ تقول غير مستعظم ولا متأثّم:

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ***............

تهتف بأشياخك، زعمت أنّك تناديهم، فلَتَرِدَنّ وشيكاً مَورِدَهُمْ، وتودّنّ أنّك شللت وبكمت، ولم تكن قلت ما قلت، وفعلت ما فعلت، حسبك بالله حاكماً، وبمحمّد ﷺ خصيماً، وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم مَن سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ

---

(١) وسق: وسقه يَسِقُه وسقاً ووسوقاً ؛ أي: ضَمَّهُ وجمعه وحمله، واستوسقت الإبل ؛ أي: اجتمعت، استوسقَ لك الأمر: أمكنك، ومستوسقة: مجتمعة. انظر: تاج العروس ١٣ / ٤٨١ مادّة « وسق ».

(٢) آل عمران: ١٧٨.

بَدَلاً﴾[1] وأيُّكم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾[2].

أقول: ألا بحرمة الإنصاف والحقيقة قل لي: أتستطيع ريشة أعظم مصوّر وأبدع ممثّل أن يمثّل لك حال يزيد وشموخه بأنفه، وزهوّه بعطفه، وسروره وجذله باتّساق الأمور وانتظام الملك، ولذّة الفتح والظفر، والتشفّي والانتقام، بأحسن من ذلك التصوير والتمثيل؟!

وهل في القدرة والإمكان لأحد أن يدمغ خصمه بتلك الكلمات وهي على الحال الذي عرفت؟!

ثمّ لم تقنع منه بذلك حتّى أرادت أن تمثّل له وللحاضرين عنده ذلّة الباطل وعزّة الحقّ، وعدم الاكتراث والمبالاة بالقوّة والسلطة، والهيبة والرهبة.

أرادت أن تُعَرِّفَهُ خِسَّةَ قدره، وضعة مقداره، وشناعة فعله، ولؤم فرعه وأصله، وتعاليها عن حواره، وترفّعها عن مخاطبته، فقالت وتعاظمت بحقّ واستطالت:

ولئن جرّت عليَّ الدواهي مخاطبتك آنّي أستصغر قدرك وأستعظم تقريعك، وأستكبر توبيخك، لكنّ العيون عبرى، والصدور حرّى، ألا فالعجب كلّ العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء.

ثمّ أرادت أن تجسّم له عياناً مقام العزّة، وموضع الصبر والجلد والثبات والسكينة..

---

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) مريم: ٧٥.

أرادت أن تعرِّفَهُ والناسَ جميل النظر في العاقبة، وأنّ الأُمور بعواقبها، والأعمال بخواتمها، وأنّ شرف الغاية ـ كما يقال ـ يبرّر الواسطة[١]..

أرادت أن تعرّفه شرف آبائها وأبنائها، وأنّ القتل والشهادة ما زادهم إلاّ فخاراً، وما جلب لعدوّهم إلاّ عاراً وناراً، فقالت وما أبلغ ما قالت:

فكِد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذِكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا تَرْحض عنك عارها، وهل رأيك إلاّ فند، وأيّامك إلاّ عدد، وجمعك إلاّ بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين.

فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا بالسعادة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، وهو حسبنا ونعم الوكيل[٢].

---

(١) أقول: نعم، إنّ شرف الغاية يبرّر الواسطة، ولكن لا يكون ذلك إلاّ لمَن عصمه الباري عزّ وجلّ عن كلّ خطأ وزلل، فتقييم المعصوم لشرف الغاية ونوع الوسيلة يكون تقييماً إلهيّاً لا يستند إلى الهوى والرغبات الشخصية، فكلّ الوسائل التي يتّبعها للوصول إلى الغاية لا تخرج عن كونها وسائل شرعية.

ولعِلم المصنِّف قدس سره بأنّ مقولة: «شرف الغاية يبرّر الواسطة» على إطلاقها غير صحيحة؛ لتعذُّر تشخيص الغاية الشريفة من غيرها ممّن هم دون مرتبة العصمة، الّذين تتعدّد اجتهاداتهم وآراؤهم تبعاً لأهوائهم وتصوّراتهم في تقييم الغايات وتشخيص الوسائل الصحيحة للوصول إليها ؛ لذا اعترضها بقوله: « كما يقال » ؛ فلاحظ!

(٢) انظر: بلاغات النساء: ٧٠ ــ ٧٣، مقتل الحسين ــ للخوارزمي ــ ٢ / ٧٤، الاحتجاج ٢ / ١٢٢ ـ ١٣٠ رقم ١٧٣، الملهوف على قتلى الطفوف: ٢١٥ ــ ٢١٨، بحار الأنوار ٤٥ / ١٣٤.

هذا قليل من كثير تلك الخطبة، التي هي آية في البلاغة والفصاحة، ومعجزة من معجزات البيان!

وهل يختلجك الشكّ والريب بأنّ كلّ فقرة منها كانت على يزيد أشدّ من ألف ضربة؟!

وهل تشكّ أنّ هذه الخطبة وأمثالها كانت هي الضربة القاضية على مُلك يزيد ومعاوية؟!

وهل أبقت لهم من باقية؟!

وهل يبقى لك شكٌّ بعدُ أنّ مواقف زينب وأُمّ كلثوم وفاطمة الصغرى ورباب وسكينة، في الكوفة والشام، بل في كلّ موقف ومقام، كان لا يقصر ـ إنْ لم يتفوّق ـ على موقف حُماتهنّ وسُراتهنّ يوم الطفّ؟!

وهل تشكّ وترتاب في أنّ الحسين سلام الله عليه لو قُتل هو ووُلْدُهُ ولم يتعقّبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحدّيات لذهب قتله جُباراً[1]، ولم يطلب به أحد ثاراً، ولضاع دمه هدراً، ولم يكن قتله إلاّ قتل عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وأمثالهما ممّن خَمَدَ ذِكرهم وضاع وترهم؟!

نعم، لا يرتاب لبيب عارف بأسباب الثورات، وتكوين انقلابات الأُمم، وتهييج الرأي العامّ، أنّ أقوى سبب لذلك هو الخطابة والسحر البياني الذي يؤثّر في العقول ويثير العواطف!

---

(١) الجُبار: الهَدَرُ، ذهب دمه جُباراً ؛ أي هدراً. انظر: لسان العرب ٢ / ١٦٨ مادّة « جبر ».

وإذا استحضرت واقعة الطفّ المفجعة وتوالبها[١]، تعلم حقّاً أنّه ما قلب الفكرة على بني سفيان، وانقرضت دولة يزيد بأسرع زمان، إلاّ من جرّاء تلك الخطب والمقالات التي لم يقدر أيّ رجل في تلك الأوقات الحرجة والأوضاع الشاذّة على القيام بأدنى شيء منها، فقد تسلسلت الثورات والفتن على يزيد من بعد فاجعة الطفّ إلى أن هلك.

بل ما نهضت جمعية التوّابين، وتلاهم قيام المختار لأخذ الثار[٢]، وتعقّبتها واقعة الحرّة[٣]، التي هلك بعدها يزيد بأيّام قليلة ؛ ما كان كلّ

---

(١) التولب: ولَد الأتان من الوحش إذا استكمل الحول. وهنا كناية عمّا أولدته واقعة الطفّ من الحروب والثورات التي اندلعت على بني أُميّة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. انظر: لسان العرب ٢ / ٤١ مادّة « تلب ».

(٢) راجع رسالة « أصدق الأخبار في قصّة الأخذ بالثار » للسيّد محسن الأمين العاملي، تحقيق فارس حسون كريم، المنشورة على صفحات مجلّة « تراثنا »، العدد المزدوج ٦٦ ـ ٦٧، السنة السابعة عشرة / ربيع الآخر ـ رمضان ١٤٢٢ هـ.

(٣) هذه الواقعة هي عارٌ في جبين يزيد بن معاوية، وجريمة أُخرى تضاف إلى جريمته الكبرى التي ارتكبها بقتله الإمام الحسين عليه السلام.

في هذه الواقعة من المآسي والويلات تكاد السماوات يتفطّرن من هولها، فقد استباح مسلم بن عقبة وجنوده وبأمر من يزيد مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ثلاثة أيّام، واعتدوا على العذارى من بنات المهاجرين والأنصار، وقتلوا الآلاف من الشيوخ والنساء والأطفال اللائذين بقبر سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله، حتّى إنّه لم يبق بعدها بدريّ، وأمر بعد ذلك بالبيعة ليزيد وعلى أنّهم خَوَلٌ وعبيد له، إنْ شاء استرقّ وإنْ شاء أعتق، فبايعوه على ذلك، وفيهم جابر بن عبد الله الأنصاري وأبو سعيد الخدري وغيرهم من بقيّة الصحابة.

ثمّ بعث مسلم بن عقبة برؤوس أهل المدينة إلى يزيد، فلمّا أُلقيت بين يديه جعل يتمثّل بقول ابن الزِبَعْرى يوم أُحد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسلْ

ذلك إلاّ من أثر تلك المواقف المشهودة لزينب وأخواتها.

فكان الحسين عليه السلام يعلم أنّ هذا عمل لا بُدّ منه، وأنّه لا يقوم به إلاّ تلك العقائل، فوجب عليه ـ حتماً ـ أن يحملهنّ معه، لا لأجل المظلومية بسببهنّ فقط ـ كما شرحناه في الجواب الأوّل ـ بل لنظر سياسيّ وفكر عميق، وهو تكميل الغرض وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد، والمبادرة إلى القضاء عليها قبل أن تقضي على الإسلام وتعود الناس إلى جاهليّتها الأُولى!

فقد أصبح الدين على عهد يزيد هو دين القرود والفهود، دين الخمور والفجور، والضرب بالعود والطنبور، وأوشك أن يذهب دين محمّد صلى الله عليه وآله أدراج الرياح، وتكون نبوّته كنبوّة مسيلمة[1] وسجاح[2]،

انظر: أنساب الأشراف ٥ / ٣٣٧ ـ ٣٥٥، الإمامة والسياسة ١ / ٢٣٤ ـ ٢٣٩، البدء والتاريخ ٢ / ٢٤٣ ـ ٢٤٤، العقد الفريد ٣ / ٣٧٢ ـ ٣٧٤، تاريخ الطبري ٥ / ٦٢٣، البداية والنهاية ٨ / ١٧٧ ـ ١٨٠، وفيات الأعيان ٦ / ٢٧٦، الفخري ـ لابن الطقطقي ـ: ١١٩، الإتحاف بحبّ الأشراف: ٦٦.

(١) هو: مُسيلمة بن حبيب من بني تميم، متنبّئ، كان يسجع لقومه السجعات مضاهاةً للقرآن، وضع عنهم الصلاة، وأحلّ لهم الخمر والزنا!
وُلد باليمامة قبل ولادة والد رسول الله صلى الله عليه وآله، كان من المعمّرين، تلقّب بالجاهلية بـ « الرحمن »، وعرف بـ « رحمن اليمامة »، قالوا في وصفه: كان رُوَيْجِلاً، أصيفر، أُخينس، كان اسمه مَسْلَمة، وسمّاه المسلمون مُسيلمة تصغيراً له، قُتل في غزوة اليمامة عام ١٢ هـ وكان عمره آنذاك ١٥٠ سنة، انظر: تاريخ الطبري ٢ / ١٩٩ ـ ٢٠٠، تاريخ الخلفاء ـ للسيوطي ـ: ٨٩، شذرات الذهب ١ / ٢٣.

(٢) هي: سجاح بنت الحارث بن سويد، وقيل: بنت غطفان التغلبية التميمية، تكنّى أُمّ صادر، كانت رفيعة الشأن في قومها، شاعرة، أديبة، عارفة بالأخبار، لها علم بالكتاب

ونظرائهم[(١)].

إذاً، فجزى الله تلك الحرائر بحسن صنيعهنّ عن الإسلام أحسن الجزاء،

أخذته عن نصارى تغلب، وكانت متكهّنة قبل ادّعائها النبوّة، وهي مع ادّعائها النبوّة فقد كذّبت بنبوّة مسيلمة الكذّاب، ثمّ آمنت به، فتزوّجها من غير صداق! ثمّ أصدقها بأن وضع عن قومها صلاتَي الفجر والعشاء الآخرة!!

وقيل: إنّها عادت إلى الإسلام بعد مقتل مسيلمة، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة، وتوفّيت بها في زمان معاوية نحو سنة ٥٥ هـ.

انظر: مروج الذهب ٢ / ٣٠٣، الإصابة ٧ / ٧٢٣ رقم ١١٣٦١، البداية والنهاية ٦ / ٢٣٩ ـ ٢٤١ حوادث سنة ١١ هـ تاريخ الخميس ٢ / ١٥٩، لسان العرب ٦ / ١٧٤ مادّة « سجح »، الأعلام ٣ / ٧٨.

(١) من أمثال: طُليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر الأسدي، شهد معركة الخندق مع الأحزاب، وأسلم سنة ٩ هـ ثمّ ارتدّ وادّعى النبوّة في عهد أبي بكر، ثمّ كانت له وقائع كثيرة مع المسلمين، ثمّ خذله الله وهرب حتّى لحق بأعمال دمشق، ونزل على آل جَفْنَة، ثمّ أسلم وقدم مكّة معتمراً، ثمّ خرج إلى الشام مجاهداً، وشهد اليرموك، وشهد بعض حروب الفرس، وقُتل بنهاوند سنة ٢١ هـ.

انظر: الاستيعاب ٢ / ٧٧٣ رقم ٧٧٣، أُسد الغابة ٢ / ٤٧٧ رقم ٢٦٣٩، تاريخ دمشق ٢٥ / ١٤٩ ـ ١٧٢ رقم ٢٩٩٢، الإصابة ٣ / ٥٤٢.

● والأسود العنسي، عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي، قيل: إنّه كان أسود الوجه فسمّي الأسود للونه، متنبّئ مشعوذ، من أهل اليمن، أسلم لمّا أسلمت اليمن، وارتدّ في أيّام النبيّ صلى الله عليه وآله فكان أوّل مرتدّ في الإسلام، وادّعى النبوّة، قُتل قبل وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله بخمسة أيّام، وكان ظهوره في سنة ١٠ هـ.

انظر: الكامل في التاريخ ٢ / ٢٠١، البداية والنهاية ٦ / ٢٢٨.

وكلّ مسلم مدين بالشكر لهنّ وللحسين عليه السلام إذا كان مسلماً حقّاً ويرى للإسلام حقّاً عليه.

وعلى هذا، فيحقّ للجنس اللطيف ـ كما يسمّونه اليوم ـ أن يفخر على الجنس الآخر بوجود مثل تلك العليّات العلويّات فيه، وقد تجلّى واتّضح أنّ هذا الجنس الشريف قد يقوم بأعمال كبيرة يعجز عنها الجنس الآخر ولو بذل كلّ ما في وسعه، وأنّ له التأثير الكبير في قلب الدول والممالك، وتحوير الأفكار، وإثارة الرأي العامّ.

وهذه نكتة واحدة من نكات السياسة الحسينية، وغور نظره في الشؤون الدولية لو قطعنا النظر عن الوحي والإمامة، وجعلناه كواحد من الناس قد ثار على عدوّ له متغلّب عليه، يريد الانتقام منه، يريد أن ينقله من عرشه إلى نعشه، ومن قصره إلى قبره، ومن ملكه إلى هلكه، ويريد أن يقضي على دولة أبيه ودولته، ولا يدع حظّاً في الملك لولده وذرّيّته.

ومن تصفّح سيرة معاوية، وجهوده العظيمة، وتدابيره العميقة مدّة عشرين سنة، يعرف عظيم مساعيه، وكم كان حريصاً على توطيد دعائم الملك ليزيد، وجبه أبداً عليه وعلى ولده، حتّى دسّ السمّ إلى الحسن عليه السلام وقتله مقدّمة لاستخلاف يزيد، وكم استعمل العاملَين القويَّين السيف والدينار، والرغبة والرهبة، في تمهيد عرش يزيد وإعطائه صولجان الملك وتاج الخلافة الذي انتزعه من بني هاشم، وأعمل التدابير المبرمة في أن لا يعود إليهم أبداً.

ولكنّ الحسين وعلى ذِكره آلاف التحيّة والسلام بتفاديه وتضحيته، وتدابيره الفلسفية، وإحاطته بدقائق السياسة، ثَلّ[١] ذلك العرش، وهدم ذلك البنيان الذي بناه معاوية في عشرين سنة، هدمه في بضعة أيّام، وما أثمر ذلك الغرس الذي غرسه معاوية ليزيد إلاّ العار والشنار، والخزي المؤبّد، واللعنة الدائمة، وصار معاوية المثل الأعلى للخداع والمكر، والظلم والجور، والرمز لكلّ رذيلة، ومعاداة كلّ فضيلة.

كلّ ذلك بفضل السياسة الحسينية وعظيم تضحيته، وصار هو وأهل بيته ـ إلى الأبد ـ المثل الأعلى لكلّ رحمة ونعمة، وبركة وسلام، فما أكبره وما أجلّه!

وقد بقيت هناك دقائق وأسرار لم يتّسع الوقت لنظمها في هذا السلك...، وهذا الذي ذكرنا هنا طرف من سياسة الحسين عليه السلام، وناحية من نواحيها، ذكرنا منه ما يتعلّق به الغرض في الجواب، ودفع الشكّ والارتياب.

وفي الختام، أرجع فأقول: ما أدري، هل اندفع بهذه الوجوه الأربعة أو الخمسة اعتراض الناقد أو المشكّك على الحسين عليه السلام في حمل العيال؟!

وهل انكشف الستار عن تلك الأسرار[٢]؟!

---

(١) ثُلَّ عَرْشُ فلان ثَلاًّ: هُدِم وزالَ أمرُ قومه. انظر: لسان العرب ٢ / ١٢٣ مادّة « ثلل ».

(٢) ويحتمل البعض أنّ وجه حمل الحسين عليه السلام للعيال معه أنّه كان يخشى عليهنّ الأسر والسبي لو تركهنّ في بيوتهنّ بالمدينة ؛ لأنّ بني أُميّة كانوا يتوسّلون إلى أخذ البيعة

فإنْ كان كلّ ذلك البيان لم يقنعه، ولم يدفع شكّه وريبه، فأمره إلى الله، ولا أحسبه إلاّ ممّن قال فيه سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾[1].

منه بكلّ وسيلة، وحينئذ فإمّا أن يبايع أو يتركهنّ في الأسر؛ فإن صحّ، فهو وجه خامس أو سادس. منه قدّس سرّه.

(١) الأنعام: ٢٥.

التخطيط الحسيني*

لتغيير أخلاقية الهزيمة

الشهيد

السيد محمد باقر الصدر

---

* نص محاضرتين للشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره ـ من مراجع التقليد وكبار الفقهاء والمفكرين الإسلاميين المعاصرين ـ ألقاهما في النجف الأشرف بتاريخ ١٦ و١٧ / صفر / ١٣٨٩هـ ق. نشرت في مجلة الفكر الإسلامي العدد السابع عشر ـ السنة الخامسة ـ محرم الحرام ـ ربيع الأول ـ ١٤١٨ هـ ق.

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الامام الحسين وقف ليعالج مرضا من امراض الامة كما وقف من قبله اخوه الامام الحسن ـ عليه افضل الصلاة والسلام ـ ليعالج مرضا آخر من امراض الامة، بينما قدّر للامام الحسن ان يعالج مرض الشك في الامة الاسلامية، التي بدات في عهد امير المؤمنين تشك في الخط الرسالي الذي سار عليه قادة اهل البيت، واستفحل لديها هذا الشك حتى تحول الى حالة مرضية في عهد الامام الحسن عليه السلام، هذه الحالة المرضية التي لم يكن بالامكان علاجها حتى بالتضحية.

نعم، عالج الامام الحسين عليه السلام حالة مرضية اخرى هي حالة انعدام الارادة مع وضوح الطريق، فالامة الاسلامية التي كانت تشك (او التي بدات تشك) في واقع المعركة القائمة داخل الاطار الاسلامي بين الجناحين المتصارعين اتضح لها هذا الطريق، لكن هذا الطريق اتضحت لها معالمه بعد ان فقدت ارادتها، وبعد ان نامت واستطاع الذين اغتصبوها، وسرقوا شخصيتها، وزوروا ارادتها، واباحوا كرامتها، واستطاعوا ان يخدروها و ان يجعلوها غير قادرة على مجابهة موقف من هذا القبيل، هذه الحالة المرضية

الثانية عالجها الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام بالموقف الذي شرحناه[(١)]، وقلنا: انه كان بالإمكان اتخاذ عدة بدائل للموقف الذي اتخذه الإمام

.

---

(١) يشيرقدس سره الى ما شرحه في محاضرة سابقة، وملخصه المستفاد مما كتبه السيد كاظم الحائري:

انه كانت أمام الحسين عليه السلام عدة مواقف عملية، كان بامكانه عليه السلام ان يتخذ اي واحد منها بعد ان طلب يزيد منه ان يبايع:

الموقف الاول: ان يبايع يزيد بن معاوية كما بايع اميرالمؤمنين ابا بكر وعمر وعثمان.

الموقف الثاني: ان يرفض البيعة لكن يبقى في مكة او المدينة.

الموقف الثالث: ان يلجا الى بلد من بلاد العالم الاسلامي كما اقترح عليه اخوه محمد بن الحنفية.

الموقف الرابع: ان يتحرك ويذهب الى الكوفة مستجيبا للرسائل التي وردته من اهلها ثم يستشهد بالطريقة التي وقعت.

وكان اختياره للموقف الرابع قائماً على اساس ادراكه لطبيعة الظرف الذي يعيشه، فانه كان عليه ان يقف موقفا يعالج فيه عدة اقسام من افراد الامة الاسلامية:

القسم الاول: وكان يشكل جزءاً كبيراً من الأمة كان قد فقد خلال عهد معاوية بن ابي سفيان ارادته وقدرته على مواجهة الوضع القائم وهو يشعر الذل والاستكانة، وان خسارة كبيرة تحيق بالامة الاسلامية وهي تبديل الخلافة الى كسروية وهرقلية.

القسم الثاني: من الامة هان عليه الاسلام، فلم يعد يهتم بالرسالة بقدر اهتمامه بمصالحه الشخصية ،وتضاءلت امامه الرسالة وكبر امامه وجوده ومصالحه واعتباراته.

والقسم الثالث: كان من المغفلين الذين كان بالامكان ان تنطلي عليهم حيلة بني امية لو سكت صحابة الرسول عن تحويل الخلافة الى قيصرية وكسروية فان الخلافة وان انحرفت عن خطها المستقيم منذ توفي الرسول صلى الله عليه وآله لكن بقي مفومها هو مفهوم الخلافة غاية الامر اغتصبه ابو بكر ومن ثم عمر وعثمان بينما في عهد معاوية بن ابي سفيان طرأ على نفس المفهوم تغير اساسي اذ لم تعد الخلافة حكما للامة وانما حوّلها معاوية الى

حكم كسرى وقيصر، وهو تحويل خطير في المفهوم اراد معاوية ان يلبسه ثوب الشرعية ولو كان هذا التحويل يواجه بسكوت من قبل الصحابة لأمكن ان تنطلي حيلة معاوية على الكثير من السذج والبسطاء اذ يرون في سكوت الصحابة امضاء له.

والقسم الرابع: وهو ما يرتبط بتنازل الامام الحسن عليه السلام عن المعركة مع معاوية واعلانه الهدنة باعتباره هو الاسلوب الوحيد الذي كان يحتمه على الامام الحسن عليه السلام موقعه ومركزه كأمين على الاسلام والمسلمين فان هذا الواقع لم يكن مكشوفا ـ في اكبر الظن ـ بالدرجة الواضحة الا داخل دائرة الجماهير التي كانت تعيش المأساة عن قرب كالعراق بشكل عام دون من كان يعيش في اطراف العالم الاسلامي كاقاصي خراسان حيث لم يعش المحنة يوما بعد يوم ولم يكتو بالنار التي اكتوى بها الامام الحسن عليه السلام في الكوفة من قواعده واعدائه، وانما كانت تصله الاخبار عبر المسافات الشاسعة بين الكوفة واطراف خراسان مثلا، فهو لم يميز ان هذا التنازل هل هو اعتراف بشرعية الاطروحة الاموية او هو تصرف اقتضته الضرورة والظروف الموضوعية التي كان يعيشها الامام الحسن عليه السلام.

فكان لابد للامام الحسين عليه السلام ان يختار موقفا يعالج فيه هذه الاقسام الاربعة من الامة وليس هذا تقسيما حديا بحيث لايمكن ان ينطبق قسمان منهما على فرد واحد، بل يمكن ان يتصادق عنوانان منها على فرد او افراد من الامة الاسلامية فكان لابد ان يختار الموقف الذي يرجع فيه للقسم الاول ارادته التي فقدها بالتميع الاموي والى القسم الثاني ايمانه بالرسالة وشعوره باهمية الاسلام، وان يسلب الدليل عن معاوية على تحويل الخلافة الى كسروية وقيصرية، وذلك عن طريق معارضة الصحابة المتمثلة فيه وفي البقية الباقية من الصحابة والتابعين لعملية التحويل هذه وان يختار الموقف الذي يشرح فيه حتى لمن كان بعيدا عن الاحداث ان تنازل الامام الحسن عليه السلام لم يكن امضاء لعملية التحويل.

والموقف الاول: ـ وهو ان يبايع يزيد بن معاوية ـ لايحقق مكسبا على مستوى معالجة تلك الاقسام من الامة لانه لم تكن قصة يزيد قصة ابي بكر وعمر وعثمان، لان التحويل هنا على مستوى المفهوم، ولم يكن بالامكان ان تمضي دون ان يقف اهل البيت الذين

الحسين الا ان كل البدائل الممكنة والمتصورة لم تكن تحقق الهدف في علاج هذه الحالة المرضية(١)، وكان الطريق الوحيد لعلاج هذه الحالة المرضية هو الخط الذي سار عليه سيد الشهداء عليه افضل الصلاة والسلام.

هم القادة الحقيقيون للامة الموقف الديني الواضح المحدد من عملية التغيير هذه.

والموقف الثاني: كذلك لا يحقق ذلك المكسب الذي يريده الحسين عليه السلام، ذلك لان الامام الحسين عليه السلام كان يؤكد، والظروف الموضوعية كانت تشهد على طبق تاكيده انه لو بقي في المدينة او في مكة رافضا للبيعة لقتل من قبل بني امية حتى ولو كان معلقا باستار الكعبة وهذا القتل ليس كالقتل الذي استطاع ان يحرك البقية الباقية من عواطف المسلمين تجاه رسالتهم ودينهم فارجاع الناس الى عقيدتهم باستغلال المتبقي من عواطفهم ومشاعرهم لايمكن خلال قتل عابر سهل من هذا القبيل، بل لابد من ان تحشد له كل المثيرات والمحركات.

الموقف الثالث: فهذا وان كان اسلم على الخط القصير لانه يمكنه ان يعتصم بشيعته في اليمن مثلا الى برهة معينة لكنه سوف ينعزل ويحيط نفسه باطار منغلق عن مسرح الاحداث بينما لابد ان يباشر عمليته على مسرح الاحداث الذي كان وقتئذ هو الشام والعراق ومكة والمدينة كي يمكن لهذه العملية ان تؤثر تربويا وروحيا واخلاقيا في كل العالم الاسلامي.

وعليه كان لابد ان يختار الموقف الرابع الذي استطاع ان يهزّ به ضمير الامة من ناحية، ويشعرها باهمية الاسلام وكرامة هذا الدين من ناحية ثانية وان يدحض عملية تحويل الخلافة الى كسروية وقيصرية من ناحية ثالثة، وان يوضح لكل المسلمين مفهوم التنازل عند الامام الحسن عليه السلام وانه لم يكن موقفا امضائيا وانما كان اسلوبا تمهيديا لموقف الامام الحسين عليه السلام.

(١) عادةً يستخدم الطغاة سلاحين مؤثرين لتمييع إرادة الأمة، وهما سلاح «الارهاب» و «الافساد» وعندما يفقد الانسان قدرته للتحرك، فهو يستسلم للواقع الفاسد ويتكيف معه، وبذا تهيمن سُلطة الطغاة على إرادة المجتمع والتحكم في درجة وعيه ومصيره وحتى

وفيما يلي نورد مشاهد موت الإرادة في المجتمع آنذاك[1].

مشاهد موت الارادة في المجتمع الحسيني:

نحاول الآن ان نستعرض عمق هذا المرض في جسم الامة الاسلامية، حتى نعرف انه بقدر عمق هذا المرض في جسم الامة الإسلامية، لابد وان يفكر في العلاج ايضا بتلك الدرجة من العمق، واذا كان من المقدر ان العلاج الوحيد للحالة المرضية الثانية هذه هي التضحية، فبقدر مايكون هذا المرض عميقا في جسم الامة يجب ان تكون التضحية ايضا عميقة مكافئة لدرجة عمق هذا المرض في جسم الامة، وهذا المرض كان يشمل كل قطاعات الامة عدا بصيص هنا وهناك تجمع مع الامام الحسين عليه الصلاة والسلام.

المشهد الاول: التخويف بالموت من عقلاء المسلمين:

خلال خط عمله وحركته لاحظنا كيف ان الامام الحسين عليه الصلاة والسلام حينما قرر السفر من المدينة الى مكة، او في النهاية حينما قرر الهجرة من الحجاز متجها الى العراق، الى تسلم مسؤولياته كشخص ثائر حاكم على طواغيت بني امية كان يتلقى من كل صوب وحدب النصائح

على ذوقه وأخلاقه وأعرافه، ويسجل للطاغية كامل الطاعة والانقياد والاستسلام، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا المعنى في علاقة فرعون وقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ الزخرف: ٥٤.

(١) العبارة من «المصحح».

من عقلاء المسلمين، او من يسمون يومئذ بعقلاء المسلمين الذين يؤثرون التعقل على التهور، كيف ان هؤلاء العقلاء اجمعت كلمتهم على ان هذا التصرف من الامام الحسين ليس تصرفاً طبيعياً، كانوا يخوفونه بالموت، كانوا يقولون له: كيف تثور على بني امية وبنو امية بيدهم السلطان، والرجال، والمال، وكل وسائل الاغراء والترغيب والترهيب؟ كانوا يحدّثونه عن النتائج التي وصل اليها الإمام الحسن في صراعه مع بني أمية، كانوا يمنونه السلامة، كانوا لا يتصورون ان التضحية يمكن ان تكون بديلا لحياة بالامكان الاحتفاظ بانفاسها مهما كانت هذه الانفاس، ومهما كانت ملابسات هذه الانفاس، هذه النصائح لم يتلقها الامام الحسين من رعاع، او من عوام وانما تلقاها من سادة المسلمين، من الاشخاص الذين كان بيدهم الحل والعقد في المجتمع الاسلامي، تلقاها من اشخاص من قبيل عبدالله بن عباس[1]، وعبدالله ابن عمر بن الخطاب[2]، وعبدالله بن جعفر الطيار، ومن قبل اخيه محمد بن الحنفية[3]،ومن قبل غيرهم من سادة الرأي في المجتمع الاسلامي، حتى ان عبدالله بن جعفر[4] الذي هو ابن عمه، الذي هو ابن اخي علي بن ابي طالب، بالرغم من ارتباطه النسبي الوثيق بالخط كان منهارا نفسيا الى الدرجة التي ارسل فيها رسالة الى الامام الحسين حينما سمع بعزمه

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١٩٦، طبعة بصيرتي.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ١٩٥ـ ١٩٦.

على سرعة الخروج من مكة: ان انتظر حتى الحق بك، وماذا كان يريد من هذا الانتظار؟ الامام الحسين لم ينتظره، فحينما وصل عبد اللّه بن جعفر الى مكة كان الامام الشهيد قد خرج منها، فذهب عبد اللّه بن جعفر رأساً الى والي بني امية في مكة واخذ منه كتاب الامان للحسين، وذهب بالكتاب الى الحسين و هو يرى انه قد استطاع بهذا ان يقضي على كل مبررات خروج الحسين، لماذا يخرج الحسين من مكة؟ لانه خائف فيها وقد جاء الامان له من سلاطين بني امية.

هذه النصائح كانت تعبر عن نوع من الانهيار النفسي الكامل الذي شمل زعماء وسادة المسلمين فضلا عن الجماهير التي كانت تعيش هذا الانهيار مضاعفا في اخلاقها وسلوكها واطماعها ورغباتها، هذه السلبية والبرود المطلق الذي كان يواجهه الامام الحسين، او تواجهه حركة الامام الحسين بالرغم من قوة المثيرات، هذا البرود المطلق في لحظات ترقب العطاء الحقيقي كان يعبر عن ذلك الانهيار النفسي على مختلف المستويات.

المشهد الثاني: موقف عبداللّه بن الحر الجعفي:

الحسين عليه الصلاة والسلام بنفسه يقصد عبداللّه بن الحر الجعفي الى خيمته ويدعوه الى ان يرتبط بهذا الخط، ويتصل به وهو اعرف الناس بصحة هذا الخط وصوابه، فيعز عليه ان يقدم قطرة من دمه، ويعز عليه ان يقدم شيئاً سوى الفرس[1] فقط، لم يستطع ان يذوق طعم التضحية الا على مستوى تقديم فرس واحدة فقط.

(١) المصدر نفسه: ٢٢٢ـ ٢٢٥.

المشهد الثالث: موقف زعماء البصرة:

الامام الحسين يكتب الى ستة من زعماء البصرة يختارهم من اولئك الذين لهم ارتباطات مع خط الامام علي عليه السلام فان زعماء البصرة على قسمين: زعماء مرتبطون مع خط بني امية وخط عائشة وطلحة والزبير، وزعماء يرتبطون مع خط الامام علي ومدرسته، فيختار الامام الشهيد ستة من الاشخاص الذين يرتبطون بمدرسة الامام علي ويشعرون بالولاء لمفاهيم هذه المدرسة وشعاراتها واهدافها، ويكتب اليهم يستنصرهم ويستصرخهم و يشعرهم بالخطر الدائم الذي تواجهه الامة الاسلامية ممثلاً في كسروية وقيصرية يزيد بن معاوية، فماذا يكون رد الفعل لهذه الرسالة؟ يكون رد الفعل ـ اذا استثنينا شخصاً واحداً وهو عبدالله بن مسعود النهشلي[١] الذي كتب مستجيباً ـ هو البرود المطلق او الخيانة؛ اذ يبعث احدهم[٢] برسول الحسين[٣] الى عبيدالله بن زياد وكان وقتئذ والياً على

(١) النهشلي يقول ابن نما في كتابه «مثير الأحزان»: ١٧، ان النهشلي هو يزيد بن مسعود ولربما اشتبه اسمه على السيد الصدر رحمه الله حينما قال النهشلي عبدالله، لأن من أصحاب الحسين عليه السلام أيضاً من يحمل لقب النهشلي وهو شبيب بن عبدالله النهشلي استشهد معه في الواقعه، كما ذكر المجلسي في بحاره ج٤٤: ١٩٩ وذكره شمس الدين باسم حبيب بن عبدالله النهشلي وفي اخرى شبيب انظر أنصار الحسين عليه السلام:٩٣.

(٢) وهو المنذر بن الجارود العبدي، راجع الطبري ٢٨١/٣ وابن الأثير ٣٨٨/٣.

(٣) اختلفوا في اسم رسول الحسين عليه السلام ـ هذا ـ الى البصرة بكتابه، فهو عند أبي مخنف (سليمان) وكذلك مقتل الخوارزمي عن ابن الأعثم ج١: ١٩٩ واللهوف للسيد ابن طاووس، إلا أنه كنّاه بأبي رزين، وهو أسم أبيه، وأمّه كبشة جارية للحسين عليه السلام كانت

البصرة (صدقوا: ان هذا الشخص[1] الذي قام بهذا العمل هو من شيعة علي بن ابي طالب، ولم يكن عثمانياً، بل كان علوياً، ولكنه علوي فقد كل مضمونه، فقد كل معناه، فقد كل ارادته) اخذ الرسول مع الرسالة الى عبيدالله بن زياد لكن لا حباً لعبيدالله بن زياد، ولا ايماناً بخط عبيدالله بن زياد، بل حفاظا على نفسه، وابتعادا بنفسه عن اقل مواطن الخطر، خشية ان يطلع في يوم ما عبيدالله بن زياد على ان ابن رسول الله كتب اليه يستصرخه، وهو لم يكشف هذه الورقة للسلطة الحاكمة وقتئذ، فيُتَخذُ هذا نقطة ضعف عليه، فلكي يبتعد عن اقل نقاط الضعف، ولكي يوفر له كل عوامل السلامة، وكل ضمانات البقاء الذليل، اخذ رسول الامام والرسالة وقدمهما بين يدي عبيد الله بن زياد، فأمر عبيد الله بن زياد بالرسول

تخدم في بيت أم اسحاق التميميّة من زوجات الحسين عليه السلام فتزوجها أبو رزين وولدت سليمان.

وفي (مثير الأحزان) لابن نما: ١٢ أنه أرسل الكتاب مع ذريع السدوسي، وذكر الإثنين معاً السيد الأمين في (لواعج الأشجان: ٣٦).

(١) المنذر بن الجارود بن عمرو بن خنيس العبدي، ولد في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وشهد الجمل مع عليّ عليه السلام وولاّه علي إمرة اصطخَر، ثم بلغه عنه ما ساءه فكتب إليه كتاباً وعزله، وممّا جاء في هذا الكتاب: (.. لقد غرني صلاح أبيك فيك... تعمر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك. نهج البلاغة: ٤٦٢.

ولأه عبيدالله بن زياد ثغر الهند سنة ٦١ هـ فمات فيها آخر سنة ٦١ هـ.

أُنظر الإصابة لابن حجر ترجمة رقم ٨٣٣٦ وجمهرة الأنساب ٢٧٩ والأغاني ١١٧/١، والأعلام ٢٩٢/٧ والطبري ج ٤: ٢٦٦.

فقتل[١](رضوان الله عليه).

شخص آخر من هؤلاء الزعماء الاحنف بن قيس الذي عاش مع خط جهاد الامام علي وعاش مع حياة الامام علي عن قرب، وتربى على يديه، ماذا كان جوابه لابن الامام علي؟ امره بالتصبر والتريث وقال له في رسالة اجاب بها على رسالته: ولايستخفنك الذين لايوقنون[٢]، معرّضا بالطلبات التي كان الامام الحسين عليه الصلاة والسلام يتلقاها من شيعته.

وفي الواقع كانت رسالة الاحنف تعبر عن اخلاقية الامة المهزومة، فان الامة في حالة تعرضها للهزيمة النفسية، وفي حالة فقدانها لارادتها وعدم شعورها بوجودها كامة تنشا لديها بالتدريج اخلاقية معينة هي اخلاقية هذه الهزيمة، واخلاقية هذه الهزيمة تصبح قوة كبيرة جدا بيد صانعي هذه الهزيمة لابقاء هذه الهزيمة وامرارها، وتعميقها وتوسيعها، ويصبح العمل الشجاع تهوراً والتفكير في شؤون المسلمين استعجالاً، ويصبح الاهتمام بما يقع على الاسلام والمسلمين من مصائب وكوارث نوعا من الخفة، واللاتعقل، نوعا من العجلة وقلة الاناة، نوعا من التسرع في العمل او التفكير.

هذه الاخلاقية هي اخلاقية الهزيمة التي تصطنعها الامة لكي تبرر هذه الهزيمة حينما تهزم وتشعر بانها قد انتهت مقاومتها، فتنسج بالتدريج مفاهيم غير مفاهيمها الاولى، وقيماً وأهدافاً ومثلاً غير القيم والمثل والاهداف التي

---

(١) المصدر نفسه: ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٠.

كانت تتبناها في الاول، لكي تبرر اخلاقياً ومنطقياً وفكرياً الموقف الذي تقفه.

فالامام الحسين عليه الصلاة والسلام كان يريد ـ في الواقع ـ ان يبدل هذه الاخلاقية، ويصنع اخلاقية جديدة لهذه الامة تنسجم مع القدرة على التحرك، والارادة حينما كان يقول: «**إنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً**»[1] لم يكن هذا مجردشكوى، وانما كان عملية تغيير لاجل ايجاد او في الواقع ارجاع هذه الاخلاقية الاخرى التي فقدها الاحنف بن قيس، وفقدها كل الناس الذين مشوا مع الاحنف بن قيس.

المشهد الرابع: مغادرة بني اسد محل سكناهم:

حبيب بن مظاهر يستاذن من الامام الحسين عليه الصلاة والسلام ان يذهب ويدعو عشيرته، ويدعو بني اسد للالتحاق بخط سيد الشهداء، وكل المسلمين يعرفون من هو حبيب بن مظاهر في مواقفه وجهاده، وفي بياض تاريخه وصفاء سيرته، وفي ورعه وتقواه، يذهب حبيب بن مظاهر ليطلب العون والمدد من عشيرة بني اسد للامام عليه الصلاة والسلام، وتكون النتيجة لذلك ان تغادر عشيرة بني اسد باجمعها تلك الليلة المنطقة، وتنسحب هذه العشيرة انسحابا اجماعيا، ويرجع حبيب بن مظاهر ليبلغ الامام الحسين هذه النتيجة الغريبة وهي: ان عشيرته تخشى ان تبقى بعد اليوم، تخشى ان تبقى

(١) بحار الانوار ٤٤: ١٩٢.

حتى حيادية، لانه قد لا يكتفي عمر بن سعد بهذا الحياد، فتغادر المنطقة نهائيا ولم يكن جواب سيد الشهداء على ذلك الا ان قال: «**لا حول ولا قوة الا باللّه العلي العظيم**»[1].

هذا البرود والسكون، هذه الهزيمة النفسية قبل الهزيمة الخارجية هي مرض الامة الذي كان يعالجه الامام الحسين عليه السلام.

المشهد الخامس: موقف اهالي الكوفة من مقتل رسول الحسين عليه السلام:

الصيداوي واظنه: قيس بن مسهر[2] الذي ارسله الامام الحسين عليه السلام لكي يبلغ رسالته الى اهل الكوفة يعطي لهم إشعاراً بأنه في الطريق، وانه على الابواب هذا الرسول يدخل الكوفة بعد ان انقلبت، وبعد ان تغيرت الكوفة غير الكوفة، وسيطرعبيداللّه بن زياد على كل القطاعات العسكرية في الكوفة، يؤخذ [قيس بن مسهر] اسيرا الى عبيداللّه بن زياد، وقبل ان يصل اليه يمزق الكتاب، ويقف بين يدي عبيداللّه بن زياد يقول له: لماذا مزقت الكتاب؟ يقول: لاني لا اريد ان تطلع عليه، يقول له: وماذا كان فيه؟ فيقول: لو كنت اريد ان اخبرك لما مزقت الكتاب، يقول له: اني اقتلك الا اذا صعدت على هذا المنبر وقلت بالصراحة شيئا في سب علي بن ابي طالب والحسن والحسين، هذا الرسول الامين يغتنمها فرصة، ويصعد على المنبر في هذه اللحظة الحاسمة، في آخر لحظة من حياته، في هذا الاطار العظيم من البطولة والشجاعة والتضحية امام عبيداللّه بن زياد، وامام شرطته وجيشه

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام: ٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٩ـ ٢٢٠.

يوجه خطابه الى اهل الكوفة ويقول: انا رسول الحسين اليكم، ان الحسين على الابواب، فيؤدي هذه الرسالة بكل بطولة، وبكل شجاعة، فيأمر عبيدالله بن زياد به فيقتل، وماذا يكون الصدى لمثل هذه الدفعة المثيرة القوية، الآن رسول الامام الحسين ـ الذي كتبوا له اهل الكوفة يطلبونه ـ على المنبر بهذا الشكل غير الاعتيادي والسيف فوق رقبته وهو يودع الحياة في آخر لحظة من اللحظات، وهو يبلغهم الرسالة بكل امانة وشجاعة، ويضحي في سبيل تقديمها بدمه وبروحه، فماذا يكون اثر ذلك؟ يكون اثر ذلك: انه حينما يامرعبيدالله بن زياد به ان يقتل فيقتل ياتي شخص[1] من اهل الكوفة فيقطع راسه، فيقال له: لماذا قطعت رأسه؟ فيقول: لكي اريحه بذلك. هذه الامة لاتفكر الا على هذا المستوى من الشفقة في حياتها، الشفقة التي تشعر بها هي الشفقة على هذا المستوى اما الشفقة على الوجود الكلي، الشفقة على الكيان، الشفقة على العقيدة قد انتزعت من قلوبها، لانها تكلف ثمنا غاليا، الشفقة التي لا تكلف ثمناً هي ان تقطع رقبة هذا الشخص، وان يريحه من هذه الحياة في ظل عبيدالله بن زياد.

هذه المظاهر من البرود والسكون بالرغم من قوة الاثارة هي دليل على عمق ماوصلت اليه الامة من انحلال.

المشهد السادس: الاندفاع نحو خط السلطة:

الى جانب ذلك او في عكس ذلك، يوجد الاندفاع المحموم نحو خط السلطان، نحو خط الحكم القائم، استطاع عبيدالله بن زياد خلال اسبوعين

(١) المصدر نفسه: ٢٢٠ وهو عبدالملك بن عمير اللخمي.

او ثلاثة اسابيع على اكثر تقدير بعد مقتل مسلم بن عقيل الى اول المحرم ان يجند عشرات الالوف من ابناء هذا البلد الذي كان وما يزال الى ذلك الوقت يحمل رسالة علي، والولاء له، جنّد من هذا البلد عشرات الآلاف، واستجاب له مئات من الاشخاص الذين كانوا قد حاربوا مع الامام علي عليه السلام في صفين، وحاربوا مع الامام علي عليه السلام في سائر مراحل جهاده، استجاب له شخص من قبيل عمرو بن الحجاج، ومن هو عمرو بن الحجاج؟ هو من اولئك الذين اضطهدوا في سبيل الامام علي عليه السلام، من اولئك الذين عاشوا المحنة ايام زياد، ولكنه لم يستطع ان يواصل المحنة، طلّق عقيدته قبل ان يصل الى آخر الشوط، لانه شعر ان هذه العقيدة تكلف ثمناً غالياً، وانه اذا طلقها امكنه ان يشتري بدلاً عنها دنيا واسعة هذا الشخص الذي رافق الامام علي في جهاده انهار أخيراً وانتهت ارادته، انتهت شخصيته كانسان مسلم يفكر في الاسلام، عمرو بن الحجاج نفسه كلفه عمر بن سعد بأسوأ عمل يمكن ان يكلّف به انسان كلفه بالحيلولة دون سيد الشهداء والماء، بقي واقفاً على الماء يمنع ابن رسول الله والبقية الباقية من ثقل النبوة عن ان يشربوا من الماء، واستجاب لذلك شبث بن ربعي[1]، ومن هو شبث بن ربعي[2]؟ هو الرجل الذي عاش مع جهاد امير المؤمنين عليه السلام، الرجل

---

(١) المصدر نفسه: ٢٣٩ـ ٢٤٠.

(٢) شبث بن ربعي التميمي اليربوعي، أبو عبدالقدّوس، شيخ مضر وأهل الكوفة في أيامه، أدرك عصر النبوة، ولحق بسجاح المتنبئة، ثم عاد الى الإسلام، ثار على عثمان. قاتل الحسين عليه السلام بعد أن كتب إليه يدعوه الى المجيء، مات بالكوفة نحو سنة ٧٠ هـ.

الذي كان يعي مدلول حرب صفين، وكان يدرك ان الامام عليا في حرب صفين يمثل رسول اللهﷺ في غزوة بدر، ولكن الدنيا، الانهيار النفسي، ولكن النفس القصير خنقه في النهاية، فذاب وتميع، واشتد تميعه بالتدريج الى ان وصل الى حد: ان عبيدالله بن زياد يبعث اليه ليقاتل الحسين ابن رسول الله، فماذا يكون العذر؟ ماذا يكون الجواب؟ لايملك ان يعتذر بعذر من الاعذار الا ان يقول: «انا مريض» كلمة باردة جداً على مستوى بروده النفسي، عبيدالله بن زياد يبعث اليه الرسول مرة اخرى ليقول له: المسالة حدية، لامرض في هذه الحالة، اما ان تكون معنا، واما ان تكون عدونا، وبمجرد ان يتلقى هذه الرسالة ويعرف ان المسالة حدية يقوم شبث بن ربعي ويلبس ما كان يلبسه، ثم يخرج متجها الى عبيدالله بن زياد وهو يقول: لبيك هذه الاستجابات من هذا الطرف، وذاك البرود، وتلك السلبية من ذلك الطرف هم اكبر دليل على هذا المرض.

المشهد السابع: محنة مسلم وهاني:

والدليل الذي هو اكبر من هذا هي محنة مسلم وهاني التي يقل نظيرها في التاريخ، هذه المحنة تصور هذا المرض وهو في قمته، وهو في شدته بأروع تصوير، او بأفظع تصوير، قد يذهب وهم الانسان الى ان مسلم بن عقيل كيف اتفق له ان يفرط بكل هذه القوى الضخمة التي كانت بين

انظر الإصابة لابن حجر ترجمة رقم ٣٩٥٠، تهذيب التهذيب ج ٤: ٣٠٣، ميزان الاعتدال ج ١: ٤٤٠، الأعلام للزركلي ج ٣: ١٥٤، الأخبار الطوال: ٢٥٤ بحار الأنوار ج ٤٤: ٣٨٦.

يديه؟ كيف فرط بهذه القوى الشعبية التي بين يديه بين عشية وضحاها وبقي وحيداً فريداً يتسكع في الطرقات؟ في الواقع: ان هذه القوى لم تكن قوى الا على الورق، لم تكن هذه القوى قوى الا في سجل تسجيل الاسماء حينما سجل الاسماء فبلغت ثمانية عشر الف، او بلغت عشرين الف، او بلغت ثلاثين الف، كانت قوى على الورق، وذلك لان هؤلاء الثمانية عشر او العشرين الف كانوا جزءاً من هذه الامة الميتة، من هذه الامة المنهارة هذا الانهيار العجيب المفاجئ في لحظة، هذا الانهيار العجيب المفاجئ يعكس تلك الهزيمة المسبقة، هزيمة النفس، هزيمة الوجدان، هزيمة الضمير، وتلك الهزيمة، اي: هزيمة النفس والوجدان والضمير هي اساس هذه الهزيمة[1].

عبيدالله بن زياد يبعث الى هاني بن عروة[2] يقول له: تعال زر الامير، الامراء لايطيقون الجفاء، لماذا انت منقطع عن الامير؟ هذا في الوقت الذي كان مسلم بن عقيل في بيت لهاني بن عروة، والشيعة يذهبون اليه متسترين، هاني بن عروة ياتي الى عبيدالله بن زياد فيتهمه بان مسلما موجود عندك، وانك تفكر في الخروج وشق عصا الطاعة، هاني بن عروة يصطدم مع عبيدالله بن زياد ويقول له باني لا ادري اين مسلم، يقول عبيدالله: لابد لك ان تجده فيقول هاني: لو ان مسلما كان تحت قدمي لما رفعت قدمي، ثم

---

(١) اي: هزيمة تلك القوى الشعبية الضخمة التي كانت بين يدي مسلم عليه السلام وتشتتها بين عشية وضحاها.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام: ١٧٧ـ ١٧٨.

يقدم هاني له نصيحة بكل قوة، وبكل شجاعة هو من الافراد القلائل الذين استطاعت حركة الحسين ان تكشفهم في مجموع هذه الامة الميتة فقال: لي نصيحة لك، قال عبيدالله وما هي هذه النصيحة؟ قال: النصيحة ان تذهب انت واهل بيتك، وتحمل معك كلما لديك من اموال الى الشام سالما صحيحا، لا شغل لنا بك كان يتكلم هاني بن عروة وهو يتخيل ان له رصيدا، وان عشرات الآلاف من خلفه سوف تنفذ ارادته اذا اصبحت هذه الارادة بحاجة الى التنفيذ حينما اشتد غضب عبيدالله بن زياد، وحينما غضب هاني، حينما امر بان يحبس هاني انعكس الخبر في الكوفة بان هانياً قتل او في معرض القتل، جاء عمرو بن الحجاج وجاء معه اربعة آلاف انسان من عشيرته لكي يتفقدوا احوال هاني بن عروة ووقفوا بباب القصر يطالبون بحياة هاني بن عروة، عبيدالله بن زياد يبعث على شريح القاضي باعتباره قاضيا لابد ان تتوفر فيه شرائط فهو يعتبر شاهدا ثقة اذا استعمل شهادة، فقال له: تعال ادخل الى الغرفة التي سجن فيها هاني، انظر اليه حيا، واشهد امام هؤلاء بان هانيا حي، فدخل شريح القاضي الى الغرفة فراى ان هانياً حي، يقول شريح القاضي لعنة اللّه عليه بمجرد ان دخلت الى الغرفة ورايت هاني بن عروة صاح في وجهي: اين ذهب المسلمون؟ عشرة يهجمون على القصر الان لانقذوني[1]، لأن القصر ليس فيه شرطة، ليس فيه جيش، يعني لو ان عشرة فقط كانوا مستعدين لان يموتوا في سبيل اللّه لتغير وجه الكوفة

(١) راجع البحار ج: ٤٤ ص: ٣٤٨ مع بعض الفروق وأهمها انه ليس فيه ما نقل الشهيدقدس سره هنا من ان شريحاً هم بان يبلغ رسالة هاني.

يومئذ لان البيت ليست فيه شرطة، ولكن الشرطة كانت اوهام هذه الامة التي فقدت شجاعتها وارادتها هذه الامة التي فقدت شخصيتها خيل لها ان هذا القصر هو جبروت، هذا القصر هو المعقل الذي لا يمكن اجتيازه، بينما هذا القصر كان اجوف لم يكن فيه شرطة ولا جيش، ولم يكن فيه سلاح بالقدر الكافي الذي يمكن ان يصمد امام عشرة فقط، لذا قال هاني: اين ذهب المسلمون، عشرة فقط يكفون لانقاذي، يكفون للقضاء على هذا القصر، يكفون لاحتلال هذا القصر، شريح القاضي يقول: انا رجعت الى عمرو بن الحجاج وانا مكلف بان اؤدي الشهادة الشرعية بان هاني بن عروة حي حتى يرجع عمرو بن الحجاج، لان عمرو بن الحجاج والاربعة آلاف الذين جاؤوا معه قصارى همهم ان يكون هذا حيا، ليس لهم هم وراء ان يكون هذا حيا، يقول رجعت فهممت ان ابلغ عبارة هاني ابن عروة لعمرو بن الحجاج، ان اقول له ان هانياً يطلب عشرة فقط، يقول لو ان عشرة يهجمون على هذا (البعبع)[1]، على هذا الشبح الضئيل الذي يكمن فيه عبيداللّه بن زياد، لتمزق هذا الشبح، وتحطم هذا (البعبع)، يقول:هممت ثم التفت الى ان شرطي عبيداللّه بن زياد واقف الى جنبي فسكت وادى الشهادة المطلوبة منه رسمياً وحكومياً بان هانياً حي، ورجع عمرو بن الحجاج، وقتل هاني في اليوم الثاني.

مسلم بن عقيل بنفسه يخرج مع اربعة آلاف شخص يطوقون قصر الامارة وعبيداللّه بن زياد ليس معه الا ثلاثون على ما تقول الرواية،

---

(١) يراد بها الامر المخيف والمرعب.

وعشرون من اشراط الكوفة مسلم بن عقيل معه اربعة آلاف لكن اربعة آلاف ليس لهم قلوب، ليس لهم ايدي ليس لهم ارادة، اقرؤوا اسماء قادة مسلم بن عقيل في هذه المعركة هؤلاء الاربعة آلاف فيهم جماعة من كبار يوم عاشوراء لكنهم انهزموا جميعا، لم يبق مع مسلم واحد ابداً، يعني ان حركة الحسين هي بنفسها صنعت هؤلاء، هي بنفسها صعدت هؤلاء، حتى هؤلاء السبعون الذين استشهدوا مع الحسينعليه السلام كان عدد منهم نتاج محنة حركة سيد الشهداء، والا فلماذا انهزموا؟ على الأقل يبقى مع مسلم هذا الشخص الذي يعرف الطريق صلى في المسجد وتفرق الناس، يقول التاريخ: كانت تأتي المرأة فتنتزع زوجها واباها واخاها وتقول: مالك وعمل السلاطين هذا نهاية فقدان الارادة، ان الرجل يذوب ويتميع لان امراة واحدة تاتي وتنتزعه انتزاعا هذه المراة هي نفسها تلك المراة التي وقفت بعد الامام الحسينعليه السلام تلك الوقفات العظيمة على طول الخط، هذه المراة هي نفس تلك المراة التي احبطت مؤامرة امارة عمر بن سعد، حينما مات يزيد بن معاوية وبويع من قبل الامويين في الكوفة لعمر بن سعد مؤقتاً، فاصبح اميرا على الكوفة، من الذي اسقط امارته؟ اسقطته تلك المراة التي كانت تذهب الى زوجها وابيها واخيها تنتزعهم انتزاعاً، وتقول لهم: لا شغل لك مع السلاطين، هذه المراة بنفسها قامت بمظاهرة وقفت امام بيت عمر بن سعد تندب الحسين وتصيح: ان قاتل الحسين لايمكن ان يكون اميرا في الكوفة حتى سقط عمر بن سعد.

المشهد الثامن: التخالف بين عمل الامة وعواطفها:

واعجب مظهر من مظاهر هذا الانهيار هو التناقض الذي كان يوجد بين قلب الامة وعواطف الامة وعملها، هذا التناقض الذي عبر عنه الفرزدق بقوله للامام الحسين عليه الصلاة والسلام: ان قلوبهم معك وسيوفهم عليك، لا ان جماعة قلوبهم معك وجماعة اخرى سيوفهم عليك، بل الوحدات الثمانية في التناقض كلها محفوظة، ولكن مع هذا التناقض لان هذا الشخص الذي لا يملك ارادته يمكن ان تتحرك يده على خلاف قلبه وعاطفته، ولهذا كنا نراهم يبكون ويقتلون الامام الحسين، لانهم يشعرون بانهم بقتلهم للامام الحسين يقتلون مجدهم، يقتلون آخر آمالهم، يقتلون البقية الباقية من تراث الامام علي عليه السلام، هذه البقية التي كان يعقد عليها كل الواعين من المسلمين الامل في اعادة حياة الاسلام، في اعادة الحياة الى الاسلام، كانوا يشعرون بانهم يقتلون بهذا الامل الوحيد الباقي للتخلص من الظلم القائم، ولكنهم مع هذا الشعور لم يكونوا يستطيعون الا ان يقفوا هذا الموقف، ويقتلوا الامام الحسين قتلوا الامام الحسين وهم يبكون.

وأسأل الله ان لايجعلنا نقتل الامام الحسين ونحن نبكي، ان لايجعلنا نقتل اهداف الحسين ونحن نبكي، الامام الحسين ليس انسانا محدودا عاش من سنة كذا ومات في سنة كذا، الامام الحسين هو الاسلام ككل، الامام الحسين هو كل هذه الاهداف التي ضحى من اجلها هذا الامام العظيم، هذه الاهداف هي الامام الحسين، لانها هي روحه، وهي فكره، و هي قلبه وهي عواطفه، كل مضمون الامام الحسين هي هذه الاهداف، هي هذه القيم المتمثلة في الاسلام،

فكما ان اهل الكوفة كانوا يقتلون الحسين وهم يبكون فهناك خطر كبير في ان نمنى نحن بنفس المحنة، ان نقتل الحسين ونحن نبكي يجب ان نشعر باننا يجب ان لا نكون على الاقل قتلة للحسين ونحن باكون، البكاء لا يعني اننا غير قاتلين للحسين، لان البكاء لو كان وحده يعني ان الانسان غير قاتل للحسين اذن لما كان عمر بن سعد قاتلاً للحسين، لان عمر بن سعد بنفسه بكى حينما مرت زينب ـ عليها الصلاة والسلام ـ في موكب السبايا، في الضحايا، حينما التفتت الى اخيها، حينما اتجهت الى رسول الله ﷺ تستنجده او تستصرخه، او تخبره عن جثة الامام الحسين وهي بالعراء، عن السبايا وهم مشتتون، عن الاطفال وهم مقيدون، حينما اخبرت جدها ﷺ بكل ذلك ضج القتلة كلهم بالبكاء[1]، بكى السفاكون بكى هؤلاء الذين اوقعوا هذه المجازر، بكوا بانفسهم، اذن فالبكاء وحده ليس ضمانا، العاطفة وحدها ليست ضمانا لاثبات ان هذا صاحب العاطفة هو لا يقف موقفا يقتل فيه الامام الحسين، او يقتل فيه اهداف الامام الحسين، لابد من امتحان، لابد من تامل، لابد من تدبر، لابدمن تعقل لكي نتاكد من اننا لسنا قتلة للامام الحسين، ومجرد اننا نحب الامام الحسين، مجرد اننا نزور الامام الحسين مجرد اننا نبكي على الامام الحسين، مجرد اننا نمشي الى زيارة الامام الحسين، كل هذا شي عظيم، شي جيد، شي ممتاز، شي راجح، لكن هذا الشي الراجح لا يكفي ضمانا ودليلا لكي يثبت اننا لانساهم في قتل الامام الحسين، لان بامكان انسان ان يقوم بكل هذا عاطفيا وفي نفس الوقت يساهم في قتل الامام الحسين، يجب ان نحاسب انفسنا، يجب ان نتامل في سلوكنا، يجب ان

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام: ٤٠٤.

نعيش موقفنا بدرجة اكبر من التدبر و العمق والاحاطة والانفتاح على كل المضاعفات والملابسات، لكي نتاكد من اننا لا نمارس من قريب او بعيد بشكل مباشر او بشكل غير مباشر قتل الامام الحسين عليه الصلاة والسلام.

التحول من اخلاقية الهزيمة الى اخلاقية الارادة[1]

الامة حينماتنهزم وينتزع منها شخصيتها وتموت ارادتها تنسج بالتدريج - كماقلنا - اخلاقية معينة تنسجم مع الهزيمة النفسية التي تعيشها بوصفها امة بدون ارادة، امة لا تشعر بكرامتها وشخصيتها بالرغم من وضوح الطريق وجلاء الاهداف وقدرتها على التميز المنطقي بين الحق والباطل، وبالرغم من ان اطروحة معاوية قد تكشفت كاطروحة جاهلية في ثوب الاسلام، وان اطروحة علي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت انها التعبير الاصيل عن الاسلام في معركة ثانية مع الجاهلية، بالرغم من وضوح كل ذلك بعد الهدنة التي اعلنها الامام الحسن عليه السلام بدات الامة نتيجة لفقدان ارادتها تنسج اخلاقية معينة تنسجم مع هزيمتها النفسية، و الروحية والاخلاقية وبهذا كان الامام الحسين عليه السلام بين اخلاقيتين بين اخلاقية الهزيمة التي تعيشها الامة الاسلامية قبل ان تهزم فعليا يوم عاشورا والاخلاقية الاخرى التي كان يريد ان يبثها وان ينشرها في الامة الاسلامية وهي اخلاقية الارداة والتضحية والعزيمة والكرامة كان الامام الحسين عليه السلام يواجه تلك الاخلاقية التي ترسخت، ورسخت من المفاهيم عن العمل، والسلب والايجاب، والاثبات والنفي ما

---

(١) من هنا تبدأ المحاضرة الثانية لسماحة السيد الشهيد قدس سره.

يشل طاقات التحرك، وكان يريد ان يغير تلك الاخلاقية دون ان يستفزها، كان يواجه الاخلاقية التي تمثلت في كلام للاحنف بن قيس حينما وصف المتحركين في ركاب الامام الحسين بانهم اولئك الذين لا يوقنون واولئك الاشخاص الذين يتسرعون قبل ان يتثبتوا من وضوح الطريق، هذاالمفهوم من الاحنف بن قيس كان يعبر عن موقف اخلاقية الهزيمة من التضحية ان التضحية والاقدام على طريق قد يؤدي الى الموت نوع من التسرع و قلة الاناة، والخروج عن العرف المنطقي للسلوك هذا المفهوم هو معطى اخلاقية الهزيمة هذا المفهوم الذي تبدد بعد حركة الحسين عليه الصلاة والسلام واحتل بديله مفهوم التضحية الذي على اساسه قامت حركة التوابين، حركة اربعة آلاف لايرون لهم هدفاً في طريقهم الا التضحية، لكي يكفروا بذلك عن سيئاتهم وموقفهم السلبي تجاه الامام الحسين.

اخلاقية الهزيمة هي هذه الاخلاقية التي انعكست في كلام لاخي الحسين عمر الاطرف حينما قال للامام الحسين عليه السلام ان تبايع يزيد خير لك من ان تقتل[١]، من ان تموت هذه اخلاقية الهزيمة هي التي تبدلت بعد هذا خلال خط حركة الحسين عليه السلام، وانعكست في مفهوم لعلي بن الحسين حينما قال لابيه: اولسنا على الحق؟ قال:بلى قال: اذن لانبالي، اوقعنا على الموت او وقع الموت علينا. اخلاقية الهزيمة التي كان يواجهها الامام الحسين عليه السلام هي الاخلاقية التي انعكست في كلام لمحمد بن الحنفية[٢]

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام: ١٤٨ـ ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٩ـ ١٥٠.

حينما كان ينصح الامام الحسين ويقول له: ان اخشى ما اخشى ان تدخل الى مصر وبلد من بلاد المسلمين فيختلف عليك المسلمون، فبعض يقفون معك وبعض يقفون ضدك، ويقع القتال بين انصارك واعدائك فتكون اضيع الناس دما، الافضل من ذلك ان تقف بعيداً عن المعترك، ثم تبث رسلك وعيونك في الناس، فان استجابوا فهو، والا كنت في امن من عقلك ودينك وفضلك ورجاحتك هذه هي اخلاقية الهزيمة التي تحولت فيما بعد، حيث اصبح دم الحسين عليه السلام - هذا الدم الذي كان يتصوره محمد بن الحنفية انه سوف يكن اضيع دم - مفتاح تحريك الامة حينما قال المختار في سجن عبيدالله بن زياد: اني اعرف كلمة استطيع بها ان املك العرب، هذا الدم الذي كان يتصوره انه اضيع دم اصبح هو مفتاح السلطات والسيطرة على المنطقة كلها.

اخلاقية الهزيمة هي الاخلاقية التي عبر عنها الامير الاموي يزيد بن معاوية في رسالة له الى عبيدالله بن زياد، يقول في الرسالة: ان آل ابي طالب هؤلاء اسرع ما يكونون الى سفك الدماء هذا التعبير في الواقع هو ظاهرة من ظواهر اخلاقية الهزيمة، حينما تبرز اخلاقية الهزيمة وتترسخ وتتعمق تتحول كل محاولة جدية لمقابلة الظلم والظالمين الى نوع من السفك و القتل في نظر المثبطين والمجمدين هذه الاخلاقية التي يريد الامام الحسين عليه السلام ان يحولها الى اخلاقية التضحية والارادة، الى الاخلاقية الاسلامية الصحيحة التي تمكن الانسان المسلم من ان يقف موقفه الايجابي والسلبي وفقا لما تقرره الشريعة الاسلامية ايجاباً وسلباً.

دقة التحرك في عملية التحويل:

وفي عملية التحويل هذه كان الامام الحسين يواجه ادق مراحل عمله وذلك لانه في نفس الوقت الذي يريد ان يبث في جسم الامة وفي ضميرها ووجدانها أخلاقية جديدة كان يحافظ في نفس الوقت على ان لا يخرج خروجا واضحا عن الأخلاقية التقليدية التي عاشتها الامة نتيجة لهزيمتها الروحية، كان يحرص على ان لا يخرج بشكل واضح ومثير عن تلك الأخلاقية المنحطة التي عاشتها الامة، وذلك لانه كان يريد ان يخلق وينشئ الأخلاقية الجديدة عن طريق هز ضمير الأمة الإسلامية، ولم يكن بإمكانه ان يهز ضمير الأمة الإسلامية الا اذا قام بعمل مشروع في نظر هذه الأمة الإسلامية التي ماتت ارادتها وتغيرت أخلاقيتها، والتي اصبحت تعيش هذه المفاهيم التي انعكست في كلمات هؤلاء الذين تحدثنا عنهم كان لابد ان يراعي الامام الحسين عليه الصلاة والسلام في سيره وتخطيطه هذه الأخلاقية، وان لايستفزها لكي يبقى محتفظا لعمله بطابع المشروعية في نظر المسلمين الذين ماتت اخلاقيتهم الحقيقية وتبدلت مفاهيمهم عن العمل والسلب والايجاب.

الامام الحسين عليه السلام يخطط لعملية التحويل:

الامام الحسين عليه السلام في الواقع قد اتخذ منذ البد موقفا ايجابيا واضحا صريحا بينه وبين ربه، كان قد صمم منذ اللحظة الاولى على ان يخوض المعركة مهما كلفه الامر وعلى جميع الاحوال والتقادير، وان يخوضها الى

آخر الشوط والى ان يضحي بآخر قطرة من دمه، كان يفكر تفكيراً ايجابياً مستقلاً في ذلك، لم يكن يتحرك نتيجة لردود فعل من الامة، بل كان هو يحاول ان يخلق ردود الفعل المناسبة لكي يتحرك، ومن ادلة ذلك ان الامام الحسين عليه السلام بدأ بنفسه الكتابة الى زعماء قواعده الشعبية في البصرة نعم لم يرو لنا التاريخ انه كتب ابتدا بشكل مكشوف واضح الى زعماء قواعده الشعبية في الكوفة، ولكن التاريخ حدث بأنه كتب وابتدأ بالحديث والتحريك قواعده الشعبية في البصرة، واعلن في رسالته لهم انه قد قرر الخروج على سلطان بني امية قال لهم بان هذا الخط الذي يمثله هو و يمثله اخوه وابوه هو الحق، الا انه سكت وسكت ابوه واخوه حينما كان الكتاب والسنة تراعى حرمتهما اما حينما انتهكت حرمة الكتاب وحرمة السنة، حينما اميتت السنة، حينما احييت البدع، حينما انتشر الظلم لابد لي ان اتحرك، ولابد لي ان اغيّر، ولابد لكم ان تحققوا في هذا الموقف درجة تفاعلكم مع رسالتكم قال ذلك بوضوح، وطلب منهم بشكل ابتدائي الالتفاف حول حركته، وهذا يعني ان الامام الحسين لم يكن في موقفه يعبر عن مجرد استجابة لردود فعل عاطفية، او منطقية في الامة، بل كان هو قد بدا منذ اللحظة الاولى في تحريك الامة نحو خطته وخط عمله، موقفه من والي المدينة ايضا واضح في ذلك حينما استدعي من قبل والي المدينة وعرض عليه الوالي في نصف الليل ان يبايع يزيد بن معاوية، وحينما تكشف لوالي المدينة ان امتناع الحسين عليه السلام عن البيعة هو بحسب الحقيقة لون من الوان الرفض، صرح بعد هذا الامام الحسين بكل وضوح عن ايمانه

بحقه في الخلافة، وقال نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون اينا احق بالخلافة وكان هذا واضحاً في اعلانه العزم والتصميم على حركة مسلحة ضد السلطان القائم وقتئذ، هذا التهديد وتلك الرسالة الابتدائية لزعماء قواعده الشعبية في البصرة الى غير هذا وذاك من القرائن والدلائل يعبر عن ان الامام الحسين عليه الصلاة والسلام كان يخطط تخطيطاً ابتدائياً لتحريك الامة وكان قد صمم على ان يتحرك مهما كانت الظروف والأحوال هذا واقع التخطيط.

شعارات الحسين عليه السلام في تبرير مخططه:

ولكن الامام الحسين حينما كان يلقي شعارات هذا التخطيط على هذه الأمة الإسلامية المهزومة أخلاقياً، المهزوزة روحياً، المتميعة نفسياً، الفاقدة لارادتها، حينما كان يلقي شعارات هذا التحرك على هذه الامة لم يكن في كل القاءاته صريح واضحاً محدداً، وذلك لانه كان يجامل[1] تلك الاخلاقية التي عاشتها الامة الاسلامية، وكانت هذه المجاملة جزءاً ضروريا من انجاح الحسين في هدفه لانه اذا خرج عن هذه الاخلاقية فقد فَقدَ بذلك عمله طابع المشروعية في نظر اولئك المسلمين، وبذلك يصبح هذا العمل غير قادر على ان يهز ضمير انسان الامة الاسلامية، كما كان من المفروض ان يهزه.

---

(١) أي: يداري.

الشعار الاول: حتمية القتل:

كان الامام الحسين يعترض عليه، ويقال: لم تخرج؟ يعترض عليه عبدالله بن الزبير وغيره، فيقول له: باني انا اقتل على كل حال سواء خرجت او لم اخرج، ان بني امية لايتركونني، و لو كنت في هامة من هذه الهوام لأخرجوني وقتلوني، ان بني امية يتعقبوني اينما كنت، فانا ميت على اي حال سواء بقيت في مكة او خرجت منها، ومن الأفضل ان لا اقتل في مكة لكي لاتنتهك بذلك حرمة هذا الحرم الشريف.

فتراه طرح هذا الشعار، و هذا الشعار بالرغم من واقعيته منسجم مع أخلاقية الأمة المعاشة أيضا، فأخلاقية الهزيمة التي تعيشها الأمة الإسلامية لاتجد منطقا تنفذ منه للتعبير عن نقد مثل هذا التحرك من الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، فهو عليه السلام يقول: انا مقتول على كل حال، و الظواهر كلها تشهد بذلك، الدلائل والأمارات والملابسات تشهد بان بني امية قد صمموا على قتل الامام الحسين عليه السلام ولو عن طريق الاغتيال ولوكان متعلقا باستار الكعبة، اذن فطرح مثل هذا الشعار لاجل تفسير هذا الموقف كان مناسبا جدا مع اقناع اخلاقية الهزيمة، مع كونه شعاراً واقعياً في نفس الوقت.

الشعار الثاني: غيبية قرار التحرك:

ياتي اشخاص آخرون اليه يعترضون عليه، يقولون: لم تتحرك، ياتي محمد بن الحنفية ينصحه في اول الليل بنصائح عديدة فيقول له: أنظُرْ، افكر فيما تقول فيذهب محمد بن الحنفية وفي آخر الليل يسمع بان الامام

الحسين قد تحرك، فيسرع اليه وياتي وياخذ براحلته ويقول له: يا اخي قد وعدتني ان تفكر، قال: نعم، ولكني بت في هذه الليلة فرايت رسول اللهﷺ، فقال: انك مقتول، فتراهعليه السلام يجيب بهذا الجواب، يجيب بقرار غيبي [صادر] من أعلى، و هذا القرار الغيبي من أعلى لايمكن لأخلاقية الهزيمة ان تنكره مادام صاحب هذه الأخلاقية مؤمنا بالحسين، و مؤمنا برؤيا الحسين، طبعا هو لم يحدث بهذه الرؤيا عبداللّه بن الزبير الذي لم يكن مؤمنا برؤيا الحسين، بل حدث بذلك محمد بن الحنفية وامثال محمد بن الحنفية، فهذا شعار آخر كان يطرحه وهو شعار حتمية الموت [الصادرة] من اعلى، وان هناك قرارا من اعلى يفرض عليه ان يموت، ان يضحي، ان يغامر، ان يقدم على هذه السفرة التي قد تؤدي الى القتل، وهذا الشعار ايضاً كان بالرغم من واقعيته ينسجم مع اخلاقية الهزيمة، وهو في نفس الوقت شعار واقعي.

الشعار الثالث: ضرورة اجابة دعوات اهل الكوفة:

وكان في مرة ثالثة يطرح شعارا ثالثا، كان يقول للاشخاص الذين يمر بهم في طريقه من مكة الى العراق، في منازله المتعددة حينما كانوا ينصحونه بعدم التوجه الى العراق، كان يقول لهم: اني قد تلقيت من اهالي الكوفة دعوة للذهاب اليهم، و قد تهيات الظروف الموضوعية في الكوفة لكي اذهب، ولكي أقيم حقاً و أزيل باطلاً، فكان يعكس ويفسر سفرته على اساس انها استجابة وانها رد فعل، و انها تعبير عن اجابة طلب، ان الامة

تحركت و ارادت، وانه قد تمت الحجة عليه، ولابد له ان يتحرك الامام الحسين لم يكن في واقعه يقتصر في مرحلته الجهادية هذه على ان تطلب منه الامة فيتحرك، والا لما راسل ابتداء زعماء قواعده الشعبية بالبصرة و يطلب منهم التحرك، ولكنه في نفس الوقت كان يعكس هذا الجانب اكثر مما يعكس ذاك الجانب، لان هذا الجانب اقرب انسجاما مع اخلاقية الهزيمة، ماذا تقول اخلاقية الهزيمة امام شخص يقول لها: باني قد تلقيت دعوة، و ان ظروف هذه الدعوة ملائمة للجواب والتحرك نحو الداعي، وبطبيعة الحال هناك فرق كبير بين انسان يتحرك تحركا ابتدائيا وانسان آخر يتحرك اجابة لجماهير آمنت به وبقيادته وزعامته، فهناك قول اخلاقية الهزيمة ان هذا متسرع، و ان هذا لا يفكر في العواقب، وانه القى بنفسه في المخاطر اما حينما يكون العمل اجابة لدعوة من جماهير قد هيات كل الاجواء اللازمة لهذه الدعوة، فهذه الاخلاقية المهزومة لا تقول عن هذا العمل وهذا التحرك: انه عمل طائش انه عمل صبياني، انه عمل غير مدروس.

هذه الشعارات التي طرحها الامام الحسين عليه الصلاة والسلام كانت كلها واقعية وفي نفس الوقت كانت منسجمة مع أخلاقية الأمة المهزومة روحياً وفكرياً ونفسياً.

الشعار الرابع: ضرورة الثورة ضد السلطان الجائر:

وكان يطرح أيضاً إلى جانب كل هذه الشعارات الشعار الواقعي حينما كان يؤكدؤعلى ان رسول اللهﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً يحكم بغير

ما انزل اللّه فلم يغير من ذلك السلطان بفعل او قول كان حقا على اللّه ان يدخله مدخله فكان الى جانب تلك الشعارات التي يسبغ بها طابع المشروعية على عمله في مستوى أخلاقية الأمة كان يعطي أيضاً باستمرار ودائما الشعار الواقعي الحي[1] الذي لابد وان يكون هو الاساس للاخلاقية الجديدة التي كان يبنيها في كيان هذه الامة الاسلامية.

---

(١) الهمّة والغيرة على الدين و(التضحية) والاستعداد الروحي والمادي من أجل استقامة حكم الإسلام.

الاسلوب الاول: عدم البداة بالقتال:

من جملة الاساليب التي اصطنعها عليه افضل الصلاة والسلام للتوفيق بين الاخلاقيتين، لمجاملة اخلاقية الهزيمة لكي يحولها بالتدريج الى اخلاقية التضحية انه طرح شعار: ان لا يبدأ الاخرين بقتال. هذا الشعار كان قد طرحه امير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام، ولكن فرقاً كبيراً بين الشعار الذي طرحه الامام علي عليه السلام والشعار الذي طرحه الامام الحسين عليه السلام الامام علي عليه السلام كان رئيس دولة، ورئيس الدولة من المفروض ان لايبدأ احداً من المواطنين بقتال الا اذا بدأه المواطن بشق عصا الطاعة، والتمرد عليه، والقتال، فكان من المفروض ان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لايبدأ عائشة مثلا بقتال، لايبدأ الزبير او طلحة بقتال، لأنهم مواطنون في دولة هو رئيسها، ما لم يخرجوا عن الخط يحاربوا الوضع الشرعي الحاكم في تلك الدولة، فكان شعار: ان لايبدأ احداً من المواطنين بقتال مفهوما وواضحا، اما على مستوى حركة الحسين عليه السلام الذي خرج ثائرا على دولة قائمة وسلطان قائم، فليس من المنطقي ان يقال: ان شخصاً يثور على سلطان قائم لا يبدأ هذا

السلطان القائم بقتال، ولكن هذا الشعار قد طرحه عليه افضل الصلاة والسلام لكي يكون منسجما مع اخلاقية الهزيمة ايضاً التي عاشتها الأمة الإسلامية، لكي يسبغ على عمله طابع المشروعية على مستوى هذه الاخلاقية حينما التقى عليه افضل الصلاة والسلام مع طليعة جيش عبيدالله ابن زياد بقيادة الحر[١]، وكانت الطليعة عبارة عن الف جندي اقترح عليه زهير بن القين[٢] (على ما اظن)[٣] ان يبدأهم بقتال، وقال: ان هؤلاء اوهن علينا ممن يجيء بعدهم، فلنبدأ بقتال هؤلاء، و لنفتح الطريق الى الكوفة، قال عليه الصلاة والسلام: اني لا ابدأهم بقتال، و من مصاديق تطبيق هذا الشعار كان وضع مسلم بن عقيل عليه السلام، فان مسلم بن عقيل قد ذهب الى الكوفة رسولا من قبل الامام الحسين عليه الصلاة والسلام الا انه ذهب في اطار هذا الشعار، وهذا هو الذي يفسر لنا عدم قيام مسلم بن عقيل بأي عمل ايجابي سريع خلال الأحداث التي مرت به في الكوفة.

قد يخطر على ذهن البعض ان مسلم بن عقيل لم يستطع ان يزن الاحداث او ان يقدر الظروف تقديرها اللازم، و ان مسلم بن عقيل كان مدعوا الى نوع من المبادأة لكي يستلم زمام الموقف الا ان هذا التصور انما ينتج عن تخيل ان مسلم بن عقيل قد ذهب من قبل الامام الحسين الى الكوفة واليا، حاكما، سلطانا، وليس في نصوص التاريخ اي دلالة على

---

(١) المصدر نفسه: ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٨.

(٣) قوله (على ما أظن) تحاشياً للوقوع بالالتباس بالأسماء.

ذلك، الامام الحسين حينما ارسل مسلم بن عقيل وكتب معه كتابا لم يكن هناك في الكتاب أدنى إشارة الى اعطاء مسلم بن عقيل صفة الولاية والحاكمية والسلطان، وانما قال لاهل الكوفة: اني ارسلت ثقتي اليكم من اهل بيتي لكي يستطلع أحوالكم و يتأكد من إخلاصكم، ويكتب الي بذلك، فان كتب الي بما جاءت به كتبكم ورسلكم استجبت لدعوتكم وجئتكم.

مسلم بن عقيل كان مكلفا في نص هذا الكتاب باستطلاع احوال تلك القواعد الشعبية التي راسلت الامام الحسين عليه السلام، ولم يكن مكلفا بازيد من ذلك، وبالفعل لم يقم مسلم بأزيد من ذلك، دخل الكوفة[1] ونزل ضيفا في بيت المختار رحمة الله عليه، وبقي في بيت المختار مكشوف الحال تزوره الشيعة ويتجمعون عنده، فيتحدث اليهم، و يؤكد لهم اهداف الامام الحسين عليه السلام، ويؤكدون له اخلاصهم واستعدادهم للعمل في تلك الأهداف، حتى يدخل عبيد الله بن زياد الى الكوفة[2] حينئذ فيتوتر الجو و يغير لموقف بشكل عام، مسلم ابن عقيل يرى ان من المصلحة ان ينتقل الى بيت آخر ويكون مكثه في الكوفة سريا، لأن عبيد الله بن زياد بدأ عملية التعقيب و التفتيش عن مسلم بن عقيل، فبينما الوالي السابق كان سلبيا اصبح عبيدالله بن زياد يفكر في مجابهة هذا التجمع وبذرة هذا التجمع، حينئذ

(١) المصدر نفسه: ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٠.

انتقل مسلم بن عقيل من بيت المختار الى بيت هاني بن عروة[1] رضوان الله عليه، وبقي هناك متكتما بمكثه، واخذ الشيعة يزورونه متكتمين، وكان ظهور مسلم بن عقيل في اليوم المشهود مع اربعة آلاف، وكان العمل الذي مارسه حينما ذهب الى قصر الامارة مع هذا العدد من الشيعة وحاول ان يحتل قصر الامارة وان يسيطر على مقاليد الموقف، كان هذا العمل خارج نطاق التخطيط المتفق عليه بين مسلم والحسين، كان هذا العمل بملاك الدفاع، لان مسلم بن عقيل رضوان الله عليه وقع في موقع الدفاع، عبيدالله بن زياد بدأ بالهجوم، اخذ يحاول ان يتعقب مسلم بن عقيل وان يقضي على هذه البذرة، فكان مسلم بن عقيل في حالة دفاع، و لم يكن في حالة غزو او هجوم، يعني ان الظروف اضطرته الى ان يقف موقف المدافع، ولو لم يبدا بهذه العملية اذن لهجم عليه عبيدالله بن زياد، وهجم على شيعته وهم في البيوت، فكان على مسلم بن عقيل لا بمنطق رسالته من قبل الحسين لا بمنطق الحاكمية والسلطان والولاية، بل بمنطق الدفاع ان يبدا بمثل هذه العملية كدفاع عن نفسه وعن قواعده التي التفت حوله حينما يحاول عبيدالله بن زياد ان يبدأ بالهجوم. اقرؤوا رسالة الامام الحسين عليه الصلاة والسلام التي بعثها مع قيس بن مسهر الصيداوي الى الكوفة، كان في الرسالة يقول: اني سوف ارد اليكم قريباً، فانكمشوا على امركم حتى آتي. الرسالة واضحة في ان الامام الحسين عليه الصلاة والسلام لم يكن قد خطط لمسلم بن عقيل ان يملك الكوفة، وان يسيطر على الكوفة كحاكم ووال وسلطان،

---

(١) المصدر نفسه: ١٧٢.

يقول: انكمشوا في امركم يعني حاولوا ان تحفظوا هذا التجمع الى ان آتي، فكان تحويل هذا التجمع الى مجتمع، الى سلطان، الى دولة، كان كل هذا موقوفا على دخول الحسين عليه الصلاة والسلام، ولهذا اوصى بان ينكمشوا في امرهم اذن فرسالة مسلم بن عقيل لم تكن الا عبارة عن استطلاع احوال تلك القواعد الشعبية، وتزويد الامام الحسين عليه السلام بالمعلومات الواضحة المؤكدة عن تلك القواعد الشعبية، ولم يكن مسلم بن عقيل مكلفا بحرب، وانما قام بما قام به في اللحظة الأخيرة كدفاع عن النفس، حيث لم يكن هناك طريق آخر للاستمرارية غير ان يتخذ هذا الموقف الدفاعي كل هذا يعبر في الواقع عن شعار عدم الابتداء بالقتال، هذا الشعار الذي كان من المفروض على الامام الحسين عليه الصلاة والسلام ان يطرحه لكي يشعر الناس جميعاً بان العملية عملية فوق الشك، وانها مشروعة حتى على مستوى تصورات الانسان المسلم المهزوم روحياً واخلاقياً، و نحن إذا لاحظنا الإمام الحسين عليه السلام في مسيره من مكة إلى العراق نرى انه كان باستمرار يؤكد على ضرورة مواصلة السير والسفر لأنه مدعو، ولابد له ان يجيب هذه الدعوة.

بلغه في الطريق ان مسلم بن عقيل قتل ولم يغير من موقفه، اي يسقط هذا الشعار، بل بقي هذا الشعار مرفوعا وهو شعار انه مدعو من قبل الكوفة ولابد له ان يجيب بالرغم من انه اطلع على ان مسلم بن عقيل وهاني بن عروة قد قتلا، بعد هذا اطلع على ان قيس بن مسهر الصيداوي قد قتل من قبل عبيد الله بن زياد، مع هذا لم يغير هذا الشعار، بل بقي يؤكد انه مدعو

من قبل اهل الكوفة ولابد له ان يجيب هذه الدعوة، حتى التقى مع الحر بن يزيد الرياحي، جاءه الطرماح قال له: الحق بالجبل الفلاني وانا اجمع لك عشرين الف نفر من العشيرة الفلانية يلتفون حولك، والله يغنيك بذلك عن الكوفة، قال عليه السلام: بيننا و بين القوم عهد، ولابد لي ان اسير اليهم. بعد كل هذه الدلائل من اهالي الكوفة على نكث العهد، مع هذا بقي الامام الحسين يواصل تاكيده على هذا الشعار، اذن القصة في الواقع لم تكن قصة ان يقتنع الحسين، ولم يكن تحركه عليه السلام بينه وبين نفسه كنتيجة لرد فعل لطلب قواعده الشعبية في الكوفة، لانه اطلع في اثناء الطريق على ان هذه القواعد الشعبية في الكوفة قد خانته، قد قتلت رسوله، قد قتلت ثقته من اهل بيته، ومع هذا كان يواصل السفر اليها، كان هذا الشعارشعارا منسجما مع الاخلاقية التي تعيشها الامة الاسلامية، وكان لابد له ان يطرح هذا الشعار لكي يسبغ على العملية طابع المشروعية في نظر اولئك الذي يحبون السلامة، اولئك الذي يرون في التضحية لونا من الوان التهور واللامعقولية وقلة الاناة.

الاسلوب الثاني: حشد كل المثيرات العاطفية في المعركة:

وكان من الاساليب التي اتخذها ايضا عليه افضل الصلاة والسلام لكسب هذه الاخلاقية ومجاملتها انه حشد في المعركة كل القوى والامكانيات، لم يكتف ـ عليه افضل الصلاة والسلام ـ بان يعرض نفسه للقتل عسى ان تقول اخلاقية الهزيمة: ان شخصاً حاول ان يطلب سلطاناً فقتل، بل اراد ان يعرض

اولاده للقتل، واهله للقتل، ونساءه للسبي، اراد ان يجمع على نفسه كل ما يمكن ان يجتمع على انسان من مصائب وتضحيات وآلام، لان أخلاقية الهزيمة مهما شككت في مشروعية ان يخرج انسان للقتل، فهي لا تشكك في ان هذا العمل الفظيع الذي قامت به جيوش بني امية، قامت به جيوش الانحراف ضد بقية النبوة، لم يكن عملاً صحيحاً على كل المقاييس، وبكل الاعتبارات، كان لابد للإمام الحسين عليه السلام ان يدخل في المعركة دمه وأولاده وأطفاله ونساءه وحريمه وكل الاعتبارات العاطفية، وكل الاعتبارات التاريخية، حتى الآثار التي كانت قد تبقت له من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى العمامة، حتى السيف، لبس عمامة رسول الله، تقلد سيف رسول الله صلى الله عليه وآله ادخل كل هذه المثيرات التاريخية والعاطفية الى المعركة، وذلك لكي يسد على اخلاقية الهزيمة كل منفذ وكل طريق الى التعبير عن هزيمتها، وعن نوع من انواع الاحتجاج على هذا العمل، لكي يهز بذلك ضمير ذلك الانسان المسلم المهزوز الذي تميعت ارادته، وهكذا كان قد استطاع عليه الصلاة والسلام بهذا التخطيط الدقيق الرائع ان يهز ضمير ذلك الانسان المسلم.

الدرس الذي نستفيده من التخطيط الحسيني

ومن هذا التخطيط يمكننا ان نستفيد درساً عاماً، وحاصل هذا الدرس: ان عملية التغيير في أخلاقية الأمة لا يجوز ان تقوم بأي مجابهة واضحة للأخلاقية الفاسدة الموجودة في الامة، لان المجابهة الواضحة الصريحة

للأخلاقية الفاسدة الموجودة في الامة يكون معناها الانعزال عن هذه الامة والانكماش، وعدم القدرة على القيام بعمل مشروع في نظر هذه الامة حينما نريد ان ننفذ الى ضمير الامة التي ماعت أخلاقياً، لا بد لنا أيضاً في نفس الوقت الذي نفكر في أنشأ أخلاقيتها من جديد ان نفكر في عدم مجابهة الأخلاقية القائمة بالشكل الذي يعزل هذا الشخص الذي يريد ان يغير أخلاقية الأمة، فلابد له ان يفكر في انتهاج طريق في التغيير يستطيع به ان ينفذ الى ضمير الأمة، وهو لايمكنه ان ينفذ الى ضمير الأمة الا اذا حافظ باستمرار على معقولية ومشروعية عمله في نظر الأمة، كما عمل الامام الحسين عليه الصلاة والسلام لم يبق لدى شخص من أبناء الأمة الإسلامية أي شك في ان عمل الامام الحسين كان عملاً مشروعاً صحيحاً، وان عمل بني امية كان عملاً ظالماً عاتياً جباراً.

وهذا الوضوح في الرؤية هو الذي جعل المسلمين يدخلون بالتدريج الى آفاق جديدة من الأخلاقية تختلف عن اخلاقية الهزيمة، هذا الوضوح هو الذي هز ضمير الانسان المسلم، وهو الذي يهزه الى يومنا هذا، فليس دم الامام الحسين عليه السلام رخيصاً بدرجة يكتفى في ثمنه بان يهتز ضمير الانسان المسلم في عصر واحد، او في جيل واحد، لايمكن ان يكون ثمن دم الامام الحسين عليه السلام ان تتزلزل قواعد بني امية، او ان يكشف عن حقيقة بني امية، او ان تنتعش ضمائر جيل من امة الاسلام هذا لا يكفي ثمنا لدم الامام الحسين الطاهر، بل ان ثمن دم الامام الحسين الذي هو أغلى دم سفك في سبيل الاسلام ان يبقى محركاً، منوراً، دافعاً، مطهراً، منقياً على مر التاريخ

لكل أجيال الأمة الإسلامية، لابد وان يهز ضميرنا وضمير كل واحد منا اليوم كما كان يهز ضمير المسلمين قبل ثلاثة عشر قرنا، لابد ان يهز ضمير كل واحد منا حينما نجابه اي موقف من مواقف الإغراء، او الترغيب او الترهيب، لابد وان نستشعر تلك التضحية العظيمة حينما نلتفت الى اننا مدعوون الى تضحية جزئية بسيطة، حينما يتطلب منا الإسلام لونا من التضحية وقدرا بسيطا وضئيلا من التضحية، لابد وان نلتفت دائما الى ذلك القدر العظيم غير المحدود من التضحية الذي قام به الامام الحسين عليه السلام لكي نستصغر، ولكي يتضائل امامنا اي قدر نواجهه في حياتنا ونكلف انفسنا بالقيام به في سبيل الإسلام.

ان الاسلام اليوم يتطلب منك قدراً قليلاً من التضحية بوقتك، براحتك، بمصالحك الشخصية، برغباتك بشهواتك، في سبيل تعبئة كل طاقاتك وإمكانياتك وأوقاتك لأجل الرسالة، اين هذه التضحية من تلك التضحية العظيمة التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام؟من تضحيته بآخر قطرة من دمه، بآخر شخص من ذريته، بآخر كرامة من كراماته بحسب مقاييس الإنسان الدنيوي؟! لا بد أن نعيش دائماً هذه التضحية، ونعيش دائماً مدلول هذا الدم الطاهر لكي يكون ثمن دم الإمام الحسين حيا على مر التاريخ.

غفر الله لنا ولكم.

خطاب الاستنصار الحسيني*

من المدينة إلى كربلاء

الشيخ محمد مهدي الآصفي

---

* بحث مستلّ من كتاب "في رحاب عاشوراء" للشيخ محمد مهدي الآصفي - ط١ - لعام ١٤١٩ - قم.

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب الاستنصار الحسيني

الاستعراض، والدلالات

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

آل عمران: ٥٢

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾

الصف: ١٤

الاستنصار الحسيني

يقول الشيخ جعفر التستري في الخصائص الحسينية: إن الحسين عليه السلام (استنصر) الناس سبع مرات و(استغاث) سبعاً.

ثم يقول: (إن التلبيات السبعة الواردة في زيارة الحسين عليه السلام (لبيك داعي الله) إجابة وإشارة إلى هذه الاستنصارات والاستغاثات)[1].

وفيما يلي نستعرض طائفة من استنصارات الحسين عليه السلام واستغاثته بالمسلمين منذ خروجه من المدينة إلى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ في كربلاء.

ثمّ نقوم بدراسة دلالات الاستنصار الحسيني.

---

(١) الخصائص الحسينية: ١٧٧ـ ١٧٨.

أ. الاستعراض

نماذج من الاستنصار الحسيني

في المدينة

١ـ خرج الحسين عليه السلام من المدينة متوجهاً نحو مكة ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب، ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه الحسن عليه السلام وأهل بيته، وكتب قبل أن يخرج من المدينة، وصيّته التي يستنصر فيها المسلمين، وأودعها عند أخيه محمد بن الحنفية.

قال فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أوصى به الحسين بن علي عليهما السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية: إن الحسين يشهد أن لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عنده، وأن الجنة حق، والنار حقّ والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور... وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب.

فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن رد عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين».

ثم طوى الكتاب وختمه، ودفعه إلى أخيه محمد[١].

٢ـ واستنصر الحسين عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وقال لعبد الله بن عمر لما طلب منه البقاء في المدينة: «**يا عبد الله إن من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا يُهدى إلى بغي من بغايا بني إسرائيل وإن رأسي يُهدى إلى بغي من بني أمية**»[٢].

ولما عرف ابن عمر من الحسين العزم على مغادرة المدينة قال له: يا أبا عبد الله اكشف لي عن الموضع الذي لم يزل رسول الله ﷺ يقبله منك، فكشف له عن سرته فقبلها ثلاثاً وبكى[٣].

فقال له: «**إتق الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تدعنّ نصرتي**»[٤].

في مكة

٣ـ وكتب الحسين نسخة واحدة (تعميماً) إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، وهم مالك بن مسمع البكري، والاحنف بن القيس، والجارود بن المنذر، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبيد بن معمر، وأرسله مع مولى له يُقال له سليمان[٥] وفيه: «**أما بعد فإن الله اصطفى محمداً ﷺ**

---

(١) مقتل العوالم: ٥٤.

(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم: ١٣٩.

(٣) أمالي الصدوق: ٩٣، المجلس ٣٠.

(٤) اللهوف: ١٧.

(٥) هذا في تاريخ الطبري: ٦/ ٢٠٠، وفي اللهوف: ٢١ (يُكنّى أبا رزين). وفي مثير الأحزان:

على خلقه وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل بهﷺ وكُنا أهله وأولياؤه وأوصياؤه وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم إنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاّه، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، فإن السنّة قد أميتت والبدعة قد أحييت، فان تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد».

فسلّم الجارود بن المنذر العبدي رسول الحسين إلى زياد فصلبه عشية الليلة التي خرج في صبيحتها إلى الكوفة ليسبق الحسين إليها[١]، وكانت ابنة الجارود بخرية زوجة ابن زياد فزعم أن يكون الرسول دسيساً من ابن زياد، وأما الأحنف فإنه كتب إلى الحسين عليه السلام:«أما بعد فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يُوقنون»[٢].

وأما يزيد بن مسعود[٣] فإنه جمع بني تميم وبني حنظلة وبني سعد فلما حضروا قال: يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ قالوا: بخ بخ! أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر حللت في الشرف وسطاً وتقدمت

ص: ١٢ (أرسله مع ذراع السوسي).

(١) تاريخ الطبري: ٦ / ٢٠٠.

(٢) مثير الأحزان: ١٣.

(٣) هذا في مثير الأحزان، وعند الطبري وابن الأثير مسعود بن عمرو.

فيه فرطاً قال: فإني قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه وأستعين بكم عليه فقالوا: إنا والله نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي، فقل حتى نسمع.

فقال: إن معاوية مات. فأهون به والله هالكاً ومفقوداً، ألا وإنه قد انكسر باب الجور والإثم وتضعضعت أركان الظلم. وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أنه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد، اجتهد والله ففشل، وشاور فخُذل، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتآمر عليهم بغير رضاً منهم، مع قصر حلم، وقلّة علم، لا يعرف من الحق موطأ قدميه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لَجهادَهُ على الدين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن علي وابن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير، ويحسن إلى الكبير، فأكرم به راعي رعية، وإمام قوم وجبت لله به الحجة، وبلغت به الموعظة، فلا تعشو عن نور الحق، ولا تكسعوا في وهد الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ونصرته، والله لا يقصّر أحدكم عن نصرته إلاّ أورثه الله تعالى الذل في ولده، والقلة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها، من لم يُقتل يمُت، ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله رد الجواب.

فقالت بنو حنظلة: يا أبا خالد نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلاّ خضناها، ولا

تلقى والله شدة إلاّ لقيناها، ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا إذا شئت.

وتكلمت بنو عامر بن تميم فقالوا: يا أبا خالد نحن بنو أبيك وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نبقى إن ظعنت، والأمر إليك فادعنا إذا شئت.

وقالت بنو اسعد بن زيد: أبا خالد إن أبغض الأشياء إلينا خلافك والخروج عن رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل، فحمدنا ما أمرنا، وبقي عزنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة ونأتيك برأينا.

فقال لهم: لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم أبداً، ولازال سيفكم فيكم.

ثم كتب إلى الحسين عليه السلام: أما بعد فقد وصل إليّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وإن الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير، ودليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وانتم فرعها، فاقدم سعدت بأسعد طائر فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظمأ لورود الماء يوم خمسها، وقد ذللت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن قلوبها بماء سحاب مزن حين استهل برقها فلمع.

فلما قرأ الحسين عليه السلام كتابه قال: «**آمنك الله من الخوف، وأعزك وأرواك يوم العطش الأكبر**».

ولما تجهز ابن مسعود إلى المسير بلغه قتل الحسين عليه السلام فاشتد جزعه

وكثر أسفه لفوات الامنية من السعادة بالشهادة[١].

وكانت (مارية) ابنة سعد او مُنقذ من الشيعة المخلصين، ودارها مألفاً لهم يتحدّثون فيه فضل أهل البيت عليهم السلام، فقال يزيد بن نبيط وهو من عبد القيس لأولاده وهم عشرة:أيكم يخرج معي، فانتدب منهم اثنين عبد الله وعبيد الله، وقال له أصحابه في بيت تلك المرأة: نخاف عليك أصحاب ابن زياد، قال: والله لو قد استوت أخفافها بالجدد لهان عليّ طلب مَن طلبني[٢] وصحبه مولاه عامر.

وسيف بن مالك والأدهم بن امية[٣] فوافوا الحسين بمكة وضموا رحلهم إلى رحله حتى وردوا كربلاء وقتلوا معه.

٤ـ وخطب الحسين عليه السلام في المسلمين عشية خروجه من مكة، وقال:

«خطّ الموت على ولد ادم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه.

كأني بأوصالي تقطّعها عُسلان الفلواة بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربة سبغاً، لا محيص من يوم خطّ بالقلم.

---

(١) مُثير الأحزان: ١٣، واللهوف: ٢١.

(٢) تاريخ الطبري: ٦/ ١٩٨.

(٣) ذخيرة الدارين ص: ٢٢٤.

رضا الله رضانا أهل البيت. نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين.

لن تشذ عن رسول الله ﷺ لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقر بهم عينه، وينجز بهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[١].

وفي هذه الخطبة، ينعى الإمام نفسه، ويستنصر المسلمين، ويطلب منهم مهجهم، ويطلب ممن يريد أن يخرج معه أن يوطّن نفسه للقاء الله، ويعلن للمسلمين أنه يخرج غداً إلى العراق، ومن أراد أن يلتحق به فليعدّ نفسه للخروج منذ الليلة.

وهي دعوة غريبة من نوعها في تاريخ الثائرين والخارجين. فلا يُمنيهم الحسين عليه السلام بملك ولا سلطان، وإنما يدعوهم إلى القتل.

وهذه الدعوة بهذه الخصوصية مما تتميز بها ثورة الحسين عليه السلام في التاريخ عن غيرها من الثورات والحركات.

إن الحسين عليه السلام يطلب من الناس مهجهم، ويطلب منهم أن ينتزعوا أنفسهم من الدنيا ويوطّنوا أنفسهم للقاء الله.

والحسين عليه السلام يقصد ما يقول.

---

(١) اللهوف: ٣٣، وابن نما: ٢٠، والمقرم: ١٧٣.

ولو خرج يومئذٍ مع الحسين عليه السلام ناس يريدون الدنيا، وليس وجه الله، ويطلبون المال والسلطان في خروجهم مع الحسين عليه السلام لأخلّوا بهذه الحركة، وأفقدوها قيمتها وتأثيرها العميق الخالد في التاريخ.

وبهذه الطريقة يعلن الحسين عليه السلام من بدء خروجه عن رفضه لأولئك الذين يريدون أن يلتحقوا به للمال والسلطان والدنيا.

هذه الخطبة عجيبة في لهجتها، عجيبة في مضامينها ودعوتها، وتتضمن الاستنصار، والاستماتة، والترغيب والتزهيد، والدعوة، والرفض.

٥. في الحاجر:

ولما بلغ الحاجر[١] من بطن الرمة، كتب إلى أهل الكوفة جواب كتاب مسلم بن عقيل، وبعثه مع قيس بن مسهر الصيداوي[٢] وفيه: «**أما بعد فقد ورد عليّ كتاب مسلم بن عقيل يخبرني باجتماعكم على نصرنا والطلب بحقنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع، ويثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين**

---

(١) في معجم البلدان: الحاجر ما يمسك الماء من شفة الوادي وفيه، ج: ٤ ص: ٢٩٠، بطن الرمة منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة، وفيه تجتمع أهل الكوفة والبصرة، وفي تاج العروس: ج: ٣ ص: ١٣٦: الحاجر مكان بطريق مكة.

(٢) في روضة الواعظين لعلي بن محمد الفتّال النيسابوري ص: ١٥٢ يُقال بعثه مع عبد الله بن يقطر ويجوز انه أرسل إليهم كتابين أحدهما مع عبد الله بن يقطر والآخر مع قيس بن مسهر وفي الإصابة ج: ٣ ص: ٤٩٢ بعد أن ذكر نسب قيس قال: وكان مع الحسين لما قتل بالطف وهو اشتباه، فإن ابن زياد قتله بالكوفة.

من ذي الحجة، فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم، فإني قادم في أيامي هذه».

ولمّا وصل قيس إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير التميمي ـ وكان صاحب شرطة ابن زياد ـ أمره أن ينظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان[1] ومنها إلى القطقطانة فأراد أن يفتّشه فأخرج قيس الكتاب وخرّقه.

ولما مثل بين يدي ابن زياد قال: لماذا خرّقت الكتاب؟ قال: لئلاّ تطلّع عليه، فأصرّ ابن زياد على الإخبار بما فيه فأبى قيس، فقال: إن لم تخبرني فاصعد المنبر وسبّ الحسين وأباه وأخاه، وإلاّ قطّعتك إرباً إرباً.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي وآله، وأكثر من الترحم على أمير المؤمنين والحسن والحسين، ولعن عبيد الله بن زياد وأباه وبني أميّة.

ثم قال: أيها الناس أنا رسول الحسين إليكم، وقد خلّفته في موضع كذا فأجيبوه، فأمر ابن زياد أن يرمى من أعلى القصر فتكسّرت عظامه ومات[2].

ويقال أمر ابن زياد أن يرمى مكتوفاً فرُمي من أعلى القصر[3] وكان به

---

(١) في معجم البلدان: ٣/ ٤٥١: خفان: موضع قرب الكوفة وهو عين عليا قرية لولد عيسى ابن موسى الهاشمي، وفيه: ج: ٧ ص: ١٣٥، القطقطانة بالضم ثم السكون قرب الكوفة تبعد عن الرهيمة نيفاً وعشرين ميلاً.

(٢) تاريخ الطبري: ٦/ ٣٢٤، والبداية ٨/ ٦٨، والارشاد للمفيد، وروضة الواعظين: ١٥٢، وإعلام الورى: ١٣٦.

(٣) الإرشاد للمفيد: ٢/ ٧١.

رمق، فقام إليه عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه فعيب عليه قال: أردت أن أريحه[١].

٦. في زرود:

ونزل الحسين عليه السلام في زرود، ونزل بالقرب منه زهير بن القين البجلي، وكان غير مُشايع له ويكره النزول معه، ولكن الماء جمعهم في المكان.

روى السّدي عن رجل من بني فزارة كان يُرافق زهيراً في السفر الذي التحق فيه بالحسين:

قال: كنّا مع زهير بن القين البجلي حين أقبلنا مكة نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزله، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير، حتى نزلنا يومئذٍ في منزل لم نجد بداً من أن نانزله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغذى من طعام لنا، إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتى سلّم ثم دخل، فقال: يا زهير بن القين، إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام بعثني إليك لتأتيه قال: فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدثتني دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت. قالت: فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً

---

(١) روضة الواعظين والإرشاد، وفي ميزان الاعتدال: ٢/ ١٥١.

قد أسفر وجهه، قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم (فقوّض ظ) وحمل إلى الحسين عليه السلام ثم قال لامرأته، أنتِ طالق إلحقي بأهلكِ فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلاّ خير[1].

وفي رواية الملهوف قال: قد عزمت على صحبة الحسين عليه السلام لأفديه بنفسي وأقيه بروحي. ثم أعطاها مالها وسلّمها إلى بعض بني عمها ليوصلها إلى أهلها، فقامت إليه وبكت وودعته وقالت: كان الله عوناً ومعيناً، خار الله لك، أسألك أن تذكرني في القيامة عند جدّ الحسين عليه السلام[2].

قال الطبري: ثم قال لأصحابه: مَن أحب منكم أن يتبعني وإلاّ فإنه آخر العهد، إني سأحدثكم حديثاً. غزونا بلنجر[3] ففتح الله علينا وأصبنا غنائم،

---

(١) تاريخ الطبري: ٧/ ٢٩٠.

(٢) الملهوف: ٦٤.

(٣) بلنجر: من بلاد الترك، غزاهم المسلمون وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وأنه في سنة ٢٢هـ وفي القمقام بلنجر بفتح الموحدة واللام وسكون النون وجيم مفتوحة وراء مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، قالوا: فتحها عبد الرحمن بن ربيعة، وقال البلاذري سلمان (أي فتحها سلمان) بن ربيعة الباهلي وتجاوزها ولقِيَه خاقان في جيشه ببلنجر فاستشهد هو وأصحابه وكانوا اربعة آلاف وكان في أول الأمر خافهم الترك، وقالوا: إن هؤلاء ملائكة لا يعمل فيهم السلاح فاتفق أن تركياً اختفى في غيضه (يعني بيشه) ورشق مسلماً بسهم فقتله، فنادى في قومه، إن هؤلاء يموتون كما تموتون فلِمَ تخافونهم فأجروا عليهم وأوقعوهم حتى استشهد عبد الرحمن بن ربيعة، وأخذ الراية أخوه ولم يزل يقاتل حتى أمكنه دفن أخيه بنواحي بلنجر ورجع ببقية المسلمين على طريق جيلان وقتل سلمان بن ربيعة وأصحابه، وكانوا ينظرون في كل ليلة نوراً على مصارعهم فأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت فهم يستسقون به إذا قحطوا (منه). واحتمل أن الكلمة (بالبحر) وليس

فقال لنا سلمان الباهلي ـ وفي روايات أُخر سلمان الفارسي (رضوان الله عليه) ـ أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم. فقال: إذا أدركتم سيد شباب آل محمد عليه السلام فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم. فأما أنا فإني أستودعكم الله. قال: ثم والله مازال في أول القوم حتى قتل (رضوان الله عليه)(١).

٧. في قصر بني مقاتل:

وفي قصر بني مقاتل رأى فسطاطاً مضروباً ورمحاً مركوزاً وفرساً واقفاً فسأل عنه فقيل هو لعبيد الله بن الحر الجعفي، وبعث إليه الحجاج بن مسروق الجعفي فسأله ابن الحر عمّا وراءه؟

قال: هدية إليك وكرامة: إن قبلتها. هذا حسين يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أجرت وإن قتلت استشهدت فقال ابن الحرّ: والله ما خرجت من الكوفة إلاّ لكثرة ما رأيته خارجاً لمحاربته وخذلان شيعته فعلمت أنه مقتول ولا أقدر على نصره ولست أحبّ أن يراني وأراه(٢).

فأعاد الحجاج كلامه على الحسين فقام صلوات الله عليه ومشى إليه في جماعة من أهل بيته وصحبه فدخل عليه الفسطاط فوسّع له عن صدر

(بلنجر) وقد أخطأ النساخ في كتابة الكلمة. وقد بدأ المسلمون في ذلك التاريخ بغزوات البحر.

(١) نفس المهموم، للشيخ عباس القمي: ١٨٠ ـ ١٨٢.

(٢) الأخبار الطوال: ص: ٢٤٩.

المجلس. يقول ابن الحرّ: ما رأيت أحداً قط أحسن من الحسين ولا أملأ للعين منه، ولا رقفت على أحد قط رقّتي عليه حين رأيته يمشي والصبيان حوله، ونظرت إلى لحيته فرأيتها كأنها جناح غراب، فقلت له أسواد أم خضاب؟ قال: **يا ابن الحرّ عجّل عليّ الشيب**، فعرفت إنه خضاب[1].

ولما استقر المجلس بأبي عبد الله حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**يابن الحر إن أهل مصركم كتبوا إليّ أنهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا**[2]**، وإن عليك ذنوباً كثيرة، فهل لك من توبة تمحي به ذنوبك؟**

قال: وما هي يا ابن رسول الله؟ فقال: «**تنصر ابن بنت نبيّك وتقاتل معه**»[3].

فقال ابن الحرّ: والله إنّي لأعلم أنّ من شايعك كان السعيد في الآخرة ولكن ما عسى أن أُغني عنك ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً؟ فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة فإن نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه «المحلقة» والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلاّ لحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلاّ سبقته، فخذها فهي لك.

قال الحسين: «**أمّا إذا رغبت بنفسك عنّا فلا حاجة لنا في فرسك**[4]

(١) خزانة الأدب، للبغدادي: ١ / ٢٩٨ ط. بولاق. وأنساب الأشراف: ٥ / ٢٩١.

(٢) نفس المهموم: ص: ١٠٤.

(٣) أسرار الشهادة: ص: ٢٣٣.

(٤) الأخبار الطوال: ص: ٢٤٩.

ولا فيك، وما كنت متخذ المضلّين عضداً[١]. وإني أنصحك كما نصحتني، إن استطعت أن لا تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلاّ أكتبه الله في نار جهنم»[٢].

وندم ابن الحرّ على ما فاته من نصرة الحسين عليه السلام فأنشأ:

أيا لَكِ حسرةً مادمت حيّاً ... تردّد بين صدري والتراقي
غداة يقولُ لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتعزم بالفراق
حسينٌ حين يطلب بذل نصري ... على أهل العداوة والشقاق
فلو فَلَق التلهّفُ قلب حرّ ... لهمّ اليوم قلبي بانفلاق
ولو واسيته يوماً بنفسي ... لنلتُ كرامة يوم التلاق
مع ابن محمد تُفديه نفسي ... فودع ثم أسرع بانطلاق
لقد فاز الألى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون ذووا النفاق[٣]

وفي هذا الموضع اجتمع به عمرو بن قيس المشرقي وابن عمّه فقال لهما الحسين عليه السلام: «**جئتما لنصرتي**، قالا له: إنّا كثيرو العيال، وفي أيدينا بضائع للناس، ولم ندرِ ماذا يكون، ونكره أن نضيّع الأمانة.

---

(١) أمالي الصدوق: ص: ١٩٤، المجلس: ٣٠.

(٢) خزانة الأدب: ١/ ٢٩٨.

(٣) مقتل الخوارزمي: ١ / ٢٢٨، وذكره الدينوري في الأخبار الطوال: ص ٢٥٨.

فقال لهما عليه السلام: **انطلقا فلا تسمعا لي واعية ولا تريا لي سواداً، فإنه من سمع واعيتنا أو رأى سوادنا فلم يجيبنا، كان حقاً على الله عز وجل أن يكبه على منخريه في النار**»[١].

٨. في منزل شراف:

وفي (شراف) طلع عليهم الحر الرياحي بألف فارس، بعثه ابن زياد ليحبس الحسين عليه السلام عن الرجوع إلى المدينة أينما يجده، أو يقدم به إلى الكوفة.

فسقاهم الحسين عليه السلام ماءً وكانوا عطاشى، ثم خطب فيهم الحسين عليه السلام وقال: «**إنها معذرة إلى الله عز وجل وإليكم، وإني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت بها عليّ رسلكم أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، ولعل الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم فاعطوني ما أطمئن به من عهودكم ومواثيقكم، وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم**»[٢].

٩. في منزل البيضة:

وفي منزل البيضة خطب الحسين عليه السلام في أصحاب الحر فقال:

---

(١) مقتل الحسين، للسيد عبد الرزاق المقرّم: ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

(٢)مقتل الحسين، للسيد عبد الرزاق المقرّم: ١٩٥.

«أيها الناس إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيّر وقد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم أنكم لا تسلّموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن عليّ وأمي فاطمة بنت رسول الله. نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، ولكم فيّ أُسوة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فَلَعمري ما هي لكم بنُكر. لقد فعلتموها، بأبي وأخي وابن عمي مسلم. فالمغرور من اغترّ بكم. فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١).

١٠. في كربلاء:

وفي كربلاء أقبل حبيب بن مظاهر الأسدي إلى الحسين بن علي عليهما السلام فقال: هاهنا حي من بني أسد بالقرب منا أتأذن لي أن أسير إليهم أدعوهم

---

(١) الطبري: ٦/ ٢٢٩، ومقتل الحسين، للمقرم: ص: ١٩٨.

إلى نصرتك؟ فعسى الله أن يدفع بهم عنك بعض ما تكره، فقال له الحسين عليه السلام: **قد أذنت لك يا حبيب**، قال: فخرج حبيب بن مظاهر في جوف الليل متنكراً حتى صار إلى أولئك القوم، فحيّاهم وحيّوه وعرفوا أنه من بني أسد، فقالوا: ما حاجتك؟ يا ابن عمّ؟ فقال: حاجتي إليكم قد أتيتكم بخير ما أتى به وافد إلى قوم، أتيتكم أدعوكم إلى نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه في عصابة من المؤمنين، الرجل منهم خير من ألف رجل ولن يخذلوه ولن يسلموه وفيهم عين نظرت، وهذا عمر[1] بن سعد قد أحاط به في اثنين وعشرين ألف، وأنتم قومي وعشيرتي، وقد جئتكم بهذه النصيحة فأطيعوني اليوم في نصرته تنالون غداً شرفاً في الآخرة، فإني أقسم بالله أنه لا يقتل منكم رجل مع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله صابراً محتسباً إلاّ كان رفيق محمد صلى الله عليه وآله في أعلى عليين. قال: فوثب رجل من بني أسد يُقال له بشر بن عبيد الله فقال: والله أنا أول من أجاب إلى هذه الدعوة، ثم أنشأ يقول:

قد علِم القوم إذا تواكلوا وأحجم الفرسان أو تناصلوا
إنّي شجاع بطل مقاتل كأنني ليث عرين باسل

قال: ثم تبادر رجال الحي مع حبيب بن مظاهر الأسدي.

قال: وخرج رجل من الحي في ذلك الوقت حتى صار إلى عمر[2] بن سعد في جوف الليل فخبره بذلك، فأرسل عمر رجلاً من أصحابه يُقال له الأزرق بن حرب الصيداوي فضم إليه أربعة آلاف فارس، ووجه به في

---

(١) في النسخ: عمرو.

(٢) في النسخ: عمرو.

الليل إلى حي بني أسد مع الرجل الذي جاء بالخبر.

قال: فبينما القوم في جوف الليل قد أقبلوا يريدون معسكر الحسين إذ استقبلهم جُند عمر بن سعد على شاطئ الفرات، قال: فتناوش القوم بعضهم [بعضاً] واقتتلوا قتالاً شديداً، صاح به حبيب بن مظاهر: ويلك يا أزرق ما لك ولنا دعنا؟ قال: واقتتلوا قتالاً شديداً.

فلما رأى القوم ذلك انهزموا راجعين إلى منازلهم، فرجع حبيب بن مظاهر الى الحسين عليه السلام فأعلمه بذلك الخبر فقال: **لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم**(١).

١١ـ وفي كربلاء دعا الحسين عليه السلام بدواة وبيضاء، وكتب إلى أشراف الكوفة ممن كان يظن انه على رأيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى سليمان بن صرد الخزاعي(٢).

أما بعد فقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال في حياته من رأى سلطاناً جائراً إلى آخر ما ذكره في خطبة الأصحاب».

يوم عاشوراء:

وللحسين عليه السلام يوم عاشوراء استنصاران واستغاثة:

---

(١) كتاب الفتوح لابن الأعثم الكوفي: ج٥/ ١٥٩ ـ ١٦٢، ط ١.

(٢) نفس المهموم: ص ٢٠٧، البحار: ٤٤/ ٣٨٢.

وفيما يلي تفصيل كل من الاستنصارين والاستغاثة الحسينية في يوم عاشوراء.

١٢. الاستنصار الأول يوم عاشوراء:

دعا الحسين عليه السلام براحلته يوم عاشوراء فركبها ونادى بصوت عالٍ يسمعه جلّهم:

«أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حقّ لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم، ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾[(١)]، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾»[(٢)].

فلما سمعن النساء هذا منه صحن وبكين وارتفعت أصواتهم، فأرسل إليهنّ أخاه العباس وابنه علي الأكبر وقال لهما: «**سكّتاهن فلعمري ليكثر بكاؤهن**».

ولما سكتن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمد وعلى الملائكة

---

(١) يونس: ٧١.

(٢) الأعراف: ١٩٦.

والأنبياء، وقال في ذلك ما لا يُحصى ذكره ولم يسمع متكلم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه(١).

ثم قال: «الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته، فلا تغرنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمَع من طمِع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلَّ بكم نقمته، وجنّبكم رحمته، فنِعم الرب ربنا وبِئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمدﷺ، ثم إنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، وقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولِما تريدون إنّا لله وإنّا إليه راجعون هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبُعداً للقوم الظالمين(٢).

أيها الناس، انسبوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوَ ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أوَ ليس جعفر الطيار عمي، أوَلم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا

---

(١) تاريخ الطبري: ٦/ ٢٤٢.

(٢) مقتل محمد بن أبي طالب.

شباب أهل الجنة؟ فإن صدّقتموني بما أقول، وهو الحق فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه وإن كذّبتموني فإن فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك اخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس ابن مالك، يخبرونكم إنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي».

فقال الشمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق، ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك.

ثم قال الحسين عليه السلام: «**فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكّون أني ابن بنت نبيكم؟**

فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم! أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص جراحة؟ فأخذوا لا يكلمونه.

فنادى: **يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن أقدم قد أينع الثمار واخضرّ الجناب وإنما تقدم على جُند لك مجندة.**

فقالوا: لم نفعل.

قال: **سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم. ثم قال: أيها الناس، إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض**، فقال له قيس بن الأشعث: أوَلا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروك إلاّ ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين عليه السلام: **أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد**[1]**، عباد الله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»**[2].

١٣. الاستنصار الثاني في يوم عاشوراء:

ثم إن الحسين عليه السلام ركب فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه، ووقف بأزاء القوم وقال: «**يا قوم، إن بيني وبينكم كتاب الله وسنّة جدي رسول الله** صلى الله عليه وآله»[3].

---

(١) بالفاء الموحدة فيما رواه ابن نما في مثير الأحزان: ص ٢٦، وهو أصح مما يمضي على الألسن، ويوجد في بعض المقاتل بالقاف من الإقرار لأنه على هذا تكون الجملة الثانية غير مفيدة إلاّ ما أفادته التي قبلها، بخلاف على قراءة «الفرار» فإن الجملة الثانية تفيد أنه لا يفر من الشدة والقتل كما يصنعه العبيد، وهو معنى غير ما تؤدي إليه الجملة التي قبلها، على أنه يوجد في كلام أمير المؤمنين ما يشهد له، ففي تاريخ ابن الأثير: ج: ٣ ص: ١٤٨، وشرح نهج البلاغة: ج:١ ص: ١٠٤، المطبعة الأميرية. أن أمير المؤمنين قال في مصقلة بن هبيرة لما فرّ إلى معاوية: ما له فعل فعل السيد وفرّ فرار العبد وخان خيانة الفاجر؟

(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم: ٢٥٤ ـ ٢٥٧.

(٣) تذكرة الخواص: ص: ١٤٣.

ثم استشهدهم عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبي صلى الله عليه وآله ودرعه وعمامته فأجابوه بالتصديق فسألهم عما أقدمهم على قتله قالوا: الإسلام طاعة للأمير عبيد الله بن زياد، فقال عليه السلام:

«تباً لكم أيها الجماعة وترحاً! أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوّكم؟ فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم فهلا، لكم الويلات، تركتمونا، والسيف مشيم، والجأش طاعن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم كطيرة[1] الدبا، وتداعيتم عليها، كتهافت الفراش، ثم نفضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان ومطفئي السُنن! ويحكم! أهؤلاء تعضدون وعنّا تتخاذلون؟ أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم، وتأزرت فروعكم فكنتم أخبث ثمر، شجىً للناظر وأكلة للغاصب.

ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد

---

(١) بالكسر فالفتح «تاج العروس».

وخذلان الناصر»[(١)].

١٤. الاستغاثة الأخيرة للحسين عليه السلام يوم عاشوراء:

ولما نظر الحسين عليه السلام كثرة من قتل من أصحابه، قبض على شيبته المقدسة وقال: «**اشتد غضب الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتد غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتد غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم، أما والله لا أجيبهم إلى شيء يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضب بدمي**، ثم صاح **أما من مغيث يغيثنا أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله صلى الله عليه وآله**» [(٢)] فبكت النساء وعلا صراخهن.

وسمع الأنصاريان سعد بن الحارث وأخوه أبو الحتوف استنصار الحسين واستغاثته وبكاء عياله وكانا مع ابن سعد فمالا بسيفهما على أعداء الحسين وقاتلا حتى قُتلا[(٣)].

قال السيد: ولما رأى الحسين عليه السلام مصارع فتيانه وأحبّته عزم على لقاء القوم بمهجته ونادى: **هل من ذاب يذبّ عن حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، هل**

---

(١) نقلناها من اللهوف: ص: ٥٤، ورواها ابن عساكر في تاريخ الشام: ج: ٤ ص: ٣٣٣، والخوارزمي في المقتل: ج: ٢ ص: ٦.

(٢) اللهوف: ص: ٥٧.

(٣) الحدايق الوردية (مخطوط).

من موحّد يخاف الله فينا، هل من مغيث يرجو الله بإغاثتنا، هل من مُعين يرجو ما عند الله في إعانتنا. فارتفعت أصوات النساء بالعويل، فتقدم إلى باب الخيمة وقال لزينب: **ناوليني ولدي الصغير حتى أودعه**، فأخذه وأومأ إليه ليقبّله، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فوقع في نحره فذبحه[١].

فقال عليه السلام لزينب: **خُذيه**، ثم تلقّى الدم بكفيه فلما امتلأت رمى بالدم نحو السماء، ثم قال: **هوّن عليّ ما نزل بي إنه بعين الله**[٢].

وحكى السبط في التذكرة عن هشام بن محمد الكعبي قال: لما رآهم الحسين عليه السلام مصرين على قتله، أخذ المصحف ونشره وجعله على رأسه ونادى: «**بيني وبينكم كتاب الله وجدي محمد رسول الله، يا قوم بِمَ تستحلون دمي؟**» فساق الكلام[٣] إلى أن قال: فالتفت الحسين عليه السلام فإذا بطفل له يبكي عطشاً، فأخذه على يده وقال: **يا قوم إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل**، فرماه رجل منهم بسهم فذبحه، فجعل الحسين عليه السلام

---

(١) الملهوف: ص: ١٠٢.

(٢) الملهوف: ص: ١٠٣.

(٣) هذا كلامه عليه السلام الذي ساقه: ألست ابن بنت نبيكم، ألم يبلغكم قول جدي فيَّ وفي أخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة» إن لم تصدقوني فاسألوا جابراً وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري، أليس جعفر الطيار عمي؟ فناداه شمر: الساعة ترد الهاوية. فقال الحسين عليه السلام: الله أكبر أخبرني جدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: رأيت كأن كلباً ولغ في دماء أهل بيتي وما أخالك إلاّ إياه، فقال شمر: أنا أعبد الله على حرف إن كنت أدري ما تقول، فالتفت الحسين فإذا بطفل له ـ الخ «منه». تذكرة الخواص: ١٤٣.

يبكي ويقول: «**اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا**» فنودي من الهواء: دعه يا حسين فإن له مرضعاً في الجنة.

ثم قال: ورماه حصين بن تميم بسهم فوقع في شفتيه، فجعل الدم يسيل من شفتيه وهو يبكي ويقول: «**اللهم أشكو إليك ما يفعل بي وبإخوتي وولدي وأهلي**... الخ»[1].

١٥. استنصار زهير يوم عاشوراء:

وخرج إليهم زهير بن القين على فرس ذنوب، وهو شاك في السلاح فقال: «يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا أمة وأنتم أمة إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلاّ سوء، عمر سلطانهما، ليسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهاني بن عروة وأشباهه» فسبّوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له وقالوا: لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى عبيد الله بن زياد سلماً.

---

(١) تذكرة الخواص: ص: ١٤٣.

فقال زهير: عباد الله إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فَلَعمري إنه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام.

فرماه الشمر بسهم وقال: اسكت أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك.
فقال زهير: يا ابن البوّال على عقبيه ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال الشمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال زهير: أفبالموت تخوفني؟ فوالله لَلْموت معه أحب إليّ من الخلد معكم، ثم أقبل على القوم رافعاً صوته وقال:

عباد الله لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم.

فناداه رجل من أصحابه أن أبا عبد الله يقول لك: **أقبل، فَلَعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت هؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ**[1].

(١) تاريخ الطبري: ٦/ ٢٤٣.

ب. الدلالات:

الدلالات الأربعة لخطاب الاستنصار الحسيني

لخطاب الاستنصار الحسيني أربع دلالات:

١ـ الدلالة السياسية، ٢ـ الدلالة الحركية، ٣ـ الدلالة الولائية، ٤ـ الدلالة الشمولية.

وفيما يلي توضيح وشرح لهذه الدلالات الأربع التي يتضمنها الخطاب الحسيني.

١. المضمون السياسي لخطاب الاستنصار الحسيني

الاستنصار، والتعبئة، وتحشيد الرأي العام، والإعلام ضد الطاغية، من مقومات كل مواجهة سياسية ضد نظام حاكم، يحكم بالظلم.

فإنّ الصراع على الحكم بين الحاكم والمعارضة صراع غير متكافئ من الناحية الميدانية.

ذلك أن الحاكم يملك من القوة والمال والإعلام والسلطان ما لا يتملكه المعارضة.

ولا غنى للمعارضة أية معارضة، في معركة من هذا القبيل من أن تعمل كلَّ جهدها، وتسعى لكسب الرأي العام إلى جانبها، وكسب القوة والاستنصار، وتحشيد الرأي العام والتعبئة.

ونحن على يقين أن الحسين عليه السلام لم يكن يفكر، يوم أقدم على الخروج... في أن يهزم طاغية عصره في مواجهة عسكرية ميدانية، ولا نحتاج إلى محاسبات عسكرية وسياسية لنعرف أنّ الحسين عليه السلام لم يكن بصدد إسقاط يزيد، وانتزاع السلطان والمُلك والحكم من يده، وهو أولى من غيره.

وإنما كان الحسين عليه السلام يفكر في أمرين أحدهما سياسي، والآخر حركي.

أما الهدف السياسي من حركة الحسين عليه السلام وهو إلغاء شرعية الخلافة الأموية وفضح يزيد، وكسر هيبته وعزله سياسياً واجتماعياً.

وأما الهدف الحركي فهو توعية الناس، وكسر حاجز الخوف، وتحريك الناس وتثويرهم لإسقاط نظام الطاغية، واستنهاض الأمة، وإعادة إرادتها المسلوبة ووعيها المسلوب إليها.

والهدف الأول هدف سياسي بالتأكيد، والحسين عليه السلام يدخل في مواجهة سياسية مع أعتى نظام سياسي وأشرسه، والاستنصار جزء من هذه المعركة.

والاستنصار دعوة إلى تطويق النظام الأموي ومحاصرته وعزله، وتحجيم دوره وإلغاء شرعيته... وهو جزء من رسالة الإمام الحسين عليه السلام في هذه المعركة الشاملة.

٢. المضمون الحركي لخطاب الاستنصار الحسيني

والدلالة الأخرى لخطاب الاستنصار الحسيني هي الدلالة الحركية...

ولتوضح ذلك لابدّ أن نرسم الإطار العام لخروج الحسين عليه السلام وعناصر هذا الإطار ثلاثة:

١ـ **رفض البيعة ليزيد**: وقد أعلن الحسين عليه السلام رفضه لبيعة يزيد عندما أرسل الوليد والي بني أمية في المدينة، يطالبه بالبيعة بعد هلاك معاوية، وكان ذلك بحضور مروان بن الحكم، فامتنع الحسين عليه السلام من البيعة، وقال مثلي لا يبايع سراً فإذا دعوت الناس دعوتنا معهم.

فاقتنع الوليد، لكن مروان ابتدره قائلاً: إن فارقك الساعة، ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب معهم.

فقال الحسين عليه السلام: **يا ابن الزرقاء(١) أنت تقتلني أم هو، كذبت وأثمت.**

ثم أقبل على الوليد، وقال أيها الأمير: **إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون(٢).**

---

(١) الزرقاء جدة مروان وكانت من البغايا المعروفات. الفخرية: ٨٨

(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم، عن الطبري وابن الأثير، والإرشاد، واعلام الورى، ومثير الأحزان لابن نما الحلي.

وفي كربلاء خطب الحسين عليه السلام وقال: «**إنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد خيّر بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله وحجور طابت وطهرت**».

٢ـ **اعلان الرفض**: لم يتكتّم الحسين عليه السلام برفضه البيعة، وعرف الناس جميعاً إن الحسين عليه السلام ممتنع عن البيعة ونصحه بعض الناس بالبيعة وآخرون أن يخفي نفسه عن الأمصار.

ولكن الحسين عليه السلام أعلن أنه يرفض البيعة ويريد الخروج إلى مكة، وترك وصيته إلى بني هاشم وكافة المسلمين عند أخيه محمد بن الحنفية وغادر المدينة إلى مكة، سالكاً الطريق العام الذي يسلكه الناس، ويراه الناس فيه، فقيل له لو تنكّبت الطريق الأعظم، كما فعل ابن الزبير قال: **لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاضٍ**[١].

ودخل مكة، وهو يقرأ:

﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ**﴾[٢].

ونزل دار العباس بن عبد المطلب[٣]، واختلف إليه أهل مكة ومَن بها من المعتمرين وأهل الآفاق، وكان ابن الزبير يأتي إلى الحسين عليه السلام فيمن يأتيه.

وكان بإمكان الحسين عليه السلام أن يأخذ بنصيحة من ينصحه، بإخفاء نفسه، فيخفي نفسه عن الأنظار، ويذهب إلى بعض الثغور، ويبتعد عن الأضواء،

(١) إرشاد المفيد.

(٢) القصص: ٢٢.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٤: ٣٢٨.

وبذلك يسلم من أذى بني أمية وكيدهم، وكان لا يخفى هذا الوجه على الحسين عليه السلام، كما صرح بذلك لجملة من الذين نصحوا، ولكنه أصرّ أن يرفض البيعة، وأصرّ أن يعلن رفضه، ويبقى تحت الأضواء، ويصارح الناس برأيه في يزيد وبيعته، وبأنّه أحقّ بذلك من كل إنسان آخر على وجه الأرض.

٣ـ الخروج والثورة: وأصرّ الحسين عليه السلام بعد ذلك أن يخرج من الحجاز إلى العراق ليواجه فيه بني أمية.

وإذا أنعمنا النظر في كلمات أولئك الذين نصحوا الحسين عليه السلام بالامتناع عن الخروج إلى العراق نجد ان كلامهم يتضمن ثلاث نقاط:

الاولى: إن خروج الحسين عليه السلام إلى العراق بمعنى الثورة(١) والمواجهة بعينها لنظام بني أمية.

والثانية: إن شيعة الحسين عليه السلام في العراق إذا وفوا للحسين عليه السلام بعهودهم ومواثيقهم، فلن يستطيعوا أن يدفعوا عن الحسين عليه السلام كيد بني أمية ومكرهم وشرّهم، ولن يغلبوا سلطان بني أمية على العراق.

---

(١) انظر نصيحة محمد بن الحنفية للحسين عليه السلام في المدينة ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ٧. ونصيحة له في مكة ـ البحار: ٤٤، ونصيحة عبد الله بن جعفر الطيار له بالامتناع عن الخروج إلى العراق ـ الطبري ٦: ٢١٩، ونصيحة عبد الله بن العباس له ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٦، ونحن نشكّ في صدق كلّ هؤلاء في نصيحتهم للحسين عليه السلام، ولا نشكّ أن الحسين عليه السلام لم يكن يخفى عليه هذا الوجه من الرأي.

والثالثة: وبناءً على ذلك فإن الحسين عليه السلام إذا خرج إلى العراق فهو مقتول لا محالة.

ولم تكن هذه الحقائق تخفى على الإمام عليه السلام، ولم يكن يجهل الإمام عليه السلام إن خروجه إلى العراق بمعنى الخروج على سلطان بني أمية علانية، ولم تكن تخفى على الحسين عليه السلام عاقبة هذا الخروج.

ولا يصح ما يرويه بعض الناس أن الحسين عليه السلام طلب منهم ان يخلوا له الطريق إلى بعض الثغور، بعيداً عن الأضواء، وبعيداً عن التصدي والمواجهة، فلا يعطيهم يده للبيعة ولا يتصدى للخروج والمواجهة.

روى الطبري وابن الأثير عن عقبة بن سمعان أنه قال: صحبت حسيناً فخرجت معه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل عليه السلام، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة، ولا بمكة، ولا في الطريق ولا بالعراق، ولا في معسكر إلى يوم قتله إلاّ وقد سمعتها. لا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغور المسلمين، ولكنه قال: «**دعوني في هذه الأرض حتى تنظر ما يصير أمر الناس**»[(١)].

وكان من رأي محمد بن الحنفية أن يخفي الحسين عليه السلام نفسه عن الأنظار، ويبتعد عن أجواء المواجهة والتصدي، ويلتحق بالجبال وشعب الجبال، ويخرج من بلد إلى آخر، حتى ينظر ما يصير إليه أمر الناس[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣١٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٥.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ١٩١، وأنساب الأشراف ٤: ١٥.

فأبى الحسين عليه السلام وأصرّ على الخروج ونصحه ابن عباس أن يسير إلى اليمن، فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيه عليه السلام بها شيعة، وهو عن الناس في عزلة.

فقال له الحسين عليه السلام: «**يا ابن العم إني والله أعلم إنك ناصح مشفق، وقد أزمعت على المسير**»(١).

إذن فإن الحسين عليه السلام كان يقصد الخروج ويريده، وهو على علم بكل لوازمه وتبعاته وعواقبه.

هذا هو الإطار العام لحركة الإمام الحسين عليه السلام وموقفه من المدينة إلى كربلاء، وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم خطاب الاستنصار الحسيني.

إن الحسين يعلم أنه إن خرج إلى العراق يُقتل لا محالة، وكل القرائن والدلائل تشير إلى هذه الحقيقة.

إذن فإن الحسين عليه السلام يطلب النصر بالقتل والدم. ولم يكن يفطن يومئذٍ ابن عباس وعبد الله بن جعفر الطيار ومحمد بن الحنفية لهذه الوسيلة التي اتخذها الحسين عليه السلام يومئذٍ طريقاً إلى النصر.

لقد كان الحسين عليه السلام شاهداً لنجاح المؤامرة الأموية التي قادها آل أبي سفيان للانقلاب على الأعقاب... وقد فقدت الأمة في عرضها العريض حصانتها تجاه هذه المؤامرة، وعاد الضمير الإسلامي لا يملك الدرجة الكافية من المناعة والمقاومة. ولا يختلف في ذلك أهل العراق عن أهل الشام، وأهل مصر عن أهل الحجاز، فأراد الحسين عليه السلام أن يحدث هزة

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٦.

بشهادته وشهادة الثلة الطيبة من أهل بيته وأصحابه في الضمير الإسلامي، ويعيد إليهم ما سلبه منهم آل أبي سفيان من ضمائرهم وعزائمهم ورشدهم.

وقد كان الذي يريده الحسين عليه السلام بمصرعه ومصرع أهل بيته وأصحابه والمأساة التي يتناقلها أهل السير فأحدث في الضمير الإسلامي هزة عنيفة، وصحوة ضمير كانت مبدأ كثير من البركات والثورات والوعي واليقظة السياسية في تاريخ الإسلام.

المؤامرة الأموية على دم الحسين عليه السلام

وقد خطط آل أبي سفيان لإهدار دم الحسين عليه السلام في مكة في موسم الحج، وبلغ الحسين عليه السلام أنّ يزيد أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص في عسكر، وأمّره على الحج وولاّه أمر الموسم، وأوصاه بالفتك بالحسين أينما وجده[1]، فعجّل الحسين بالخروج من مكة قبل الوقوف بعرفات يوم التروية، ولم يمكّن بني أمية من اغتياله فيذهب دمه هدراً، وبذلك أحبط المؤامرة التي خطط لها بنو أمية.

يروي أبو مخنف عن أسديّين قالا: خرجنا من الكوفة حتى قدمنا مكة، فدخلنا يوم التروية فإذا نحن بالحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحجر والباب... فسمعنا ابن الزبير يقول للحسين عليه السلام: إن شئت أن تقيم أقمت فولّيت هذا الأمر ؛ فآزرناك وساعدناك ونصحناك وبايعناك.

---

(١) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم: ص ١٧٢، والمنتخب الحسني: ص ١٧٢.

فقال الحسين عليه السلام: **«إنّ أبي حدثني أنّ كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش»**[(١)].

ولما بلغ عمرو بن سعيد أنّ حسيناً قد خرج فقال اطلبوه. اركبوا كل بعير بين السماء والأرض فاطلبوه. فعجب الناس من قوله هذا[(٢)].

فاعترضه عليه السلام يحيى بن سعيد بن العاص ومعه جماعة أرسلهم عمرو بن سعد إليه فقالوا له عليه السلام: انصرف أين تذهب؟ فأبى عليهم ومضى وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط وامتنع الحسين عليه السلام وأصحابه امتناعاً قوياً [(٣)].

وواضح لمن يعلم خفايا كيد بني أمية، أن بني أمية كانوا لا يريدون أن يعطوا للحسين عليه السلام فرصة للخروج والثورة، وكانوا يخططون لاغتيال الحسين عليه السلام.

وقد جاء عمرو بن سعيد بن العاص من عند يزيد بخطة كاملة لاغتيال الحسين عليه السلام في الموسم.

فلما علم الإمام بذلك غادر مكة إلى العراق يوم التروية، ليفوّت على آل أبي سفيان فرصة المؤامرة ويحبط عليهم خطّتهم.

وقد أزعج عمرو بن سعيد بن العاص نبأ مغادرة الحسين عليه السلام للموسم يوم التروية بهذه الصورة، وأرسل إليه يحيى بن سعيد بن العاص ليطلب من الحسين أن يعود إلى الموسم، إلاّ أنه رجع من دون أن يحقق شيئاً مما كان

---

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) العقد الفريد ٤/ ٣٧٧.

(٣) الإرشاد: ٢٠١.

يريده عمرو بن سعيد بن العاص، كما لم يصنع مروان بن الحكم قبله شيئاً، عندما أنكر على الوليد أن يترك الحسين عليه السلام ليخرج من عنده من غير بيعة في تلك الليلة.

وقال له بصراحة: (إن فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه).

ولكن الحسين عليه السلام كان قد أعدّ العدة لمثل هذه المفاجأة من قبل، فصحب معه جمعاً من الفتيان، وقفوا بسيوفهم على باب الأمير ليتدخلوا بالقوة إذا اقتضى الأمر، وكان كذلك.

عودة إلى الدلالة الحركية للخطاب الحسيني:

إذن، كان الحسين عليه السلام يعدّ نفسه للخروج والثورة على يزيد، وهو لا يريد بهذه الثورة إلحاق هزيمة عسكرية بيزيد، وإنما يريد أن يستنهض المسلمين ويحفّزهم ويحرّكهم لمقاومة الظالم، ويعيد إليهم وعيهم وضمائرهم وعزائمهم كما قلنا.

فلست أدري ماذا دهى المسلمين حتى رضوا بيزيد بن معاوية خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يمض من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر من نصف قرن.

وخطاب الاستنصار الحسيني يحمل الدعوة إلى الثورة والمقاومة في وجه الظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول عليه السلام في منزل البيضة في أصحاب الحرّ:

«أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً

مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله». وهذه هي الصفة البارزة الأولى في خطاب الاستنصار الحسيني.

٢. المضمون الولائي لاستنصار الحسين عليه السلام:

للاستنصار علاقة وثيقة بشبكة الولاء، فتجب النصرة في شبكة الولاء عند الاستنصار. وشبكة الولاء ذات بُعدين: البعد العمودي، والبعد الأفقي، وهما سواء في وجوب النصرة عند الاستنصار.

البعد العمودي من شبكة الولاء:

أما البعد العمودي في هذه الشبكة فهو الولاء لله ولرسول2 ولأئمة المسلمين وأولياء أمورهم. يقول تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**(١) وقد ورد في تفسير هذه الآية المباركة بأسانيد مستفيضة عن طرق الفريقين إن الآية الكريمة نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام إمام المسلمين، وهو المقصود بقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**، عندما تصدّق بخاتمه وهو راكع في الصلاة خلف

---

(١) المائدة: ٥٥.

رسول الله ﷺ ويقول تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾[1].

البعد الأفقي من شبكة الولاء:

وأما البعد الأفقي في هذه الشبكة فهو الولاء للمؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء﴾ وعلى هذا البعد من شبكة الولاء: المؤمنون أسرة واحدة، تربطهم رابطة الولاء، مهما كانت لغاتهم وألوانهم وأوطانهم وطبقاتهم.

ويشترك البعد العمودي والبعد الأفقي في الولاء في وجوب الحبّ والنصر والنصيحة والسلام، ويتميّز البعد العمودي من الولاء بوجوب الطاعة، فتجب طاعة الله وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر، وطاعة من يأمر الله تعالى ورسوله وأولوا الأمر بطاعتهم.

الصيغة التوحيدية في شبكة الولاء:

وكل ما يجب في هذه الشبكة على أعضائها من الحب والنصر والتعاون والنصيحة والسلام والتعاون والطاعة، إنما يجب بأمر الله تعالى.

ويأتي في امتداد طاعة الله تعالى وحده، فلا طاعة لرسول الله ولا لأولي الأمر من دون طاعة الله، وإنما يجب طاعتهما بأمر الله.

---

(١) النساء: ٥٩.

ولا يجب حبّ رسول الله ولا أولي الأمر ولا المؤمنين، ولا يجب نصرهم ولا تجب نصيحتهم إلاّ بأمر الله تعالى.

وهذه هي الصيغة (التوحيدية) لشبكة الولاء، وهي خصوصية بارزة ومحورية في كل هذه الشبكة، وفي كل ما يجب ويحرم في هذه الشبكة الواسعة، وفي أعضاء أسرة التوحيد الكبيرة.

مقومات الولاء في البعد الأفقي:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[1].

وهذه المجموعة من العناصر هي التي تشدّ المؤمنين بعضهم ببعض بآصرة الولاء. وهذه المجموعة هي الإيمان، والهجرة، والجهاد، بالأموال والأنفس والإيواء والنصرة.

والآية الكريمة وإن كانت تُشير إلى المهاجرين والأنصار صدر الإسلام، ولكن تبقى هذه العناصر بروحها من ثوابت الولاء، ولا ولاء من دونها بين المؤمنين.

ذلك أن أسرة التوحيد الكبيرة كلها في مواجهة الشرك والكفر والظلم والاستكبار.

---

(١) الأنفال: ٧٢.

وهذه المواجهة حتمية من ناحية، ومصيرية من ناحية أخرى. فلابد أن يدخل المؤمنون في هذه المواجهة كتلة واحدة وصفاً واحداً، تربطهم آصرة الولاء أولئك بعضهم من بعض كما أن الأمر كذلك في أسرة الشِرك والكفر تدخل في هذه المواجهة كتلة واحدة، تربطها علاقة الولاء العضوية بعضهم من بعض.

الولاء والإيمان الحقّ:

والإيمان الحقّ، هو الإيمان الفاعل المؤثر الذي يشد بعض المؤمنين ببعض، ويجعلهم في مواجهة الكفر والشرك والاستكبار. والإيمان الحق خصيب وليس بعقيم. يوصل ويفصل: يوصل المؤمنين بعضهم ببعض، ويفصل المؤمنين عن المشركين والكافرين.

والإيمان الحق مصدر عطاء وثورة ونصر وفعل في حياة الإنسان المسلم. ولا يكون الإيمان حقاً إلاّ ضمن شبكة الولاء بكل مقوماتها.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[١].

وهذه هي القضية الأولى، والقضية الثانية أن المؤمنين حقاً بعضهم من بعض. يعني أن الإيمان الحقّ يجمع شتات المؤمنين، ويجعلهم كتلة واحدة وصفاً واحداً، ويجعل بعضهم من بعض كأعضاء الجسد الواحد.

---

(١) الأنفال: ٧٤.

السلام والعصمة في شبكة الولاء:

ومن أهم خصائص شبكة الولاء حالة (السلام) و(العصمة). الإنسان المسلم يتعامل مع الآخرين بسلام. ويتمتع تجاه تعامل الآخرين بالعصمة، يمنح الآخرين السلام في تعامله معهم وعلاقته بهم، ويتمتع هو بالعصمة فلا يحق له أن يعتدي على أحد، ولا أن يؤذي أحداً من المسلمين ويظلمه، كما لا يحق لأحد أن يخترق العصمة التي منحها الله تعالى، ويهتكها.

فهو يعيش مع الآخرين (بسلام) من طرف، ويطالب الآخرين (بالعصمة) من طرف آخر، وهذا أحد أهم بنود الولاء في علاقة المؤمنين بعضهم ببعض داخل شبكة الولاء.

وإليكم توضيحاً موجزاً لهاتين الكلمتين: (السلام) و(العصمة).

معنى السلام:

رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحق ولا يحق أذى المسلم إلاّ بما يجب»**.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«المسلم اخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يخونه، ويحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاقد على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله رُحماء بينكم، متراحمين»**[1].

---

(١) وسائل الشيعة ٨/ ٥٤٣.

وشبكة الولاء على متانتها واستحكامها وقوتها حسّاسة شديدة الحساسية تجاه الإساءة والأذى.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«إذا قال رجل لأخيه المؤمن أفٍّ خرج من ولايته».**

وإذا قال: «أنت عدوي كفر أحدهما، ولا يُقبل من مؤمن عملاً، وهو مُضمر على أخيه سوءاً»(١).

وعن الصادق عليه السلام: **«إن اللعنة إذا خرجت من صاحبها ترددت بينه وبين الذين يلعن، فإن وجدت مساغاً، وإلاّ رجعت إلى صاحبها، وكان أحق بها، فاحذروا أن تلعنوا فيحلّ بكم**(٢).

معنى العصمة:

وفي العصمة روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«المسلم على ا لمسلم حرام: دمه وعرضه وماله»**(٣).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«المسلم أخو المسلم، لا يخونه لا يكذّبه ولا يخذله. كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه»**(٤).

---

(١) وسائل الشيعة ٨/ ٦١١.

(٢) وسائل الشيعة ٨/ ٦١٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٤٩١.

(٤) سُنن الترمذي ٤ / ٣٢٥، ح ١٩٢٧.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « **كل مسلم على مسلم محرم**»[١].

عن زيد الشحام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: **أن رسول الله وقف بمنى حين قضى مناسكها في حجة الوداع فقال: «أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم واعقلوا عني، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم في هذا الموقف بعد عامنا هذا ثم قال: أي يوم أعظم حرمة؟ قالوا هذا اليوم، قال: فأي شهر أعظم حرمة؟ قالوا هذا الشهر. قال: فأي بلد أعظم حرمة قالوا: هذا البلد.**

قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلاّ الله، فإذا قالوا فقد حرم عليّ دماؤهم وأموالهم**»[٣].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله، فإذا قالوا لا إله إلاّ الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله**»[٤].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤ و ٥.

(٢) الكافي، الفروع ٧: ٢٧٣، ووسائل الشيعة ١٩: ٢.

(٣) بحار الأنوار ٦٨: ٢٤٢.

(٤) مشكاة المصابيح: ص: ١٢ ـ ١٤.

علاقة النصر بشبكة الولاء:

وعلاقة النصر بشبكة الولاء علاقة وثيقة ومحكمة.

يقول تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾(١).

فإذا استنصر المسلمين مسلمون من مشارق الأرض أو مغاربها وجب على المسلمين ـ على نحو الكفاية ـ المبادرة إلى نصرهم.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**مَن أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم**»(٢).

وعن البراء بن عازب قال: أمر النبي صلى الله عليه وآله بسبع ونهانا عن سبع. فذكر ردّ السلام ونصر المظلوم وإجابة الداعي وإبرار القسم(٣).

وعن الصادق عن أبيه عليهما السلام قال: «**لا يحضرن أحدكم رجلاً يضربه سلطان جائر ظلماً وعدواناً ولا مقتولاً ولا مظلوماً إذا لم ينصره، لأن نصرة المؤمن على المؤمن فريضة واجبة، إذا هو حضره، والعاقبة أوسع ما لم يلزمك الحجة الظاهرة**»(٤).

ويحرم خذلان المسلم إذا دعاه إلى نصرته وهو قادر على نصرته.

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) وسائل الشيعة ١١/ ٥٦٠.

(٣) صحيح البخاري ٢/ كتاب المظالم باب ٥.

(٤) بحار الأنوار ٧٥/ ١٧ عن قرب الإسناد / ص ٢٦.

عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام في شيء، ومَن شهد رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس من المسلمين»**(١).

وقد سبق هذا الحديث بلفظ قريب.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«ما من مؤمن يخذل أخاه، وهو يقدر على نصرته إلاّ خذله الله في الدنيا والآخرة»**(٢).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«ما من مؤمن يعين مؤمناً مظلوماً إلاّ كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام».**

«وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلاّ نصره الله في الدنيا والآخرة»(٣).

استنصاران للحسين عليه السلام في قصر بني مقاتل:

وإذا لم يسع المسلم تلبية استنصار المسلمين وإجابة دعوتهم، ونصرهم فلا يحضر استغاثتهم واستنصارهم.

وقد مرّ بنا قريباً قول الإمام الصادق عليه السلام حسب الرواية: **«لا يحضرن أحدكم رجلاً يضربه سلطان جائر ظلماً وعدواناً».**

---

(١) بحار الأنوار ٧٥/ ٢١، عن نوادر الراوندي/ ص ٢١.

(٢) بحار الأنوار ٧٥/ ١٧، عن آمالي الصدوق/ ص ٢٩١.

(٣) بحار الأنوار ٧٥/ ٢٠، عن ثواب الأعمال: ١٣٣.

وقد كان الحسين عليه السلام إذا استنصر رجلاً فأبى عليه ينصحه أن يبتعد عنه ويغيب عن مصرعه لئلا يسمع باستغاثته.

وكان للحسين عليه السلام لقاءان في منزل قصر بني مقاتل(١) في طريقه إلى كربلاء:

اللقاء الاول بعبيد الله بن الحر الجعفي، واللقاء الثاني بعمرو بن قيس المشرقي وابن عمه.

وقد استنصرهم الحسين عليه السلام جميعاً، فاعتذروا ولم تطب نفسه بالموت، فنصحهم الحسين عليه السلام أن يبتعدوا عنه ويغيبوا عن مصرعه، لئلاً يسمعوا استغاثته فلا يجيبوه فيكبّهم الله تعالى في النار.

في اللقاء الأول التقى بعبيد الله بن الحر الجعفي فاستنصره، فاعتذر عبيد الله كما ذكرنا ذلك من قبل، وقال له انه لا يشك أن من شايعه كان سعيداً في الآخرة، ولكن نفسه لا تطيب بالموت، وأهدى إلى الحسين عليه السلام فرسه (الملحقة) ومدحها.

فقال له الحسين عليه السلام: **«أما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا في فرسك، ولا فيك، وما كنت متخذ المضلين عضداً، وإني أنصحك كما نصحتني إن استطعت أن لا تسمع صراخنا، ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلاّ أكبه الله في نار جهنم»**(٢).

---

(١) يقول السيد عبد الرزاق المقرم: إن القصر ينسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة يقع بين عين التمر والقطقطانة والقربات، خرّبه عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس ثم جدده.

(٢) مقتل الحسين/ لعبد الرزاق المقرم/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤ نقلاً عن آمالي الصدوق، المجلس ٣٠، وخزانة الأدب ١/ ٢٩٨.

واللقاء الثاني في نفس المنزل بعمرو بن القيس المشرقي وابن عمه، رواه الصدوق في عقاب الأعمال.

قال: دخلت على الحسين أنا وابن عم لي، وهو في قصر بني مقاتل فسلمنا عليه.

فقال له ابن عمي: يا أبا عبد الله هذا الذي أراه خضاب أو شعرك، فقال **خضاب والشيب إلينا بني هاشم يعجّل.**

ثم أقبل علينا، فقال: **جئتما لنصرتي** فقلت: إني رجل كبير السن، كثير الدين كثير العيال، وفي يدي بضائع الناس ولا أدري ما يكون، وأكره أن أضيع أمانتي.

وقال له ابن عمي مثل ذلك.

قال لنا: **فانطلقا فلا تسمعا لي واعية، ولا تَرَيا لي سواداً، فإنه من سمع واعيتنا، أو رأى سوادنا فلم يجبنا، ولم يعبأ، كان حقاً على الله عز وجل أن يكبّه على منخره في النار.**

الاستنصار لإتمام الحجة:

عاشوراء مفترق طريق، ومن فارق الحسين عليه السلام في عاشوراء عن علم وعمد، وسمع واعيته، وحضر استغاثته فسبيله نار جهنم، لاشك في ذلك.

وقد شطر الناس عاشوراء منذ سنة ٦١هـ إلى اليوم، شطرين: شطر إلى الجنة وشطر إلى النار.

فمن كان رأيه من رأي الحسين عليه السلام وهواه مع الحسين عليه السلام وموقفه مع الحسين عليه السلام كان سبيله الجنة.

ومن كان رأيه من رأي يزيد وهواه مع يزيد كان سبيله النار.

ذلك أن الحسين عليه السلام وارث الأنبياء والصديقين والمرسلين في مسير التاريخ كله، فمن كان هواه مع الحسين عليه السلام، كان لا محالة مع حركة الأنبياء والمرسلين والصديقين، ومن كان هواه مع آل أبي سفيان، كان موقفه لا محالة مع أعداء الأنبياء وخصومهم.

ولذلك فإن الحسين عليه السلام وارث الأنبياء، ويزيد وارث الطغاة والجبابرة، وعاشوراء من أيام (الفرقان) في التاريخ.

وقد شطر عاشوراء الناس كما ذكرنا منذ سنة ٦١ هـ إلى اليوم شطرين: (أنصاراً) و(أعداءً).

ولسنا نعرف شطراً وسطاً بينهما إلاّ أن يكون من المستضعفين الذين يرجون رحمة الله بالاستضعاف. إذن (عاشوراء) مفترق طريق.

وقد كان الحسين عليه السلام يحرص يوم عاشوراء وقبله أن يتمّ الحجة على كل أولئك الذين وقفوا مع آل أبي سفيان، ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾، وكان يحرص ان ينقذ من يمكن إنقاذه، ويصلح من يمكن إصلاحه ويهدي من يمكن هدايته.

كان الحسين عليه السلام يتم الحجة في استنصاره واستغاثته الذي تكرر منه على كل الذين قاتلوه وحاربوه وظلموه، أو وقفوا من مصرعه موقف المتفرج الذي لا يبالي ماذا حدث.

فقد كان عليه السلام يعلم بأن لهذا اليوم شأناً كبيراً في التاريخ، وأنه مفترق الطريق بين الحق والباطل والهدى والضلال، فأراد أن يتم الحجة على الناس لئلا يكون للناس حجة.

تنوّع الخطاب الحسيني:

ولذلك نجد أن الخطاب الحسيني للاستنصار خطاب متنوّع.

فهو عليه السلام حريص على أن ينفذ إلى تلك القلوب المغلقة، ويفتحها بأي أسلوب ممكن.

فهو يخاطب عقولهم تارة، ويخاطب ضمائرهم تارة، والضمير آخر قلعة يقاوم الباطل في نفس الإنسان.

ويخاطب قلوبهم وعواطفهم تارة، والعاطفة خزين مبارك من الخير والرحمة في نفس الإنسان، وآخر ما ينضب من نفس الإنسان قلبه وعاطفته.

لقد خاطب الحسين عليه السلام عقولهم يوم عاشوراء فقال لهم: «**أحين استنصرتمونا والهين فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحشيتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم من غير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم**».

وخاطب ضمائرهم فقال: «**يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم**».

وخاطب عواطفهم ثالثاً فقال في آخر استغاثة له عليه السلام: «**أما من مغيث**

يغيثنا أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ»، ومن مشاهد الاستغاثة المؤثرة استسقاؤه للطفل الرضيع يوم عاشوراء وهو يتلظّى عطشاً، فرفع إليهم الرضيع وقال: «**أما منكم من أحد يأتنا بشربة من الماء لهذا الطفل الرضيع؟**» ثم قال لهم «**اسقوا هذا الرضيع**»[(١)].

والعاطفة خزين مبارك من الخير والرحمة كما ذكرنا، وآخر ما ينضب في نفس الإنسان، تفيض بالرقة والرحمة.

وهذه الرقة والرحمة التي تفيض بها العاطفة تطهر القلب مما يعلق به من الدرن وتلين القلب، وتفتح مغاليق القلوب.

وقد تنغلق العقول ويتصامم الناس عن نداء العقل ولكنهم يستجيبون لنداء العاطفة، وتنفتح له قلوبهم.

٤ـ المعنى الشمولي لخطاب الحسين عَلَيْهِالسَّلَامُ:

لا نجد مبرراً للقول خطاب الحسين عَلَيْهِالسَّلَامُ بالاستنصار كان مقتصراً على أولئك الذين عاصروا الحسين عَلَيْهِالسَّلَامُ وشهدوا وقعة الطف.

وليس ثمة دليل في خطاب الحسين عَلَيْهِالسَّلَامُ لحجب هذا الخطاب عن الأجيال التي تعاقبت من بعده، ممّن لبوا هذا الخطاب وأسرعوا في الاستجابة له... فقد كان المجتمع الإسلامي يومئذٍ يمرّ بفترة رهيبة من التاريخ فقد فيها الكثير من أخلاقيته وقيمه وكفاءاته.

---

(١) الخصائص الحسينية، للسيد جعفر التستري: ص: ١٨٦.

ولست أدري ماذا فعل معاوية، خلال سني حكمه من إفساد وظلم، حتى بلغ المجتمع الإسلامي في عصر ابنه يزيد هذا المبلغ من ضعف الإرادة ونضوب القيم، وفقدان الأخلاق، وليس أدل على ما نقول من أن ابن رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوهم إلى الخروج على يزيد، وهم يعرفون الحسين عليه السلام ويعرفون يزيد. ثم لا يستجيب له من كل أولئك الذين خاطبهم الحسين عليه السلام أو بلغهم خطابه ألا اثنين وسبعين رجلاً فقط.

وأصدق وصف لهذا العصر هو الذي يصفهم به الحسين عليه السلام، كما يروي الطبري في التاريخ، وهو أول خطبة له عليه السلام بعد وصوله إلى كربلاء:

يقول عليه السلام: «**إن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، ولم يبقى منها إلاّ صُبابة كصُبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به وإلى الباطل لا يتُناهى عنه**».

وهو وصف دقيق لهذا العصر، ولإثبات هذا الوصف يقول الإمام عليه السلام: «**ألا ترون إلى الحق لا يعمل به**».

ومن أجل ذلك نعتقد أن خطاب الحسين عليه السلام لا يقتصر على عصره، وليس من سبب لحجب هذا الخطاب عن العصور التي تلي ذلك العصر.

ولسنا نريد أن ننفي مخاطبة الناس في ذلك العصر من جانب الحسين عليه السلام، ولكننا نريد أن نقول أنّ روح هذا الخطاب أوسع من هذا العصر.

إنّ الصراع الذي خاضه عليه السلام في سنة إحدى وستين هجرية حلقة متوسطة من سلسة طويلة من الصراع بين التوحيد والشرك والهدى

والضلال، يتصل طرف منه بصراع الأنبياء عليهم السلام مع أئمة الكفر، والحسين عليه السلام وارث هذه السلسلة المتصلة من أئمة التوحيد، ويتصل الطرف الآخر منه بسلسلة طويلة من الصراع، وفي امتداد الطف يقوده أئمة التوحيد، حتى يتسلّم المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله لواء التوحيد، ويطهّر الأرض من رجس الشرك والظلم.

وعاشوراء من المفاصل الأساسية في هذه السلسلة الممتدة من الصراع بين التوحيد والشرك والهدى والضلال.

وخطاب الحسين عليه السلام خطاب شامل لكل أولئك الذين بلغهم هذا الخطاب، ومكّنهم الله تعالى. من وراثة تراث عاشوراء، ورزقهم الله الوعي والبصيرة.

التلبية:

والتلبية الواردة في نصوص الزيارات التي يزور المسلمون بها الحسين عليه السلام تشير إلى هذه الحقيقة التاريخية.

فإن الحسين عليه السلام (داعي الله) ونداؤه ودعوته توحيد الأمة.

وخطابه الدعوة إلى نصرة دين الله وشريعته وأحكامه وحدوده، ورفض الطاغوت والكفر به.

وهذه دعوة عامة، وخطاب شامل لتلك الأجيال الذين تعاقبوا بعد عاشوراء.

وإذا حجبنا عصرنا عن التلبية المباشرة لدعوة الحسين عليه السلام لاستنصاره، فنحن اليوم نلبّي ذلك الخطاب، ونستجيب لتلك الدعوة في إزالة الظلم والشرك ومجاهدة الظالمين، وتثبيت أركان التوحيد في الأرض، وهدم بنيان الشرك والظلم والاستكبار.

وقد ورد في فصول زيارة الحسين عليه السلام «**لبيك داعي الله. إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري وهواي**» والتلبية من مقولة (العزم) و(الفعل)، وليس من مقولة (القول). والقول تعبير عن عزم الإنسان على الفعل.

فالتلبية الحقيقية لخطاب الحسين عليه السلام أن يَصُفَّ الإنسان مع الحسين عليه السلام في مواجهة الظالمين، وعدم الركون إليهم، ورفضهم، والبراءة منهم، والصمود والثبات في مواجهتهم.

ولست اعتقد أنّ مرور ألف وثلاثمائة عام على مصرع الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته الذين لبّوا دعوته... قد خفف من قسوة الصراع وضراوة المعركة، ولا أعتقد أنّ التلبية لذلك الخطاب أيسر في عصرنا، من التلبية لنفس الخطاب في ذلك العصر.

المعركة هي المعركة، والخطاب هو الخطاب، والتلبية هي نفس التلبية، وضريبة التلبية هي نفسها.

حركتان في التاريخ (النصر والثأر):

ولا تختلف مسؤوليتنا اليوم اتجاه استنصار الحسين عليه السلام. فإن قضية عاشوراء هي رفض الظلم والكفر بالطاغوت، وطالما يوجد في حياة

المسلمين ظلم وشرك واستكبار، يبقى خطاب الحسين في يوم عاشوراء نافذاً فاعلاً في حياة المسلمين.

ونحن اليوم مسؤولون عن نصر الحسين عليه السلام، مخاطبون بالاستنصار، كما كان الناس مخاطبون بالاستنصار، مطالبون بالنصر في عصره عليه السلام.

غير إنّا نحمل بعد مصرع الحسين عليه السلام مسؤولية أخرى غير مسؤولية (النصر) وهي مسؤولية (الثأر) لدماء الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه (رضوان الله عليهم)، وهي مسؤولية أخرى غير مسؤولية النصر.

فهاتان مسؤوليتان تتطلبان حركتين في تاريخ وارثي عاشوراء:

حركة باتجاه النصر، وأخرى باتجاه الثأر، لدماء الشهداء في كربلاء.

وقضية (النصر) غير قضية (الثأر)، أن (النصر) يعني الاستنصار لدعوة الأنبياء في تشييد أركان التوحيد والعدل، وهدم بنيان الشرك والظلم، ونصر المسلمين المستضعفين وإمدادهم وإغاثتهم، في معاناتهم وعذابهم على أيدي الظالمين.

(والثأر) يعني المطالبة بدماء الشهداء من أسرة التوحيد، وبدماء الشهداء في يوم عاشوراء. فهذه دماء حرمها الله تعالى، وأهدرها الناس، ولابد من الثأر لها، شأن كل دم حرمه الله تعالى.

غير أن دماء لما كانت في سبيل الله، فإن الله تعالى هو الثائر الأول لها، وهي ثأر الله قبل كل شيء، وهذه قيمة كبيرة لدم الشهيد في هذا الدين ومفهوم رفيع من مفاهيم هذا الدين، ونحن نخاطب الحسين عليه السلام في الزيارة بثأر الله، فنقول: السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره، وعلينا ونحن في

امتداد (ثأر الله) أن نثأر لهذه الدماء، ودماء كل شهداء التي أريقت ظلماً وعدواناً في سبيل الله.

ولمّا كانت هذه الدماء قد أريقت في الصراع بين الحق والباطل، فالمطالب بالدم ليس هو شخص المجرم القاتل، بل يطالب به كل من وقف معه في تلك الجبهة، وكل من يقف معه بعد ذلك في تلك الجبهة...

شأن كل دم يهراق في معركة. فإن المطالب بالدم في ساحة المعركة لا يكون هو القاتل فقط، وإنما كل من يقف مع القاتل في نفس الجبهة في نفس المعركة.

ولما كانت معركة عاشوراء قائمة مستمرة ومتصلة الحلقات إلى اليوم، فكل من يقف مع أعداء الحسين عليه السلام، ويتعاطف معهم، ويهواهم ويميل إليهم، ويرضى بفعلهم، ويحبهم... يكون مطالباً بدماء الحسين عليه السلام والثلة الطاهرة من أصحابه.

وهو شأن (عاشوراء) كما إنّ ذلك شأن كل صراع قائم بين الحق والباطل، وكل دم يهراق ظلماً في وسط المعركة. حيث تعم مسؤولية المطالبة بدم الشهيد كل الذين وقفوا معه وإلى جنبه أو خلفه في المعركة (فهم أولياء الدم جميعاً) وتعم الجريمة كل من وقف مع القاتل أو خلفه في نفس الصراع فيكون مطالباً بالدم الذي أهريق ظلماً في ذلك الصراع، إذن نحن اليوم بعد مصرع الحسين عليه السلام في عاشوراء مسؤولون عن قضيتين، وليست قضية واحدة، وهما (النصر) و(الثأر).

وقضية الحسين عليه السلام حلقة واحدة، ولكنها مفضّلة، في مسلسل الصراع التاريخي بينَ الأنبياء وخصومهم من أئمة الكفر.

والحسين وارث كل ذلك التراث وحفيده المهدي من آل محمد عجل الله فرجه الشريف يرث جده وينهض بتلبية خطاب جده الحسين لنصرة دين الله، كما ينهض بالثأر لدماء الشهداء في كربلاء ودماء الشهداء قبل كربلاء وبعده، ولذلك فهو الإمام (الوارث) (الثائر) من آل محمد، عجل الله تعالى فرجه الشريف.

تفسير وتحليل جملة من المضامين الواردة في خطاب الاستنصار الحسيني:

ويستوقفنا في خطابات الحسين عليه السلام خطابه المعروف في مكة عشية خروجه إلى العراق، وقد تناقل أرباب السيَر هذا الخطاب وورد في أكثر المصادر التي دونت سيرة الحسين عليه السلام وخروجه إلى العراق.

وقد ذكرنا الخطاب في بداية هذه المقالة، ويبدأ الإمام الخطاب بهذه الكلمة العجيبة: «**خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة**».

وهذه البداية تفسّر كل حركة الإمام وخروجه، وتوضح للناس الذين يستنصرهم الحسين عليه السلام ما يؤول إليه أمره وأمر من معه ليخرج من يخرج معه، وهو على بيّنة من أمره، وهو أمر يهم الإمام كثيراً، ويصرّ عليه في كل مراحل حركته بمقدار إصراره على استنصار الناس ودعوتهم للخروج معه على يزيد.

فهو يدعوهم ويعفيهم في وقت واحد، يدعوهم إذا صحّ عزمهم على لقاء الله في خروجهم هذا، وطابت أنفسهم بالقتل في سبيل الله.

ويعفيهم، إذا لم تطب نفوسهم بالقتل في سبيل الله، فإنّ الحسين يسعى إلى الموت، وليس إلى سلطان ولا مال.

ويطلب من الأنصار من يصدق عزمه وتصدق نيّته على ابتغاء القتل في سبيل الله.

ومصيبة الناس في دنياهم إقبالهم على الدنيا وتعلقهم بها وهروبهم وخوفهم من الموت.

وهو سرّ ضعفهم، وسقوطهم، وخضوعهم للظالمين، وهوان أنفسهم عليهم، هو نقطة الضعف الكبرى في حياتهم. فإذا هانت الدنيا في أعين الناس، وزال الخوف من الموت عن نفوسهم لم يتمكن الظالم من ظلمهم، ولم يعطوا أنفسهم للظلم. وكيف يهرب الإنسان من الموت وقد «**خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة**».

فالموت يحاصر الإنسان، ولا يستطيع ابن آدم أن يخرج من حصار الموت فلا ينفعه هروب.

ثم لماذا يخاف الإنسان من الموت والموت جمال المؤمن وكماله، ويزدان به كما يزدان جيد الفتاة بالقلادة... ولا ينقص من جمال الموت أنّه يحاصر الإنسان كما لا ينقص من جمال القلادة أنها تطوّق جيد الفتاة. فليس كل طوق ذل وأسر.

ولست أعرف تصويراً للموت أجمل من هذا التصوير الذي يقدمه الحسين عليه السلام للموت عشية خروجه إلى العراق.

ثم يقول عليه السلام: «**وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف**».

إن الموت عند الحسين عليه السلام لقاء الله، ولقاء أسلافه الصالحين إبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله. وهو يشتاق إلى هذا اللقاء اشتياق يعقوب إلى يوسف. وهو غصن من تلك الشجرة وثمرة طيبة لها يحنّ إليها حنين الفرع إلى أصله. فليس بالموت يمكن ردع الحسين عليه السلام عن رسالته وقضيته.

وهذه رسالة الحسين عليه السلام إلى طاغية عصره وإلى أنصاره معهاً.

ثم يقول عليه السلام: «**لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضى الله رضانا أهل البيت**». وهي صورة أخرى لنفس المشهد ولكن بلون آخر... فقد كان المشهد السابق مشهد الشوق والوله إلى لقاء الله ولقاء أحبائه، وهذا مشهد التسليم والرضى لأمر الله.

وهو نفس المشهد، ولكن بصيغة أخرى: وسواء عرض الإمام هذه العاقبة من خلال الاشتياق والوله أو من خلال التسليم والرضى، فالرسالة واحدة والنتيجة واحدة. ثم يقول عليه السلام: «**لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس**».

إنه من لحم رسول الله صلى الله عليه وآله ودمه، وبضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله، من جسمه وروحه، ووعيه، وهداه، وبصيرته، ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الخير والهدى كله، وما تفرق من رسول الله صلى الله عليه وآله يجتمع له في حظيرة القدس، ولا تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمة ولا بضعة له.

ومن أراد أن يجتمع برسول الله صلى الله عليه وآله مع الصدّيقين والصالحين في حظيرة القدس فعليه ان يلتحق بالحسين عليه السلام. ومن شذّ عنه عليه السلام شذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم يختم عليه السلام كلامه خطابه بهذا الخطاب: «**ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله**».

إن السبط الشهيد يسعى إلى لقاء الله، ويطلب من الناس مهجهم ويدعو الناس إلى أن ينتزعوا حب الدنيا من قلوبهم، ويوطّنوا أنفسهم للقاء الله.

وهو خطاب عجيب. قلما نعهد نظيراً له في خطاب القادة السياسيين والعسكريين إذا دعوا الناس للقتال.

فهو عليه السلام لا يمنّيهم بمال ولا سلطان، إنّما يمنّيهم بلقاء الله، ويطلب منهم أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله، ولا يرضى منهم بغير (مهجهم).

ثم يقول لهم أنه يتقدمهم في هذه الرحلة «**فإني راحل مصبحاً غداً إن شاء الله**». ولست أدري ماذا تستبطن هذه الجملة القصيرة «**فإني راحل مصبحاً إن شاء الله**» من العزم، والإرادة، والقوة، والبصيرة، والهدى، والتسليم لمشيئة الله وإرادته.

وقد شاء الله تعالى ان يكون هذا العزم والإرادة والبصيرة والتسليم مبدأ لبركات كثيرة في تاريخ الإسلام.

وفي منزل البيضة خطب الحسين عليه السلام في أصحاب الحرّ فقال: **أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً، ناكثاً ومخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».**

وهذا الحديث الذي يرويه السبط الشهيد عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله منهجاً في العمل السياسي والحركي للمسلمين، يختلف عن المنهج الذي تبنّاه بنو أمية في عصرهم، ويلخصه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب في كلمته المعروفة (نحن مع من غلب).

وقد عمل بنو أمية على إشاعة هذا المنهج السياسي بين المسلمين، واختلقوا في ذلك الأحاديث، وبشروا به من على المنابر لإجهاض كل معارضة سياسية وحركية في وجوههم، ولإسباغ الشرعية على حكمهم.

فمن هذه الأحاديث:

روى الحجاج قال: قال لي أبو هريرة:

ممن أنت؟ قلت: من أهل العراق قال: يوشك أن يأتيك رجال من أهل الشام، فيأخذوا صدقتك. فإذا أتوك فتلقهم بها فإذا دخلوها، فكن في أقاصيها، وخل عنهم وعنها، وإياك وأن تسبهم فإنك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك، وإن صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة[1].

وعن زيد بن وهب قال: سمعت عبد الله قال: قال لنا رسول الله(ص): إنك سترون بعدي إثرة وأموراً تنكرونها.

---

(١) الشعر والشعراء/ لابن قتيبة/ ص ٥٧٢.

قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم[١].

وعن جنادة بن أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت، وهو مريض، فقلنا: (أصلحك الله حدثنا بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي ﷺ فقال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وإثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلاّ ان تروا كفر بواحاً عندكم من الله فيه برهان)[٢].

وهذا أقصى ما يطلبه الحكام الظلمة من الناس، وفي كتب الحديث الكثير من هذه الروايات التي يأباها القرآن ويرفضها الإسلام.

ونحن من دون أن نناقش هذه الأحاديث مناقشة سندية، نقطع بأنها منحلّة موضوعة على رسول الله ﷺ، ونتهم في ذلك بني أمية اولاً. وقد خفى أمر ذلك على كبار المحدثين الذين رووا هذه الأحاديث وأكثروا من روايتها.

ودليلنا على ذلك هو القرآن.

ونعتقد ان المنهج العلمي الصحيح في نقل الرواية هو عرض الرواية على القرآن.

والنقد من حيث السند يأتي بعد العرض على القرآن، فما خالف القرآن نرفضه ونرده صحَ سنده أم لم يصحّ. هذا هو منهج أهل البيت عليهم السلام في نقد الرواية.

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨١ (كتاب الفتن) ط. مصر ١٢٨٦هـ

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٨١ (كتاب الفتن) ط. مصر ١٢٨٦هـ

ولذلك فنحن لا نطيل الوقوف عند مناقشة هذه الروايات ونقدها من حيث السند، فالأمر عندنا أوضح من ذلك. ودليلنا على ذلك آيات محكمات من كتاب الله تنهي عن الركون إلى الظالمين وعن طاعة المسرفين.

وإليك إضمامة من آيات كتاب الله:

يقول تعالى:﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ*الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾(٤).

وينهض أبو عبد الله سيد الشهداء يومئذٍ لإزالة هذا اللبس عن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله، فيعلن في الناس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً

(١) هود/ ١١٣.

(٢) الشعراء / ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) الكهف / ٢٨.

(٤) النساء / ٦٠.

جائراً... فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

وهي مسؤولية شاقة وصعبة، وانطلاقاً من هذه المسؤولية خرج الحسينعليه السلام على طاغية عصره.

فإذا ابتلى الله تعالى المسلمين بسلطان جائر... فلا يسع المسلمين جميعاً إلاّ أن ينهضوا لتغييره، بفعل أو قول، ومن يسكن إلى الظالم ويسكت عنه «**كان حقاً على الله أن يدخله مدخله**»... وهي كلمة عجيبة، تستوقف الإنسان طويلاً، وتشعر الإنسان بثقل المسؤولية الصعبة في ظروف الظلم والاستبداد السياسي. فلا يكفي أن لا يركن الإنسان إلى الظالم ولا يتعاون معه، ولا يسنده حتى لا يدخل مدخله في النار، وإنما يجب عليه أن يسعى إلى تغييره بفعل أو قول، فإن لم يفعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله.

ثم يقولعليه السلام: «**وأنا أحق من غيّر**»، ومن أولى من ابن رسول اللهصلى الله عليه وآله أن ينهض بالتغيير ويقود حركة التغيير ويدعو إلى التغيير.

وهوعليه السلام في هذه الرحلة قائد وقدوة، قائد يقود حركة التغيير ويدعو إلى التغيير «**وأنا أحق من غيّر**».

و(قدوة)، يتقدمهم في كل محنة وعذاب، ويكون نصيبه منه الأوفى.

يقولعليه السلام: «**فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم. فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله. نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، ولكم في أسوة**».

ثم يقول: «**وإن لم تفعلوا ونقضتم بيعتي... فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه**».

إن آل أبي سفيان أعداء الناس، وقد تمكّنوا من رقاب الناس، وأفسدوا أخلاق الناس ودينهم وقيمهم وأذلوهم... والحسين عليه السلام يخرج ليقود حركة التغيير، وإن نقضوا عهدهم، فلم يضروا إلاّ أنفسهم، وأمكنوا آل أبي سفيان من رقابهم، ووطّئوا أنفسهم لظلم آل أبي سفيان واستكبارهم، وأورثوا أبناءهم ذلاً، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه.

دراسة وتحليل لزيارة الامام الصادق عليه السلام لعمه ابي الفضل العباس عليه السلام*

السيد عبد الرزاق الموسوي المقرم

---

* بحث مستلّ من كتاب " العباس عليه السلام " للسيد عبد الرزاق الموسوي المقرم قدس سره - من المؤلفين المحققين المعاصرين المختصّين بأهل البيت عليهم السلام - منشورات المكتبة الحسينية - كربلاء - تحقيق الشيخ محمد الحسّون.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ ما يتعرّف منه منزلة أبي الفضل العالية وإثبات الخصال الحميدة له، إخبار أئمة الدين العارفين بضمائر العباد وسرائرهم، الواقفين على نفسيّات الأُمة على كثب بتحقّقها فيه، وقد عبثت أيدي التلف في أكثرها، فإنّ الصدوق يحدّث في الخصال ج١ ص٣٥ بعد ذكره حديث السجّاد في فضل العبّاس أنّه أخرج الخبر بتمامه، مع أخبار في فضائل العبّاس في كتاب مقتل الحسين عليه السلام.

وظاهره أن هناك أخباراً كثيرة في فضل أبي الفضل رويت عنّا ككتابه المقتل، ولا غرو فلقد اندثر بتعاقب الحوادث الكثير من المؤلّفات.

وكيف كان، فلعلّ من تلك الأخبار ما رواه في عمدة الطالب «عن الشيخ الجليل أبي نصر البخاري النسّابة، عن المفضّل بن عمر أنّه قال: قال الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام: **كان عمّنا العبّاس بن علي نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبد اللّه وأبلى بلاءً حسناً، ومضى شهيداً**»[1].

---

(١) عمدة الطالب لابن عنبة: ٣٥٦، مقتل الحسين لأبي مخنف: ١٧٦، الأنوار العلوية للنقدي: ٤٤٢.

وكذلك قوله عليه السلام فيما علّم شيعته أن يخاطبوه به من لفظ الزيارة، المروية بسند صحيح متفق عليه، فإنّه عند التأمّل فيما خاطبه به الإمام ـ العارف بأساليب الكلام ومقتضيات الأحوال ـ تظهر لنا الحقيقة، ونعرف منزلة للعبّاس سامية لا تعد ومنزلة المعصومين.

فقال عليه السلام في صدر سلام الإذن:

« سلام اللّه، وسلام ملائكته المقرّبين، وأنبيائه المرسلين، وعباده الصالحين، وجميع الشهداء والصدّيقين، الزاكيات الطيّبات، فيما تغتدي وتروح عليك يا بن أمير المؤمنين ».

فإنّه أشار بهذا إلى مصبّ سلام اللّه: الذي هو رحمته المتواصلة والعطف الغير مجذوذ الّذين لا انقطاع لهما.

وسلام الملائكة: المشاهدين لمقادير الرجال في ملأ القدس وحظيرة الجلال.

وسلام الأنبياء: الذين لا يتعدون مرضات اللّه ووحيه في أفعالهم وتروكهم.

وسلام الصالحين والشهداء: الذين أدركوا بفضل الاتصال بالرسل وأوصيائهم، أو بالتجرّد ومشاهدة الحقائق الثابتة في عالم الغيوب، زيادة على ما عرفوه من مقام أبي الفضل وفضله.

فكُلّ هؤلاء يتقرّبون إلى اللّه تعالى بالدعاء له، واستنزال الرحمة منه سبحانه، وإهداء التسليمات إليه، لمّا عرفوا أنّه من أقرب الوسائل إليه، وحيث كانت خالصة للزلفة، ماحضة في التقرّب إليه جلّ ذكره، عادت

زاكية طيّبة بنصّ الزيارة: « **الزاكيات الطيّبات**».

وأمّا على رواية ابن قولويه في كامل الزيارة من زيادة (واو العطف) قبل الزاكيات الطيّبات، فيراد بهما العنايات الخاصّة التي ليست بدعاء من أحد، ولا بأسباب عادية، ولا يعدم هذه الأنبياء والأوصياء والأقلّون ممّن اقتفوا أثرهم، وليست هي شرعة لكُلّ وارد، وإنّما يحظى بها الأفذاذ ممّن كهربتهم القداسة الإلهية، وجذبتهم جاذبة الصقع الربوبي، وهكذا المقرّبون والأفذاذ عند صعودهم.

وإذا قرأنا زيارة الصادق عليه السلام لجدّه الحسين: «**سلام اللّه وسلام ملائكته فيما تروح وتغدو، والزاكيات الطاهرات لك وعليك، سلام الملائكة المقرّبين والمسلمين لك بقلوبهم والناطقين بفضلك...** »[1]، وضح لنا أنّ منزلة أبي الفضل تضاهي منزلة الحسين، حيث أثبت له مثل هذا السلام.

ثُمّ قال عليه السلام: « **أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النّبي المرسل** »[2].

هاهنا أثبت لأبي الفضل منزلة التسليم، التي هي من أقدس منازل السالكين، وفوق مرتبة الرضا والتوكّل؛ فإنّ أقصى مرتبة الرضا أن يكون محبوب المولى سبحانه محبوباً له، موافقاً لطبعه، فالطبع ملحوظ فيه.

وأقصى مراتب التوكّل أن ينزل نفسه بين يدي المولى سبحانه وتعالى

---

(١) كامل الزيارات: ٣٥٨، بحار الأنوار ٩٨: ١٤٨.

(٢) كامل الزيارات: ٤٤٠.

منزلة الميت بين يدي الغاسل، بحيث لا إرادة له إلاّ ما يفعله الغاسل به، فصاحب التوكّل مسلوب الإرادة، وأمّا صاحب التسليم فلا يرى لغير اللّه وجوداً مع اللّه فضلاً عن نفسه، ولا يكون له طبع يوافق أو يخالف في الإرادة، أو نفساً قد تنفّست بالإرادة، فهو قريب من عالم الفناء.

وهذه المرتبة فوق مرتبة التوكّل التي هي فوق مرتبة الرضا لا تحصل إلاّ بالبصيرة النافذة، والوصول إلى أعلى مراتب اليقين، تلك المرتبة التي أخبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام: « **لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقيناً** ».

وأمّا العناوين الثلاثة وهي: « **التصديق، والوفاء، والنصيحة** » فلا شكّ أنّ الإمام يريد أن أبا الفضل في أرقى مراتبها، لانبعاثها عن التسليم ـ وهو حقّ اليقين ـ فإنّه المناسب لتصديقه بأخيه الحجّة، وبنهضته في ذلك الموقف الحرج، وهكذا وفاؤه ونصيحته، فإنّ وفاء شخص لآخر كما يمكن أن يكون لأجل الأُخوة والرحم والصحبة، ويمكن أن يكون لأجل المعرفة التامّة، بما أوجب اللّه له من الحرمة والحقّ على الأُمة.

وحيث إنّ الإمام أثبت لأبي الفضل أرقى مرتبة السالكين ـ وهي التسليم اللازم لحقّ اليقين ـ فلا بدّ أن يكون ما صدر منه من التصديق بنهضة أخيه والوفاء لحقّه والمناصحة في العمل، منبعثاً عن حقّ اليقين بذلك الأمر الواجب، لا لأجل أنّ الحسين أخوه أو رحمه أو ابن رسول اللّه، فإنّ هذه المرتبة وإن مُدح عليها الشخص إلاّ أنّ المرتبة الأُولى أرقى وأرفع، ولا ينالها إلاّ ذوو النفوس القدسيّة ممّن وجبت لهم العصمة.

ويؤيّد ذلك تعقيب العناوين الثلاثة بقوله عليه السلام: « **لخلف النّبي المرسل** »، فإنّه لو لم يرد هذا لقال في الخطاب: (لأخيك) أو (للحسين) أو (لابن أمير المؤمنين)، فالتعبير بخلف النّبي لا يُراد منه إلاّ أنّ الدافع لأبي الفضل على التسليم والتصديق والوفاء والنصيحة بالمفادات إلاّ كون الحسين إماماً مفروض الطاعة، وهذا مغزى لا يبعث إليه إلاّ البصيرة المميّزة لشرف الغايات المتحرّية لكرائمها.

ثُمّ إنّ من تخصيص الإمام الخطاب له دون غيره من الشهداء بقوله: « **لعن اللّه من جهل حقّك واستخفّ بحرمتك** » نعرف أنّ غيره من الشهداء لم يُدرك هذا المدى، وإن كان لكُلّ منهم حقّاً وحرمة، إلاّ أنّ شبل أمير المؤمنين كانت معارفه أوسع، وإيمانه أثبت، فكان له حقّ في الدين، وحقّ على الأُمة لا ينكر، فاستحقّ بكُلّ منهما اللعن على جاهله والمستخف به، فالشهداء وإن أخلصوا في التضحية والمفادات، وكان منبعثاً عن طهارة الضمائر والمعرفة بحقّ الإمام، فلهم حقوق وحرمات، لكن لحق العبّاس منعة بين هاتيك الحقوق، ولحرمته بذخ بين تلك الحرمات، بعد ما ثبت منهما لأخيه الإمام المظلوم، لنفوذ بصيرته، وصلابة إيمانه بنصّ الصادق.

ثُمّ قال الصادق عليه السلام في الزيارة المتلوة داخل الحرم: « **أشهد وأُشهد اللّه أنّك مضيت على ما مضى به البدريّون** »[1].

لقد جرى التشبيه بالبدريّين مجرى التقريب إلى الأذهان، في الإشادة

---

(١) المزار للشيخ المفيد: ١٢٢، المزار للمشهدي: ١٦٦، بحار الأنوار ٩٧: ٤٢٧.

بموقف أبي الفضل من البصيرة، فإنّ أهل بدر أظهر أفراد أهل البصائر؛ لأنّهم قابلوا طواغيت قريش على حين ضعف في المسلمين، وقلّة في العدّة والعتاد، فلم يملكوا إلاّ فرسين أحدهما: لمرثد بن أبي مرثد الغنوي، والآخر: للمقداد بن الأسود الكندي، وكانوا يتعاقبون على سبعين بعير، الاثنان والثلاثة[(١)].

لكنّهم خاضوا غمرات الموت تحت راية النبوّة، بقوّة الإيمان، وعتاد البصيرة، إلاّ من استولى الرين على قلبه، فردّوا سيوف قريش مفلولة، ورماحهم محطَمة، وجموعهم بين قتلى وأسرى ومشرّدين، فحظوا بأوّل فتح إسلامي، قويت به دعائمه وشيّدت معالمه من الإمداد ﴿بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[(٢)].

وأعظم من ذلك مشهد الطفّ الذي التطمت فيه أمواج الموت، وكشفت الحرب عن ساقها، وكشفت عن نابها.

وللأَخطَارِ وَجــهٌ مُكفَهِــر ... يُشِيبُ لِهَولِه المُردِي الغُلامِ
تَرى الأبطَال مِن فَرق سُكَارَى ... يُدَارُ مِن الرَدَى فِيهم مُدَام

فقابلهم عصبة الحقّ من غير مدد يأملونه، أو نصرة يرقبونها، والعطش

---

(١) شرح النهج الحديدي ج: ٣ ص: ٣١٩ـ٣٢٠.(المؤلف).الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ١٢، تاريخ الطبري ٢: ١٧٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٤: ٢٤، تفسير البغوي ١: ٢٨٣.

(٢) آل عمران: ١٢٥، قال تعالى: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

معتلج بصدورهم، ونشيج الفواطم من ورائهم، فتلقّوا جبال الحديد بكُلِّ صدر رحيب، وجنان طامن، فلم تسل تلك النفوس الطاهرة إلاّ على فتل أُميّة المنقوض، ولا أُريقت دماؤهم الزاكية إلاّ على حبلهم المنتكث، فلم تبرح آل حرب إلاّ كلعقة الكلب أنفه، حتّى اكتسحت معرتهم من أديم الأرض، وتفرّقوا أيدي سبا، فيوم الطفّ فتح إسلامي بعد الجاهلية المستردة من جراء أعمال الأمويين[١].

وإليه أشار الإمام الشهيد في كتابه إلى بني هاشم لمّا حلّ أرض كربلاء: « **من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلّف عنّي لم يبلغ الفتح** »[٢].

فإنّه عليه السلام لم يرد بالفتح إلاّ ما ترتّب على نهضته المقدّسة وتضحيته الكريمة، من نقض دعائم الإلحاد، وكسح أشواك الباطل عن صراط الشريعة المطهّرة، وإحياء دين جدّه الصادع به، الذي لاقى المتاعب في تأييده وتشييده.

وأنت أيّها البصير إذا استشففت الحادثة من وراء نظارة في التنقيب تجد سيّدنا أبا الفضل سيّد القوم بعد أخيه السبط، وهو المسدد لهم في النضال.

كما أنّ الباحث إذا أعطى النظر حقّه يجد ضحايا (الطفّ) أشدّ انقطاعاً

---

(١) لقد أجاد العلاّمة السيّد باقر نجل آية الله السيّد محمّد الهندي إذ يقول:

لَو لَم تَكُن جمعت كُلّ العلا فينا ... لكَانَ مَا كَانَ يَومَ الطَّفِ يَكفِينَا
يَـومٌ نَهَضنَا كأمثَالِ الأُسـودِ بِـهِ ... وأقبلَـت كالـدَّبا زَحفَاً أعادينَـا
جَـاؤوا بِـسبعين ألفاً سُلّ بقيـتَهم ... هَـل قَابلونَـا وَقَـد جِئنَـا بِـسبعِينَا

(٢) كامل الزيارة ص: ٧٥.(المؤلف).بصائر الدرجات للصفّار: ٥٠٢، دلائل الإمامة للطبري الشيعي: ١٨٨، الخرائج والجرائح للراوندي ٢: ٧٧١، مثير الأحزان لابن نما: ٢٧.

عن المدّد من مجاهدي يوم بدر، وأبلغ بأساً، وأقلّ عدداً، مع اكتناف الكوارث بهم، واعواز الملجأ أكثر ممّا احتفّ بأهل بدر.

مع أنّ المناوئين لشهداء (الطفّ) أوفر عدداً، وأقوى عتاداً، وأوثق مدداً. وإنّ لهم دولة مؤسسة، تنضّددت جحافلها، وخفقت بنودها، وتواصلت قواتها، بخلاف الحالة يوم بدر.

فلقد كان المحاربون للمسلمين شتات، من طواغيت العرب، حداهم إلى الحرب بواعث الحقد والنخوة، ومن المحتمل القريب انحلال جامعتهم إذا ضربت الحرب عليهم بجرانها لأنّهم كانوا يفقدون أيّ مدد من القبائل، ولم يخرجوا متأهّبين للاستمداد، حيث ظنّوا خوراً في المسلمين، وحسبوا استئصال شأفتهم وأنّهم كشربة ماء (ولكن لا مبدّل لحكم اللّه تعالى).

فالموقف يوم الطفّ أحرج، والكرب أكثر، والمقاسات أصعب، وبقدر المشقّة تجري الأُجور، وتقسم الفضائل، فشهداء كربلاء أولى بالفضيلة.

وضَرب الإمام عليه السلام المثل لهم بأهل بدر إذ يقول: « **إنّك مضيت على ما مضى به البدريون** » لا يوجب فضيلة أهل بدر عليهم، كما هي قاعدة التشبيه، وإنّما ذلك من باب التقريب إلى الأفهام، كما في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾[1].

وأين من النور الإلهي المشكاة ومصباحها، ولكن لمّا لم تدرك الأبصار ذلك النور الأقدس، وإنّما تُدركه البصائر، ضرب اللّه تعالى المثل بما

(١) النور: ٣٥.

يدركونه؛ تقريباً للأذهان، وهكذا الحال فيما نحن فيه.

وإلى هذه الدقيقة وقع الإيعاز منه عليه السلام فيما بعد هذه الفقرة من الزيارة بقوله عليه السلام: « **فجزاك الله أفضل الجزاء، وأكثر الجزاء، وأوفر الجزاء، وأوفى جزاء أحد ممّن وفى ببيعته، واستجاب له دعوته، وأطاع ولاة أمره** »[١].

فلو كان في المجاهدين من هو أوفر فضلاً من أبي الفضل العبّاس لكان هذا الدعاء، أو الإخبار عن أمره شططاً من القول، خارجاً عن ميزان العدل ـ تعالى عنه كلام المعصوم ـ، فإذن لم يكن غيره من المجاهدين مطلقاً أوفر فضلاً، ولا أكثر جزاءً، ولا أوفى بيعة إلاّ من أخرجه الدليل من الأئمة المعصومين.

ثُمّ إنّ هناك مرتبة أُخرى ثبتت لأبي الفضل، خصّه بها الإمام الصادق عليه السلام بقوله: « **أشهد أنّك قد بالغت في النصيحة، وأعطيت غاية المجهود، فبعثك الله في الشهداء، وجعل روحك مع أرواح السعداء، وأعطاك من جنانه أفسحها منزلاً، وأفضلها غرفاً** »[٢].

فإنّ المبالغة في أمثال المقام عبارة عن بلوغ الأمر إلى حدوده اللازمة، وكم له من نظير في استعمالات العرب ومحاوراتهم. ولا شكّ أنّ كُلّ واحد

(١) كامل الزيارات: ٤٤١، تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ٦: ٦٦، المزار للمفيد: ١٢٢، المزار للمشهدي: ١٧٨.

(٢) المصدر السابق.

من شهداء الطفّ قد بالغ في النصيحة، ولم يأل جهداً في أداء ما وجب عليه، ولكُلٍّ منهم في ذلك المشهد الدامي شواهد من أقواله وأعماله.

ومن المسلَّم أنّ المعروف بقدر المعرفة كماً وكيفاً؛ فصاحب السنام الأرفع في العرفان المتربّع على أعلى منصّة من الإيمان، لا بدّ وأن يقاسي أشد ضروب الجهاد، ويتظاهر بأجمل مظاهرها، من الدؤوب على الحرب والضرب، وإن طال المدى، وبعد الأمد، إن كان الجهاد نضالاً، كما لا بدَّ له من المثابرة على مكافحة النفس الأمارة، وكسر شوكتها، وردّ صولتها، وكبح جماحها، وترويض النفس بالطاعة، وإلزامها بلوازمها الشاقة طيلة حياته، إن كان الجهاد نفسياً.

وفي هذين الحالتين لا بدّ وأن يكتنف العمل المقارنات المطلوبة، مثل: نيّة القربة، والإخلاص فيها، المنبعث عن حبِّ المولى سبحانه، الهادي إلى معرفة تؤهله إلى الطاعة، وعن معرفة نعم الباري عزّ وجلَّ الواجب شكرها، وعن الهيبة الناشئة عن لحاظ عظمته، إلى أمثال هذه من الملحوظات.

وقصارى القول: كما أنّ مراتب الإيمان والمعرفة متفاوتة مقولة بالتشكيك، كذلك مراتب العمل متفاوتة حسب تفاوت تلك المراتب، فصاحب عمل كُلِّ مرتبة محدود بحدودها.

وحينئذ فلا شكّ أنّ كُلَّ واحد من شهداء الطفّ، وإن بلغ الغاية في الجهاد، وأدّى حقّ النصيحة، لكن (شهيد العلقمي) لمّا كانت بصيرته أنفذ، وعلمه أوفر، وإيمانه أثبت، كان مداه أبعد، وغايته أسمى، وحدوده أوسع، ولذلك

خاطبه الصادق عليه السلام بهذا الخطاب، وخصّه بالمبالغة في التضحية، فكان هذا كفضيلة مخصوصة به؛ لأنّ هاتيك المراتب الراقية لم توجد في غيره.

ولعلّ من ناحية هذه المراتب الثلاث ثبت له عليه السلام حقّ في الدين، وحقّ على الأُمة، وحرمة لا تنكر، فاستحقّ أن يخاطبه الإمام في سلام الإذن بقوله: « **لعن اللّه من جهل حقّك واستخفّ بحرمتك** »[1].

وهناك درجة أربى وأرفع، أشار إليها الصادق بقوله: «**ورفع ذكرك في علّيين**»[2].

فإنّ «حامي الشريعة» لم يبرح مواصلاً في الخدمات، حتّى أقبل إلى اللّه تعالى متلفّعاً بدم الشهادة، شهادة صكّ نبؤها مسامع الملكوت، حتّى أشرأب له هنالك من أنبياء، ومرسلين، وحجج معصومين، وملائكة مقرّبين، وحور، وولدان، وأرواح مقدّسة، ومقدّسات زاكيات طيّبات، فلم يلق عليه السلام في صعوده إليهم إلاّ ثغوراً باسمه، ووجوهاً مستبشرة، وايذاناً له بالبشرى الخالدة، ونعيم الأبدّ، فطفق يرفل بين ذلك الجيل القدسي، الزاهر بنور العصمة، ورونق العلم، وهيبة العظمة، وسمات الجلالة، وشارات النزاهة، وبهجة العطف الإلهي، وبهاء النظر إلى الجلال السرمدي، والاتصال بالرضوان الأكبر، وعليه أُبهة الولاء، وجلالة الطاعة، وبلج التضحية، وزلفى المفادات، وزهو العلم

---

(١) المزار للشهيد الأوّل: ١٦٥.

(٢) كامل الزيارات: ٤٤١، المزار للشهيد الأوّل: ١٣٣.

والعمل، ولذكره في ذلك المنتدى الرهيب رفعة ومنعة، وإليه يشير الإمام الصادق عليه السلام في لفظ الزيارة: « **ورفع ذكرك في علّيين** ».

فإنّ الغرض من هذا التعبير ليس إلاّ ما شرحناه، لا مجرّد صعود ذكره الطيّب إلى ذلك الملأ الأرفع، شأن كُلّ صالح في عالم الوجود، لكن الشأن كُلّه إن يكون لذكره المجيد هنالك بذخ وإكبار، فيرمقه كُلّ طرف بنظر الإجلال، ويسمع الهتاف به بإذن التقدير، وتنعقد الضمائر على تقديسه، ولو أراد الإمام مجرّد ذكره إلى ذلك العالم القدسي لقال في الخطاب: « **ورفع ذكرك إلى عليين** »، ولكن حيث إنّه أراد رفع الذكر بين أفراد أُولئك الذين أختصّ محلّهم فيه جاء بفاء الظرفية فقال: «**في علّيين**».

وأما قوله عليه السلام في الزيارة التي رواها المجلسي في مزار البحار ص١٦٥ عن مزار الشيخ المفيد وابن المشهدي: « **لعن اللّه أُمة استحلّت منك المحارم، وانتهكت فيك حُرمة الإسلام** »[١]؛ فيرشدنا إلى مكانة سامية لأبي الفضل، تصعد به إلى فوق مرتبة العصمة، فإنّا لم نجد مثل هذا الخطاب في أي واحد من الشهداء، مع بلوغهم أعلى مرتبة الفضل التي لم يحزها أي شهيد غيرهم، حتّى استحقّوا أن يخاطبهم الإمام في زيارة النصف من رجب بقوله: « **السلام عليكم يا مهديون، السلام عليكم يا طاهرون من الدنس** »[٢]، ويقول أيضاً:

---

(١) بحار الأنوار ٩٨: ٢١٩، المزار للمفيد: ١٢٤، المزار للمشهدي: ٣٩١.

(٢) بحار الأنوار ٩٨: ٣٣٠، والوارد في الزيارة: «... السلام عليكم يا طاهرون، السلام عليكم يا مهديون... »، نعم ورد في زيارات أُخرى قوله عليه السلام: « وطهّركم من الدنس » كامل الزيارات: ٥٢٧.

« طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم »[1].

بل لم يخاطب بمثل ذلك علياً الأكبر الذي لا شكّ في عصمته، ومنه يظهر أنّ للعبّاس منزلة ومقاماً يشارف مقام الحجج المعصومين عليهم السلام، تناط به حرمة الإسلام، كما تناط بهم صلوات الله عليهم، وإنّها تنتهك بمثله كما تنتهك بمثلهم عليهم السلام، وهذا مقام فوق العصمة المرجوّة له.

(١) المزار للشهيد الأوّل: ١٢٩، المزار للمشهدي: ٤٦٥.

إنّي لا أحسب القارئ في حاجة إلى الإفاضة في هذه الغاية، بعد ما أوقفناه على مكانة أبي الفضل عليه السلام، من العلم والتقى والملكات الفاضلة، من إباء وشمم وتضحية في سبيل الهدى، وتهالك في العبادة، فإنّ أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام يُقدّرون لمن هو دونه في تلكم الأحوال فضله، فكيف به وهو من لحمتهم، وفرع أرومتهم، وغصن باسق في دوحتهم ؟ !

وقد أثبت له الإمام السجاد عليه السلام منزلة كبرى لم ينلها غيره من الشهداء ساوى بها عمّه الطيار، فقال عليه السلام:

« رحم اللّه عمّي العبّاس بن علي، فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه حتّى قُطعت يداه، فأبدله اللّه عزّوجلّ جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة ـ كما جعل لجعفر بن أبي طالب ـ، إنّ للعبّاس عند اللّه تبارك وتعالى منزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة »[1].

---

(١) الخصال ج: ١ ص: ٣٥ في باب الاثنين.(المؤلف). الأمالي للشيخ الصدوق: ٥٤٨، الخصال: ٦٨.

ولفظ « الجميع » يشمل مثل حمزة وجعفر الشاهدين للأنبياء بالتبليغ وأداء الرسالة، وقد نفى البعد عنه العلاّمة المحقّق المتبحر في الكبريت الأحمر ص٤٧ ج٣.

ولعلّ ما جاء في زيارة الشهداء، يشهد له: « **السلام عليكم أيّها الربّانيون، أنتم لنا فرط وسلف ونحن لكم أتباع وأنصار، أنتم سادة الشهداء في الدنيا والآخرة** »[(١)].

وكذلك قوله عليه السلام فيهم: أنّهم لم يسبقهم سابق، ولا يلحقهم لاحق[(٢)].

فقد أثبت لهم السيادة على جميع الشهداء، وأنّهم لم يسبقهم ولا يلحقهم أي أحد، وأبو الفضل في جملتهم بهذا التفضيل، وقد انفرد عنهم بما أثبته له الإمام السجاد عليه السلام من المنزلة التي لم تكن لأيّ شهيد.

ولهذه الغايات الثمينة، والمراتب العُليا كان أهل البيت عليهم السلام يدخلونه في أعالي أُمورهم ما لا يتدخّل فيه إنسان عادي، فمن ذلك مشاطرته الحسين عليه السلام في غسل الحسن عليه السلام[(٣)].

---

(١) مزار البحار ص: ١٤٩ من كامل الزيارة.(المؤلف). كامل الزيارات: ٣٧٢، تهذيب الأحكام ٦: ٦٥، المزار للمفيد: ١٢٠، المزار للمشهدي: ٣٨٨.

(٢) المنتخب للطريحي.(المؤلف).

(٣) ورد في ذخائر العقبى: ١٤١، الذرية الطاهرة للدولابي: ١٢٠، وكشف الغمة ٢: ١٧١، وبحار الأنوار ٤٤: ١٣٧: « وولي غسله الحسين ومحمّد والعبّاس أخوته.. ». ولم يرد في مصدر أن المشارك للحسين عليه السلام العبّاس فقط.

وأنتَ بعد ما علمت مرتبة الإمامة، وموقف صاحبها من العظمة، وأنّه لا يلي أمره إلاّ إمام مثله، فلا ندحة لك إلاّ الإيمان بأنّ من له أي تدخل في ذلك ـ بالخدمة من جلب الماء وما يقتضيه الحال ـ أعظم رجل في العالم بعد أئمة الدين، فإنّ جثمان المعصوم عند سيره إلى المبدأ الأعلى ـ تقدّست أسماؤه ـ لا يمكن أن يقرب أو ينظر إليه من تقاعس عن تلك المرتبة، إذ هو مقام قاب قوسين أو أدنى، ذلك الذي لم يطق الروح الأمين أن يصل إليه حتّى تقهقر، وغاب النّبي الأقدّس في سبحات الملكوت والجلال وحده إلى أن وقف الموقف الرهيب.

وهكذا خلفاء النّبيّ صلى الله عليه وآله المشاركون له في المآثر كُلّها ما خلا النبوّة والأزواج[1]، ومنه حال انقطاعهم عن عالم الوجود بانتهاء أمد الفيض المقدّس.

وممّا يشهد له أنّ الفضل بن العبّاس بن عبد المطلب كان يحمل الماء عند تغسيل النّبي صلى الله عليه وآله، معاوناً لأمير المؤمنين عليه السلام على غسله، ولكنّه عصب عينيه خشية العمى إن وقع نظره على ذلك الجسد الطاهر.

ومثله ما جاء في الأثر عن الإشراف على ضريح رسول اللّه، حذراً أن يرى الناظر شيئاً فيعمى[2]، وقد اشتهر ذلك بين أهل المدينة، فكان إذا سقط

---

(١) في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «كلّ ما كان للرسول صلى الله عليه وآله فلنا مثله، إلاّ النبوّة والأزواج». المحتضر: ٤٧.

(٢) مرآة العقول ج: ١ ص: ٣٧٣.(المؤلف). فقه الإمام الرضا لابن بابويه: ١٨٨، مستدرك الوسائل ٢: ١٩٧، المسترشد لابن جرير: ٣٣٦، بحار الأنوار ٢٢: ٤٩٢.

في الضريح شيء أنزلوا صبياً وشدّوا عينيه بعصابة فيخرجه.

وهذه أسرار لا تصل إليها أفكار البشر، وليس لنا إلاّ التسليم على الجملة، ولا سبيل لنا إلى الإنكار بمجرّد بُعدنا عن إدراك مثلها. خصوصاً بعد استفاضة النقل في أنّ للنّبي والأئمة بعد وفاتهم أحوالاً غريبة، ليس لسائر الخلق معهم شركة، كحرمة لحومهم على الأرض، وصعود أجسادهم إلى السماء، ورؤية بعضهم بعضاً، وإحيائهم الأموات منهم بالأجساد الأصلية عند الاقتضاء، إذ لا يمنع العقل منه مع دلالة النقل الكثير عليه، واعتراف الأصحاب به[1]، فيصار التحصل: أنّ الحواس الظاهرة العادية، لا تتحمّل مثل

(١) قال الشيخ المفيد في أوائل المقالات: ٧٢: « والأئمة من عترته خاصّة لا يخفى عليهم بعد الوفاة أحوال شيعتهم في دار الدنيا، بإعلام اللّه تعالى لهم ذلك، حالاً بعد حال، ويسمعون كلام المناجي لهم في مشاهدهم المكرمة ».

ووافقه عليه الكراجكي في كنز الفوائد، والمجلسي في مرآة العقول ج: ١ ص: ٣٧٣، والشيخ كاشف الغطاء ص: ٥١ في رسالته منهج الرشاد، وفي دار السلام ج: ١ ص: ٢٨٩: ان لحومهم محرمة على الارض وانها ترتفع الى السماء بعد ثلاثة ايام.

وحكي عن الشيخ الأعظم قدوة السالكين المولى فتح علي بن المولى حسن السلطان آبادي: أنّه لمّا زار أمير المؤمنين عليه السلام ورجع إلى مشهد الحسين أسف على عدم مذاكرته مع علماء النجف في مسألة بقاء جسد الإمام طرياً أو أنّه يبلى، فرأى في المنام أنّه داخل إلى الروضة فرأى جسداً موضوعاً على الحصير والدم يجري من أعضائه، فسأل عنه؟ قيل: إنّه جسد الحسين، أما علمت أنّ أجسادهم لا تُبلى.(المؤلف).

وقال العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار ٢٧: ٣٠١ بعد ما نقل كلام الشيخ المفيد المتقدّم: « وهذا مذهب فقهاء الإمامية كافة وحملة الآثار منهم. ولست أعرف فيه لمتكلّميهم من قبل مقالاً.. ».

تلك الأمثلة القدّسية، وهي في حال صعودها إلى سبحات القدس، إلاّ نفوس المعصومين بعضها مع بعض دون غيرهم، مهما بلغ من الخشوع والطاعة.

لكنّ (عباس المعرفة) الذي منحه الإمام في الزيارة أسمى صفة حظي بها الأنبياء والمقرّبون وهي: «**العبد الصالح**»، تسنّى له التوصّل إلى ذلك المحل الأقدس، من دون أن يذكر له تعصيب عين أو إغضاء طرف، فشارك السبط الشهيد، والرسول الأعظم، ووصيه المقدّم مع الروح الأمين، وجملة الملائكة في غسل الإمام المجتبى الحسن السبط صلوات الله عليهم أجمعين[1].

وهذه هي المنزلة الكبرى التي لا يحظى بها إلاّ ذوو النفوس القدسية، من الحجج المعصومين، ولا غرو إن غبط أبا الفضل الصدّيقون والشهداء الصالحون.

وإذا قرأنا قول الحسين للعبّاس، لمّا زحف القوم على مخيّمه، عشية

وفي كنز الفوائد للكراجكي ١: ٢٤٦، ومنهج الرشاد لمن أراد السداد: ٥٦٢، وبصائر الدرجات للصفار: ٤٤٥: أنّ لحومهم محرّمة على الأرض، وأنّها ترتفع إلى السماء بعد ثلاثة أيام.

(١) روى الصفّار في بصائر الدرجات: ٢٤٥ عن الباقر عليه السلام: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام شاهد جبرائيل والملائكة، يعينونه على غسل النّبي وتكفينه وحفر القبر ونزولهم معه في القبر، وكذا شاهدهم مع النّبي صلى الله عليه وآله الحسن والحسين، يعينونهما على غسل أمير المؤمنين وتكفينه، وشاهدهم الحسين مع النّبي وأمير المؤمنين، يعينونه على غسل الحسن، وشاهدهم الباقر مع النّبي وأمير المؤمنين والحسن والحسين، يعينونه على غسل أبيه السجّاد.

التاسع من المحرم: «اركب بنفسي أنت يا أخي» **حتّى تلقاهم وتسألهم عمّا جاءهم**، فاستقبلهم العبّاس في عشرين فارساً، فيهم حبيب وزهير، وسألهم عن ذلك ؟ فقالوا: إنّ الأمير يأمر إمّا النزول على حكمه أو المنازلة، فأخبر الحسين، فأرجعه ليرجئهم إلى غد[1].

فإنّك ترى الفكر يسف عن مدى هذه الكلمة، وأنّى له أن يحلق إلى ذروة الحقيقة من ذات مطهّرة تفتدى بنفس الإمام، علّة الكائنات، وهو الصادر الأوّل، والممكن الأشرف، والفيض الأقدّس للممكنات: «**بكم فتح الله وبكم يختم**»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ج: ٦ ص: ٢٣٧.(المؤلف). ونصّ العبارة: « قال: وأقبل العبّاس بن علي يركض حتّى انتهى إليهم فقال: يا هؤلاء القوم إن أبا عبد اللّه يسألكم أن تنصرفوا هذه العشيّة حتّى ينظر في هذا الأمر، فإنّ هذا أمرٌ لم يجر بينكم وبينه فيه منطق، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء اللّه، فاما رضيناه فأتينا بالأمر الذي تسألونه وتسومونه، أو كرهنا فرددناه.
وإنّما أراد بذلك أن يردّهم عنه تلك العشيّة حتّى يأمر بأمره، ويوصي أهله، فلمّا أتاهم العبّاس بن علي بذلك، قال عمر بن سعد: ما ترى يا شمر؟ قال: ما ترى أنت، أنت الأمير والرأي رأيك! قال: أردت ألاّ أكون! ثُمّ أقبل على الناس فقال: ماذا ترون؟ فقال عمرو بن الحجاج بن سلمة الزبيدي: سبحان اللّه! واللّه لو كانوا من الديلم ثمّ سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها.. وكان العبّاس بن علي حين أتى حسيناً بما عرض عليه عمر بن سعد قال: ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة وتدفعهم عند العشيّة، لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي قد كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار ».

(٢) الزيارة الجامعة. الكافي ٤: ٥٧٦،ح٢، عيون أخبار الرضا١: ٣٠٨، تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي٦: ٥٥.

نعم، عرفها البصير الناقد بعد أن جرّبها بمحكّ النزاهة، فوجدها غير مشوبة بغير جنسها، ثُمّ أطلق تلك الكلمة الذهبية الثمينة (ولا يعرف الفضل إلاّ أهله).

ولا يذهب بك الظنّ ـ أيّها القارئ الفطن ـ إلى عدم الأهمّية في هذه الكلمة بعد القول في زيارة الشهداء من زيارة وارث: « **بأبي أنتم وأمي، طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم** ».

فإنّ الإمام في هذه الزيارة لم يكن هو المخاطِب لهم، وإنّما هو عليه السلام في مقام تعليم صفوان الجمّال عند زيارتهم أن يخاطبهم بذلك الخطاب، فإنّ الرواية جاءت كما في مصباح المتهجّد للشيخ الطوسي أنّ صفوان قال: استأذنت الصادق عليه السلام لزيارة الحسين وسألته أن يعرّفني ما أعمل عليه.

فقال له: « **يا صفوان، صُم قبل خروجك ثلاثة أيام** » إلى أن قال: « **ثُمّ إذا أتيت الحائر فقل: اللّه أكبر كبيراً** »، ثُمّ ساق الزيارة إلى أن قال: « **ثُمّ اخرج من الباب الذي يلي رجلي علي بن الحسين وتوجّه إلى الشهداء وقل: السلام عليكم يا أولياء اللّه..** » إلى آخرها.

فالصادق عليه السلام في مقام تعليم صفوان أن يقول في السلام على الشهداء ذلك، وليس في الرواية ما يدلّ على أنّ الصادق ماذا يقول لو أراد السلام عليهم.

وهنا ظاهرة أُخرى دلّت على منزلة كُبرى للعبّاس عند سيّد الشهداء، ذلك أنّ الإمام الشهيد لمّا اجتمع بعمر بن سعد ليلاً وسط العسكرين؛

لإرشاده إلى سبيل الحقّ، وتعريفه طغيان ابن ميسون، وتذكيره بقول الرسول في حقّه؛ أمر عليه السلام من كان معه بالتنحّي إلاّ العبّاس وابنه علياً، وهكذا صنع ابن سعد، فبقي معه ابنه وغلامه.

وأنت تعلم أنّ ميْزة أبي الفضل على الصحب الأكارم، وسروات المجد من آل الرسول الذي شهد لهم الحسين باليقين والصدق في النيّة والوفاء [معلومة]، غير أنّه عليه السلام أراد أن يوعز إلى الملأ من بعده ما لأبي الفضل وعلي الأكبر من الصفات التي لا تحدها العقول.

ومن هذا الباب لمّا خطب يوم العاشر، وعلا صراخ النساء وعويل الأطفال حتّى كان بمسامع الحسين، وهو ماثل أمام العسكر، أمر أخاه العبّاس أن يسكتهنّ؛ حذار شماتة القوم إذا سمعوا ذلك العويل، وغيرة على نواميس حرم النبوّة أن يسمع أصواتهنّ الأجانب.

ولو رمتَ تحليلاً لتأخّر شهادة العبّاس عن جميع الشهداء، وهو حامل تلك النفس النزّاعة إلى المفادات والتهلكة دون الدين، فلا يمكنه حينئذ التأخر آناً ما، فكيف بطيلة تلك المدّة، وبمرأى منه مصارع آل اللّه، ونشيج الفواطم، وإقبال الشرّ من جميع نواحيه، واضطهاد حجّة الوقت، بما يراه من المناظر الشجية؛ والواحدة من ذلك لا تترك لـ (حامل اللواء) مساغاً عن أخذ الترات آناً ما.

لكن أهميّة موقفه عند أخيه السبط هو الذي أرجأ تأخيره عن الإقدام؛ فإنّ سيّد الشهداء يعدّ بقاءه من ذخائر الإمامة، وأنّ موتته تفتّ في العضد

فيقول له: « **إذا مضيتَ تفرّق عسكري** »، حتّى إنّه في الساعة الأخيرة لم يأذن له إلاّ بعد أخذ وردّ.

وإنّ حديث (الإيقاد) لسيّدنا المتتبّع الحجّة السيّد محمّد علي الشاه عبد العظيم قدس سره يوقفنا على مرتبة تضاهي مرتبة المعصومين، ذلك لمّا حضر السجّاد عليه السلام لدفن الأجساد الطاهرة ترك مساغاً لبني أسد في نقل الجثث الزواكي إلى محلّها الأخير، عدى جسد الحسين وجثّة عمّه العبّاس، فتولّى وحده إنزالهما إلى مقرّهما، أو إصعادهما إلى حضيرة القدّس وقال: « **إن معي من يعينني** ».

أما الإمام فالأمر فيه واضح؛ لأنّه لا يلي أمره إلاّ إمام مثله، ولكن الأمر الذي لا نكاد نصل إلى حقيقته وكنهه، فِعلُه بعمّه الصدّيق الشهيد مثل ما فعل بأبيه الوصيّ، وليس ذلك إلاّ لأنّ ذلك الهيكل المطهّر لا يمسّه إلاّ ذوات طاهرة، في ساعة هي أقرب حالاته إلى المولى سبحانه، ولا يدنو منه مَن ليس من أهل ذلك المحلّ الأرفع.

ولم تزل هذه العظمة محفوظة له عند أهل البيت دنياً وآخرة، حتّى أنّ الصديقة الزهراء سلام الله عليها لا تبتدأ بالشكاية بأيّ ظلامة من ظلامات آل محمّد ـ وهي لا تُحصى ـ إلاّ بكفّي أبي الفضل المقطوعتين، كما في الأسرار ص٣٢٥، وجواهر الإيقان ص١٩٤، وقد ادخرتهما من أهم أسباب الشفاعة يوم يقوم الناس لربّ العالَمين.

ثورة الحسين عليه السلام

المسؤولية وشروط تحقيق الهدف*

الشهيد

السيد محمد باقر الحكيم

* بحث مستلّ من كتاب "ثورة الحسين عليه السلام" لمؤلفه السيد محمد باقر الحكيم رحمه الله ـ من المفكرين الإسلاميين المعاصرين ومن قادة النهضة الإسلامية المعاصرة ـ ط ٢ ـ ١٤٢٥ ـ قم.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة الحسين عليه السلام كانت من أجل تحقيق مجموعة من الاهداف، في مقدمتها إحداث هزّة في ضمير الأُمّة وتحرير إرادتها من قيود الاسر التي كانت تعاني منه.

وقد عرفنا بأنّ تفسير نهضة الحسين، بمحاولة الوصول إلى السلطة تفسير (غير واقعي)، بالرغم من أنّ السعي إلى إقامة الحكم الاسلامي واجب وحق طبيعي للحسين عليه السلام.

وهنا يأتي سؤال أُحاول أن أطرحه ، وهو سؤال لا زال موجوداً في كثير من أذهان الدارسين والباحثين عن ثورة الحسين عليه السلام، هذا السؤال هو: لماذا لم يكن هدف الحسين عليه السلام هو الوصول إلى السلطة؟

ثمّ الاهم من ذلك، لماذا لم يتحقق للحسين عليه السلام أن يصل إلى تغيير الحكم والاطاحة بنظام يزيد بن معاوية؟ هذا النظام الذي كان يمثّل نموذجاً من الانظمة الطاغوتية الفريدة في تاريخ الانسان، ومع أنّ الحسين عليه السلام كان قد أعلن عن سعيه لذلك، وأنه يريد إقامة حكم الله سبحانه وتعالى، واستجاب لدعوة أهل الكوفة وبذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل.

طبعاً نحن كمسلمين مؤمنين بإمامة الحسين عليه السلام وبعصمة الحسين عليه السلام وبعده عن كل خطأ واشتباه وتقصير، نعتقد بشكل مسبق أنّ الحسين عليه السلام لا يتحمل أي مسؤولية في عدم تحقّق هذا الهدف الكبير خارجاً، الذي هو الاطاحة بنظام يزيد وإقامة حكم الله سبحانه وتعالى في الارض، وإنما تقع المسؤولية على الأمة نفسها كما أشرنا سابقاً. وكان هذا الامر ممّا أدركه الحسين عليه السلام وأدركه العارفون من رجالات الإسلام في ذلك العصر.

ولكن باعتبار أن ثورة الحسين عليه السلام ليست مجرّد حادثة تاريخية وقعت في تاريخ المسلمين ثم انتهت، وحينئذ فلا نحتاج إلاّ أن نقيّم الحسين عليه السلام من ناحية مسؤوليته ونقف عند ذلك، وإنّما نعتقد أنّ ثورة الحسين عليه السلام وحركته قضية تتجدد على مرّ العصور والأيام، ولا زالت هذه القضية ـ إلى يومنا هذا ـ تمدّنا بالعطاء والقوة والعزيمة والقدرة.

وشأن الحسين وقضية الحسين عليه السلام شأن القرآن الكريم الذي لا يختص مضمونه بعصر نزوله، وإنما يتجدّد في كل عصر ويعالج قضايا كل عصر، فهو حي متجدد كالشمس والقمر، كما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام.

الحسين عليه السلام أيضاً هو قرآن ناطق وقضيته وحركته لابد من أن نفهمها في كل عصر، من أجل أن نستوحيها ونستلهمها في كل عصر.

ولذا فنحن بحاجة إلى أن نجيب على هذا التساؤل، بشكل نطرح فيه هذا التساؤل على أساس أنّ الحسين عليه السلام هل يتحمل بنفسه مسؤولية عدم الوصول إلى السلطة، لأنّه لم يكن يريد تحقيق هذا الهدف منذ البداية، أو لا؟

وإذا عرفنا أنّ الحسين عليه السلام لا يتحمّل المسؤولية في هذا المجال، فنتساءل حينئذ عن عوامل الضعف في الأمة التي أدّت إلى هذه النهاية المأساوية، والتي أدت إلى عدم تحقّق هذا الهدف على يد الحسين عليه السلام.

وبصدد الجواب على هذا السؤال، لابدّ لنا:

أولاً: أن نتعرف على الشروط الأساسية العامة التي يجب أن تتوفّر في الثورة الناجحة.

وثانياً: الفحص عن وجود هذه الشروط الأساسية وتوفّرها في ثورة الحسين أو عدم وجودها.

وثالثاً: إذا وجدناها متوفرة في ثورة الحسين عليه السلام ننتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثانية، وهي الحديث عن الأمّة وظروفها ودورها في ثورة الحسين عليه السلام.

فهناك ثلاثة أبعاد وفصول من الحديث.

أولاً: شروط الثورة الناجحة

يمكن أن نلخص الشروط الأساسية التي لابد من توفرها في كل ثورة حقيقية وناجحة من منظور إسلامي بخمسة شروط:

١ـ الشرط الإلهي للثورة:

الشرط الأول، هو البعد الإلهي، أي أن تكون الثورة والحركة التغييرية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى.

وقضية الارتباط بالله سبحانه وتعالى قضية ذات أهمية بالغة في المنظور الإسلامي في كل ثورة ناجحة، لانّ مسألة الارتباط بالله سبحانه وتعالى تمثل الهدف الأساس لكل عمل تغييري في المنظور الإسلامي، وهو طريق التكامل الإنساني في الحياة الدنيا والآخرة، لان التغيير فيها يكون على أساس موازين الحق والعدل والمصالح الإنسانية الواقعية، وتجنب المفاسد والأضرار التي يمكن أن تلحق الإنسان في سيرته الفردية أو الجماعية، بعيداً عن الأهواء والميول، أو المصالح الذاتية، أو الطبقية، أو القومية، أو الفئوية، أكثرية كانت أو أقلّية.

وبالإضافة إلى ذلك يعطي ـ هذا البعد الإلهي ـ الثورة بعداً وزخماً لا يمكن أن تجده الثورة عندما لا يكون هذا الارتباط موجوداً فيها، حيث يكون لهذا الارتباط تأثير بالغ على كل الشروط الأخرى التي سوف نشير إليها بعد ذلك.

ولعلّ أوضح مثال على فاعلية وآثار هذا الشرط هو نفس حركة الأنبياء في التأريخ الإنساني، فإنّ هؤلاء الأنبياء باعتبار أنّ حركاتهم الثورية التغييرية أو الإصلاحية كانت تتسم بهذا الشرط، نجد هذا البعد والتأثير العميق لحركة الأنبياء في نفوس البشر والناس، بحيث نرى هذا التقديس والالتزام الذي لا ينفصم لدى الناس تجاه هذا التحرك، بحيث يمتد في التأريخ الإنساني ويصمد أمام كل الضغوط والمؤثرات ويبقى إلى آخر الحياة الدنيوية، ولعلّ أهم نقطة في هذا الثبات والصمود هو هذا البعد الذي يحقّقه الارتباط بالله في نظرة الإنسان إلى الحياة.

فالإنسان الذي يرى الأشياء في هذا الوجود من خلال الأمور المادية والمصالح المحدودة بعيداً عن الارتباط بالله سبحانه وتعالى، سوف تكون رؤيته للأشياء مهما اتسعت أو امتدت في حدود هذه الدنيا وحدود متطلباتها ونعمها وملذاتها وآلامها ومآسيها، وسوف ينظر إلى الكون والحياة والمجتمع والأهداف والآمال والطموحات من خلال هذه الدنيا المحدودة.

أما عندما يرتبط هذا الإنسان في تحرّكه بالله سبحانه وتعالى، عندئذ سوف يكون لهذا التحرك أبعاد واسعة مطلقة غير محدودة، تشمل عالم الدنيا وعالم الآخرة، سوف يكون للألم مثلاً معنى آخر يختلف عن معنى الآلام التي يراها الانسان في هذه الدنيا، فيراه أعظم بكثير من آلام الدنيا في الكم والكيف، وبذلك يجد القدرة على تحمّل ألم الدنيا أو ترجيحه في سبيل التخلّص من آلام الآخرة، وهكذا بالنسبة للنعم والأفراح والأحزان والشهوات والملذات، فالراحة مثلاً التي يميل إليها الإنسان في هذه الدنيا وكل شهواتها الأخرى، تبقى لها حدود معينة قد يتنازل الإنسان عنها بسهولة باعتبارها محدودة، أما عندما ينظر الانسان إلى وجوده بمنظار الارتباط بالله سبحانه وتعالى ويفترض أنّ هناك حياة أُخرى، لها نعيمها ولها جحيمها، ولها راحتها ولها آلامها، حينئذ تتغيّر صورة الراحة والالم والاضرار والمنافع والمصالح والمفاسد لدى هذا الانسان، بمقدار استيعابه لمعنى الراحة والالم في حياة الاخرة.

فمسألة الارتباط بالله سبحانه وتعالى في التحرك لها هذا البعد، وهو اتساع نظرة الانسان لكل الاشياء، باعتبار أنّ هذه النظرة سوف تكون نظرة

شاملة غير مقتصرة على هذه الدنيا، وإنّما تمتد إلى عالم الاخرة، وهو عالم غير محدود في كل معانيه، سواء كانت هذه المعاني مرتبطة بالالم والحزن، أو كانت مرتبطة باللذة والفرح من حياة الانسان.

وفي بُعد آخر من هذا الشرط نجد أن الأهداف والكمالات تصبح لها معان أوسع وأشمل، لأنّ الكمالات والأهداف التي يحصل عليها الانسان في الدار الآخرة مطلقة وسامية وخالدة، وهذا بخلاف ما يراه الانسان في الدار الدنيا من هذه الاهداف والكمالات، فإنها مهما كبرت فهي محدودة وآنية.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(١).

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٢).

إذن فهذا الشرط شرط مهم وله دور كبير في نجاح الثورة.

---

(١) آل عمران : ١٤ ـ ١٥.

(٢) الحديد : ٢٠.

٢. الشرط الإنساني للثورة:

الشرط الثاني هو البعد الإنساني، فإنّ كل ثورة من أجل أن تكون قادرة على النجاح وتحقيق أهدافها لابدّ من وجود هذا البعد الانساني فيها، وأقصد بالبعد الانساني أن تكون هذه الثورة مهتمة بتلك المعاني التي فطر الله سبحانه وتعالى عليها الانسان، لانّ هذه المعاني تمثّل عنصراً ثابتاً في حياة الانسان وتبقى مع الانسان في كل التأريخ وفي مختلف الظروف التي يمرّ بها هذا الانسان.

فالثورة عندما يكون فيها هذا البعد الانساني يمكن أن نفترض فيها القدرة على النجاح والبقاء والوصول لتحقيق الغايات، حيث يكون هذا البعد الطاقة المحرّكة في داخل الانسان، أمّا عندما لا يكون للثورة هذا البعد الانساني، فلا يمكن لهذه الثورة أن تحرّك هذا الانسان إلا بشكل محدود.

ما هو هذا البعد الانساني للثورة؟

نحن عندما نقرأ تأريخ الانبياء نجد أنّ هناك خصوصيتين موجودتين ومتمثلتين في تحرك الانبياء دائماً وأبداً بالاضافة إلى (البعد الالهي)، وهاتان الخصوصيتان هما:

أولاً: مقارعة الظلم ورفضه، والدعوة إلى الحق والعدل وتحقيق الطمأنينة بالاستقرار.

وثانياً: كرامة الانسان وعزّته وحريته الحقيقية، والكمالات التي تجسّد طموحه وآماله وتطلّعاته في الحياة.

ونحن عندما نطالع تأريخ الانبياء نجد أنّ الانبياء دائماً وأبداً يؤكدون

على هاتين الخصوصيتين بحيث يمكن أن نقول إنّ هاتين الخصوصيتن دائماً تمثّلان جوهر القضية في منطق الانبياء وتحرّكهم.

وفي قراءة بسيطة للقرآن الكريم ومطالعة لقصص الانبياء التي وردت في القرآن الكريم الذي هو أفضل مصدر يمكن أن نعتمد عليه في فهم تأريخ حركة الانبياء، نجد أنّ الانبياء يؤكدون على هاتين الخصوصيتين.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ*وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وقد اهتمّ النبي في رسالته بهذا الجانب الانساني في الحياة المعاصرة لنزول الوحي عندما تحدّث عن رفض الاصنام والوثنية والاوهام والخرافات والتقليد، وكذلك عندما تحدث عن تقييم العلاقات القبلية والاجتماعية، وكذلك رفض الظلم الذي كان يمارسه الطغاة اتجاه الناس، وعمل على

---

(١) القصص : ٤ ـ ٥.

(٢)الأعراف: ١٥٧.

تحرير إرادة الإنسان من الشهوات. ودعا إلى العزّة والكرامة الانسانية والمساواة بين الناس، إلى غير ذلك من المعاني الانسانية بالاضافة إلى قضية العبادة لله تعالى وتوحيده والارتباط به.

والتأكيد على هذا البعد الانساني كما يعني الاهتمام بفطرة الانسان وبحاجاته الاساسية، كذلك يعني في نفس الوقت الاهتمام بالواقع الحياتي للأمّة والتأثير فيه وتحريكه من خلال القضايا الحسيّة المعاشة للسير في طريق التكامل، فالانسان الذي يعيش حالة من الظلم والاضطهاد والرعب والذل والعبودية للانسان الآخر أو للحجر، لا يمكنه في يوم من الايام أن يتّجه لله سبحانه وتعالى ويسعى إلى الكمالات الالهية، ولا يكون قادراً أن يرتبط بالله سبحانه وتعالى ارتباطاً حقيقياً ليكون متصفاً بالصفات الالهية التي تمثل الكمال المطلق، فالانسان عندما يكون عبداً لغير الله لا يمكن أن نفترضه في نفس الوقت عبداً لله، وإذا أردنا منه أن يتمحّض في العبودية لله سبحانه وتعالى لابدّ لنا من أن نحرّره من العبودية لكل موجود آخر، والانسان الذليل المستسلم للواقع لا يمكنه أن يقاوم الظلم ويغيّر هذا الواقع إلى الافضل، فهي قضية ذات بعد إلهي ولكنها في نفس الوقت لها بعد إنساني.

فمسألة رفض الذل تمثّل في الحقيقة تحرير الانسان من عبودية الاخرين وإخلاص العبودية لله، وهكذا مسألة حاجات الناس ومتطلباتهم، فهي في الوقت الذي تمثّل استجابة للمشاعر والاحاسيس الانسانية وملء الفراغ فيها،

تمثّل أيضاً استقراراً للنفس الانسانية وطمأنينة لها، يمكّنها من إدراك الحقائق ومعرفة طريق الهداية.

وهذا البعد الانساني والجانب الاخلاقي في الانسان يمثّل قاعدة أيّ بناء اجتماعي أو فردي صالح في المسيرة الانسانية، كما يمثّل التغيير فيه، التغيير الحقيقي في الانسان والمجتمعات الانسانية، وتمثل القضايا الأُخرى البناء الفوقي.

كما أن هذا الجانب الانساني يعبر ـ في بعد آخر له ـ عن الحاجات الاساسية في الحياة الانسانية، والتي بدونها تضطرب حياة الانسان وتتحول إلى جحيم وظلام.

وبصدد الاشارة إلى هذا البعد جاء كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول فيه: «**كاد الفقر أن يكون كفراً**»، باعتبار أنّ مسألة اختلال الحاجات الاساسية لهذا الانسان تجعل هذا الانسان بطبيعته بعيداً عن الله سبحانه وتعالى والارتباط به، فهذا البعد الانساني لا يمثل في الثورة الناجحة الاصيلة اهتماماً بمتطلبات الانسان وحاجاته وقضايا العدل والقسط فحسب، وإنما هو أيضاً يمثل اهتماماً بالبعد الاول الذي هو البعد الاخلاقي مثل قضايا العزّة والكرامة والشرف والاستقامة والصدق.

٣. الشرط العلمي للثورة:

الشرط الثالث الذي يمكن أن يذكر في مجال شروط الثورة الناجحة، هو البعد العلمي، يعني أنّ كل ثورة إذا أُريد لها أن تصل إلى أهدافها وأن

تحقّق غاياتها النبيلة، لابدّ أن يكون وراء هذه الثورة عقل يخطّط لها تخطيطاً علمياً ينسجم مع السنن التأريخية ويسير بهذه الثورة إلى تلك الأهداف، أمّا عندما تفقد الثورة الخطّة الصحيحة والرؤية الواضحة للواقع والأهداف وتفقد التدبير والحكمة في العمل والمنهج والأسلوب، حينئذ يمكن أن تتحوّل هذه الثورة إلى مجرّد انفعالات عاطفية أو مشاعر وأحاسيس نبيلة، أو إلى مجرّد ردود فعل وتمرد وانعكاس للواقع السيء، ولا تصبح عملية تغييرية بنّاءة، تهدف إلى العدل والقسط والتكامل الانساني، أو تتحوّل إلى فوضى اجتماعية لا يمكنها أن تحقق مصلحة للمجتمع، أو أن تصل إلى غاية صحيحة.

والقرآن الكريم طبعاً يؤكد على ذلك في مسألة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وفي مسألة دفع الناس نحو الارتباط بالله سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١]. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ﴾[٢].

إذن فمسألة الحكمة والموعظة الحسنة والتخطيط والتدبير شيء ضروري في نجاح الثورة والوصول إلى أهدافها، لانّ عملية التغيير عملية معقّدة وعسيرة وتحتاج إلى تدرّج في العمل، واستنفاذ لكل الوسائل واستفراغ لكل الجهود، وصبر وعزيمة وتشخيص لطبيعة الظروف والإمكانات والاستفادة من كل الطاقات والعوامل المؤثرة.

ولعلّ أحد أهم ما يميّز ثورة الإمام الحسين عليه السلام ونهضته، بل تحرّك الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بشكل عام عن ثورات وانتفاضات الخوارج أو

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

بعض العلويين في التأريخ الإسلامي هو هذا الجانب في الحركة. حيث كانت تفقد الكثير من هذه الانتفاضات عنصر التخطيط أو تشخيص الاهداف والظروف، الامر الذي أدّى إلى فقدانها لعنصر التأثير التغييري في المجتمع الاسلامي، أو كان تأثيرها محدوداً.

المبادرة ورد الفعل

ويدخل في هذا الجانب عنصر مهم لابدّ لنا أن نتنبه إليه في هذا المجال، وهذا العنصر هو مسألة أخذ زمام المبادرة في العمل الثوري التغييري، يعني أنّ الثورة بمعناها الحقيقي تعني حالة من الابتكار والمبادرة يتّخذها الانسان الثائر الذي يستشعر الظلم والذل من خلال التخطيط لرفع هذا الظلم وتغيير الواقع، والبدء بعملية الهجوم على هذا الواقع الفاسد والظالمين من أعداء الله وأعداء المحرومين والمستضعفين، وذلك بعد الوعي الكامل لهذا الواقع والعمل على تغييره تغييراً حقيقياً على أساس الحق والعدل.

وعنصر المبادرة هذا يختلف بحسب الحقيقة عن عنصر رد الفعل، فإنّ الانسان الذي يستشهد في سبيل الله ويُقتَل مظلوماً من أجل الله يمكن أن نفترض فيه فرضيتين:

إحداهما: الشهادة (في حالة المبادرة).

والأُخرى: الشهادة (في حالة ردّ الفعل).

الانسان الذي يستشهد في حالة المبادرة معناه: أنّ هذا الانسان بتخطيط وتصميم مسبق يفكّر بالقيام بعمل تغييري معيّن قد يؤدي به إلى الشهادة، ثم

يستشهد. فشهادة هذا الانسان هنا تكون شهادة مبادرة، أي شهادة هدفها التغيير، وقد خطّط لها بشكل مسبق واتخذ قرارها.

وقد يستشهد هذا الانسان مظلوماً وبعدوان من الظالمين أيضاً، ويكتب ـ إن شاء الله ـ عند الله سبحانه وتعالى في الجنان كشهيد، لكن لا يكون هذا الاستشهاد مخططاً له، أو لا يكون له دور تغييري، وإنّما هو تعبير عن ردّ الفعل والاحساس بالظلم، فيكون هذا الاستشهاد منطلقاً على أساس انّ الظالم من أجل أن يفرض هيمنته وسيطرته على الناس لابدّ له أن يخيفهم أو يمنعهم من كل أشكال التحرّك، فيقوم بقتل الناس المؤمنين، هؤلاء أيضاً يكونوا شهداءً على الظلم والعدوان، باعتبار أنهم قُتِلوا بسيف الظالم ظلماً وعدواناً ومن أجل إيمانهم بالله سبحانه وتعالى.

ولكن هذا الشهيد لا يكون شهيد مبادرة وثورة وتخطيط، ولا يكون شهيد تفكير وتصميم مسبق على تحقيق هذه الشهادة، وإنّما يكون شهيد قمع واضطهاد وظلم.

والثورة التي يمكن أن تحقّق نجاحها وتصل إلى غاياتها هي تلك الثورة التي تخطّط للانتفاضة على الظالم ولدفع الظلم، والخلاص من الذل والفساد.

ويكون لدى أبنائها ورجالها العزم والتصميم والإرادة على التغيير والتضحية والبذل والعطاء من أجل تحقيقه وهذا هو ما أراده القرآن الكريم من المؤمنين ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ

الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيرًا﴾[١].

٤. الشرط العاطفي للثورة:

البعد الرابع هو البعد العاطفي الوجداني في الثورة، الثورة في الحقيقة قد تملك ارتباطها بالله سبحانه وتعالى، وقد تملك أيضاً البعد الإنساني في مضمونها وأطروحتها، وقد تملك هذه الثورة أيضاً البعد العلمي، أي عنصر التخطيط والمبادرة، ولكن مع ذلك قد لا تصل الثورة إلى غاياتها وأهدافها ما لم يكن يتوفر لديها البعد الوجداني والعاطفي.

فالبعد الوجداني يمثل وقود الثورة، لانّ الوعي والإدراك للواقع الفاسد وحده، وكذلك التخطيط وتشخيص الأهداف وحدهما لا يحرّك هذا الإنسان، بل يهديه إلى الطريق الصحيح وينير له الدرب. وإنّما الذي يمنح الطاقة والقدرة على التحرك والاندفاع، هو الجانب الوجداني في الإنسان. فالثورة تحتاج إلى الأهداف والشعارات والمفاهيم والتخطيط، ولكن أيضاً تحتاج إلى هذا الجانب الوجداني من أجل أن تكون قادرة على الحركة وقادرة على الفاعلية، لانّ الجانب الوجداني هو الطاقة المحرّكة للانسان، والعقل والأهداف المقدسة تمثّل عنصر الهداية واختيار الأسلوب والمنهج الموصل للهدف.

---

(١) النساء: ٧٥.

والجانب الوجداني في الثورة الصحيحة ينطلق دائماً من حبّ الانسان لله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١)، وبالتالي حب كل ما يرضي الله تعالى وأوليائه الصالحين، وحب كل المعاني الخيّرة التي أودعها الله تعالى في هذا الانسان من العدل والاحسان والعزة والكرامة والحرية، بحيث تتحوّل هذه المعاني الى المشاعر والاحاسيس والعواطف التي يتفاعل معها هذا الانسان.

وأما في الحركات الثورية المادية فينطلق هذا الوجدان والعواطف من التركيز على الغرائز الانسانية والشهوات والملذات والمنافع الانية، التي يتحسّسها الانسان ويلمسها في حياته اليومية.

ولذلك لابد في الثورة الصحيحة من تعميق عنصر الحب لله تعالى في الانسان ولاوليائه ولكل هذه المعاني الخيّرة، بحيث تتحوّل إلى وجدانه وعواطفه وأحاسيسه، ولابدّ من إثارة جميع مكامن هذا الحب وهذه المشاعر.

ويعتبر الجهاد في سبيل الله والتصميم على الشهادة تجسيداً حقيقياً لنمو وتكامل هذه المشاعر، حيث يرغب الانسان المؤمن بلقاء الله تعالى، وكذلك تعبيراً، عن تصاعد الحالة الوجدانية لدى الانسان المؤمن، بحيث يعبّر عن هذه الحالة الوجدانية الواعية والمخططة بالاقدام على بذل نفسه وماله في سبيل تحقيق هذه الاهداف.

---

(١) البقرة: ١٦٥.

فالانسان المؤمن عندما يعشق الله تعالى ويعشق الدرجات العالية في الدار الآخرة واللذات والشهوات التي يحصل عليها في تلك الدار، يتصاعد هذا الحب في وجدانه فَيُقْبِل على الله تعالى ويكون على استعداد كامل للقاء الله تعالى والوصول إلى هذه الغايات.

كما أنّ الشهادة ليست مجرّد عاطفة فوضوية واندفاع أعمى، وإنّما هي حالة وجدانية وعاطفية تعتمد على العقل والرؤية الصحيحة للاشياء والتخطيط المسبق للعمل، مع تصاعد في الحالة الوجدانية والمشاعرية يحصل فيها الانسان ـ من خلال تضحيتهِ ـ على مجموعة من هذه الحقائق وعلى رأسها حبّه العميق لله تعالى.

فالعاطفة والوجدان ضرورة من ضرورات الثورة الناجحة الصحيحة القادرة على تحقيق أهدافها، ولابدّ أن نهتم بالجانب العاطفي ونصعّد هذا الجانب في العمل الثوري السياسي، حتى يمكن أن يصل الانسان إلى الاستعداد للتضحية والشهادة.

وهذا الجانب ـ كما قلت ـ يمثّل عنصر الوقود والطاقة المحرِّكة للثورة، والجهاز الذي يكون قادراً على أن يمنح الثورة ديمومتها واستمرارها لتحقيق أهدافها، ويتمثل بألوان مختلفة من البذل والعطاء، سواء كان بذل المال أو بذل الجاه أو بذل الجهد البدني، حتى يصل هذا البذل في قمته إلى بذل النفس الذي هو الشهادة، لانّ هذا يمثل قمّة الارتباط بالله سبحانه وتعالى وقمّة العشق لله وللقيم والمثل الالهية، وبذلك يكون قادراً على صنع الثورة وحمايتها بعد ذلك.

٥. الشرط الجماهيري للثورة:

الشرط الخامس توفّر البعد الجماهيري، أي أنّ الثورة قد تملك الأبعاد الأربعة، فتكون مرتبطة بالله سبحانه وتعالى، وتكون ثورة ذات بعد إنساني، وتكون عن تخطيط مسبق، وأيضاً تكون ذات بعد وجداني عاطفي، ولكن مع كل ذلك ومن أجل أن تحقّق هذه الثورة أهدافها في التغيير، لابدّ أن يكون لها وجود جماهيري وقاعدة واسعة في الأمّة تتفاعل معها، وتؤمن بمفاهيمها وشعاراتها وأهدافها.

أما إذا كانت هذه الثورة موجودة في قائد واع مدرك متحمّل لكل هموم الانسانية وتتمثل فيه كل الابعاد الاربعة، ولكن كان هذا القائد في همومه واهدافه وشعاراته، في معزل عن فهم هذه الجماهير ووعيها، لظرف من الظروف أو لسبب من الاسباب، أو إذا كانت هذه الثورة في نخبة من الناس صالحة مؤمنة بالله سبحانه وتعالى مستوعبة للاسلام، قادرة على فهم الاسلام ومستعدة لان تبذل كل وجودها وقدراتها وكل ما لديها في سبيل القضية، ولكن هذه النخبة لم تكن موجودة في أفكارها وشعاراتها وأهدافها في أوساط الجماهير. هنا لا يمكن أن تحقّق الثورة أهدافها .. لماذا؟

١ ـ لان الهدف الحقيقي للثورة هو عملية تغيير الأمة، وايجاد التحوّل الاجتماعي والسياسي فيها. فما لم تكن الأمة قد استوعبت بدرجة معقولة هذه الاهداف والمفاهيم والشعارات لا يمكن أن نفرض تفاعل الأمة مع الثورة، وإنّما تصبح الحركة عملية انتحارية، أو ثأرية، أو انفعالية، أو تعبير

عن موقف محدود قد يكون مبرّراً من الناحية الشرعية أو السياسية، ولكنّه لا يحدث التغيير المطلوب.

٢ ـ كما أنّ أداة التغيير في الثورة ووقودها في عملية المواجهة مع الطغاة والمستكبرين، هي الأمة والجماهير التي يمكنها بإذن الله تعالى أن تحدث التغيير المطلوب وتقف أمام الطغيان والجبروت وتتغلّب عليه وتحقّق النصر والفتح.

٣ ـ ومن أجل أن تستمر عملية التغيير وتدوم بعد النصر، لابدّ للثورة من حماية تضمن لها الدفاع عن نفسها أمام الاعمال والعناصر المضادة التي تتحرّك عادة للقضاء على الثورة ووأدها في مهدها، والجماهير هي العنصر الوحيد بعد الله تعالى التي يمكنها أن تقوم بهذه المهمة.

فمهما كان القائد صالحاً والشعارات والمفاهيم واقعية والأهداف حقّة ومقدسة والنخبة مستعدة للتضحية والفداء، فإنّ الثورة لا تنجح ما لم يتوفّر هذا العنصر الأساس المهم، وهو وجودها في هذا الوسط الجماهيري الذي يمكنه أن يتفاعل معها.

ولذا لابدّ من أجل القيام بأي ثورة من تعبئة هذه القاعدة الجماهيرية وتهيئتها فكرياً وسياسياً ومعنوياً، ليتحقّق هذا التفاعل المنشود. وبدون ذلك فإنّ العمل الجهادي التي تقوم به النخبة أو الشخص قد يكون مبرراً لسبب أو آخر شرعاً أو عرفاً ويكون مصير صاحبه أو أصحابه هو الجنان، ولكنه لا يكون ثورة تغييرية مؤثرة على مستوى الأمة والمجتمع.

وهنا لابد أن نلاحظ أن فعلية التغيير وسرعته وحضوره، أو تأخيره وبطأه أو في المستقبل، يرتبط أيضاً بهذا الجانب ومدى وجود الثورة وحضورها في وسط الأمة وتفاعل الأمة فكرياً وعاطفياً وإرادياً مع الثورة، أو تقلص دائرة التفاعل وحصرها بالدائرة الفكرية، أو الفكرية والعاطفية.

ثانياً: ثورة الحسين عليه السلام وأبعاد الثورة الناجحة

بعد هذا التصوّر لابعاد وشروط الثورة الاصيلة والناجحة، لابدّ لنا أن نشير إلى مدى توفّر هذه الشروط في ثورة الامام الحسين عليه السلام.

ثورة الحسين عليه السلام تجسّد الارتباط بالله :

فالبعد الاول من أبعاد هذه الثورة، وهو بعد الارتباط بالله سبحانه وتعالى، لا شك أنه متحقق في تحرك الامام الحسين عليه السلام، وعندما نقول بأنّ هذا البعد موجود في تحرّك الحسين عليه السلام لا نقصد بذلك ارتباط شخص الحسين بالله سبحانه وتعالى فحسب، وإنّما نقصد ارتباط التحرّك بمجمله بالاهداف الالهية، وارتباط القضية بالله وبالاسلام التي تحرّك في إطارها الامام الحسين عليه السلام، وإلاّ فشخص الحسين عليه السلام إمام معصوم مرتبط بالله سبحانه وتعالى بلا شك لدى أي واحد من المسلمين، وإنّما نقصد المفاهيم والشعارات والاهداف والاطار العام الذي طرحه الامام الحسين عليه السلام لحركته ونهضته، وكذلك استجابة الناس له والتزامهم بمنهجه إنّما كان منطلقاً من هذه الاهداف والشعارات.

وهذا أمر واضح من خلال مراجعة الخطاب السياسي للامام الحسين عليه السلام ومجموعة الخطب التي خطبها الحسين عليه السلام، ومجموعة الرسائل التي أرسلها إلى المسلمين في مختلف أقطارهم، وكذلك من خلال دعوة المسلمين من أهل الكوفة وغيرهم للإمام الحسين عليه السلام للنهوض، ونظرتهم إلى (يزيد) وأنّه إنسان منفصل عن الإسلام وبعيد عنه[1].

فنفهم من كل هذه الامور وغيرها أنّ هذا التحرك مرتبط بالله سبحانه وتعالى وواجد لهذا البعد، وليس تحركاً قائماً على أساس آخر وبعد آخر، وقد أوضحنا ذلك عندما درسنا التفسير الصحيح لثورة الامام الحسين عليه السلام، ولعلّ في وصيته التي أوصى بها أخاه محمد بن الحنفية ما يوضح هذه الحقيقة، حيث قال:

«إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمَن قبلني بقبول

---

(١)هناك بحث في توضيح الجانب الشرعي في هذه النهضة وبيان الأدلة والشواهد الإسلامية والفقهية التي يستند اليها هذا الجانب والتي يمكن فهمها من خطاب الإمام الحسين عليه السلام، ومن خطاب أصحابه، وخطاب وموقف بعض المناوئين السياسيين للإمام الحسين عليه السلام، سواء أولئك الذين التحقوا به بعد ذلك او استمروا في موقفهم عملياً وكذلك موقف المسلمين عامة وبالخصوص أهل الكوفة الذين كانوا يمثلون درجة عالية نسبياً من الوعي، وأيضاً موقف كبار الصحابة والتابعين في عصر الإمام الحسين عليه السلام وغير ذلك من الشواهد.

كل ذلك في مقابل النصوص التي قد يستدل بها البعض أو يتوهم منها وجوب التسليم للحاكم الظالم الجائر.

الحق فالله أولى بالحق ومَن ردّ علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين».

ثورة الحسين رفض الظلم والذل:

البعد الثاني هو البعد الإنساني، إذ من الواضح أيضاً من خلال تحرك الحسين عليه السلام ومن خلال تعامله مع القضايا والأحداث، ومن خلال خطبه وكلماته، أنّ الحسين عليه السلام كان يؤكد على قضية رفض الظلم.

والشواهد على ذلك كثيرة تذكرها كتب الحديث والتأريخ، وهو من القضايا الواضحة لديكم في نهضة الامام الحسين عليه السلام، ولكن مع ذلك نشير إلى بعض هذه الشواهد من أقوال الحسين عليه السلام وأحاديثه، منها حديث الحسين عليه السلام وخطبته عند التقاءه بالحر بن يزيد:

«أيها الناس إنّ رسول الله قال: مَن رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحقّ ممّن غيّر».

وقال في موقف آخر: قال له أبو هرم: يابن رسول الله، ما الذي أخرجك عن حرم جدّك؟ فقال: **«يا أبا هرم إنّ بني أُميّة شتموا عرضي فصبرت، وأخذوا مالي فصبرت، وطلبوا دمّي فهربت، وأيم الله ليقتلوني**

فيلبسهم الله ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً ويسلّط عليهم مَن يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من قوم سبأ، إذ ملكتهم امرأة فحكمت في أموالهم ودماءهم».

فالحسين عليه السلام كان يركّز على الظلم والجور الذي كان يمارسه يزيد وبني أُمية تجاه المسلمين وتجاهه بشكل خاص، وكذلك قضايا الحرمان والاستضعاف وممارسات الأمويين ويزيد بالخصوص للأساليب الوحشية تجاه المسلمين في ذلك العصر، وكذلك مسألة محاولات يزيد لإذلال المسلمين واضطهادهم وممارسة حالة القيمومة والسيادة على هؤلاء المسلمين، هذا البعد الانساني كان بعداً مطروحاً في تحرّك الحسين عليه السلام.

فالحسين عليه السلام لم يكن يدعو الناس إلى مسألة إقامة الشعائر والعبادات مثلاً، أو الارتباط بالله سبحانه وتعالى ارتباطاً منفصلاً عن الحياة والمجتمع، وإنّما كان يؤكد أيضاً على هذا الجانب الانساني في تحركه والقضايا التي يعيشها الناس في حياتهم.

ولعلّ في الكلمات الآتية المعروفة عن الإمام الحسين عليه السلام ما يجسّد هذا المعنى بشكل واضح تمثّل هذا البعد:

«والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد».

و «لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما».

و «الموت أولى من ركوب العار، والعار أولى من دخول النار».

«ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور

طابت وطهرت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة من أن نـؤثر طاعـةُ اللئـام على مصالح الكرام».

التخطيط في ثورة الحسين عليه السلام

البعد الثالث أيضاً وهو بعد الخطّة، فإنّه من الابعاد الثابتة في حركة الامام الحسين عليه السلام، وقد يكون في هذا البعد بعض الغموض عند الكثير من الباحثين، حيث يتصورون أنّ الحسين عليه السلام لما كان عارفاً أنّه سوف يقتل في كربلاء وأنّ أصحابه سوف يقتلون أيضاً وسوف تسبى عياله، لما كان عارفاً بهذه النهاية وعارفاً بهذا المصير، لم يكن مهتماً بمسألة التخطيط للثورة وللهدف المعلن، وهو مسألة الإطاحة بنظام يزيد وإقامة حكم الإسلام مقام ذلك الحكم، مع أنّ الحسين عليه السلام في الوقت الذي كان يعرف هذه النتيجة والنهاية وكان لديه وراء هذه التضحية التي جسّدها في كربلاء أهداف مشخصة ومعيّنة ـ أشرنا إليها سابقاً وسوف أُشير إلى بعضها الآخر ـ بالرغم من كل هذا نجد أنّ الحسين عليه السلام كان يخطط لهذا التحرك بشكل كامل، وكأنّه إنسان يتصوّر قدرته على استلام الحكم من يزيد وإقامة الحكم الإسلامي مكان حكم يزيد، حتى توهّم بعض الباحثين من خلال دراستهم إلى هذه الخطط التي كان يرسمها الإمام الحسين عليه السلام أنّه كان يحتمل وصوله إلى الحكم، وحتى أن بعضهم ذهب به الوهم إلى أن يتصور أنّ الحسين أخطأ في معرفة الحقيقة وتشخيص طبيعة الأوضاع السياسية والواقعية، وأنّ الرياح جرت بخلاف تقديرات ربّان السفينة.

وقلنا في حديث إنّ الحسين عليه السلام لم يكن يقدّر في تحليله السياسي للأوضاع الوصول إلى الحكم، ولكن مع ذلك لم تكن تفقد حركته ونهضته التخطيط، يعني أنه كان يخطّط ويبذل كل جهده من أجل الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه النتيجة، ومن هنا لا يتحمّل الحسين أية مسؤولية في قضية التخطيط.

والسر في ذلك هو: أنّ التخطيط وبذل الجهد يمثّل أولاً: الوفاء بالوظيفة والواجب الشرعي في هذا المجال، فإنّ على الانسان أن يسعى ويبذل كل قدرته من أجل الوصول إلى الحكم الاسلامي، وبالاضافة إلى ذلك يمكن أن نشير إلى أنّ التخطيط بنفسه يترك آثاراً نفسية وسياسية واجتماعية على مجمل الاوضاع العامة للمسلمين، وهذا هو ما كان يستهدفه الامام الحسين عليه السلام من وراء هذا التخطيط.

حيث أنّ العملية بدون التخطيط لها قد تبدو وكأنّها عملية انتحار أو مجرّد انفعال ورفض للظلم والذل، وأما مع التخطيط فالعملية تتحوّل إلى عمل ثوري وسياسي عام يرتبط بالأمّة كلّها، وتتفاعل الأُمة مع أهدافها ومقاصدها وشعاراتها ومفاهيمها.

وهنا يجدر بنا أن نذكر بعض الشواهد التي تؤكد وجود عنصر التخطيط في نهضة الحسين عليه السلام:

١ ـ موقف الحسين عليه السلام من البيعة عندما طلب منه والي المدينة البيعة، فإنّ الحسين كما تعرفون كان قد خطط لاعلان الرفض في ذهابه إلى الوالي، ولم يصنع كما صنع غيره ممّن دعاه الوالي إلى البيعة كعبد الله بن

الزبير أو عبدالله بن عمر، وفي نفس الوقت لم يذهب إلى الوالي بشكل عفوي وإنّما خطط لذهابه إلى الوالي فاستصحب جماعة من بني هاشم معه وكلّفهم أن يقفوا على الباب وعندما يسمعوا صراخه وصيحته عليهم أن يدخلوا وينقذوا الحسين عليه السلام، ثم كان الحسين قد خطط للحديث مع الوالي، كيف يبدأ وكيف ينتهي من الحديث.

٢ ـ وصيته الواضحة لأخيه محمد بن الحنفية، والتي لم تتضمن إلاّ شعارات النهضة والحديث عنها مع أنّها كانت في بدايتها.

وكذلك إصراره على أن يلتزم في مسيره إلى مكة الطريق العام ليعرّف الناس جميعاً هذه الحقيقة بالرغم من أنّ بعضهم طلب منه تجنب الطريق العام لإخفاء نفسه عن الأعداء.

٣ ـ ذهاب الحسين عليه السلام إلى مكة وبقاءه هناك حتى اليوم الثامن من ذي الحجة، يعني يوم التروية، ففي هذا الانتقال إلى مكة كان يستهدف الحسين عليه السلام عدة قضايا في التخطيط للثورة.

فبالإضافة إلى أنّ مكة تعتبر موطناً آمناً نسبياً لما حباها الله تعالى من قدسية وجعلها بلداً آمناً في الإسلام وكذلك في تأريخ العرب أنفسهم، كان الحسين عليه السلام يخطط من خلال مكة للاتصال بالمسلمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حيث تمكن أن يتصل بجماهير واسعة من المسلمين الذين يردون على مكة كحجاج.

وفي بعد ثالث تمكّن الإمام الحسين عليه السلام أن يقوم بعملية إرسال الرسائل إلى مختلف الأقطار الإسلامية. فهذه الأبعاد تدلّ أيضاً على وجود عنصر التخطيط في حركة الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكن تحركه تحركاً عفوياً.

٤ ـ إرسال مسلم بن عقيل إلى أهل الكوفة، فإنّ هذا يدخل كعنصر مهم في التخطيط، فالحسين عليه السلام أرسل مسلم بن عقيل لكي يهيء الاجواء في الكوفة ويعبّئ المسلمين وينظمهم ويأخذ البيعة منهم، ويدرس مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية والروحية فيها، وكذلك يعرّف المسلمين أهداف الثورة ومقاصدها.

نعم، كان الحسين عليه السلام يعرف أنّ مسلم سوف يقتل في النهاية، وأنّ الحسين عليه السلام نفسه سوف يقتل أيضاً في كربلاء قبل أن يصل إلى الكوفة، ولكن هذه التضحية وهذه النهاية مسألة أُخرى لها غاياتها وأهدافها، وإنّما هو كإنسان ثائر يسعى للإطاحة بالنظام الحاكم وكشف حقيقته والتأثير بالأمة الإسلامية، كان عليه أن يبذل كل ما في وسعه وجهده من أجل تحقيق هذه الأهداف، ومن أجل أن يوفر لهذه الثورة شروطها ويضع عن عاتقه المسؤولية الملقاة عليه، وهي مسؤولية مواجهة هذا النظام.

كما أن ذلك وضع أهل الكوفة أمام مسؤوليات دينية وأخلاقية وسياسية، وفي نفس الوقت وفّر الغطاء السياسي والاجتماعي والمبرر الطبيعي لحركته وثورته، ويبدو كل ذلك واضحاً من خلال خطابه السياسي في الخروج من مكة أو في الطريق الى الكوفة أو في يوم عاشوراء.

وقد قام مسلم بن عقيل بنشاط عظيم في هذا المجال وحقق بعض الانجازات المهمة التي كان لها بعد ذلك دور كبير في النتائج والآثار، فقد تمكن من أن يأخذ البيعة من جماهير أهل الكوفة، ويصعّد أجواء المواجهة إلى حد إخراج الكوفة عملياً من سلطة الحكم الأموي، وأصبح التحرك ضد النظام للأُمّة كلها لا للحسين وحده، وأصبحت المطاردة والمظلومية والشعارات عامة ومشتركة، كما اشترك فيها شيوخ العشائر وقادة الجيش ورجال السياسة إلى جانب الأفراد العاديين، ولم يكن النظام قادراً على السيطرة على الأوضاع من خلال «الشرعية» أو الشعارات الكاذبة أو المفاهيم المزورة و(الموضوعة)، وأصبح القمع هو الوسيلة الوحيدة لبقاء النظام، وكان هذا من أروع الخطط والبرامج التي وضعها الامام الحسين عليه السلام ونفذها مسلم بن عقيل، والتي حققت بعد ذلك أفضل النتائج[١].

٥ ـ الرسائل والكتب التي أرسلها الحسين عليه السلام إلى مختلف الأقطار الإسلامية، إلى الكوفة، وإلى البصرة، وإلى اليمن، هذه الرسائل التي كان يستنهض بها المسلمين ويشرح لهم فيها أفكاره وأهدافه، فإنّ كل هذه الأمور تدخل أيضاً كعنصر من عناصر التخطيط للثورة.

٦ ـ خروج الحسين عليه السلام في الثامن من ذي الحجة يعني يوم (التروية) أي في نفس اليوم الذي يتوجه فيه الحجاج إلى منى وعرفات، فإنّ الحسين عليه السلام وجد أفضل طريق للإعلان عن ثورته أمام جماهير المسلمين

---

(١) ومن هنا يمكن تقييم عمل مسلم بن عقيل عليه السلام أنه كان من أهم الأعمال التي تستحق هذه التضحية، وكان ممهداً بل مكملاً لعمل الحسين عليه السلام وتحقيق أهدافه.

أن يتخذ طريقاً آخراً يلفت إليه نظر الحجاج.

وبذلك أصبح المسلمون على علم بهذه النهضة، وفي نفس الوقت على علم بالاساليب الوحشية التي يستخدمها النظام لمطاردة الصالحين، حيث أعلن الحسين أنّ السبب في هذا الخروج المستعجل هو محاولة النظام للقيام بقتله في مكة، كما كشف الحسين عليه السلام بذلك استهتار النظام بالحرمات الاسلامية عندما أعلن أنّ خروجه كان بسبب أنّه يريد أن يجنّب الحرم والمسجد الحرام الهتك من خلال إراقة الدماء فيه[(١)].

٧ ـ إبقاء ابن عمه عبدالله بن جعفر وأخيه محمد بن الحنفية وحبر الأُمة عبدالله بن عباس في المدينة وفي مكة وعدم استصحابهم معه، يمكن أن نعتبره عنصراً من عناصر التخطيط، لانّ هؤلاء بقوا في هذه المراكز المهمة من أجل أن يؤدوا عدة أدوار يأتي في مقدمتها شرح وتوضيح خلفيات هذه الثورة، بالاضافة إلى أنّهم عيون يرصدون حركة الاعداء ويناورون في الحركة السياسية، وبذلك تكون عملية الثورة متكاملة بأساليبها وأدوارها.

٨ ـ مسألة استصحاب الحسين عليه السلام لعيالاته وأهل بيته في مسيرته إلى كربلاء تدخل أيضاً كعنصر من عناصر التخطيط في هذه الثورة، لأنّه كان من الممكن أن نفترض أنّ الحسين بمجرد أن يتحرك يقوم النظام بإلقاء القبض على عيالاته وعلى أولاده ويؤخذهم كرهائن لممارسة الضغط عليه، وحينئذ يكون موقفه محرجاً أمام المسلمين وأمام نفسه، عندما تكون صورة الموقف هي: موقف الإنسان الذي ضيّع عيالاته من أجل النجاة بنفسه.

---

(١)مقتل الحسين: ص ١٦٥ـ ١٦٦ : عن تاريخ الطبري وتاريخ مكة للأزرقي.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ عيال الحسين عليه السلام وبالخصوص أُخته العقيلة الكبرى زينب عليها السلام، قاموا بدور عظيم في الدفاع عن موقف الإمام الحسين عليه السلام والتعريف بالثورة بعد مقتل الحسين عليه السلام، وفي تأجيج العواطف وهزّ الوجدان والضمير لدى الأُمّة.

إذن فهذه المسألة كانت أيضاً داخلة في تخطيط الحسين عليه السلام.

كما أن عملية السبي التي كان يتنبأ بها الإمام الحسين عليه السلام كان لها دور عظيم في فضح شراسة بني أُمية وهمجيتهم واستهتارهم بالإسلام وقيمه، لان قتل الحسين عليه السلام إذا كان يمكن لبني أُميّة أن يبرروه أمام البسطاء والعامة والمغفلين ـ تحت شعارات الخروج عن الطاعة وشق عصا المسلمين وما أشبه ذلك من الشعارات والعناوين التضليلية ـ فلا يمكن لبني أُمية بأي حال أن يبرروا سبي بنات رسول الله وذراريه وهتكهم، وتعريض النساء والأطفال لهذه الآلام والمحن والعذابات.

ولعل هذا الموضوع كان من أبرز واوضح الشواهد على ضلال يزيد وانحرافه في نظر الأُمة وعامة الناس.

وهنا يمكن أن نفهم قول الامام الحسين عليه السلام ـ حين سأله ـ محمد بن الحنفية عن سبب خروجه واصطحابه للنساء ـ: «**قد شاء الله تعالى أن يراهن سبايا**»[1].

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ص: ١٦٧، عن البحار.

البعد الوجداني في ثورة الحسين عليه السلام

إذا أردنا أن نطالع البعد الرابع الذي هو البعد الوجداني نجد أنّ هذا البعد يكاد يطغى على كل الإبعاد الأخرى في هذه الملحمة التأريخية، فإن من أبرز الأبعاد في قضية الإمام الحسين عليه السلام هو البعد العاطفي والوجداني، هذا البعد الذي يستدر دموع الأصدقاء والأعداء، بل حتى أُولئك الذين كانوا يقاتلون الحسين يوم العاشر من محرم ويشهرون سيوفهم عليه، كانوا لا يملكون دموعهم، وكانوا يبكون لمأساة الحسين عليه السلام ولبذله وتضحيته وصبره.

فالحسين عليه السلام بذل أصحابه وأهل بيته الميامين وفيهم الشيوخ والكهول والشباب والغلمان، كما بذل نفسه ثم بذل أولاده وحتى الأطفال من هؤلاء الأولاد، وبذل عيالاته وبطريقة مثيرة للغاية.

الانسان قد يبذل نفسه ويبذل الرجال القادرين ولكن عندما يصل البذل إلى الاطفال قد يتردد ويحجم، أو عندما يصل البذل إلى العيال والنساء قد يتردد ويحجم، أمّا الحسين فقد بذل كل وجوده، كل ما لديه في سبيل الاسلام ومفاهيم ومبادئ هذه الثورة وقضاياها، بحيث أثار المشاعر والعواطف ليس على مستوى بلده أو عصره فحسب، بل على مستوى العصور والدهور.

الان هذا البذل كان متصفاً بالمظلومية من ناحية والوحشية من ناحية أُخرى وأفضل شاهد على هذه الحقيقة هو التراث الأدبي والفني الواسع الذي عبّرت فيه الاجيال عن تفاعلها مع هذه المأساة، ولا زال هذا البعد -

كما تشاهدون ـ يؤثّر في المسلمين وحتى في غير المتدينين منهم، بل حتى أُولئك الذين يرتدّون على الحسين ومفاهيم الحسين يؤثر فيهم هذا البعد الوجداني، بل حتى الكثير من الكفار الذين لا يؤمنون بالاسلام يؤثر فيهم هذا البعد الوجداني من قضية الحسين عليه السلام، وحيث يوضح هذا الجانب الحقيقة والحق الذي كان يلتزم به الحسين عليه السلام، بالاضافة إلى إثارة الفطرة الانسانية النقية في نفوس الناس.

البعد الجماهيري في تحرك الحسين عليه السلام

والبعد الخامس الذي هو البعد الجماهيري نجده موجوداً أيضاً في حركة الحسين عليه السلام.

نحن في الحقيقة عندما نريد أن نتأمّل في ثورة الحسين عليه السلام نجد أنّ الحسين لم يقم بهذه الثورة إلاّ بعد أن تأكّد من وجود القاعدة الجماهيرية لهذه الثورة. فلم تكن ثورة الحسين عليه السلام معزولة عن الجماهير.

طبعاً هناك قرائن كثيرة على هذا الحقيقة ومن جملة هذه القرائن، هي مسألة الرسائل والكتب التي كتبها أهل الكوفة للحسين عليه السلام، فبالرغم من أنّ بعض الباحثين يحاول إضفاء طابع النفاق على هذه الكتب، وافتراض أنّ أهل الكوفة عندما كتبوا هذه الرسائل كانوا قد كتبوها تضليلاً للحسين عليه السلام ونفاقاً، وأنهم لم يكونوا يستشعرون حقيقة الآلام التي بثوها في هذه الكتب، ولكن الحقيقة تؤكد أنّ هذه الكتب ـ بشكل عام ـ كانت تعبر عن واقع موضوعي قائم في المجتمع الإسلامي كلّه، ومشاعر حقيقية لاهل

الكوفة ولكل المسلمين، بادر إليه أهل الكوفة قبل غيرهم وعبّروا عنه في كتبهم، ولكنهم غلبوا على أمرهم بسبب الارهاب والخوف من الفشل وغيرهما من الاسباب التي سوف نتناولها في موضع آخر.

إذن فهذه الكتب كانت تمثل بعداً جماهيرياً وأنّ أهل الكوفة كانوا يحسون بالآلام وكانوا يشعرون بالظلم ويشعرون بالذلّ، ويرون أنّ الحسين عليه السلام هو الامل في إنقاذهم من هذا الوضع المأساوي المشين والفساد العام، ولذلك كتبوا وأخذوا يلحّون على الحسين، وأكدوا ذلك ببيعتهم لمسلم بن عقيل عليه السلام.

وأفضل شاهد على هذه الحقيقة، هو أنّ عبيدالله بن زياد لم يتمكن أن يقف أمام هذا التيار الجماهيري الواسع إلاّ من خلال عمليات القتل والقمع الواسعة واعتقال الآلاف من الوجهاء والرؤساء أمثال المختار الثقفي، وسليمان بن صرد الخزاعي، والاصبغ بن نباتة، والحارث الهمداني، حيث زجّهم في الزنزانات والسجون.

وكذلك استخدام أساليب الارهاب والتخويف والتهديد بجيش الشام.

وأسلوب الاغراء وبذل الاموال وإعطاء الوعود.

ولعلّ الطريقة التي تمّ فيها تنفيذ قتل هاني بن عروة، ومسلم بن عقيل، ورسول الحسين بعدهما ممّا يؤكّد ذلك أيضاً.

والاحداث التأريخية التي شهدتها الكوفة بعد ذلك تؤكد هذا الواقع أيضاً، فالثورات التي انبثقت بعد قضية الحسين عليه السلام كانت أكثرها تنطلق من الكوفة، وتنطلق من أولئك الذين بثّوا الحسين آلامهم ومعاناتهم والانتقام من قتلة الحسين نفّذه أهل الكوفة، كما أن اكثر أصحاب الحسين الذين

قتلوا معه كانوا من أهل الكوفة، وهذا الجانب كان يعطي امتيازاً ايجابياً وجوهرياً للأوضاع السياسية في الكوفة وأهلها المبادرون.

كما أنّ الحسين عليه السلام كان يشعر أيضاً انّ هناك جماهيراً واسعة في العالم الاسلامي تتفاعل بمستوى آخر مع قضيته وأنها ليست معزولة عن موقف جماهير أهل الكوفة، إلاّ أنها لم تكن تملك القدرة على التعبير عن موقفها بشكل مناسب كما فعل أهل الكوفة، لوجود العلاقات السياسية والدينية والشخصية القوية بينهم وبين الحسين عليه السلام.

نعم، كان هذا التفاعل عاماً على مستوى المفاهيم والشعارات والولاء السياسي والإدراك للحقائق، أما على مستوى الاستعداد للتضحية والفداء والصبر ومواصلة الطريق حتى نهايته والصمود أمام أساليب القمع والإرهاب، فهذا شيء آخر سوف نبحثه ونشير إليه في الفصل الآتي.

ويؤكد ذلك، أننا نلاحظ أنّ أهل الكوفة الذين كتبوا هذه الرسائل بايعوا ـ بعد ذلك ـ مسلم بن عقيل عليه السلام عندما أرسله الحسين عليه السلام إليهم وبأعداد كبيرة، حيث بايعه ثمانية عشر ألف رجل في أقل الروايات، فلم يشترك في هذه البيعة الاطفال أو النساء أو العجزة، بل أخذ البيعة من أُولئك الذين هم على استعداد للقتال من أجل الحسين عليه السلام. وهؤلاء إذا لم نقل إنهم جميعاً كانوا يتفاعلون مع ثورة الحسين ويتحسّسون بآلام الحسين وعلى استعداد للقتال والدفاع عنه عند أخذ البيعة، فعلى الاقل كانت أغلبيتهم كذلك، وتعرّض ـ بعد ذلك ـ عدد كبير منهم للاعتقال والقمع، ووقف قسم كبير منهم إلى جانب مسلم في حركته المفاجئة وخرج للقتال ومحاصرة القصر

الأُموي بعد مقتل هاني بن عروة[١].

ويؤكد ذلك أيضاً التقييم الرائع الذي قدّمه الفرزدق عند لقائه بالامام الحسين عليه السلام في الطريق حيث يسأله عن وضع الكوفة بعد مقتل مسلم بن عقيل، فيقول للحسين: «إنّ أهل الكوفة قلوبهم معك وسيوفهم عليك»، إذن فهذه القلوب التي هي مع الحسين كانت تتفاعل مع القضية وكانت تتحسّس مع أبعادها.

وفي البصرة، كانت هناك شواهد تؤكد على أنّ الحسين عليه السلام كانت له قاعدة شعبية أيضاً، وكان له رصيد وكانت له جماهير، هذه الجماهير ليست جماهير تقدّسه كابن بنت رسول الله فحسب، وإنّما كانت تتفاعل مع قضيته، تتفاعل مع ثورته وكانت تبرز استعدادها للبذل والعطاء، ويشهد بذلك القصة المذكورة عن يزيد بن مسعود التميمي الذي كان أحد شيوخ بني تميم[٢].

---

(١) تاريخ الطبري: ج: ٦، ص: ٢٠٧.

(٢)يروي القصة بتفاصيلها العلاّمة المقرم في مقتل الحسين عليه السلام عن الطبري وابن الأثير ومثير الأحزان: ص: ١٤٣ـ ١٤٤ "جمع يزيد بن مسعود بني تميم وبني حنظلة وبني سعد وقال: ان معاوية مات فأهون به والله هالكاً ومفقوداً، ألا وانه قد انكسر باب الجور والاثم وتضعضعت أركان الظلم، وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أنه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد، اجتهد والله ففشل وشاور فخذل، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدعي الخلافة على المسلمين ويتأمر عليهم بغير رضى منهم، مع قصر حلم وقلة علم، لا يعرف الحقّ موطأ قدميه فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن علي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير

ويحسن الى الكبير، فأكرم به راعي رعية وامام قوم وجبت لله به الحجة وبلغت بـه الموعظـة، فلا تعشوا عن نور الحقّ ولا تسكعوا في وهد الباطل، فقد كان صـخر بـن قـيس انخـذل بكـم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم الى ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ونصرته، والله لا يقصر أحدكم عن نصرته الا أورثه الله تعالى الذل في ولده والقلة في عشيرته، وهـا أنـا ذا قـد لبست للحرب لامتها وادرعت لها بدرعها، من لم يقتل يمت، ومن يهرب لم يفـت، فأحسنوا رحمكم الله رد الجواب!

فقالت بنو حنظلة: يا أبا خالد نحن نبل كنانتـك وفرسـان عـشيرتك، ان رميـت بنـا أصبت وان غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة الا خضناها، ولا تلقى والله شـدة الا لقيناهـا، نـنصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا اذا شئت.

وتكلمت بنو عامر بن تميم فقالوا: يا أبا خالد نحن بنو أبيك وحلفاؤك لا نرضى ان غضبت ولا نبقى ان ظعنت، والأمر اليك فادعنا اذا شئت.

وقالت بنو سعد بن زيد: أبا خالد ان أبغض الأشياء الينا خلافك والخروج عن رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل فحمدنا ما أمرنـا وبقـي عزنـا فينـا، فأمهلنـا نراجع المشورة ونأتيك برأينا.

فقال لهم: لئن فعلتموها لا رفع الله الـسيف عنكم أبداً ولا زال سيفكم فيكم.

ثم كتب الى الحسين عليه السلام: أمّا بعد فقد وصل اليّ كتابك وفهمت ما ندبتني اليه ودعـوتني لـه من الأخذ بحظي من طاعتك والفوز بنـصيبي مـن نـصرتك وان الله لـم يخـل الأرض قـط مـن عامل عليها بخير ودليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله خلقه ووديعته في أرضه، تفرعتم مـن زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر فقـد ذللـت لـك رقـاب بنـي سعد وغسلت درن قلوبها بماء سحاب مزن حين استهل برقها فلمع.

فلما قرأ الحسين عليه السلام كتابه قال: **مالك، آمنـك الله مـن الخـوف وأعـزك وأرواك يـوم العطش الأكبر.**

ولما تجهز ابن مسعود الى المسير بلغه قتل الحسين عليه السلام فاشتد جزعه وكثر أسفه لفوات الأمنية من السعادة بالشهادة.

ويدلّل أيضاً على هذا البعد الجماهيري إقبال الناس على الحسين عليه السلام في مكة بعد معرفتهم بأنه إنسان ثائر رافض للحكم الأُموي ولسلطان يزيد الطاغية، وجاء إلى مكة معلناً هذا الرفض، وقد اجتمعت جماهير كبيرة من المسلمين على الحسين، حتى تمنّى عبدالله بن الزبير أن يخرج الحسين من مكة ليصفو له الجو في مكة ويكون هو الإنسان البارز فيها، باعتبار أنّ أهل مكة أقبلوا على الحسين وعلى أُطروحته وشعاراته[١].

كما يؤكد هذه الحقيقة أيضاً أنّ الحسين لم يكن وحده هو الذي رفض بيعة يزيد، وإنما رفض ذلك معه كبار الصحابة والتابعين، وإن لم يكونوا قادرين على أن يتجاوزوا الموقف المتردد العام للأُمّة ويلتحقوا بطريق الحسين ومنهجه في هذا الرفض.

وهناك دلائل كثيرة أُخرى تدلّ على وجود هذه القاعدة الجماهيرية في تحرّك الحسين عليه السلام.

وبذلك يمكن أن نعرف أنّ الشروط الأساسية العامة لنجاح الثورة كانت متوفرة في ثورة الامام الحسين عليه السلام.

وبهذا نعرف ـ أيضاًـ أنّ الحسين عليه السلام وأصحابه ليسوا هم الذين يتحملون مسؤولية عدم الوصول إلى هدف الاطاحة بنظام يزيد وإقامة حكم الاسلام، وانما تتحمل ذلك الأمّة نفسها لأسباب كان يريد الامام الحسين عليه السلام أن يعالجها بنهضته وتضحيته، كما سنعرف إن شاء الله.

---

(١) الكامل لابن الأثير: ج: ٤ ص: ١٦.

ثورة الحسين عليه السلام وتحقيق الأهداف

لقد كان الحسين عليه السلام يتحرك على خطين رئيسيين وباتجاه هدفين متوازيين ومتفاعلين:

أحدهما: الخط الظاهري المعلن: الذي كان يبدو فيه الامام الحسين عليه السلام يجاهد من أجل الاطاحة بنظام الطاغية يزيد، هذا الواجب والهدف الشرعي الذي يجب على كل إنسان مسلم أن يسعى إليه ويجاهد من أجله. ويتحمل مسؤوليته من خلال مطالبة الأمة له بالنهوض والقيام في وجه يزيد ومبايعتها له.

وكان يخطط بكل وجوده من أجل تحقيقه ويوفّر كل الشروط الموضوعية التي يتحملها القائد في هذا المجال.

ولكنه في نفس الوقت، كان يعرف أنه لا يصل إلى هذا الهدف من خلال علمه الواسع، ولمعرفته بأوضاع الامة النفسية والاجتماعية والعسكرية. وحينئذ تكون الوظيفة الشرعية هي تثبيت الموقف الشرعي تجاه هذه الظاهرة الخطيرة في الأمة، وهي ظاهرة الحكم المنحرف الذي كان يمثله يزيد.

وثانيهما: الخط الواقعي، والذي كان يستهدف من خلاله تحقيق اصلاح الأمة ومعالجة أمراضها التي أدت بها إلى هذه النهاية، وبالتالي معالجة الابعاد السابقة التي أشرنا إليها من هزّ ضمير الأمّة ووجدانها وتحرير إرادتها والمحافظة على الإسلام والأمّة الإسلامية، وقد تحققت هذه الابعاد من

حركة الحسين عليه السلام من خلال توفير الشروط السابقة. وشهدت الأُمة تغيراً حقيقياً في وجودها، لم يكن من الممكن أن يتحقق لولا توفر هذه الشروط.

إذن، فالحسين عليه السلام قد أعلن عن هدف مشروع، وهو تخليص الأُمة من حكم يزيد وخطط له وكان التحرك من أجل هذا الهدف واجباً شرعياً، وإن كان يعرف أنّ هذا الهدف سوف لا يتحقق في الخارج، ولكن السعي لتحقيق هذا الهدف المعلن المشروع كانت له آثار مهمة في مواجهة هذه الظاهرة (ظاهرة حكم يزيد) وموقف المسلمين منها مستقبلاً. وبالتالي تحجيم هذه الظاهرة في الأُمّة وتوعية الأُمة تجاهها.

كما أن هذا السعي لتحقيق هذا الهدف كان من أجل تحقيق أهداف واقعية مهمة ومصيرية تبرّر كل هذه التضحيات والجهود.

الشعارات الحسينية*

الشهيد
الشيخ مرتضى المطهري

---

* بحث مستل من كتاب "الملحمة الحسينية - ج٢" للشهيد الشيخ مرتضى المطهري قدس سره - من كبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين - ط٣ - مطبعة اسماعيليان - قم - ١٤١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2]

إن الحديث عن شعارات عاشوراء يكون من زاويتين مختلفتين، لكنهما مرتبطتان الواحدة منهما بالأخرى.

الأولى تتمثل في الشعارات التي رفعها شخص الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام، وأهل بيته، وأصحابه في يوم عاشوراء.

والثانية حول تحوّل عاشوراء الواقعة، القضية، بالنسبة لنا نحن الشيعة، إلى شعار دائم في حياتنا.

أولاً وقبل كل شيء، لا بد وأن أوضح لكم كلمة «شعار» وخلفيتها:

فكلمة شعار في الأصل تأتي من الشعر، أو النثر الذي كان يقرأ في الحروب، إذ كانت كل جماعة تدخل ميدان المعركة، تردد مجموعة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في يوم عاشوراء بتاريخ ١٩٧٥ م تقريباً وذلك في مسجد جامع نارمك بطهران

(٢) الأنفال: ٢٤.

أشعار خاصة بها دون غيرها، وكانت الحروب إذ ذاك تجري بشكل مبارزة فردية بين العساكر، وعندما كانت مجموعتان من العساكر تشتبكان في الميدان، يكون الجميع مسلحين، ومدرعين، بشكل كامل تقريباً، ابتداء من الخوذة على الرأس، والممتدة غطاءً للوجه حتى الأنف، ومن ثم الملابس الحديدية التي كانت تغطي سائر أنحاء الجسم، انتهاء بالجزمة، مما يعني أنّ الفرد الواحد لم يكن يظهر منه سوى عينيه تقريباً.

ولذلك فإنّ العساكر لم تكن تعرف بعضها البعض جيداً في ميدان المعركة من خلال النظرة الخارجية إلاّ نادراً، عكس الحالة الطبيعية خارج الميدان، حيث الألبسة المختلفة، وبروز الوجه، والقسم العلوي من الجسم، الأمر الذي كان يسهل المعرفة حتى من بُعد.

إنّ اللباس العسكري الموّحد للمحاربين كافة، كان يجعل ليس فقط تمييز عناصر الجيش الواحد عن بعضها البعض، أمراً صعباً، بل غالباً ما كان الواحد من عناصر أحد المعسكرين لا يعرف العساكر المحيطة به، هل من معسكره، أم من معسكر الطرف الآخر، ولهذا كان يحدث أحياناً أن يضرب أحدهم رفيقاً له ظناً أنه قد ضرب أحد أفراد العدو.

من هنا كان لكل قوم أو معسكر شعارهم الخاص بهم، الذي يتمثل في جملة، أو بيت شعر، كان يردده أفراد ذلك المعسكر في ميادين المبارزة، لكي يميّزوا أنفسهم مثلا بأنهم من معسكر «ألف»، في حين أنّ معسكر «ب» مثلاً كانوا يرددون شعاراً آخر.

وهذه الفكرة كانت تفيد، على الأقل، في عدم وقوع العساكر بخطأ

ضرب أحد رفاقهم، بدلاً من ضرب العدو.

وفي بعض الأحيان، كان الشعار يأخذ طابعاً أكثر خصوصيّة، وذلك عندما كان الجند يضيفون شعاراً خاصاً، يعرّفون من خلاله بأنفسهم، إضافة إلى الشعار العام الذي كانوا يرددونه لتميز أنفسهم عن معسكر العدو.

ولما كان العربي يتميز بقوة حسّه الشعري، وكون نظم الشعر للعربي من الأمور اليسيرة، فإنه غالباً ما كان الواحد منهم، يعرّف عن نفسه ببيت، أو بيتين من الرّجز الشعري.

وكما كان يحدث أحياناً كأن يبرز إلى الميدان فارس يطلب بواسطة الشعر فارساً ينازله من المعسكر الآخر، فيبرز إليه المبارز المنافس مردداً أبياتاً شعرية، من الوزن نفسه، لكن هذا اللون من التنافس الشعري كان أصعب نوعاً ما من اللون السابق.

إنكم لا بد قد سمعتم بقصة طلب النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله من أصحابه أن يحفروا خندقاً حول المدينة للحؤول دون تسلل الأعداء إلى داخلها، وأنّه على الرّغم من ذلك، فقد تمكّن بعض أفراد العدو، من اختراق الخندق من ناحية بعض الثغرات، والعبور إلى الجهة الأخرى، حيث معسكر النبي صلّى الله عليه وآله ومن بين أولئك كان «عمرو بن ود العامري»، الفارس الذي كان مشهوراً بالشجاعة، وكان يضرب به المثل في الفروسية والبأس.

وكان هذا الفارس قد تقدم بالفعل نحو المسلمين، ودنا من معسكرهم وهو ينادي «ألا رجُل، ألا رجُل»؟ ولم يتجرأ أحد من جيش النبي صلّى الله عليه وآله أن يرد عليه [لأنهم كانوا يعرفون جميعاً أنّ تحدّي هذا الرجل، ومواجهته

كانت تعني الموت المحتّم]، ما عدا ذلك الفتى الذي كان قد بلغ العشرين لتوه، نهض من مكانه وقال: يا رسول الله! أتأذن لي أن أبارز هذا؟ لكن النبيﷺ طلب إليه الجلوس.

فكرّر الفارس نداءه: «ألا رجل، ألا رجُل!» مرتين، وثلاثة، ولم يبرز إليه أحد سوى علي بن أبي طالب، الأمر الذي وضع كرامة المسلمين في خطر.

فنهض عندها عمر بن الخطاب، يطلب العذر للمسلمين، ويقول:

يا رسول الله! إنّ أحداً لم ينهض لمبارزة هذا الرجل، لأنه فارس لا يهزم، وإنني شخصياً سبق لي أن شهدت له موقفاً عندما كنا ذات مرة في قافلة واحدة، وحصل أن واجهنا عصابة من قطّاع الطرق، فبرز إليهم وحده، وقاتلهم دون درع، بل اكتفى يومها باتخاذ مقعد الجمل درعاً له، وهزمهم، فكيف بنا الآن ونحن نبرز لمثل هذا الرجل؟!

في هذه الأثناء أراد «عمرو بن عبد ود» أن يحقّر المسلمين ويجرح مشاعرهم أكثر فأكثر فصار يردّد هذين البيتين من الشعر:

ولقد بححتُ من الندا ... ء بجمعكم هل من مبارز!

ووقفتُ إذ وقف المشجّعُ ... موقف القرن المناجز

هنا لم يعد يحتمل الموقف، فأجاز النبي لعلي، أن يبرز لهذا الرجل، فنهض علي على الفور، وردّ عليه بنفس الوزن قائلاً:

«**ولقد أتاك مجيبُ صوتك غيرُ عاجز...**»

وتعرفون بقية القصة، وكيف أنّ علياً قد هزم ذلك الفارس، شر هزيمة: الأمر الذي جعل رسول اللهﷺ يقول يومها كما روي:

«**لقد نهض الإسلام كلّه للكفر كلّه**» أي إنّ المبارزة تلك كانت مبارزة مصيرية!

على كل حال فإنّ من المسائل التي تتكرر كثيراً في يوم عاشوراء، هي مسألة الشعارات، شعارات أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وأهله وأصحابه، وتلك الشعارات لا سيما منها المتعلقة بأبي عبد الله نفسه كانت تتعدى التعريف بالشخص، من خلال رجز شعري معين، لتأخذ طابع التعريف بالنهضة الحسينية، وشرح أهدافها.

إنّ أبا عبدالله عليه السلام أطلق شعارات كثيرة في يوم عاشوراء بيّن من خلالها روح نهضته، وحدّد بالضبط الهدف الذي دفعه للمجيء إلى تلك الديار، والقبول بإراقة دمه حتى القطرة الأخيرة، وعدم التسليم، والمضي بالحرب حتى نهاياتها.

لكن تلك الشعارات، للأسف، قد نسيت من قبلنا نحن الشيعة، بل إننا استبدلناها بشعارات أخرى من عندياتنا ليس بإمكانها عكس روح نهضة الحسين عليه السلام، ولا تبيانها.

إنّ أئمتنا قد أكدوا الواحد بعد الآخر على ضرورة إحياء هذه المناسبة العظيمة ـ عاشوراء ـ وأنه لا يجوز نسيان هذه المصيبة، فهي مدرسة خالدة لا بد لنا من التمسك بها.

وإنّ على شيعتنا أن يحيوا هذه المناسبة العظيمة في كل عام يمر فيه علينا محرّم، وعاشوراء.

إن عنوان عاشوراء أصبح شعار الشيعة، وعلينا إذاً عندما نواجه أحداً من

أهل السنة، أو حتى ونحن نقف أمام أصحاب الأديان الأخرى كالمسيحية، أو اليهودية، أو أمام الملحدين الذين سيسألوننا جميعاً: ماذا تريدون أنتم الشيعة في تاسوعاء وعاشوراء، عندما تعطّلون كل أعمالكم، وتنظّمون المسيرات، وتلطمون على الصدور، وتقيمون المآتم البكائية؟

وماذا تريدون القول من خلال كل ذلك؟ ولا بد أن يكون لدينا ما نقوله أمام هذه التساؤلات.

إنّ أبا عبدالله لم يقم من أجل أن يقتل دون أن يقول ما يريد، وما يهدف، من وراء ذلك القيام، إنه قال ما يريد، وشرح أهداف نهضته، وحدد الغاية من وراء قيامه.

فلا بد لنا إذاً أن نرى ما هي شعارات الحسين بن علي عليه السلام في يوم عاشوراء.

إنها الشعارات التي أحيت الإسلام، وأحيت التشيع، وزلزلت أساس حكم الخلافة الأموية، تلك الخلافة التي لو لم تكن ثورة الحسين عليه السلام، لبقيت ربما لألف عام مهيمنه على مصير البلاد الإسلامية، ولم يكن باستطاعة بني العبّاس، أن يحكموا لمدة خمسمئة عام، بعد أن انتزعوا الحكم من بني أمية بفضل ذلك الاهتزاز الذي أوجدته الطف، في أركانها، كما يقول الكاتب (عبدالله العلايلي)، وغيره من أهل القلم.

نعم فأهداف الحكم الأموي كانت تتمثل في العودة إلى أوضاع ما قبل الإسلام، وإحياء الجاهلية تحت ستار الإسلام، وشعاراته الظاهرية، غير أنّ شعارات أبي عبدالله، مزّقت ذلك الستار الكاذب، وانتصرت عليه.

إننا نشهد بروز نوعين من الشعارات، في يوم عاشوراء، فهناك الشعارات التي كانت تعرّف عن شخصية المبارز، وتكتفي بذلك، ولكن إلى جانبها رفعت شعارات كانت بالإضافة إلى تعريفها للشخص، تتضمن تعريفاً للفكر، والإحساس، والشعور، والغاية التي كان يسعى إليها الشخص المبارز، من وراء ذلك القتال.

وكلا النوعين من الشعارات، برزا بكثرة في يوم عاشوراء.

وإذا أردنا الحديث عن الشعارات التي رفعها أبو عبدالله الحسين عليه السلام في ذلك اليوم فإنه لا يسعنا المجال هنا لتفصيلها، فهي قصة طويلة لا يمكن اختصارها في محاضرة واحدة.

إنّ أبا عبدالله الحسين عليه السلام، كان يفتخر في ذلك اليوم أن يعلن بوضوح أنه ينهج نهج أبيه علي المرتضى عليه السلام.

صحيح أنّه كان يفتخر بجده رسول الله صلى الله عليه وآله، لكنه كان يفتخر بأبيه علي المرتضى بشكل خاص، في الوقت الذي كان فيه الطرف المقابل يشهر عداءه لعلي، ويدّعي بأنه جزء من أمة النبي.

ولذلك فإنّ الإمام الحسين عليه السلام، تراه يسعى لإعلان انتمائه لعلي المرتضى عليه السلام، بشكل رسمي وواضح.

إنّ أبيات الشعر التي كان يرددها أبو عبدالله عليه السلام في يوم عاشوراء كثيرة ومختلفة، وقد نظِّمت بأوزان متعددة، ومنها ما كان من نظم الحسين عليه السلام نفسه، ومنها ما كان يستشهد بها عليه السلام وهي لشعراء آخرين، نظموها في مناسبات أخرى كاستشهاده بشعر «فروة بن مسيك» الحماسي المؤثر.

إنّ أحد الأبيات التي كان يرددها أبو عبدالله في يوم عاشوراء، والذي صار بمثابة الشعار العام له، هذا البيت:

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار[1]

هذا الشعار الحسيني ينبغي أن يطلق عليه شعار الحرية، والعزة، والشرف، أي إنّ المسلم الحقيقي يفضّل باستمرار أن يموت، على أن يخضع لحياة الذل.

يا جماهير العالم في كل مكان! أتعرفون لماذا قاتل الحسين حتى آخر قطرة من دمه، ودم أحبّائه وأصحابه؟

لأنّ الحسين قد تربى في حجر النبي وعلي، وشرب حليب الزهراء البتول [إنه تعبير الحسين نفسه].

في تلك اللحظات الحرجة، من يوم عاشوراء، حيث انعدم كل أمل في الظاهر، وكل من كان بوضع الحسين، لم يكن أمامه سوى الاستسلام.

نعم في تلك اللحظات بالذات،ترى الحسين يخطب خطبته النارية تلك، المليئة بالحماس والغيرة، وكأنّ اللهيب يخرج من فم الحسينعليه السلام، وهو يقول:

«ألا وإنّ الدّعي ابن الدعي، قد ركز بين اثنتين، بين السّلّة والذّلّة، وهيهات منّا الذلّة».

نعم فابن زياد ذلك السفاك الذي يقطر الدم من سيفه، والذي سبق لأبيه

(١) مقتل المقرم ص: ٣٤٥.

أن أرهب أهل الكوفة، وأرعبهم قبل نحو من عشرين عاماً؛ ما إنْ سمع أهلها بتولية يزيد أمارة الكوفة له، حتى فروا إلى داخل بيوتهم، وهم يرتجفون رُعباً، لما يعرفونه من دموية لدى الأمير الجديد وأبيه.

لقد تفرق الجمع من حول مسلم، بمجرد وصول ابن زياد إلى الكوفة، بسبب شدة الرعب الذي كان قد أوجده أبوه في قلوب أهل الكوفة، في مثل تلك الظروف المليئة بالرعب،ترى الحسين بن علي عليه السلام يخاطب أهل الكوفة، واصفا الأمير الجديد:

«**ألا وإنّ الدعي ابن الدعي**»، أي إنّ ابن الزانية، هذا الذي هو أميركم، وقائدكم «**قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة**»، أتدرون ما الذي يقترحه عليّ؟ إنه يقول إنّ على الحسين أن يستسلم ذليلاً، خانعاً لإرادتي، أو فلينتظر السيف.

ولذلك قولوا لأميركم إنّ الحسين يقول له: «**هيهات منّا الذلّة**» فالحسين لن يذّل ولن يركع؟! فهل تصور أنني مثله؟ كلا، «**يأبى الله ذلك لنا، ورسوله، والمؤمنون وحجور طابت وطهرت**».

إنّ الله لن يقبل هكذا ذلّة للحسين! ألا تعرفون من أنا؟ وهذا الدعي ابن الدعي ألا يعرف بأي حضن كبر الحسين وترعرع؟!

إنني ترعرعت في حضن النبي، وفي حضن علي المرتضى، وشربت الحليب من ثدي فاطمة الزهراء، فهل من رضع من ثدي فاطمة، يقبل بالذل والأسر، بين يدي ابن زياد؟! هيهات منّا الذلة؟!

كانت هذه هي طبيعة الشعارات الحسينية في يوم عاشوراء، أيها الأخوة،

أصحاب المآتم الحسينية اليوم، يا من يبحثون عن شعار لمسيراتكم.

ومن هنا ينبغي علينا أن نطابق شعاراتنا الراهنة مع شعارات الحسين عليه السلام.

إنّ عطش الحسين، وعطش أهله، وأصحابه، ليست مسألة بسيطة عابرة في قصة النهضة، فالجو حارّ للغاية (كانت وقائع المعركة في فصل الصيف، ومن المعروف أن صيف العراق شديد الحرارة)، وقد تمكّن العدو من قطع المياه عن آل بيت النبي لمدة ثلاثة أيام، ويبدو أنهم قد شربوا قليلاً من الماء فقط في ليلة العاشر من محرم، وذلك من الكمية المخزّنة في الخيام، حيث قال لهم أبو عبدالله: إنها آخر ما تبقى من قرب الماء.

أضف إلى ذلك أنّ الجسم عندما ينزف، فإنه يصبح بحاجة ماسة إلى الماء، وبشكل ملحوظ، فالله سبحانه وتعالى خل الأبدان بصورة، سرعان ما تبرز إلى الوجود حاجاتها، ونواقصها، فالجرحى الذين تنزف أبدانهم، تراهم سرعان ما يصابون بعطش شديد، يظهر جلياً عليهم، فيطلبون الماء الذي تحتاجه أبدانهم، ليمكنهم من إعادة صنع الدم من جديد، والتعويض عمّا فقد في النزيف.

وعلى هذا يمكننا تصور الموقف في ذلك اليوم المشهود، يقول الراوي: «يحول بينه وبين السماء العطش». أي إنّ شدة عطش أبي عبدالله كانت بالدرجة التي لم يكن يستطيع معها النظر إلى السماء، وهذا أمر ليس بالبسيط على الإنسان!!

لكنني ومع ذلك، ورغم البحث الكثير في المقاتل الحسينية، (بقدر استطاعتي) لم أجد فيها تلك الجملة المعروفة التي تنقل عن لسان

الحسين عليه السلام على أنه صار يطلب من الناس قائلا: **«اسقوني شربة من الماء!»**.

فالحسين ليس بالإنسان الذي يطلب من أولئك الناس شربة من الماء، مهما كانت الظروف التي كان يمرّ بها، نعم وجدت ما يشير إلى أنه عليه السلام وهو يحارب ويبارز الأعداء... «وهو يطلب الماء»، والقرائن هنا كلها تدل على أنّ المقصود بهذه الجملة أنّه كان يبغي شق الطريق إلى الشريعة، والوصول إلى الماء، في النتيجة، وهذا يختلف عن طلب الماء من العدو.

إنّ عظمة أبي عبدالله شيء، ونحن شيء آخر، دعونا نجعل شعاراتنا التي نرفعها في المسيرات و ـ اللطميات ـ الحسينية، فعلا، شعارات حسينية.

إنّ البكاء، والحزن، والنواح على الحسين أمر جيد للغاية، فالائمة الأطهار كانوا يطلبون على الدوام، من الشعراء، وأصحاب المقامات، ومدّاحي أهل البيت، أن يقرأوا الشعر، ويذكّروا العام بمصائب أهل البيت، وكان الأئمة بالمقابل يبكون، ويذرفون الدموع الغزيرة.

إنّ النواح، واللطم، والضرب بالسلاسل، كل هذه الأعمال، أوافق عليها شخصياً، لكنني أقول شرط أن تكون شعاراتنا في هذا المجال، شعارات حسينية، وليس شعارات نابعة من عندياتنا، كأن نرفع شعار: **«يا علي الأكبر** يا بني أين شبابك...»، إذ إنّ هذه الشعارات ليست من الحسين عليه السلام في شيء.

فشعارات الحسين من نوع آخر متميز، فأنت تراه ينادي مرة: **«ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه. ليرغب المؤمن في**

لقاء الله محقّاً».

ولم يقل هنا: الحسين أو الإمام، بل ليرغب المؤمن بالمطلق، أو يقول في أخرى: «**لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً**». إنّ كل جملة أو عبارة من عباراته ينبغي لنا أن نخطها بالذهب ونوزّعها في كل أنحاء العالم، ورغم ذلك فمثل هذا قليل أيضاً.

إنّ شعارات الحسين عليه السلام، كانت شعارات إحيائية، أي شعارات تنبع منها الحياة. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾.

إنّ أبا عبدالله رجل مصلح، وهذا التعبير تعبير الحسين عليه السلام نفسه، إذ كان يقول: «**إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسيرُ بسيرة جدي وأبي**».

هذا ما ورد في رسالة الحسين عليه السلام التي اعتبرت بمثابة «الوصية» إلى أخيه محمد بن الحنفية، الذي لم يكن باستطاعته مرافقة أخيه الحسين في القافلة، بسبب الشلل الذي كان قد أصاب أطرافه العليا آنذاك.

نعم لقد جاءت وصيته عليه السلام لتعطي الجواب الواضح، والقاطع، حول أهداف ثورته المباركة.

لقد كتبت الوصية في المدينة المنورة، أي منذ الانطلاقة الأولى حتى يعرف العالم أجمع أهداف التحرك الحسيني الذي لخّصه عليه السلام، في ضرورة

الإصلاح في أمة جده، وإحياء سيرته ﷺ، تلك السيرة التي كادت أن تموت لولا قيامه عليه السلام.

ومن هنا نستطيع إدراك معنى إصرار الأئمة عليهم السلام، وتأكيدهم علينا، لضرورة إحياء عاشوراء وتخليدها، ومعنى الثواب والأجر العظيم الذي ينتظر كل من يساهم في عزاء أبي عبدالله.

فهل يعقل إذاً، بأنهم قد أرادوا منّا إقامة عزاء يشبه العزاء الذي نقيمه بمناسبة موت فرد من أفراد عائلتنا، بالطبع لا، فموتنا لا يرافقه أهداف وقيم عليا، بينما المراد من قول الأئمة، بضرورة إحياء عاشوراء، وتخليدها، هو تخليد تلك المدرسة، التي كان يمثلها الحسين بن علي، ذلك الرمز والقوة الخالدة.

وإذا كان الحسين بن علي بشخصه، لم يعد موجوداً بيننا، فإنّ المطلوب أن يفتح الناس أعينهم، وينهضوا في كل عام، ومع طلوع كل محرم، ليسمعوا نداء الحسين يرن في آذانهم: «**ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأنّ الباطل لا يتناهى عنه؟**

«**ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً**»، وذلك من أجل أن نحيي ونحرّك بصدق في أوساط شيعتنا إرادة الحياة، والرغبة الجامحة لجهة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإصلاح مفاسد أمور المسلمين.

وعليه إذا ما سئلنا عمّا نريد قوله من خلال النداءات التي نطلقها باسم الحسين، في يوم عاشوراء، وضربنا على الرؤوس، ولطمنا على الصدور، فإننا نستطيع القول بأننا نريد تكرار حديث سادتنا وأئمتنا.

نريد أن نجدّد الحياة في المحيط الذي حولنا، ونعلن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

نعم فعاشوراء بالنسبة لنا ينبغي أن تكون يوم الإحياء، وتطهير الأنفس في الكوثر الحسيني ويجب أن تكون عاشوراء لنا مناسبة، لنتعلم منها مبادىء الإسلام، وأسس الدين وبعث روح الحياة فينا.

فنحن نرفض أن ننسى واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما لا نريد لحسّ الشهادة، والجهاد، والتضحية في سبيل الحق، أن يبتعد عنا، ولا لروح الفداء في سبيل الحق، أن تموت فينا.

هذه هي فسلفة عاشوراء الحقيقية، لا كما يريدها البعض أن تكون بأن نرتكب الذنوب، ثم تأتي المناسبة، فنشترك فيها، حتى تغفر لنا ذنوبنا!

إن الذنوب لتغفر في الواقع، عندنا تجبل أرواحنا مع روح الحسين بن علي.

إن ذنوبنا تغفر لنا قطعاً إذا ما جبلت روحنا وتوحدت مع روح الحسين. ولكن علامة الغفران لا تتأكد إلاّ بعدم العودة إليها مجدداً.

أمّا أن نرتكب الذنوب، ثم نحضر مجلس الحسين، ونخرج منه، فنرتكب، الذنوب مرة أخرى، فمعنى ذلك، أنّ روحنا، لم تتحد حقاً مع روح الحسين بن علي.

إنّ شعارات أبي عبدالله هي شعارات إحياء الإسلام. ولذلك تراه عليه السلام يتساءل عن سبب احتكار البعض لبيت مال المسلمين؟ وعن سبب تحليلهم لحرام الله، وتحريمهم لحلاله، وتقسيمهم للناس إلى فقير لا يجد قوته، وغني متخم مصاب ببطنة تمنعه من الحركة؟

وفي الطريق إلى العراق، وبحضور جيش الحر، يخطب بالمعسكرين، ويذكّرهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول فيه إنه «**من رأى سلطاناً جائراً....**» ولم يغيّر فيه من شيء، ويسكت على ذلك الظلم فإنه «**كان حقاً على الله أن يدخله مدخله**» إلى أن يقول عليه السلام: «**ألا وإني أحق من غيري....**».

فهذه هي إذاً، مدرسية عاشوراء، ومضمون شعارات عاشوراء، وهكذا يجب أن تكون شعاراتنا في المجالس، والمسيرات، والمآتم الحسينية، شعارات إحيائية، وحماسية، وليست شعارات مخدّرة، ومميتة للشعور.

لأنها إن كانت كذلك، لن تصبح دون أجر أو ثواب فحسب، بل إنها تبعدنا عن الحسين عليه السلام.

إنّ سكب الدمع على الحسين عليه السلام فيه أجر وثواب كثير، ولكن شرط أن نفهم الحسين كما هو، وأن يدخل قلوبنا على حقيقته. «**إنّ للحسين محبة مكنونة في قلوب المؤمنين**» ذلك أنّ الحسين تجسيد حي للإيمان.

إنّ الشعارات التي كان يرفعها أصحاب أبي عبدالله في يوم عاشوراء كانت بالفعل شعارات عجيبة! وواقعة كربلاء، إنما توالت وقائعها بشكل تجعل الإنسان يتصور أنها إنها أعدّت، وأخرجت إخراجاً، لتبقى خالدة أبد الدهر، هو أمر عجيب وملفت للنظر! فأحياناً كان أبو عبدالله الحسين عليه السلام يرفع شعاراً يعرّف فيه عن نفسه بقوله:

أنا الحسين بن علي ‏ ‏ ‏ آليت أن لا أنثني

أحمــــي عيــــالات أبـــي　　أمضي على دين النبي[(١)]

وكانت شعاراته مختلفة ألحانها فهو عندما كان مثلا يتوسط ميدان الحرب وحده، كان يرفع شعاراً طويلاً يقول فيه:

أنا ابن علي الطهر، من آل هاشم　　كفاني بهذا مفخراً حين أفخر[(٢)]

في حين إنّه عندما كان يحمل على العدو مهاجماً تراه ينشد:

الموت أولى من ركوب العار ....

أو:

أنا الحسين بن علي ....

إنّ الشجاعة، وقوة القلب اللتان أبداهما الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، أنست العالم كل الشجعان، وهذا الكلام هو باعتراف العدو نفسه. يقول الراوي: «والله ما رأيت مكسوراً قط، قد قتل أهل بيته، وولده، وأصحابه، أربط جأشاً منه».

كان أبو عبدالله، قد اختار نقطة وسطية قرب خيام آل البيت، وجعلها قيادة أركان عملياته، منها كانت انطلاقته، وإليها عودته. لكن التواريخ كافة تقطع، وتؤكّد أنّ ما من أحد يتجرأ أن يدخل معركة مواجهة مباشرة مع الحسين عليه السلام.

صحيح أنّ بعض الأنفار قد توجهوا لمبارزته عليه السلام، في بداية المعركة، إلاّ

(١) مقتل المقرم ص: ٣٤٥.

(٢) منتهى الآمال ج: ١ ص: ٢٨٢.

أنهم وقبل أن يصلوا إلى تلك النقطة، كانت نهايتهم المحتومة هي الموت المؤكد، ولذلك نرى عمر بن سعد ينتفض ويصيح قائلاً: لقتال من تخرجون؟! «إنّ نفس أبيه بين جنبيه»!!

نعم فهذا هو ابن علي بن أبي طالب، وروح أبيه بين جنبيه.

وبسرعة أسدل الستار على معركة المواجهة، لتبدأ معركة الجبناء، والأنذال!

ثلاثون ألف نفر يريدون الإجهاز على نفر واحد، وذلك من بعيد، وبواسطة النبال، والسهام، والحجارة!

لكنهم على الرغم من ذلك، كانوا يفرون منه كما تفر الأغنام من الأسد، عندما ينطلق نحوهم مؤثراً المواجهة المباشرة معهم، غير أنه عليه السلام، لم يكن يواصل الحملة ضدهم، ويلاحقهم في العمق، حتى لا يبتعد عن خيام آل البيت، فغيرة الحسين عليه السلام لم تكن تسمح له أن يتعرّض حرمه للإهانة، وهو على قيد الحياة.

فكلما كانوا يبتعدون، ويفرون بعيداً، كان يعود عليه السلام مجدداً إلى تلك النقطة الوسطية، التي جعلها مركز قيادة العمليات، إنها النقطة التي كان يسمعه منها حرمه، وإن كانوا لا يرونه، حتى تطمئن زينب عليها السلام، ومعها سكينة، والأطفال من آل البيت.

فحيث كان يقف كان ينادي، وهو في تلك الحالة، من جفاف الفم واللسان: «**لا حول، ولا قوة، إلا بالله العلي العظيم**». أي إنّ هذه القوة التي ترونها في الحسين ليست من الحسين، وما هي في الواقع إلاّ القوة

الإلهية، التي تنفخ في الحسين.

إنه كان يرفع شعار التوحيد، في نفس اللحظة التي كان يمنح فيها الطمأنينة، لزينب، وآل البيت، بأنه لا زال على قيد الحياة، لاسيما وأنّه كان قد أمرهم بعدم الخروج من الخيام، ما دام هو على قيد الحياة.

يقول الراوي: إنّ الإمام ودّع أهله، وعياله مرتين. في المرة الأولى ودّعهم، وانطلق نحو ساحة المواجهة، وبينما هو قد أدرك شريعة الفرات، وإذا بصوت يناديه قائلاً: «يا حسين أتشرب الماء؟ والعدو قد حمل على حرمك في الخيام»! فما كان منه عليه السلام، إلا أن ترك الشريعة مسرعاً نحو الخيام، فاطمأنّ عليهم، وكما يقول الراوي: «ثم ودّع أهل بيته ثانياً». وهو يردد تلك العبارات النورانية قائلاً: «**أهل بيتي.... استعدوا للبلاء... واعلموا أنّ الله حافظكم، ومنجيكم من شر الأعداء، ومعذّب أعاديكم بأنوع البلاء**».

نعم فهو يريد القول لأهل بيته بأنكم ستأسرون، ولكنكم لن تذلوا أبداً، فأسركم سيكون مظهراً من مظاهر العزة، كذلك.

ولذا نرى زينب ترفض أخذ الصدقات ممن كانوا يريدون توزيع الخبز، والطعام على الأطفال الأسرى، فصحيح أنّهم دخلوا الكوفة في قافلة الأسرى، إلاّ أنّهم حافظوا على العزة، والكرامة، التي بشرّهم بها سيدهم، وقائدهم، أبو عبدالله الحسين عليه السلام.

فالأسد قد يوضع في الأسر يوماً، لكنه يبقى أسداً، والثّعلب وإن كان حراً طليقاً لكنه يظل ثعلباً.

نعم فقد ودّع الإمام أهل بيته للمرة الثانية بتلك الخطبة، انطلق نحو ميدان الوغى، ولكن سرعان ما سمع أهل البيت صهيل الفرس، يقترب من الخيام، إنّه صهيل جواد الحسين، فظنّ أهل البيت أنّ الحسين عليه السلام قد عاد إليهم ليودعهم ثالثاً.

لكنهم عندما خرجوا لاستقباله، لم يروا سوى فرس أبي عبدالله دون صاحبه، فتجمع الأهل، وأحاطوا بالجواد من كل جانب، وصار كل واحد منهم يحدّث الجواد بكلمات معينة.

وأمّا بنت الحسين الصغيرة فقد قالت للجواد: يا جواد أبي! «هل سُقِيَ أبي أم قُتل عطشاناً».

وفي هذه اللحظة، يقع مشهد يحرق القلب المقدس، للإمام صاحب الزمان، يقول الراوي:

«وأسرع فرسك شارداً، محمحماً، باكياً، فلما رأت النساء جوادك مخزيّاً، وأبصرن سرجك ملويّاً، خرجن من الخدور، ناشرات الشعور، على الخدود لاطمات» إنّها كلمات من مأتم صاحب الزمان عجل الله فرجه بشأن أبي عبد الله عليه السلام.

سيّدي أبا عبد الله فأهل بيتك لم يخرجن من الخيام عملاً بتعليماتك، إلاّ بعد أن رأين جوادك من دون صاحب.

ولا حول، ولا قوة، إلاّ بالله العلي العظيم، وصلّى الله على محمد، وآله الطاهرين.

تأملات في الخطاب الحسيني

يوم عاشوراء*

الشيخ محمد مهدي الآصفي

* بحث مستلّ من كتاب " في رحاب الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء" للشيخ محمد مهدي الآصفي ـ ط ١ ـ ١٤٢٧ـ قم.

بسم الله الرحمن الرحيم

السيف الذي غمده الناس في صفين
وسلّوه في عاشوراء بوجه الحسين عليه السلام

خطب الحسين عليه السلام الناس في يوم عاشوراء فقال:ـ

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم. فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل افشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيها»[1].

هذا خطاب الحسين عليه السلام للناس يوم عاشوراء. وهو خطاب عجيب، خطب به الناس في تلك الساعة الحرجة قبل أن يسلوا عليه السيوف، يحمل هذا الخطاب ما لا حد له من الأسى والحسرة على أولئك الناس الذين سلّوا سيوفهم بوجه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. وسوف أتحدث عن جملة من النقاط في هذا الخطاب:

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف، السيد ابن طاووس الحسيني: ٥٨.

١. سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم

الناس على خارطة الصراع ثلاث طوائف:

الأولى والثانية طرفا الصراع **والثالثة** الفئة المتفرجة على ساحة الصراع، المتخلفة عن الحق، وهي شريحة واسعة من المجتمع.

أما الأولى والثانية فهما يدفعان ضريبة الصراع، وضريبة الصراع أن تتساقط الأيدي والرؤوس، وهي تعّم طرفي الصراع على نحو سواء، ولا يختص بجانب (الحق) أو (الباطل)، وهذه سنة الله تعالى في كل صراع، يقول تعالى: **﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾**(١).

ويقول تعالى: **﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾**(٢).

ويتميز جانب الحق في هذا الصراع، بتأييد الله وإسناده تعالى ونصره لهم في الصراع، وقد وعد الله تعالى المؤمنين بذلك، يقول تعالى: **﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**(٣)، **﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾**(٤).

وهو ما يرجوه المؤمنون من الله في ساحة الصراع **﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾**.

---

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

(٣) محمد: ٧.

(٤) المجادلة: ٢١.

ولهذا الرجاء أثر في تطمين نفوس المؤمنين في ساحة المعركة بالنصر الإلهي الذي يقرر نتيجة الصراع لصالح المؤمنين.

هذا عن الفئتين المقاتلتين.

وأما الفئة الثالثة فهي فئة معقدة، شديدة التعقيد، سهلة الانزلاق إلى جانب الباطل مكشوفة للعدو.

وهذه الخصائص تجعل هذه الفئة معرضة للانزلاق إلى جانب الباطل في كل حال.

وهؤلاء هم الذين يخاطبهم الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، فقد غمد هؤلاء سيوفهم في أيام علي عليه السلام والحسن عليه السلام، وتخاذلوا عن نصرة علي عليه السلام في صفين، وعن نصرة الحسن بعد ذلك، حتى التجأ الإمام الحسن عليه السلام، لأن يهادن معاوية للإبقاء على من تبقى من شيعة أبيه عليه السلام.

فلما غمدوا سيوفهم عن نصرة علي عليه السلام والحسن عليه السلام سلّها معاوية، وبعده يزيد في وجه الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

ولم يطل الغمد بهذه السيوف، فإن ساحة الصراع ترفض المتفرجين والمتخلفين، ومن لم يقف مع الحق في ساحة الصراع، وآثر العافية على ضراء القتال لابد أن يقف إلى جانب الباطل في وقت قريب، فإن مواقف أنصار الحق ثابتة وحصينة لا ينال منها العدو، ومواقف المتخلّفين سهلة الانزلاق إلى جانب العدو، ومكشوفة لهم، يسهل لهم الوصول إليها، وإغرائهم واستمالتهم أليهم، أو إرهابهم وإرعابهم لإجبارهم على الانقلاب إلى جهة الباطل.

ومن هنا نقول: إن مواقع الناس في ساحة الصراع تؤول إلى موقعين في النتيجة النهائية: إما الوقوف إلى جانب الحق، ولاءً، وبراءةً، وإما الوقوف إلى جانب الباطل في الولاء والبراءة، كذلك.

هؤلاء هم الذين يخاطبهم الحسين عليه السلام في كربلاء:

غمدوا سيوفهم عن نصرة أبيه وأخيه الحسن عليه السلام من قبل، وهاهم يسلّون سيوفهم عليه اليوم في كربلاء.

فيقول لهم: **سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم..**

والسيف: القوة، وقد كان العرب قبل الإسلام أمة معزولة في الصحراء عن العالم، ضعيفة، لا قوة لها ولا سلطان ولا مال، فمكنهم الإسلام من القوة والمال، وحمّلهم رسالة التوحيد، وفتح لهم مشارق الأرض ومغاربها، وجعلهم سادة وأئمة وحكاماً على وجه الأرض.

والشام كانت يومئذ مركزاً لهذا السلطان الذي جاء به الإسلام إلى العرب، وكانت الشام تبسط نفوذها السياسي والعسكري على أجزاء واسعة من آسيا وأفريقيا.

فيقول لهم الحسين عليه السلام في كربلاء، يوم عاشوراء: إن الله هداكم بجدي رسول الله ورزقكم به صلى الله عليه وآله هذا السلطان الواسع على وجه الأرض. وجعلكم به أئمة وسادة في الأرض... فهذا السلطان و(السيف) لنا في أيمانكم، ولكنكم تخاذلتم من نصرة أبي وأخي من قبل، وغمدتم سيوفكم عن نصرتهم، وها أنتم اليوم تسلون السيف الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وآله في أيمانكم، بوجه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وتقاتلونه به.

وكان أحرى بكم أن تقاتلوا بهذا السيف معاوية بن أبي سفيان من قبل الى جانب أبي وأخي، ويزيد بن معاوية اليوم إلى جانبي... وقد عدلا عن سنّة رسول الله، وقاتلناهما ليعتدلا في الصراط المستقيم فلم يعتدلا.

٢.وحششتم علينا ناراً أقتدحناها على عدونا وعدوكم

ما هي هذه النار التي يتحدث الحسينعليه السلام عنها يوم عاشوراء؟

ومن اقتدحها؟

وأين اقتدحها؟

هذه النار هي انفجار النور الهائل في جزيرة العرب، وكانت تحمل إلى البشرية وهجاً ساطعاً، أنار قلوب الناس وعقولهم في الشرق والغرب، ودخل كل بيت، وبهذا النور أذهب الله عن الناس ظلمات الجاهلية؛ فتحوّل هذا النور إلى إيمان وإخلاص وعطاء ويقين، وقيم، وتضحية وصلاة، ودعاء، والى مدارس للعلم ومساجد للعبادة، انتشرت على وجه الأرض، والى ثورات وحركات للمظلومين على الظالمين، كما أحرقت هذه النار عروش الطغاة والجبابرة في فارس والروم ومصر، وكسرت الأغلال والقيود من معاصم الناس وأقدامهم، وأطلقتهم من أسر الظالمين.

واقتدح رسول اللهصلى الله عليه وآله هذه النار في جزيرة العرب، ثم عمت الدنيا كلّها، فلم يمض على هذه القدحة خمسون سنة؛ حتى كانت هذه النار تنير مشارق الأرض ومغاربها.

اقتحدها رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الوسط الجاهلي من جزيرة العرب، ولم ينتق لهذه الدعوة طبقة معينة، وإنما فجر كوامن الفطرة والعقل في نفوس من استجاب منهم لهذه الدعوة، وجعل منهم قوة هائلة هزمت جيوش الفرس والروم، وأطاحت بعروش كسرى وقيصر.

تماماً، كما يستخرج المهندس من صخرة معتمة باردة النور والحرارة، وكما تعطينا الخشبة المعتمة الباردة النور والحرارة، إذا مسّتها النار.

كذلك فجر رسول الله صلى الله عليه وآله كوامن الفطرة والعقل والضمير في نفوس هؤلاء الناس الخاملين في الجزيرة فجعل منهم قمماً في الصلاح والتقوى والقوة والصمود والإيمان والخشوع، استطاعوا فيما بعد أن ينشروا هذه الدعوة على وجه الأرض، ويكونوا سادة وأئمة وقادة للبشرية، بعد أن كانوا منزوين عن الحضارات في رقعة صحراوية غير ذات زرع.

أجل، ثم لم يمض خمسون سنة على وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله الذي اقتدح هذه النار فيهم، ليحرق بها عروش الظالمين، حتى حرق الناس بهذه النار أبيات آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وحرقوا بها باب علي وفاطمة، وحرقوا بها خيام أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله في كربلاء.

فأي حق أضاعه هؤلاء الناس؟

وكيف ردّوا لرسول الله صلى الله عليه وآله الجميل؟

يا حسرة على العباد!!

وقد قال الله تعالى لهم: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1].

٣. فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم

وهذه هي الردة الثانية، وهي أعظم من الأولى. وتحدّث الإمام عليه السلام عن الردة الأولى في قوله عليه السلام: «سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم...» في الردة الأولى تحوّلت السيوف من جانب أهل بيت رسول الله إلى جانب أعداء أهل البيت وخصومهم، وقد حددها الفرزدق عندما إلتقى بالحسين عليه السلام في الطريق إلى العراق بشكل دقيق حيث قال للإمام عليه السلام: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[2]. وهو تشخيص دقيق للحالة النفسية والسياسية للناس يومئذ؛ فقد كانت قلوبهم مع الحسين عليه السلام حتى ذلك الوقت، ولكن مواقفهم السياسية كانت لبني أمية... وهذه هي البداية، وهي الردّة الأولى.

والحالة السوية أن تتوافق القلوب والسيوف في جانب الحق فإذا تخالفت السيوف والقلوب فتلك هي المحطة الأولى للردّة.

والمحطة الثانية للردّة، هي أن تتوافق القلوب والسيوف على عداء وقتال أهل البيت عليهم السلام.

وهذا هو الذي يحدثنا عنه الإمام عليه السلام في هذه الفقرة:

«فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم».

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) كلمات الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ الشريفي: ٣٧٠.

والإلب: القوم يجمعهم عداء واحد.ومنه تألبوا عليه، أي اجتمعوا على عدائه.

ولابد من توضيح وشرح لهذه الكلمة:

إن (الأُمة) مجموعة من الناس، يجمعهم ولاء واحد وبراءة واحدة، وهذا هو أسلم وأدق تعبير للأمة.

وهذه الأمة يجمعها الولاء لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(١) فمن يقبل بهذا الولاء، فهو من هذه الأمة، ومن يرفض هذا الولاء أو بعضه فليس من هذه الأمة.

وتجمع هذه الأمة براءة من الطاغوت الذي أمرنا الله تعالى أن نكفر به، وبراءة من المشركين؛ فمن تبرأ منهما دخل في هذه الأمة، ومن لم يتبرأ منهما لم يدخل في هذه الأمة: ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾(٢).

فيقول لهم الإمام عليه السلام يوم عاشوراء: لقد كانت تجمعنا بكم براءة واحدة من أعداء الله، وعداء واحد لهم، وولاء واحد لأولياء الله وقد أصبحتم اليوم: **«إلباً لأعدائكم على أوليائكم»**.

يجمعكم بأعدائكم العداء لأوليائكم، بعكس ما يجب أن يكون تماماً. والحالة السوية أن يجمعكم بأوليائكم العداء لأعدائكم، وهذه ردة كاملة

---

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) النحل: ٣٦.

بعد الردة الأولى، وهي المحطة الثانية من الردة، وهو تعبير دقيق جداً لحال الناس الذين خاطبهم الحسين عليه السلام في عاشوراء.

وهذا هو الانقلاب في بؤرتي (الحب والبغض) أو (الولاء والبراءة). وهو أقصى درجات الردة في شخصية الإنسان.

٤. بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم

يقول لهم الإمام عليه السلام إن الذي تغير هو القلوب، تحولت من الهدى إلى الضلال، ومن أولياء الله إلى أعداء الله، وانقلبت من الولاء إلى البراءة، ومن البراءة إلى الولاء دون أن يتغير بنو أمية عما كانوا عليه. **«بغير عدل أفشوه فيكم»**:

هاهم بنو أمية يمارسون الظلم، كما كانوا يمارسونه من قبل، وقد أمعنوا في الظلم والضلال، وأسرفوا على أنفسهم في ذلك أيما إسراف.

فلم يحدث انقلاب في واقع بني أمية، إنما الذي حدث ردة في القلوب، من محور الولاء إلى البراءة، ومن محور البراءة إلى الولاء. فإن هؤلاء الناس انقلبوا من ولاء أهل البيت إلى ولاء بني أمية، دون أن يتغير أهل البيت الرسالة عليهم السلام عما كانوا عليه من الهدى والصلاح، أو يتغير بنو أمية عما كانوا عليه من الضلال والظلم.

ولكن الناس انقلبوا من البراءة من بني أمية إلى البراءة من أهل البيت عليهم السلام، ومن الولاء لأهل البيت عليهم السلام إلى الولاء لبني أمية.

«ولا أمل أصبح لكم فيهم».

وكما لم يكن هذا الانقلاب بسبب حصول انقلاب في بني أمية من الظلم إلى العدل، كذلك لم يكن لأن الناس أصبح لهم أمل في عدل بني أمية بعد ذلك.

إذن لم ينخدع الناس ببني أمية حينما والوهم، وقاتلوا أعداءهم وخصومهم.

فماذا جرى في نفوس الناس حتى انقلبوا من آل رسول الله إلى آل أمية؟ إن الذي حدث هو إن بني أمية أذلوهم بالإرهاب والطمع.

وفرق بين الخداع والإذلال؛ فإن الذي ينخدع بعدوه: يُحِبُ عدوه ويواليه ويحارب أعداءه خطأً، وهذا عجز في الوعي والمعرفة، وليس ذُلاً وعجزاً في الكرامة. وأما الذي يوالي عدوه ويعطيه سيفه وماله ثم يعطيه قلبه وحبه وهو يعلم أنه له عدو فهذا هو الذل بعينه وإنعدام الكرامة.

وهذا لن يكون في أمة إلاّ بالإذلال وهو قد يكون بالإرهاب والقوة، وقد يكون بالمال والذهب.

وقد استعمل بنو أمية كلا الأمرين: الإذلال وهو بالقوة والإرهاب، والإذلال بالمال والسلطان، فأذلوا الناس، نعم استعملوا التغرير والإعلام والخداع، إلاّ أن إسرافهم في الظلم والترف والمعصية كان أظهر من أن يخفى على أحد.

٥ـ ويحكم، أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون؟:

وهذه أعجب ردة في حياة الإنسان؛ ينقلب فيها الإنسان على نفسه،

فيحب عدوه ويعادي وليه، وهو بمعنى أن ينسى الإنسان نفسه.

لأنّ الإنسان حب وبغض، يحب أولياءه يبغض أعداءه، فإذا نسى الإنسان نفسه، نسى من يجب أن يحب ومن يجب أن يبغض، وأعظم من ذلك أن ينقلب عنده الحب والبغض، فيحب عدوه ويبغض وليه.

وهذه الحالة هي التي يعاقب الله بها الذين ينسونه؛ فينسيهم أنفسهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[(١)].

والذين خاطبهم الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، كانوا من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ونسوا حبهم وبغضهم، فأحبوا بني أمية، وكان عليهم أن يعادوهم، لما جنت أيديهم من الظلم والعصيان وقاتلوا أولياءهم الذين أمر الله تعالى المسلمين بمودتهم وأتباعهم في آيات محكمات من كتابه[(٢)].

ولست أدري ماذا في هذا الخطاب من ألم يعتصر قلب الإمام عليه السلام؟ ألم نابع من الإشفاق عليهم لهذه الحالة التي وصلوا إليها من البؤس، وليس لأن الإمام فقد نصرتهم له في محنته.

٦. ياعبيد الأمة وشذاذ الآفاق (الأحزاب)

هذه أخلاقية العبيد، إن العبيد ولاؤهم لمن يشتريهم، ليس لولائهم أصل ثابت، فمن يشتريهم من سوق النخاسة يستحق ولاءهم، كانوا يحبونه أم

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. الشورى: ٢٣.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الأنعام: ٥٥.

يحقدون عليه، فيتحول ولاؤهم من مولى إلى مولى في سوق النخاسة في لحظة واحدة، عندما يدفع المولى الجديد الثمن إلى المولى القديم، وعندما يدفع المولى القديم السوط إلى المولى الجديد.

إنهم في ساعة واحدة ينسون ولاءهم وحبهم القديم، ليقدموا إلى المولى الجديد ولاءهم الجديد.

(وشذاذ الأحزاب) إن الناس ولاؤهم لأحزابهم، في السراء والضراء، وفي الهزيمة والانتصار، ولكن شذاذ الأحزاب، ولاؤهم للمنتصر دائماً، حقاً كان أم باطلاً.

وهذه حالة ولاء سياسية عائمة، لها مدلولات نفسية خطيرة، تكشف عن فقدان الأصالة والقيم في النفس، والتبعية المطلقة للمنتصر والقاهر، والانسلاخ الكامل من الذات والقيم.

٧. فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب

وهنا يدعوا عليهم الإمام عليه السلام بالبعد من رحمة الله، والسحق هو البعد، والإمام هنا ينطق في هذا الدعاء عن سنن الله؛ ذلك إن لرحمة الله تعالى منازل في حياة الإنسان، تنزل عليه منها الرحمة، فإذا ابتعد الإنسان عن هذه المنازل ابتعد عن رحمة الله، وهذه سنة الله في عباده ولنتأمل في هذه السنّة:

إن بين رحمة الله الهابطة على الناس ومنازل هذه الرحمة علاقة متبادلة.

فالرحمة النازلة تُفَعّلُ مواضع نزولها، فإذا نزل المطر على أرض أخضرت وأثمرت وأينعت وازدهرت وآتت أكلها. وهذا هو فعل (الرحمة النازلة) بـ(مواضع نزولها).

ومواضع الرحمة تستنزل الرحمة، ولا تنزل الرحمة على مواضعها إلاّ إذا كانت مؤهلة لنزول الرحمة، وهذا التأهيل هو (الطلب التكويني) لرحمة الله بلسان الاستعداد، ولابد من هذا التأهيل والاستعداد لقبول الرحمة حتى تنزل الرحمة، وبعكسه الإعراض عن رحمة الله، فإنه يدفع الرحمة ويبعدها. والرحمة الإلهية هابطة لا تنقطع، ولكن هناك عوامل لاستقبال رحمة الله، تستنزل الرحمة، وعوامل لرفض رحمة الله.

تأملوا في دعاء العبد الصالح نوح عليه السلام على قومه: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً**﴾[1].

وهو دعاء عجيب، ينطق فيه نوح عليه السلام بسنن الله في نزول الرحمة وانقطاعها، لقد نضب فيهم كل استعداد لقبول الخير، وكل استعداد بطلب الرحمة: ﴿**وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾ فعلى ماذا تنزل رحمة الله؟

إن لرحمة الله تعالى في حياة الإنسان منازل تتنزل عليها، فإذا انعدمت هذه المنازل ونضب معينها في نفس الإنسان، فلا يبقى لرحمة الله تعالى موضع في حياة الإنسان، فيستحقون عندئذٍ البعد من رحمة الله.

والحسين عليه السلام يدعوا الله تعالى على أولئك الناس يوم عاشوراء؛ لأن هذه القلوب فقدت كل القيم التي هي منازل الرحمة في نفوسهم، فلم يبق لنزول رحمة الله موضع في نفوس هؤلاء وحياتهم، فيقول لهم: (**فسحقاً يا عبيد الأمة**).

---

(١) نوح: ٢٦ـ٢٧.

٨ـ غدر قديم وشجت عليه أصولكم

في هذه الحالة يتحول الشر من حالة طارئة عارضة إلى حالة أصيلة عريقة داخل النفس، وكما ان للخير عراقة وأصالة كذلك للشر عراقة وأصالة، وجذور الخير تمتد إلى الفطرة والعقل والضمير والقلب، وجذور الشر تمتد الى الهوى، وعندما يتأصل الشر والهوى في النفس يفقد صاحبه كل منابع الخير في نفسه وتنضب في قلبه وضميره وعقله وفطرته كل جذور الخير وأصول الخير.

ويدخل عامل الوراثة في تأصيل حالة الخير وحالة الشر معاً. ولست أقول: ان الوراثة عامل قهري في تأصيل الخير والشر، ولكن أقول: إن عامل الوراثة له دور هام في تأصيل الخير والشر.

ان الوراثة تنقّح الخير وتنقح الشر، ولكن من دون أجبار وقهر.

ومن هنا فإن البشرية تنشطر الى شطرين: الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، كل منهما شجرة، وللشجرة جذور وثمار، وتتشابه الجذور والثمار في الشجرة، إن الجذور أصل الشجرة والثمار فرعها، والشجرة واسطة في نقل الخصائص من الجذور إلى الثمار.

وكذلك الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، كل منهما ينقلان الطيب والخبيث من الأسلاف إلى الأبناء فيتعرق في كل منهما الخير والشر.

وبالتالي فهاتان الشجرتان تشكلان خطين في تاريخ البشر: خطاً صاعداً، مستمراً في الصعود، وخطاً هابطاً مستمراً في السقوط. الأسرة النمرودية في سقوط، والأسرة الإبراهمية في صعود، والأسرة الموسوية في صعود،

والأسرة الفرعونية في سقوط.

وقانون الوراثة ينقح هذا الصعود، وذلك الهبوط، لا ينقل فقط خصائص الخير والشر من الأسلاف إلى الأبناء، وإنما ينقحه ويصفيه، ويفرز الشر عن الخير، ويفرز الخير عن الشر، وكلما يمر الزمن على هاتين الأسرتين تتسع الفاصلة بينهما، حتى إذا خلصت نفوسهم عن الخير، ونضب معين الخير في نفوسه، نزل عليهم العذاب؛ لأنهم لا يستحقون الرحمة عندئذ كما حدث في عهد نوح عليه السلام. والذي حدث في عهد نوح عليه السلام يحدث في أي وقت آخر، فتنتهي الأسرة الخبيثة وتسقط، فتبدأ دورة جديدة من التاريخ.

إن قانون الوراثة ينقل خصائص الطيب والخبيث من جيل إلى جيل، وينقّح الطيب والخبيث معاً.

والى هذا القانون، (قانون الوراثة) يشير الإمام الحسين عليه السلام: «**اجل والله غدر فيكم قديم، وشجت عليه أصولكم، وتأزرت**(١) **عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمرة، شجى للناظر، وأكلة للغاصب**».

يقول لهم الإمام عليه السلام: إن هذا الغدر والخبث فيكم أصيل وعريق، ورثه الأبناء من الآباء، اشتبكت عليه أصولكم وتأزرت وهاجت وتفتحت عليه فروعكم، فأنتم أخبث ثمرة للشجرة الخبيثة.

ويبقى أن نضيف إلى هذا: إن الوراثة هنا، في القيم والسلوك لا ينطبق مع الوراثة الحياتية (البايولوجية)، وقانون الوراثة لا ينطبق بالضرورة على قانون الوراثة في القيم والسلوك والأفكار.

---

(١) وشجت: اشتبكت. تأزرت: هاجت.لسان العرب، ابن منظور: ٣٩٨.

وقد يتخالفان تماماً، كما حدث ذلك في ابن نوح عليه السلام، وتعبير القرآن عن ابن نوح عليه السلام تعبير دقيق، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[1]، وإن كان من ذرية نوح عليه السلام، وهو إمام الصالحين.

وهذا الاختلاف نابع من عامل الحتمية في الوراثة الحياتية، دون وراثة الأعمال والقيم وأضداد القيم، فإنها تجري بالإرادة والاختيار ومن غير إجبار.

---

(١) هود: ٤٦.

خطاب السيدة زينب عليها السلام لأهل الكوفة*

الشيخ محمد مهدي الآصفي

---

* بحث مستلّ من كتاب "الخطاب الحسيني المرحلة الثانية للثورة الحسينية" للشيخ محمد مهدي الآصفي ـ ط ١ ـ ١٤٢٦ـ قم.

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب السيّدة زينب لأهل الكوفة

قال بشير بن حذلم (خُزيم) ونظرت الى زينب ابنة علي عليه السلام يومئذ، فلم أر خفرة انطق منها، كأنّها تفرغ من لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت الى الناس أن اسكتوا فارتدّت الأنفاس وسكنت الأجراس ثمّ قالت:

«الحمْدُلله والصّلاةُ عَلى أبي (جَدّي) مُحمّد وَآله الطّيّبين الأخْيار.

أما بَعْدُ، يا أهْلَ الكُوفَةِ، يا أهْلَ الخَتْل والغَدْرِ! أتَبْكُون؟! فَلا رَقَأتِ الدّمْعةُ، وَلا هَدأتِ الرنّةُ، إنّما مَثَلُكُم كَمَثَلِ الّتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوّة أنكاثاً، تَتَخّذونَ أيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ.

ألا وَهَلْ فِيكُمْ إلاّ الصَّلِفُ النَّطَفُ وَالصّدْرُ الشّنَفُ وَمَلَقُ الإماء، وَغمْزُ الأعْداء؟ أو كَمَرْعىً عَلى دِمْنَة، أو كَفِضَّة عَلى مَلْحُودَة، ألا ساءَ ما قَدّمَتْ لَكُمْ أنْفُسُكُم أنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَفي العَذابِ أنْتُمْ خالِدُونَ.

أتبكُونَ وَتَنتحِبُونَ؟! إيْ والله فَأَبكُوا كثيراً، وَاضْحَكُوا قَليلاً، فَلَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِعارِها وَشَنارِها، وَلَنْ تَرْحَضُوها بِغُسْل بَعْدَها أبَداً، وأنّى تَرْحَضُون، قَتْلَ سَليلِ خاتِم النُّبوةِ، وَمَعْدِنِ الرّسالَةِ، وَسَيّدِ شَبابِ أهلِ الجنّة وَمَلاذِ خيرَتِكُمْ وَمَفْزَعِ نازِلَتِكُمْ وَمَنارِ حُجّتِكُمْ وَمِدْرَةِ سُنّتِكُمْ.

ألا ساءَ ما تَزِرُونَ، وَبُعْداً لَكُمْ وَسُحْقاً. فَلَقَدْ خابَ السّعْيُ وَتَبّتِ الأيْدي وَخَسِرَتِ الصفْقَةُ وَبُؤْتُمْ بِغَضَب مِنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الذّلّةُ والمَسْكَنَةُ.

وَيْلَكُمْ يا أهلَ الكُوفَةِ! أتدرُونَ أيَّ كَبِد لِرَسُولِ الله فَرَيْتُمْ؟ وَأيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أبْرَزْتُمْ، وأيَّ دَم لَهُ سَفَكْتُم؟ وأيَّ حُرْمَة لَهُ إنْتَهكْتُمْ؟! لَقَدْ جِئْتُمْ بِها صَلْعاءَ عَنْقاءَ سَوْداءَ فَقْماءَ (وفي بعضها) خَرْقاءَ شَوْهاءَ كَطِلاعِ الأرْضِ أوْ مِلاءَ السّماء.

أفَعَجِبْتُمْ أنْ مَطَرَتِ السّماءُ دَماً، وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أخْزى، وَأنْتُمْ لا تُنْصَرُونَ، فَلا يَسْتَخِفَنّكُمُ المَهَلُ فإنَّهُ لا يَحْفِزُهُ البِدارُ، وَلا يَخافُ فَوْتَ الثّأرِ وَإنّ رَبّكُمْ لَبِالمِرْصادِ...».

قال الراوي: فوالله لقد رأيت الناس يؤمئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً الى جنبي يبكي حتّى اخضلّت لحيته وهو يقول: «بأبي أنتم وأُمي! كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونسائكم خير النّساء ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يُبزّى»(١).

(١) اللهوف لابن طاووس: ١٧٦.

تأمّلات في خطاب السيدة زينب عليها السلام

إنّ خطاب السيدة زينب عليها السلام كان يومئذ يتدفق كالشلال الهادر الذي ينحدر من قمة الجبل، يجرف معه ما يواجهه من الصخور، والأحجار، التي يقتلعها عن مستقرّها لا يصده شيء، ويرغمك أن تفتح له سمعك وقلبك... كذلك كان تأثير هذا الكلام يومئذ على ذلك الجمهور الغفير الذي جاء متفرجاً على مأساة أهل البيت عليهم السلام، وليس متعاطفاً، كما يتفرج الناس على أي مشهد يثير فضولهم... فأرغمهم الخطاب ان يعدلوا عن هذا الموقف الى التعاطف والتفاعل، وأبكاهم فأجهشوا بالبكاء، وارتفع نحيبهم وصراخهم، وهزّهم من الأعماق. لقد احبطت السيدة زينب عليها السلام بكلماتها كل الجهد الذي بذله الطاغية في إدارة وإعداد هذا المشهد الإعلامي.

إنّها كانت حمماً، وليست كلمات، قذفتها ابنة علي والزهراء على كل ما شيّده طاغية بني أُمية في الشام وعاملهم في الكوفة فهدمت كلما صنعوا من مجد كاذب وغرور وكبرياء وسلطان.

ولست أدري ماذا أودع الله تعالى في خطابها وإشاراتها، من التأثير والنفوذ والقوة يومئذ، عندما أشارت الى ذلك الجمهور المتفرّج اللاغط: إن اسكتوا، فسكنت الأنفاس والأجراس، كما تقول الرواية.

وليس لنا أن نتوقف بالتأمّل في كلمات ابنة الزهراء ووارثة علم علي عليه السلام وشجاعته وبلاغته، ومن الخير أن نمضي مع هذا السيل الجارف المتدفق من الخطاب الزينبي الهادر، ولا نشوّش على القارئ هذه الفرصة، حتى يرتوي من الخطاب كما يحب ويشتهي.

ولكن أجد من النافع أن أشرح بعض مقاطع هذا الخطاب ليعرف القارئ خلفياته في القرآن والحديث والتاريخ. وإليك طائفة من هذه النقاط، معتذراً الى سيدة نساء كربلاء وابنة سيدة نساء العالمين.

١.الشجب والتأنيب والتقريع

كان أهل البيتعليهم السلام عند دخولهم إلى الكوفة بعد مأساة كربلاء، بتلك الحالة المزرية، يتحدثون مع أهل الكوفة بمرارة وألم، لا نعرف في تاريخ أهل البيتعليهم السلام مثله قط، وكانوا يؤنّبون أهل الكوفة، ويشجبون تخاذلهم عن نصرة الحسينعليه السلام وغدرهم، وقعودهم عنه، بل خروجهم لقتال الحسين ومشاركتهم في محاربته.. أشدّ ما يكون الشجب والتقريع بعدما دعوه وكاتبوه، ووعدوه أن ينصروه ويقفوا معه، وتواترت إليهعليه السلام كتبهم، فتقول بحرقة وبألم ما بعده ألم:

«**يا أهل الكوفة يا أهل الختل والخذل** (الغدر)».

وعندما رأتهم يتصارخون بالبكاء قالت لهم:

«**أتبكون فلا رقأت الدمعة**».

وتقرّعهم بما جنت أيديهم من الجريمة التي تخر الجبال لها هداً، فتقول:

«**أتدرون، ويلكم أي كبد لرسول اللهصلى الله عليه وآله فريتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم، لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات ينفطرن منه، وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هداً**».

ويتكرر هذا التأنيب والتقريع والشجب بكل ما تحمل الكلمة من حرقة وألم وأذى في كلمات الإمام علي بن الحسين عليه السلام وفاطمة الصغرى والسيدة أُم كلثوم في أوّل لقاء التقوا أهل الكوفة وجهاً لوجه.

وعندما ارتفع نحيبهم وأجهشوا بالبكاء ندماً وحسرة قالت لهم:

«أتبكون وتنتحبون، أي والله، فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً».

ولسوف يطول بكاؤكم ويقل فرحكم وسروركم ولن تغسلوا عار تلك الجريمة، وأنى تغسل الدموع عار تلك الجريمة التي شاركوا ودخلوا فيها وتخاذلوا فيها عن الحسين عليه السلام ونصرته، واصطفّوا مع أعدائه، رَهَباً أو رَغباً.

سبحان الله! ما هذه بكلمات، ولكنها أفلاذ من كبد الحوراء، بنت فاطمة، تتقطّع حسرة وألماً في هذه المأساة التي سجلها الله تعالى في ذاكرة التاريخ ليعرف الأجيال التي تأتي فيما بعد، بأيّ ثمن حفظت هذه الثلة من أهل البيت عليهم السلام الإسلام في تلك البرهة الصعبة من التاريخ.

٢. عاقبة الخذلان

ولن يطول الأمر بالذين تركوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وحده، في مقابلة عدوان بني أُمية وبطشهم، وانتهاكهم لحرمات الله، فلم يغضبوا لله، ولم يضربوا معه بسيف، وخذلوه وخانوه، وصفوا مع الطاغية، وتعاونوا معه على قتله، وهو يدعوهم الى الله، والطاغية يدعوهم الى النار...

فلن يطول بهم الأمر حتى يذلهم الله على يد طغاة بني أُمية الذين آثروا

نصرهم والوقوف معهم على الانتصار للحسين عليه السلام، وهذه سنن الله عزّ وجل تلقيها الحوراء زينب عليها السلام في ذلك المشهد العجيب، بعد عودتها من مأساة كربلاء... فلن يطول بهم الزمان حتى يحكمهم الحجّاج بالسيف والقهر والذل والبطش، ويذلهم ببطشه، ويسفك دماءهم.

وكأنما ترى الحوراء في ذلك اليوم بطش الحجاج بهم وإذلاله لهم، بعد أن تخاذلوا عن نصرة أخيها بكربلاء وهو يدعوهم الى الله ورسوله «**فتعساً ونكساً، وبعداً لكم، وسحقاً، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليهم الذلة والمسكنة**».

إنّ السيوف التي غُمدت عن نصرة الحسين عليه السلام سُلّت بعد ذلك لقتال الحسين جنباً الى جنب مع الطاغية يوم عاشوراء، ثم لم تطل بهم العافية التي طلبوها في الدنيا بجانب بني أُمية، حتى استبدّ بهم طغاة بني أُمية وحكمهم الحجّاج فأكثر فيهم القتل وانتهك حرماتهم، وأراهم الرعب والخوف والذل والبطش.

وتتنبأ الحوراء زينب عليها السلام بهذه العاقبة لأُولئك الناس يومئذ، حينما تقول:

«**وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة**».

٢ـ التعميم في الخطاب

يلفت النظر في هذا الخطاب التقريعي ان السيّدة زينب عليها السلام تعمّم التقريع والتأنيب بقتلهم للحسين عليه السلام على الحاضرين الذين استقبلوهم بظهر الكوفة، وعلى المشاركين في قتال أخيها على نحو سواء فتقول:

«أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم. فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً».

ولم يكن في ذلك الجمهور نفر كثير ممن شارك في قتل الحسين عليه السلام، فإنّ الجلاوزة جاءوا بأهل البيت عليهم السلام والرؤوس الشريفة قبل عودة الجيش الى الكوفة، على أننا نستبعد أن يكون هؤلاء الذين استقبلوا أهل البيت عليهم السلام بالبكاء والنحيب ممن تلطّخت أيديهم بدماء شهداء الطف.

فمن ذا تخاطب الحوراء عليها السلام بهذه الكلمات الأليمة الشديدة.

إنّ هذا الخطاب، كما هو ظاهر لا يخص الذين تولّوا قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام، وإنّما يشمل جمهوراً كبيراً من أهل الكوفة، الذين تخاذلوا عن نصرة الحسين عليه السلام، ورضوا بمقتله ولم يغضبوا لقتل الحسين عليه السلام، هؤلاء يشملهم هذا الخطاب، وملاك التعميم هو الرضا والسخط.

فإنّ الرضا والسخط يجمعان الناس الذين يجمعهم الرضا والسخط، وان تباعدت أزمانهم وبلادهم ويقرّبان الناس الذين يفرّقهم الرضا والسخط، وإن تقارب مكانهم وزمانهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيّها الناس إنّما يجمع الناس الرضا والسخط. وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، قال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة

خوار السكة المحماة من الأرض الخوارة»[1].

وهؤلاء الناس رضوا بقتل الحسين عليه السلام، حتى الذين لم يشاركوا منهم في قتال الحسين عليه السلام وأصحابه يوم عاشوراء، وآية هذا الرضا انّهم لم يسخطوا ولم يغضبوا، ولم يثوروا بوجه الطاغية، ولم يتلاوموا فيما بينهم على تخاذلهم عن دعوة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نستثني منهم إلاّ (التوّابين) الذين عادوا الى رشدهم فيما بعد، وتلاوموا وتعاهدوا على الثأر لدم الحسين عليه السلام، إذ فاتهم الانتصار للحسين عليه السلام.

روى محمد بن الأرقط عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال: «**تنزل الكوفة؟** قلت: نعم. قال: **فترون قتلة الحسين بين أظهركم**، قلت: جعلت فداك ما رأيت أحد منهم.قال: **فإذن أنت لا ترى القاتل إلاّ من قتل أو وُلي القتل، ألم تسمع الى قول الله عزّوجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.**

فأي رسول قتل الذي كان محمد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم ولم يكن بينه وبين عيسى عليه السلام رسول. وإنّما رضوا قتل اُولئك فسمّوا قاتلين»[2].

ويشير الإمام عليه السلام في هذه الرواية إلى الآيات (١٨١ ـ ١٨٣) من سورة آل عمران: **﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ**

---

(١) نهج البلاغة: ٢٠٧/٢.

(٢) تفسير البرهان: ٣٢٨/١ ط قم اسماعيليان.

الْحَرِيقِ*ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ*الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فإنّ هؤلاء الذين ينسب الله تعالى إليهم القول بأن الله فقير ونحن أغنياء وقتلوا الأنبياء بغير حق... قد قالوا هذه الكلمة، كما يثبتها المفسرون في شأن نزول هذه الآية، ولكن لم يقتلوا نبيّاً قط... وقد جاءت هذه النسبة إليهم بوضوح في موضعين من هذه الآيات، فأي نبي قتل هؤلاء، وبينهم وبين أنبياء بني إسرائيل عدّة قرون من الزمان... وإنّما الذي قتل الأنبياء من بني إسرائيل وأنكر نبوتهم و جحدهم سلفهم من اليهود.

والجواب: إنّ اليهود في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا راضين بجرائم آبائهم، ولم يتبرّأوا منهم، ولم ينكروا عليهم، ولم يعلنوا رفضهم وبراءتهم عنهم، فنسب الله تعالى إليهم جرائم آباءهم في قتل الأنبياء.

وتشير السيدة زينب بطلة مأساة كربلاء الى هذه الحقيقة.

فإنّ هؤلاء شاهدوا أبشع جريمة في عمل بني أُمية، وأنصع دعوة في تاريخ الإسلام في دعوة الحسين عليه السلام، فلم يقفوا مع الحسين عليه السلام وينكروا على طغاة بني أُمية جريمتهم بحق الحسين عليه السلام وأصحابه، ولم يتبرأوا من فعلتهم، ولم يعلنوا سخطهم وانكارهم وبراءتهم منهم، وآثروا العافية في كل ذلك على مرضاة الله، فسكتوا ورضخوا وخذلوا إمام المسلمين عليه السلام...

ولا نستثني منهم إلاّ الذين عادوا الى رشدهم وتابوا واعلنوا غضبهم وخروجهم على بني اُمية بعد ذلك.

فتخاطبهم الحوراء بهذا الخطاب المؤلم الشامل، وبهذا التقريع الشديد العام:

«فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ما تزرون.

«ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟».

ثم تعمّهم بالدعاء بعد أن عمّتهم الجريمة:

«فتعساً، ونكساً، وبعداً لكم، وسُحقاً، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

٤ـ الإمهال في العذاب

وتنذرهم ابنة عليعليه السلام في هذا الخطاب بعذاب الدنيا وأليم عذاب الآخرة:

«أفعجبتم إن مطرت السماء دماً، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾».

وأي عذاب هذا العذاب؟ أن تمطر السماء دماً، ثم تنذرهم بأنّ عذاب الآخرة أشد وآلم.

ثم تنذرهم مرة أُخرى أن لا يغرّنهم، ولا يستخفّنهم تأجيل العذاب عنهم الى حين، فإنّ الله تعالى يمهل ولا يهمل، تقول عليها السلام:

«فلا يستخفنكم المهل، فإنّه لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثار، وان ربّكم لبالمرصاد».

ومن أشد ما يعاقب الله تعالى عباده أن يمهلهم ويستدرجهم الى العصيان والإثم، ويملي لهم، ثم ينقضّ عليهم العذاب، فيأخذهم فجأة، ضحىً وهم يلعبون.

يقول تعالى: **﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**(١). **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ﴾**(٢).

فتنذرهم السيدة أن لا يستخفنهم الإمهال في العذاب، فإنّ الله تعالى لا يحفزه البدار، ولا يستعجل بعذاب عباده، وفي ذلك نقمة وعقاب لمن يستحق النقمة والعقاب فلا يتوب ولا يؤوب الى رشده فيزداد إثما، ويستدرجه الإمهال إلى الإمعان في العصيان والإثم.

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الأنعام: ٤٤.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إذا أراد الله عزّ وجلّ بعبد خيراً، فأذنب ذنباً تبعه بنقمة يُذكِّره الاستغفار، وإذا أراد الله بعبد شرّاً فأذنب تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول الله عزّ وجل:**

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَيَعْلَمُونَ﴾»(١).

وما من عقوبة للأُمم التي استحقت العقوبة بالعصيان والإثم أشد من الإملاء والإمهال.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام في نهج البلاغة:

«**أيها الناس ليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين، إنّه مَن وسّع عليه في ذات يده، فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً، ومن ضيّق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيّع مأمولاً**»(٢).

ويقول عليه السلام: «**كم من مستدرج بالإحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له**»(٣).

ولم يطل الإملاء والإمهال الإلهي بهؤلاء القوم الذين انذرتهم ابنة الزهراء عليها السلام بعذاب الله في ذلك اليوم الرهيب، طويلاً فما مرّ عليهم سنون خمسة حتى سلّط الله تعالى عليهم المختار رحمه الله فتتبعهم ولاحقهم والتقطهم وعاقبهم تحت شعار: «**الثأر من قتلة الحسين**» ولم يسلم منهم إلاّ القليل

---

(١) بحار الأنوار: ٣٨٧/٧٣.

(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣٥٨.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم: ١١٦.

وأذاقهم الذل والخوف والرعب وحر الحديد، ولعذاب الآخرة آلم وأشد وأقسى.

ثم لم يمض بعد ذلك سنون حتى سلط الله عليهم الحجاج بن يوسف لعنه الله، فأذاقهم الذل والهوان والقتل وسلب منهم الأمان والعافية التي كانوا يطلبونها لدنياهم فخذلوا الحسين عليه السلام، فعاقبهم الله بالحجّاج.

ثم توالت عليهم المحن والنكبات محنة بعد محنة ونكبة بعد نكبة، وتتابع عليهم طغاة بني أُمية طاغية بعد طاغية.

٥.الإحباط

وتذكّرهم زينب عليها السلام بقوله تعالى:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم... ﴾[1].

فقد نقض القوم كل ما شيّدوه وعملوه من قبل، وقد كان فيهم من وقف مع علي في الجمل وصفين والنهروان، ولكنهم نقضوا كل ذلك في

(١)النحل: ٩٢. والنقض يقابل الإبرام، وهو بمعنى افساد ما أحكم من حبل أو غزل. والنكث بمعنى النقض، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلاً كان أو غزلاً، والآية الكريمة تمنعهم أن يكونوا كالمرأة التي تغزل ثم تعود فتنقض ما غزلت وتهدم ما بنت، و(الدخل) كل ما دخل الشيء وليس منه، ويكنى به عن الخيانة والغدر، ومعنى الآية الكريمة لا تتخذوا ايمانكم وسيلة للغدر والخيانة تطيّبون بها النفوس ثم تخونون وتخدعون بنقضها. راجع تفسير الميزان: ٣٥٨/١٢.

عاشوراء عام (٦١ هـ) بخذلانهم للحسين عليه السلام ووقوفهم الى جنب الطاغية وقتالهم للحسين، ورضاهم بقتالهم.

إن المحافظة على الأعمال الصالحة قد تكون أشق من أصل العمل، وليس بقليل الذين أحسنوا وأصلحوا، وعملوا الأعمال الصالحة، ثمّ أفسدوا أعمالهم وأبطلوها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُم * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[(١)].

ويقول تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾[(٢)].

وكما أن السيئات تحبط الحسنات، كذلك الحسنات تكفّر السيئات وتغطيها.

والقرآن يشير الى كل من هذين: الإحباط والتكفير، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[(٣)].

ويقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ

---

(١) محمد: ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) الفرقان: ٢٣.

(٣) الأنفال: ٢٩.

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ... ﴾[١].

فالأعمال، كالأشياء المادية، فيها بناء وهدم، وفيها إعادة بناء ما هدمه الإنسان، وهدم ما بناه.

إنّ السلوك الاجتماعي والسياسي والمالي في وسط المجتمع من أشق الأمور، فقد يهدم الإنسان في موقف سياسي أو اجتماعي ما بناه وعمله في حياته.

وتنصحهم السيدة زينب ألا يكونوا ممّن أحبطوا أعمالهم **«لا تكونوا كَالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة انكاثاً»**.

وألاّ يتخذوا أيمانهم ومواثيقهم التي أعطوها للحسينعليه السلام من قبل عندما سألوه القدوم إليهم، دخلاً وأداة للغدر والخيانة.

وطالما يجدون فرصة للعودة والتوبة الى الله فعليهم أن يعودوا ويتوبوا الى الله عن الخذلان والتقصير، الذي حصل منهم تجاه دعوة سيد شباب أهل الجنة.

ولئن كان في كلمات السيدة زينبعليها السلام تقريع موجع يعبّر عن آلام بطلة مأساة كربلاء... فإنّهاعليها السلام تفتح لهم طريق العودة الى الله مرة أُخرى، وان يؤوبوا الى أنفسهم، ويستغفروا الله، ولئن فاتهم أن ينصروا الحسينعليه السلام فلا يفوتهم أن يثأروا له وللكوكبة الصالحة التي خرجت معه، وأن ينتقموا من الظالمين الذين أكثروا الفساد في الأرض.

---

(١) هود: ١١٤.

٦ـ علاقة الكوارث الكونية بسيّئات الناس

نجد في كلام السيدة زينب عليها السلام إشارتان جديرتان بالتوقف والتأمّل في علاقة الكوارث الكونية والعذاب الإلهي النازل على الأرض بسيّئات الناس وذنوبهم.

فهي تخاطبهم منذرة إيّاهم من عذاب الله: «**ويلكم، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم له سفكتم، ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾**»[(١)].

ثم تقول بعد ذلك، وفي نفس السياق: «**ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الأرض، وملأ السماء، أفعجبتم ان مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزى**».

الكوارث الكونية عند مصرع الحسين عليه السلام

وقد استفاضت الروايات إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد أخبر أم المؤمنين أم سلمة رحمها الله بمصرع الحسين عليه السلام وأودع عندها قارورة، وعرّفها أنها إذا فاضت دماً فهو علامة مصرع ولده الحسين عليه السلام... فلمّا خرج الحسين عليه السلام

---

(١) مريم: ٨٩ـ٩٠. والآية الكريمة بصدد تهويل الشرك بالله، وأن بالشرك بالله تكاد السماوات أن تتفطر وتكاد الأرض أن تنشق و تكاد الجبال أن تسقط (تخر) هدّاً (أي هدماً) يعني تكاد أن تنهدم الجبال وتتساقط. و (الإد) الذنب الفظيع، وواضح أن الآية الكريمة بصدد التهويل، وتحسيس المشركين بهذه المظاهر الكونية المحسوسة على عظم الجريمة. ولكنها واضحة في علاقة العذابات الكونية كالزلازل والكوارث الكونية بسيّئات أعمال الناس وجرائمهم.

من المدينة الى مكة ومنها الى العراق كانت أُم سلمة تنظر الى القارورة كل يوم، وتقول: إنّ يوماً تتحولين الى دم ليوم عظيم.

فرأت رسول الله صلى الله عليه وآله في اليوم العاشر من المحرم في المنام أشعث، مغبرّاً، وعلى رأسه التراب، فقالت له: مالي أراك يا رسول الله مغبراً؟!

فقال لها: **قتل ولدي الحسين عليه السلام، ومازلت أحفر القبور له ولأصحابه،** فانتبهت من منامها مذعورة، فبادرت الى القارورة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وآله علامة لها فإذا بها تفور دماً.

فنادت أُم سلمة: قتل الحسين، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، فاقبلوا النساء عليها، وقلنّ لها: «من أين علمت ذلك فأخبرتهنّ برؤياها، وتصارخت النسوة، حتى ضجت المدينة، وهذه الرواية معروفة وقد ذكرها جملة من المؤرخين»[1].

وقال ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: «ومما ظهر يوم قتله عليه السلام من الآيات أيضاً أن السماء اسودّت، اسوداداً عظيماً، حتى رؤيت النجوم نهاراً، ولم يرفع حجر إلاّ وجد تحته دم عبيط»[2].

---

(١) منهم ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٨٥/١٣ و٣٤٠/٤، واليافعي في مرآة الجنان: ١٣٤/١، وأحمد في (المسند): ٢٤٢/١، وابن الأثير في الكامل: ٣٨/٤، والخوارزمي في المقتل: ٩٥/٢، والمحب الطبري في ذخائر العقبى: ١٤٨، والسيوطي في تاريخ الخلفاء: ١٣٩، وابن حجر في تهذيب التهذيب: ٣٥٥/٢. وابن الشيخ الطوسي في الأمالي: ٥٦/٣، والطريحي في (المنتخب): ٢٣٥، والسيوطي في (الخصائص): ١٢٦/٢، ومصادر أُخرى أخذناها من مقتل الحسين للعلامة الفقيد السيد عبدالرزاق المقرّم رحمه الله: ٣٤٣.

(٢) الصواعق المحرقة: ١٩٢.

«وان السماء احمرت لقتله، وانكسفت حتى بدت الكواكب نصف النهار، وظن الناس ان القيامة قد قامت، ولم يرفع حجر في الشام إلاّ رؤي تحته دم عبيط»[١].

يقول السيد عبدالرزاق المقرّم في المقتل[٢]:

«اظلمت الدنيا ثلاثة أيام[٣] واسودت سواداً عظيماً[٤] حتى ظن الناس ان القيامة قامت[٥] وبدت الكواكب نصف النهار[٦] ولم ير نور الشمس»[٧].

والروايات التاريخية في ذلك متضافرة، تناقلها أئمة التاريخ والسيرة، وحفّاظ الحديث النبوي، ولا نريد أن نسهب في هذا الأمر أكثر من هذا الحد.

الكوارث الكونية وعلاقتها بسيئات الناس في القرآن

والقرآن صريح وواضح بعلاقة الكوارث الكونية بسيئات أعمال الناس.

وإليك هذه الآيات من كتاب الله:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٣٤٥، ونقلنا المصادر التالية عن هذا المصدر.

(٣) تاريخ ابن عساكر: ٣٣٩/٤، والخصائص الكبرى ١٢٦/٢، والخطط المقريزية: ٢٨٩/٢، وتذكرة الخواص: ١٥٥، والمقتل للخوارزمي: ٩٠/٢.

(٤) الاتحاف بحب الأشراف: ٢٤، وتهذيب التهذيب: ٣٥٤/٢، وتاريخ ابن عساكر: ٣٣٩/٤.

(٥) الصواعق المحرقة: ١١٦ والاتحاف: ٢٤.

(٦) تهذيب التهذيب: ٣٥٤/٢، والصواعق المحرقة: ١١٦، وتاريخ ابن عساكر: ٣٣٩/٤، وتاريخ الخلفاء: ١٣٨.

(٧) مجمع الزوائد: ١٩٧/٩، تاريخ الخلفاء: ١٣٨، الكواكب الدرية: ٥٦/١.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾(٤).

ويقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا*إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا*فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي

---

(١) الشورى: ٣٠.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) المؤمن: ٢١.

(٤) الإسراء: ١٦.

(٥) الشمس: ١١ ـ ١٤.

لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ*وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ*الَّذِينَ طغَوْا فِي الْبِلاَدِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ*فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ*إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(١).

ويقول تعالى في قوم: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً﴾(٢).

النعمة وعلاقتها بالتقوى

والعكس أيضاً صحيح، فكما تنزل الكوارث والنقم بسيئات أعمال الإنسان، كذلك تنزل النعم والخيرات والبركات على الأرض بحسنات أفعال الناس.

وكما تكون الآثام والمعاصي سبباً في نزول الكوارث من زلزال وصاعقة وفقر وبأس وابتلاء وأمراض وحروب كذلك تكون التقوى سبباً لنزول الرحمة، من لدن الله الى الأرض، ويفتح الله تعالى على الناس بالتقوى بركات الأرض والسماء.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

---

(١) الفجر: ٦ ـ ١٤.

(٢) نوح: ٢٥.

(٣) الأعراف: ٩٦.

والسنّة الإلهية العامة في هذا وذاك انّ الله تعالى لا يغير ما بالناس من نعمة ورحمة أو ابتلاء وشدّة إلاّ بسيئات أعمالهم وحسناتها، فإذا حسنت أعمالهم أحسن الله إليهم، وإذا ساءت أعمالهم عاقبهم الله تعالى فساءت أحوالهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2].

وهاتان الآيتان واضحتان في الدلالة على العلاقة بين أحوال الناس وأوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين أعمالهم، فإذا ساءت أعمالهم ساءت أحوالهم وأوضاعهم، وإذا حسنت أعمالهم طابت وحسنت أوضاعهم وأحوالهم.

العلاقة بين العمل والجزاء

ولا نريد أن نترك هذا الحديث قبل أن نتطرق إلى القانون العام الشامل لكل ما ذكرناه، وهو علاقة العمل بالجزاء في المعايير الإلهية.

إنّ الجزاء الوارد في النصوص الإسلامية من كتاب وسنّة من قبيل نتائج الأعمال وآثارها التكوينية، وليست من قبل العلاقة بين العمل والجزاء في

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) الأنفال: ٥٣.

الدنيا. فإنّ العلاقة بين العمل والجزاء في الدنيا علاقة قانونية تدخل في دائرة التقنين والتشريع، ويختلف الجزاء من أُمة إلى أخرى، حسب اختلاف القوانين والتشريعات، فقد تكون القوانين متسامحة في تقدير العقوبة، فتكون العقوبة هيّنة، وقد تكون القوانين متشدّدة فتكون العقوبة شديدة وقاسية.

ولكن الجزاء في الآخرة، عقوبة ومثوبة، من قبيل النتائج والآثار التكوينية للأعمال، ولا تدخل في حقل القرارات التشريعية... ومثل ذلك في الدنيا أن من لا يتحفظ على صحته ولا يحتمي يمرض. والمرض هنا نتيجة عدم الاحتماء، والتاجر الذي يهمل الحركة في السوق يصيبه الفقر والخسران. والفقر والخسارة نتيجة لانعدام السعي والحركة في السوق. والطالب الذي يكسل عن الدراسة ولا يجتهد في الدرس يفشل في الامتحان، والذي يسعى ويجتهد ينجح ويتقدم.

كذلك العلاقة بين العمل والجزاء في الآخرة من هذا القبيل، وكذلك في الدنيا، في غير العقوبات التشريعية التي تدخل في دائرة التقنين والتشريع.

٧. ما يقدمه الإنسان بين يديه الى الله

تقول الحوراء زينب عليها السلام في خطابها لأهل الكوفة: «**ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون**» وهذه الفقرة من كلام السيدة مقتبسة من قوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ

الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[1].

وهذه النقطة من كلام السيدةعليها السلام ذات علاقة بالنقطة السابقة، في علاقة العمل بالجزاء.

إنّ جزاء عمل الإنسان في الآخرة هو نتيجة عمله في الدنيا، وهذه النتيجة هي باطن عمل الإنسان تترائى له في الدنيا بغير هذه الصورة، وتتجلى له في الآخرة بصورته الحقيقية.

حيث يكشف عن بصر الإنسان، فيرى واقع عمله وباطنه الذي كان يخفى عليه في الدنيا.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

وكأنّ الإنسان كان في غفلة من حقيقة السيئة وواقعها وجوهرها فارتكبها، فلمّا كُشِفَ عن عينه الغطاء بالموت وجد ما غفل عنه.

إنّ مال اليتيم الذي يأكله الناس حراماً، ظاهره ذهب وفضة ومتاع وضياع، وباطنه نار يغفل عنها الإنسان، فإذا حل به الموت وكشف عن عينيه الغطاء، عرف ما غفل عنه في الدنيا.

---

(١) المائدة: ٨٠

(٢) ق: ٢٢.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾(١).

إنّ الناس لا يرون من هذه النقود والضياع في الدنيا إلاّ ظاهرها، فإذا ماتوا عرفوا ما غفلوا عنه وعرفوا أنّ الذي أكلوه من أموال اليتامى كان ناراً في بطونهم.

وان الثمن البخس الذي يبيع به علماء أهل الكتاب ما عرفوا من التوراة والإنجيل فأخفوه عن الناس وتكتموا به... إنّ لهذا الثمن البخس الذي تلقوه إزاء هذا الكتمان نار في بطونهم غفلوا عنه في الدنيا، فإذا ماتوا عرفوا به: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٣).

---

(١) النساء: ١٠.

(٢) البقرة: ١٧٤.

(٣) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

إنّ تعبيرات القرآن في هذه النقطة واضحة وصريحة مثل: ﴿هذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ وأمثال ذلك، وهي تأبى الحمل على المجاز.

وهذا هو باطن عمل الإنسان وجوهره الذي كان يخفى عليه في الدنيا.

وما يصدر عن الإنسان من عمل من خير وشر، يبقى ولا ينعدم، فإذا مات الإنسان أحضره الله تعالى عنده، فوجد ما عمله من خير أو شر حاضراً.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْر مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوء... ﴾(١).

ها هنا يجد الإنسان عمله حاضراً أمامه بعينه، فإذا كان عمله سوءاً تمنى أن يكون بينه وبين عمله أمداً بعيداً، وأن يتخلص من عمله، ولكن هيهات ﴿...تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(٢).

وجزاء الإنسان في الآخرة بنفس عمله، وعمله جزاؤه.

يقول تعالى: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْس مَا كَسَبَتْ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) آل عمران: ٣٠.

(٣) التحريم: ٧.

(٤) البقرة: ٢٨١.

إذن جزاء الإنسان في الآخرة هو نفس ما كسبه في الدنيا.

وفي سورة الإسراء نلتقي آية عجيبة في كتاب الله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾(١).

و(الطائر) هو (العمل). ويوم القيامة يجعل الله أعمال الناس في أعناقهم، وهو كتابهم الذي يعكس أعمالهم. إنّ أعمالهم هو كتابهم الذي يلقون به الله تعالى، والإنسان هو الذي يقرأ كتابه يومئذ، لاغيره ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ وهو الذي يحاسب نفسه ويحكم على نفسه: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾.

إذن جزاء الإنسان هو عمل الإنسان، باطن عمل الإنسان، وهذا الباطن كان قائماً في الدنيا غير أن الإنسان كان غافلاً عنه.

فإذا مات الإنسان انكشف باطن عمله، وأُحضر عمله إليه، ويرى الإنسان عندئذ عمله الذي قدمه لنفسه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾(٢).

إنّ الإنسان يومئذ يرى عمله من خير أو شر. فإذا عمل خيراً رآه أمامه، ولو كان مثقال ذرة من الخير.

---

(١) الإسراء: ١٣ ـ ١٤.

(٢) الزلزلة: ٦ ـ ٨.

ومن عمل شراً يراه أمامه، ولو كان مثقال ذرّة من الشّر، فإنّ الميزان والحساب دقيق، غير أن الله رؤوف بعباده رحيم.

فما يعمله الإنسان من عمل في الدنيا من خير أو شر، إنّما يقدمه الإنسان لنفسه في الآخرة فإذا مات وجده أمامه.

يقول تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[1].

وهنا (الإمام المبين) لا يغفل عن شيء قدمه الإنسان أبداً فهو يحصي كل صغيرة وكبيرة مما قدمه الإنسان لنفسه إحصاءً دقيقاً.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[2].

وتأمّلوا في هذه الآية من كتاب الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

حيث يأتي الأمر بأن ينظر الإنسان فيما يقدمه لآخرته، بعد الأمر بالتقوى وقبله، وهو يستوقف الإنسان طويلاً، فإذا كان ما يعمله الإنسان من عمل هو ما يقدّمه لغد، فما أحراه بأن يتقي الله تعالى في عمل يعمله من صغير وكبير.

---

(١) يس: ١٢.

(٢) البقرة: ١١٠ و٢٢٣.

(٣) الحشر: ١٩.

الرثاء*

السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي

---

* بحث مستلّ من كتاب "المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة" للسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي قدس سره ـ من كبار الفقهاء وعلماء الإسلام والدعاة الى التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ مطبعة النعمان ـ النجف ـ ١٩٦٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ريب في جواز رثاء موتى المؤمنين؛ لأصالة الإباحة، وعدم الدليل على خلافها[1]، وقد رثي آدم ولده هابيل[2] واستمرت على ذلك ذريته إلى يومنا هذا بلا نكير، وأقرّ رسول الله ﷺ عليه أصحابه مع إكثارهم من تهيّج الحزن به، وتفننهم في ذلك بذكر مدائح الموتى في أخلاقهم وأفعالهم[3].

---

(١) لكن الذي يظهر من القسطلاني - في باب رثي النبي سعد بن خولي ص٣١٨ ج: ٣ من ارشاد الساري في شرح البخاري «ان جماعة يفصلون القول في الرثاء فيحرّمون منه ما اشتمل على مدح الميت وذكر محاسنه الباعث على تحريك الحزن وتهييج اللوعة. ويبيحون منه ما عدا ذلك» . والحق: اباحته مطلقا الا اذا اشتمل على الباطل؛ إذ لا دليل على الحرمة، والنهي الذي يزعمون انما يستفاد منه الكراهة في موارد أُخر ليست من موضوع بحثنا، على ان النهي غير صحيح عندنا.

(٢) بقوله في ما يروى وقد ضعّف: - تغيرت البلاد ومن عليها - الخ.

(٣) تلك مراثيهم في كتب الاخبار، فراجع من الاستيعاب - ان أردت بعضها -: احوال سيد الشهداء حمزة، وعثمان بن مظعون، وسعد بن معاذ، وشماس بن عثمان بن الشريد، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وأبي خراش الهذلي، واياس بن بكير الليثي، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم. ولاحظ من الاصابة أحوال ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب، وأبي زُبيد الطائي، وأبي سنان بن حريث المخزومي، والأشهب بن رميلة الدارمي،

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله تنافست فضلاء الصحابة في رثائه.

فرثته بضعته الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام بأبيات تهيج الأحزان، ذكر القسطلاني[١] منها هذين البيتين:

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صُبَّت عليَّ مصائب لو أنها ... صُبَّت على الأيام صرن لياليا

ورثته أيضاً بأبيات تثير الأشجان، ذكر ابن عبد ربه[٢] منها هذين البيتين:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... وغاب مذ غبت عنا الوحي و

فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما نعيت وحالت دونك الكثب

ورثاه كل من عمته صفية[٣]، وابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[٤]، وأبي ذويب الهذلي[٥]، وأبي الهيثم بن التيهان[٦]، وأم رعلة

وزينب بنت العوام، وعبدالله بن عبد المدان الحارثي، وجماعة آخرين لا تحضرني اسماؤهم. ودونك كتاب (الدرة في التعازي والمراثي) ـ وهو في أول الجزء الثاني من العقد الفريد ـ تجد فيه مراثي الصحابة ومن بعدهم شيئاً كثيراً. واذا تتبعت كتاب (اسد الغابة) تجد الكثير من مراثي الصحابة. وليس شيئا مما اشرنا اليه الا وقد اشتمل على ما يهيج الحزن ويجدد اللوعة بمدح الميت بالحق، وذكر محاسنه بالصدق.

(١) في ص: ٣١٨ ج: ٣ من ارشاد الساري في باب رثي النبي صلى الله عليه وآله سعد ابن خولي.

(٢) في ص: ٧ ج: ٢ من عقده الفريد .وذكر ابن أبي الحديد ثلاثة ابيات أخر منها آخر ص:٩٣، وثلاثة أبيات أيضاً في ص: ٩٤ ج٤ من شرح النهج.

(٣) رثته بقصيدة يائية ذكر ابن عبد البر بعضها في أحوال النبي من استيعابه .

(٤) رثاه بقصيدة لامية ذكر بعضها صاحبا الاستيعاب والإصابة في ترجمة أبي سفيان.

(٥) رثاه بقصيدة حائية ذكر بعضها الفاضل العباسي في أحوال أبي ذؤيب من معاهد التنصيص ص: ٢٥٢ وأورد بعضها أيضاً صاحبا الاستيعاب والإصابة في ترجمة أبي ذؤيب.

(٦) رثاه بقصيدة دالية أشار إليها العسقلاني في ترجمة أبي الهيثم من إصابته.

القشيرية[١]، وعامر بن الطفيل[٢] وغيرهم.

ومن استوعب الاستيعاب وتتبع طبقات ابن سعد، واسد الغابة والاصابة يجد من مراثي الصحابة شيئاً كثيراً.

وقد أكثرت الخنساء ـ وهي صحابية ذات شان ـ من رثاء اخويها صخر ومعاوية ـ وهما كافران ـ وابدعت في مدائح صخر، وأهاجت عليه لواعج الاحزان، على انها كانت من الصالحات، وقد بذلت أولادها الاربعة في نشر الدعوة الاسلامية، وسرها قتلهم في هذا السبيل، وما برحت ترثي اخويها حتى ماتت، فما أنكر عليها في ذلك أحد.

وأكثر أيضا متمم بن نويرة من تهيج الحزن على اخيه مالك في مراثيه السائرة، حتى وقف مرة في المسجد وهو غاص بالصحابة، واتكأ على سية قوسه[٣] أمام أبي بكر بعد صلاة الصبح، فانشد[٤]:

نعم القتيل اذ الرياح تناوحت   خلف البيوت قتلت يابن الأزور

ثم أومأ الى أبي بكر فقال مخاطباً له:

أدعوته بالله ثم غدرته   هو لو دعاك بذمة لم يغدر

فقال ابو بكر: والله ما دعوته، ولاغدرته، ثم قال متمم:

ولنعم حشو الدرع كان وحاسرا   ولنعم مأوى الطارق المتنور

---

(١) رثته بقصيدة رائية اشار اليها العسقلاني في ترجمة ام رعلة من اصابته.

(٢) رثاه بقصيدة جيمية اشار اليها العسقلاني في ترجمة عامر من اصابته.

(٣) سية القوس: ما عطف من طرفيها.جمع سيات.

(٤) كما في ترجمة وثيمة بن موسى بن الفرات من وفيات ابن خلكان، وكما في ص: ٢٠ ج:٢ من العقد الفريد.

لايمسك الفحشاء تحت ثيابه   حلو شمائله عفيف المآزر

وبكى، حتى انحط عن سية قوسه.

قالوا: فما زال يبكي حتى دمعت عينه العوراء، فما أنكر عليه في بكائه، ولافي رثائه منكر ـ مع ما في بكائه ورثائه من المغازي السياسية ـ بل قال له عمر:[١] لوددت انك رثيت زيداً أخي بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك، فرثى متمم بعدها زيداً فما أجاد، فعاتبه عمر بقوله: لِم لَم ترث أخي كما رثيت اخاك، فقال: انه ـ والله ـ ليحركني لأخي ما لا يحركني لأخيك.

واستحسن الصحابة والتابعين ومن بعدهم مراثيه في مالك، فكانوا يتمثلون بها اذا اقتضى الأمر ذلك، كما فعلته عائشة، اذ وقفت على قبر أخيها عبد الرحمن فبكت عليه[٢]، وتمثلت بقول متمم:

وكنا كندماني جذيمة حقبة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وما زال الرثاء فاشياً بين المسلمين في كل عصر ومصر لا يتناكرونه.

وحسبنا دليلاً على استحبابه في مآتمنا؛ ما رواه أصحابنا عن زيد الشحام[٣] قال: كنا عند أبي عبد الله الصادقعليه السلام ونحن جماعة من

---

(١) كما في ترجمة وثيمة من الوفيات أيضا.

(٢) كما في ترجمة عبد الرحمن ابن أبي بكر من الاستيعاب.

(٣) هذا الحديث رواه عدة من أصحابنا الثقات كأبي علي في أحوال جعفر ابن عثمان الطائي من كتاب منتهى المقال في أحوال الرجال.

الكوفيين، فدخل جعفر بن عفان[١] فقربه الإمام وأدناه، ثم قال: **ياجعفر: بلغني انك تقول الشعر في الحسين وتجيد**، قال: نعم، جعلت فداءك، قال: **قل**، فأنشدته:

ليبك على الإسلام من كان باكيا ... فقد ضيعت أحكامه واستحلت[٢]
غدات حسين للرماح دريئة ... وقد نهلت منه السيوف وعلت
وغودر في الصحراء شلوا مبددا ... عليه عتاق الطير باتت وظلت
فما نصرته أمة السوء إذ دعا ... لقد طاشت الأحلام منهم وظلت
وما حفظت قرب النبي ولا رعت ... وزلت بها أقدامها واستزلت
أذاقته حر القتل أمة جده ... فتبت أكف الظالمين وشلت
فلا قدّس الرحمن أمة جده ... وإن هي صامت للإله وصلت
كما فجعت بنت الرسول بنسلها ... وكانوا كماة الحرب حين استقلت

فبكى الصادقعليه السلام ومن حوله، حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته، ثم قال: **ياجعفر: والله لقد شهدك الملائكة المقربون، وانهم لهاهنا يسمعون قولك في الحسين، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، وقد أوجب الله تعالى لك ياجعفر في ساعتك الجنة وغفر لك**، ثم قال: **ألا أزيدك؟** قال: نعم، ياسيدي، قالعليه السلام: **ما من أحد قال في الحسين شعراً، فبكى وأبكى إلا أوجب الله له الجنة وغفر له....**

---

(١) كان من ثقات سلفنا.

(٢) لم يورد أبو علي في منتهى المقال هذه الأبيات وانما، أشار اليها وأوردها غيره.

وقد نسج جعفر بن عفان في هذا الرثاء على رويّ سلمان بن قتة العدوي، إذ مر بكربلاء، لثلاث بعد قتل الحسين وأصحابه، فنظر الى مصارعهم ومضاربهم، فأنشأ يقول ويبكي:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها امثالها حين حلت[1]
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلت
وان قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت
وكانوا غياثا ثم أضحوا رزية ... ألا عظمت تلك الرزايا وجلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لقتل حسين والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده ... وأنجمها ناحت عليه وصلت

ورحم الله الحسين بن الضحاك إذ نسج على هذا الروي والقافية، فقال:

ومما شجى قلبي وأسبل عبرتي ... محارم من آل النبي استحلت
ومهتوكة بالطف عنها سجوفها ... كعاب كقرن الشمس لما تبدت
إذا حفزتها وزعة من منازع ... لها المرط عادت بالخضوع ورنت
وربات خدر من ذؤابة هاشم ... هتفن بدعوى خير حي وميت
أرد يدا مني إذا ما ذكرتها ... على كبد حرى وقلب مفتت

---

(١) أنشد هذه الأبيات أبو تمام في الحماسة، والمبرد في الكامل لسليمان ابن قتة، ونسبها ابن الأثير في آخر وقعة الطف من كامله الى التيمي تيم مرة قال: وكان منقطعا الى بني هاشم، والظاهر أنه أراد سليمان بن قتة لأنه تيمي بالولاء. وقال الخطيب التبريزي في شرح الحماسة: رواها البرقي لأبي الزميج الخزاعي، وأوردها ابن عبد البر في ترجمة الحسين من الاستيعاب، فنسبها الى سليمان بن قتة الخزاعي وقيل: انها لأبي الزميج الخزاعي .

فلا بات ليل الشامتين بغيظه ولا بلغت آمالها ما تمنت

ولله درّ عواطف الأمام محمد بن إدريس الشافعي حيث يقول من أبيات له في رثاء الحسين عليه السلام:

تزلزلت الدنيا لآل محمد وكادت لهم صم الجبال تذوب

فمن مبلغ عني الحسين رسالة وان كرهتها أنفس وقلوب

قتيل بلا جرم كأن قميصه صبيغ بماء الأرجوان خضيب[1]

وروى الصدوق في اماليه وفي ثواب الأعمال، وابن قولويه في كامله «بالإسناد الى أبي عمّارة قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال: **أنشد في الحسين**، فأنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، قال: فوالله ما زلت أنشده وهو يبكي، حتى سمعت البكاء من الدار، فقال: **يا ابا عمارة: ... من أنشد في الحسين فأبكي فله الجنة، ومن أنشد في الحسين فتباكى فله الجنة...**

وروى الصدوق في ثواب الأعمال وابن قولويه في كامله « بالاسناد الى أبي هارون المكفوف، قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال: **يا أبا هارون: أنشدني في الحسين**، فأنشدته ـ فلم يعجبه الانشاد؛ لخلوه من الرقة المشجية، وكأنه تركها حياء من الامام عليه السلام ـ فقال: **لا**، ـ يعني لا تنشد بهذه الطريقة ـ **بل كما تنشدون، وكما ترثيه عند قبره**، قال: فأنشدته[2] حينئذ:

---

(١) هذا الرثاء نقله عن الامام الشافعي جمال الدين الحافظ الزرندي المدني كما في كتاب معارج الاصول، ونقله الفاضل البلخي في ينابيعه.

(٢) أنشد ابو هارون هذه الأبيات وهي للسيد اسماعيل الحميري.

أمرر على جدث الحسين فقل لأعظمه الزكية
ياأعظما لا زلت من وطفاء ساكبة رويه
واذا مررت بقبره فأطل به وقف المطية
وابك المطهر للمطهـ ـر والمطهرة التقية
كبكاء معولة أتت يوما لواحدها المنية

قال: فبكى، ثم قال: زدني، فأنشدته القصيدة الأخرى:

يامريم قومي واندبي مولاك وعلى الحسين اسعدي ببكاك

قال: فبكى الصادق، وتهايج النساء من خلف الستر، فلما أن سكتن قال: **يا أباهارون: من أنشد في الحسين فبكى وأبكى عشرة كتبت لهم الجنة**، الى أن قال: **ومن ذكر الحسين عنده فخرج من عينه مقدار جناح ذبابة، كان ثوابه على الله ولم يرض له بدون الجنة.**

ودخل عبدالله بن غالب[١] على الامام الصادقعليه السلام، فأنشده مرثيته في الحسينعليه السلام، فلما انتهى الى قوله ـ لبلية... البيت[٢]، صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه.

وللامام الضامنعليه السلام مع دعبل الخزاعي قضية مشهورة[٣]: وذلك لما وفد

---

(١) اخرجه بن قولويه في كامل الزيارات بسند صحيح.

(٢) تمامه هكذا:

لبلية تسقوا حسينا بمسقاة الثرى غير التراب

(٣) أشار اليها الفاضل العباسي في أحوال دعبل من معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص في أول ص: ٣٧٣ وذكرها الصدوق في عيون أخبار الرضا، والعلامة الأربليّ في

عليه بعبقريته التائية، تلك القصيدة التاريخية الرنانة، التي تجاذبت بها اندية الأدب، وانتشرت في أقطار العرب، وقامت بتلاوتها في دار الرضا قيامة الأحزان، وقرعت ساحته الشريفة بنوح دعبل بها الأشجان، فبكى الامام أحر بكاء، وعلا من وراء الستر صراخ النساء، وكان لأطفاله رنين ومأق ورغاء[1]، حتى استولى عليه الإغماء، واشترك في البكاء معه جنة الأرض وملائكة السماء.

وقد علم الناس أن الإمام زين العابدينعليه السلام قد أمر بشراً برثاء سيد الشهداء، حيث قال: **يا بشر[2] رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟**

قال: نعم يابن رسول الله.

قالعليه السلام: **ادخل المدينة وانع أبا عبدالله.**

قال بشر بن حذلم: فركبت فرسي، وركضت حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبيصلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء، وأنشأت:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها　　　قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج　　　والرأس منه على القناة يدار

كشف الغمة، والمجلسي في ج:١١ من بحاره، وابو الفرج الاصفهاني في اغانيه، وغير واحد من المحدثين والمؤرخين.

(١) المأق: ما يأخذ الصبي بعد البكاء من الشهيق الشبيه بالفواق، ورغاء الصبي: هو أشد ما يكون من بكائه.

(٢) ذكر ذلك السيد ابن طاووس في كتاب اللهوف على قتلى الطفوف.

الأهداف السياسية والحركية

في ثورة الإمام الحسين*

الشيخ محمد مهدي الآصفي

---

* بحث مستلّ من كتاب " في رحاب الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء" للشيخ محمد مهدي الآصفي ـ ط ١ ـ ١٤٢٧ ـ قم.

بسم الله الرحمن الرحيم

كان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام قد عقدا العزم على إعلان الخروج على سلطان بني أمية، عندما تسمح الظروف بعد موت معاوية.

وقد أظهرا ذلك لشيعتهم أكثر من مرة. وكانت خطة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام في ذلك واحدة في الموقف من بني أمية.

وقد كتب مجاميع من شيعة العراق إلى الحسين عليه السلام، بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، يدعونه للخروج على معاوية وإعلان الثورة، رافضين موقف الإمام الحسن من الصلح، فكتب إليهم الحسين عليه السلام:

«صدق أبو محمد، فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته، مادام هذا الإنسان (معاوية) حياً»[1].

وشاء الله تعالى أن ينفذ غدر معاوية في الإمام، ويستشهد الإمام قبل هلاك معاوية، وتولى الحسين عليه السلام الإمامة وقيادة المعارضة ومسؤولية الثورة والحركة من بعد أخيه.

فكان موقف الحسين عليه السلام بعد وفاة المجتبى هو استمرار موقف أخيه

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري: ٢٢١.

الحسن من قبل، تجاه معاوية.

فكتب إليه عليه السلام أهل العراق أن يخرج بهم على معاوية فلم يستجب الإمام الحسين لرأيهم وكتب إليهم:

«أما أخي فأرجوا أن يكون الله قد وفقه وسدّده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فألصقوا رحمكم الله بالأرض واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً»[1].

إلاّ أن تحركاً سياسياً كان يجري في الحجاز في الكتمان في جو المعارضة يقوده الإمام الحسين عليه السلام، ويوجهه لتأليب المسلمين ضد سلطان بني أمية، تمهيداً للخروج عليهم بعد موت معاوية.

فقد كان الإمام عليه السلام على اتصال بوجوه المسلمين من العراق والحجاز، يزورونه ويأخذون برأيه، ورغم أن هذه الاجتماعات كان يغلب عليها طابع السرية إلاّ إنها كانت لا تغيب عن عيون بني أمية وجواسيسهم؛ فكتب مروان عامل معاوية على المدينة إلى معاوية:

(إنّ عمر بن عثمان ذكر إن رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وأنه لا يؤمن وثوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا، فاكتب إليّ برأيك)[2].

فكتب إليه معاوية أن يتجنب مواجهة الحسين ما أمكنه ذلك.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الحسين عليه السلام قد عزم على الخروج على

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري: ٢٢٢.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري: ٢٢٤.

سلطان بني أمية إذا مات معاوية وكانت الظروف مؤاتية وكان قد أعدّ شيعته لذلك.

ونحن لا نشك في إن الإمام لم يكن يطلب في ثورته، وخروجه على يزيد بن معاوية إسقاط النظام الأموي عسكرياً، والاستيلاء على السلطة. فلم يكن للإمام أعوان يعتمد عليهم في حركته وخروجه في غير العراق. فقد كانت مصر والحجاز بعيدتين كل البعد عن ظروف الثورة والحركة، وكانت الشام القاعدة المتينة التي ينطلق منها يزيد بن معاوية، ويحتمي بها في حماية ملكه وسلطانه.

ولم يكن هوى أهل العراق معه من غير شيعته؛ وكان الإمام يعلم جيداً أن من غير الممكن الاعتماد على جمهور أهل العراق، فهم مع الطرف المنتصر، ومن الخير له ولخروجه ألا يلتحقوا بهم، فإنهم سوف ينفرطون عن جيشه كما انفرطوا من جيش أخيه الحسن عليه السلام من قبل، ويفتّون في عضده وعضد أصحابه وشيعته ولا يثبت معه إلا الذين ثبتوا من قبل في جيش أخيه الحسن عليه السلام، وهم قلة ليس بإمكانهم الصمود أمام جيوش الشام.

ولقد صدقت نبوءة الفرزدق للإمام حين ألتقى به في الشقوق [١] حين أقبل على الإمام وقبل يده، فسأله الإمام كيف خلفت أهل الكوفة ؟

فقال: خلّفت الناس وقلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أمية، فقال له الحسين عليه السلام: «**صدقت وبررت، إن الأمر لله يفعل ما يشاء**»[٢].

ولم تكن تجربة الإمام الحسن عليه السلام بعيدة عن الحسين، ولم يكن الإمام

---

(١) منزل بطريق مكة بعد واقصة من الكوفة، معجم البلدان: ٢٨٣/٥.

(٢) انظر الفتوح لأبن الأعثم: ١٢٤/٥، ومقتل الخوارزمي: ٢٢٢/١.

الحسين بأقدر من أخيه في تجميع قوة عسكرية لضرب سلطان بني أمية وإسقاط النظام. إن لم تكن ظروف الحسين عليه السلام أصعب من ظروف أخيه الحسن. فقد أستقر لبني أمية السلطان، وأمتدّ نفوذهم، وعمل معاوية بدهائه المعروف في تحكيم أصول حكم بني أمية، وامتداد نفوذهم، وشراء الضمائر، ونشر الرعب والإرهاب في أجواء المعارضة، واكتساح الأكثرية التي يتحكم فيها الإرهاب والإغراء، ويميلون دائماً إلى الجهة المنتصرة القوية في الساحة.

فلم يكن حدَث حدثٌ جديد في الساحة السياسية والعسكرية غير ما عرفناه في عهد الإمام الحسن عليه السلام غير أمرين أثنين:

أحدهما: استحكام قواعد سلطان الأمويين وامتداد نفوذهم في البلاد.

والثاني: انتشار الفساد في جهاز بني أمية إلى حد الاستهتار والابتذال في حياة يزيد وحكومته.

والأمر الأول: لم يكن لصالح الإمام في أي تحضير عسكري لإسقاط النظام؛ فقد كانت تجربة الإمام الحسن عليه السلام بعد قائمة في نفوس شيعته، حيث لم يستطع جيش العراق أن يقاوم سلطان بني أمية بعد وفاة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

فما ظنك بهذه القوة العسكرية، بعد أن استحكم لبني أمية الحكم والسلطان، وأمتّد نفوذهم في البلاد واستتب لهم الأمر ؟

وأما الأمر الثاني: وان كان ينفع في تحريك الأقلية المعارضة الواعية من الشيعة، إلا انه لم يكن ينفع ـ بالتأكيد ـ في تحريك الأكثرية التي ألفت هذا

الفساد واستسلمت له، بل وأعانت عليه.

فلم يكن يصفو ـ إذن ـ للإمام الحسين من القوة العسكرية غير ما صفا لأخيه الحسن عليه السلام من قبل، وهم الثابتون من شيعته ومواليه، ولا يمكن أن يفكر الإمام ـ بكل تأكيد ـ أن يجازف بهذه القوة المحدودة لإسقاط النظام الأموي الرهيب بعد أن أخفقت محاولة أخيه الإمام الحسن، في ظروف أحسن من ظروفه، وبقوة عسكرية أقوى من الجيش الذي كان يعده له العراق بعد موت معاوية.

وهذا التشخيص ليس مما نضيفه نحن من عندنا إلى الظروف التي رافقت خروج الحسين عليه السلام وثورته، وإنما نجده عند كل الذين نصحوا الإمام بالإعراض عن الخروج إلى العراق، ممن كان يعز عليهم أن يواجه الإمام تجربة أخيه الإمام الحسن عليه السلام مرة أخرى في العراق، كعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم.

ونجد هذا التشخيص بالذات في كلمات الإمام الحسين عليه السلام بصورة مؤكدة ومتكررة قبل الخروج إلى العراق وبعده.

اخبار الإمام عليه السلام بمصرعه في العراق

ونذكر هنا نموذجين فقط من خطب الإمام التي توحي بصورة قوية؛ إلى إن الإمام كان مقدماً على الشهادة والتضحية، ولم يكن يفكر في عمل عسكري لإسقاط النظام عسكرياً.

أحدهما: في الحجاز قبل أن يفارق مكة إلى العراق. والثاني في كربلاء.

اما الخطبة الأولى: فهي التي يرويها ابن طاووس في اللهوف.

قال رحمه الله: روي أنه عليه السلام، لما عزم على الخروج إلى العراق، قام خطيباً فقال: **«الحمد لله، وما شاء الله، ولا قوة إلاّ بالله، وصلى الله على رسوله. خط الموت على ولد آدم، مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني الى أسلافي أشتياق يعقوب الى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربةً سغباً، لامحيص عن يوم خط بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقر بها عينه، وينجز بهم وعده، فمن كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»**[1].

ولسنا نحتاج إلى التعليق على هذه الخطبة، فهي واضحة في أن الإمام عليه السلام كان يعد أصحابه لملحمة قوامها التضحية والدم والشهادة، ولا يطمح فيها إلى أي نصر عاجل.

فها هو يبدأ خطابه مع أصحابه بالموت الذي يطوّق أبن آدم، كما تطوق القلادة جيد الفتاة.

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاووس: ٥٣، طبعة أصفهان ١٣٦٦هـ ش، ونفس المهموم للمحدث القمي: ١٦٣ مكتبة بصيرتي في قم ١٤٠٥هـ ق، وص ٧٠ مطبعة العرفان صيدا ١٣٣١هـ ق.

ثم يخبر عن مستقبل هذه الحركة المأساوية فيقول: «**كأني بأوصالي تقطّعها عسلان (ذئاب) الفلوات**».

ثم يطلب النصر من المسلمين، ولكن بهذه الطريقة الفريدة: «**فمن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا**».

إن الإمام لا يشير في هذه الخطبة إلى أي هدف عسكري بالمعنى المعروف في الأعمال العسكرية، وإنما يعد أصحابه لتضحية مأساوية دامية، ويطلب ممن يريد أن يرافقه أن يعدوا أنفسهم للقاء الله ولبذل المهج في سبيل الله.

والخطبة الثانية: التي خطبها الحسين بذي حسم من منازل العراق فقال:

«**ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فأني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً**»[1].

ولما سار الإمام بأصحابه من قصر بني مقاتل خفق خفقة ثم انتبه، وهو يقول: (**إنا لله وإنا إليه راجعون**) فأقبل عليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: ياأبت، جعلت فداك، ممّ حمدت الله واسترجعت ؟ قال: **يابني إني خفقت برأسي خفقة فعن لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمت إن أنفسنا نعيت إلينا.**

قال له: ياأبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق ؟

قال: بلى والذي إليه مرجع العباد.

---

(١) الطبري: ٣٠١/٧ الطبعة الأوربية.

قال: يا أبت، إذن لا نبالي، نموت محقين.

فقال: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده[١].

ولا يقتصر الأمر على هذه الكلمات والخطب التي يرويها أصحاب السير كـ(الطبري) و(ابن الأعثم) و(السيد ابن طاووس) و(المفيد) وغيرهم بصورة متواترة، لا تقبل الشك. فإن كان شيء في حركة الحسين عليه السلام إلى العراق يدل على إن الإمام لم يكن بصدد حركة عسكرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لإسقاط النظام الأموي.

إذن فإن الإمام لم يكن يفكر، ولا يمكن أن يفكر في حركة عسكرية، وإنما كان الإمام يقدم عن علم ووعي على تضحية مأساوية نادرة، بنفسه، وأهل بيته، وأصحابه، ليهز ضمير الأمة الخامل، ويبعث في نفوسهم الحركة وروح التضحية والإقدام.

ولعل في حديث الإمام مع أخيه محمد بن الحنفية رحمه الله عندما أراد الخروج من مكة إلى العراق ما يشير إلى هذه الغاية. والرواية يرويها السيد ابن طاووس في اللهوف.

يقول السيد رحمه الله: «إن محمد بن الحنفية عندما علم بخروج الحسين من مكة أتاه فاخذ زمام ناقته التي ركبها فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك ؟ وكان قد سأل الإمام أن يسير إلى اليمن. وينصرف عن العراق.

---

(١) الطبري: ٣٠٦/٧ الطبعة الأوربية، وينقل الطبري مناماً للإمام بهذا المضمون: ٣١٨/٧.

قال: بلى. قال، فما دعاك على الخروج عاجلاً ؟ فقال: **أتاني رسول الله** صلى الله عليه وآله **ـ في المنام ـ بعد ما فارقتك فقال: يا حسين أخرج فأن الله شاء أن يراك قتيلاً.**

فقال له ابن الحنفية: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فما معنى حملك هؤلاء النساء، وأنت تخرج على مثل هذه الحال ؟ فقال له: **إن الله شاء أن يراهن سبايا.** وسلم عليه ومضى[1].

عندما تفشل الحروب العسكرية، تنجح المقاومة العسكرية

إذن فالنتيجة التي ننتهي إليها في هذه الجولة السريعة: إن الإمام الحسين عليه السلام كان يفكر في الإقدام على (مقاومة مسلحة) في وجه النظام تتبعها تضحية مأساوية دامية، ولم يكن يفكر في (عمل عسكري) على الإطلاق لمواجهة سلطان بني أمية، وهذان نحوان من الخروج، كل منهما يحقق هدفاً محدوداً، والخلط فيما بينهما يؤدي إلى الوقوع في أخطاء تاريخية كبيرة، تشوش علينا فهم الثورة الحسينية وغاياتها ونتائجها.

والآن نتساءل عما كان يمكن أن يقصده الإمام من أهداف وغايات من وراء هذه (المقاومة المسلحة) والتضحية المأساوية، التي أقدم عليها عن علم ووعي.

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاووس: ٥٥ ط أصفهان، ونفس المهموم: ١٦٤ـ١٦٥. قم ١٤٠٥هـ ق، وروى الفقرة الأخيرة المتعلقة بالنساء المسعودي في إثبات الوصية: ١٤١ ط النجف المطبعة الحيدرية.

وفيما يلي بيان توضيح ذلك:

١. تحرير إرادة الأمة:

يستخدم الطغاة عادة سلاحين مؤثرين في وجه تحرك الأمة وتمردها ورفضها للظلم.

وهما سلاح (الإرهاب) و(الإفساد)، ومن خصائص هذين السلاحين، إنهما يسلبان الأمة الإرادة والقدرة على التحرك والوعي والإدراك.

ومن أولى مستلزمات كل حركة (الوعي) و(الإرادة)، وعندما يفقد الإنسان بصيرته وإرادته يفقد كل قدرة للتحرك، ويستسلم للواقع الفاسد، ويتكيف معه، وعند ذلك يسيطر الطاغية وعصابته على إرادة الأمة ووعيها ومصيرها، وحتى على ذوقها وأخلاقها وأعرافها، ويتم مسخ شخصية الأمة بصورة كاملة في كل أبعادها، ويتحكّم الطاغية في كل شيء في حياة الأمة، ولا تملك الأمة تجاه الطاغية غير الطاعة والانقياد والاستسلام.

والى هذه الحقيقة يشير القرآن في علاقة فرعون بقومه وعلاقتهم بفرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[١].

إن فرعون تمكن من أن يستخف قومه، وأن يسلبهم وعيهم وإرادتهم وقيمهم بالإرهاب والإفساد؛ وبذلك تمكن من أن يمسخ شخصيتهم مسخاً كاملاً، وأن يستأصل من نفوسهم كل قدرة على الوعي والتفكير، فضلاً عن

---

(١) الزخرف: ٥٤.

الإرادة والمقاومة والرفض. وبهذه الصورة استطاع فرعون أن يكسب طاعتهم (فأطاعوه).

وهذه الطريقة هي الطريقة المفضّلة لأئمة الضلال في اكتساب طاعة الناس وولائهم، ويقوم هذا الولاء والطاعة عادة على حطام شخصية الأمة.

عند ذلك يعيش الحكام من أئمة الضلال في راحة تامة من ناحية الناس، ولا يقلقهم شيء من جانبهم، ويتحول الناس إلى قطيع من المتملقين والمتزلفين والراضخين، وينقلب في نفوسهم الوعي والإرادة إلى تبعية الحكام، فيحبون ما أحبوّا ويريدون ما أرادوا، وهكذا تتم عملية المسخ والانقلاب في شخصية الأمة، وبهذه الصورة تتكون في الأمة طبقتان:

١ـ طبقة المستكبرين: وهم الحكام من أئمة الضلال ومن يرتبط بهم، ومن ينتفع منهم من «الملأ»، الذين يستعلون على الناس، ويستكبرون في الأرض، ويتحكّمون في حياة الناس وإرادتهم ومصيرهم، حتى أذواقهم وأخلاقهم، ويضعون أنفسهم في مركز السيادة والحاكمية من حياة الإنسان من دون الله، ويستعلون على الناس ويفسدون في الأرض، وهؤلاء هم الطاغوت [١]، الذين يتجاوزون حدود العبودية والطاعة لله تعالى إلى الاستكبار والسيادة والحاكمية من دون الله، والإفساد في حياة الناس.

---

(١) يقول الراغب في المفردات: الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع قال تعالى: (فمن يكفر بالطاغوت)(والذين أجتنبوا الطاغوت)(أولياؤهم الطاغوت)(ويريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) مفردات الراغب: ٣٠٤ـ٣٠٥.

٢ـ طبقة المستضعفين: الذين يستخفهم الطاغوت (يسلبهم ثقلهم من موازين الإنسانية)، ويستضعفهم،(يسلبهم القدرات والإمكانات والكفاءات التي منحهم الله تعالى لهم)، وتتحول هذه الطبقة الواسعة إلى طبقة تابعة (إمعة) ومنقادة، ومستسلمة للأمر الواقع، وتفقد خصائصها وقيمها الإنسانية كافة، وتتحول إلى أداة طيعة لتنفيذ كل ما يمليه عليها الطاغوت.

وأول ما تفقد هذه الطبقة وعيها وإرادتها، ومن ثم تفقد كل شيء في حياتها مما منحها الله تعالى من القيم والكفاءات.

﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[1].

إن الطاغوت يسلبهم (الوعي) و(الإرادة) عن طريق (الإرهاب) و(الإفساد)، ولإنقاذهم من قبضة الطاغوت وأسره لابد من إعادة (الوعي) و(الإرادة) إليهم قبل كل شيء، حتى ينظروا الى الأمور والأشخاص بوعيهم الذي أعطاهم الله، لا من خلال ما يحبه الطاغوت ويكرهه، ليتمكنوا من اتخاذ القرار لأنفسهم بأنفسهم، لا أن يتخذ الطاغوت القرار بالنيابة عنهم ولهم.

ولقد واجه الحسين عليه السلام واقعاً اجتماعيا وسياسياً سيئاً من مثل هذا الواقع، تمكن فيه بنو أمية من مسخ شخصية الأمة مسخاً كاملاً، ومصادرة قيمها وقدراتها ووعيها وإرادتها. وأسوأ ما كان في هذه الردة أن الطاقات التي فجرها الإسلام في نفوس هؤلاء الناس للقضاء على الظلم والشرك وبناء التوحيد والعدل تحولت إلى أداة لإسناد الظلم والشرك، والسيف الذي قلّدهم به رسول الله صلى الله عليه وآله لقتال أعداء الإسلام، تحول في أيديهم إلى أداة

---

(١) البقرة: ٧.

لمحاربة أبناء رسول الله وأوليائهم دون أعدائهم.

وكان هذا هو جوهر المسخ الحضاري، الذي تم على يد بني أمية في حياة هذه الأمة.

والى هذا المعنى يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش بن سعد:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها[1] على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيم»[2].

فكيف جرت ـ يات رى ـ هذه الانتكاسة الخطيرة في نفوس هؤلاء الناس، حتى عادت سيوفهم التي مكّنهم الإسلام منها لمحاربة البغي والظلم والشرك إلى محاربة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، الزكي الطاهر الأمين، ولصالح سلطان ابن معاوية الفاسق السكير، الذي كان لا يشك في فجوره وفسقه وشربه وفحشه أحد من المسلمين ؟

وكيف جرت ـ يا ترى ـ هذه الانتكاسة الخطيرة في حياة الناس، حتى تخالفت قلوب هؤلاء الناس وسيوفهم، كما قال الفرزدق للحسين عليه السلام: (إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك) ؟ ثم توافقت قلوبهم وسيوفهم على ابن رسول الله، وأهل بيته وأصحابه المقيمين للصلاة، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

---

(١) أي: أو قدتم علينا ناراً كنا قد اقتدحناها واستخرجناها نحن على عدونا وعدوكم.

(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢٦٢ ط النجف ١٣٧٦.

وكيف تحولت هذه القوة التي منحهم الإسلام إياها، والمركزية والسيادة، والموقع الممتاز الذي اكتسبوه بالإسلام، إلى قوة ضاربه لصالح أعدائهم ضد أوليائهم ؟

فقد جعل منهم الإسلام قوة كبرى بين الأمم، ومنحهم موقعاً ممتازاً على وجه الأرض، وأخرجهم من دائرة الخمول، وسلّط عليهم الضوء.

لست أدري ماذا حل بهذه الأمة من فتنة حتى تحولت هذه القوة والسلطان والمركزية، كلها لصالح أعدائهم على أوليائهم ؟ وعاد من جديد أولئك الذين كانوا يحاربون هذا الدين إلى مراكزهم القيادية في المجتمع، مستفيدين من كل هذه القوة، والمركزية، والنفوذ، والسلطان، الذي جاء به الإسلام، وأصبح دعاة هذا الدين وقادته، الذين حملوا هذا الدين في موضع الاتهام والمحاربة من قبل الأمة، تقاتلهم بالسيف الذي وضعه الإسلام في أيديهم، وكان الحريّ بهم ان يقتلوا به أعداءهم.

وما أروع تعبير الإمام وأصدقه بهذا الصدد «**سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم**».

وذلك كله من غير أن ينقلب هؤلاء الذين كانوا يحاربون الإسلام في الأمس القريب، عن مواقعهم العدائية من الإسلام ومن هذه الأمة. فلا زالوا يحملون بين جنبيهم روح الجاهلية، ويمارسون أخلاقها وعاداتها ويمارسون الرعب والفساد في أوساطها «بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم».

وكانت هذه الأمة في جاهليتها ضعيفة، خاملة الذكر معزولة عن العالم، راكدة، لا تكاد تجد في حياتها حركة أو عزماً أو قوة على المواجهة،

فاستثار رسول الله صلى الله عليه وآله كوامن الحركة، والقوة، والعزم، والانطلاق، والبناء في نفوس هؤلاء الناس، واستخرج الإسلام كنوز القدرة والحركة والثورة في نفوسهم.

وتحولت هذه الأمة الراكدة إلى حركة حضارية كبرى على وجه الأرض في التاريخ، تحرق الجبابرة والطغاة، ولكن ما أسرع ما انتكست هذه الأمة؛ فتحولت هذه الحركة، والقوة، والانطلاقة التي استثارها الإسلام باتجاه عكسي تماماً، للقضاء على حملة هذا الدين، ودعاته، وأوليائه، ولصالح الطبقة المترفة التي كانت تحارب هذا الدين بالأمس القريب، وتحمل حتى اليوم، معها إلى الإسلام رواسب الجاهلية، وأفكارها، وعاداتها، وسلوكها !.

«وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم»[1].

ولا نعرف فيما يصيب الأمم من المآسي، مأساة آلم وأفجع من أن ينقلب الإنسان على نفسه؛ فيؤثر ضرّه على نفعه، وفساده على صلاحه، ويحارب أولياءه ويدافع عن أعدائه.

ولقد أصاب المسلمين في هذه الفترة مأساة من مثل هذه المأساة.

والإمام يعّبر عن ألمه العميق بهذه الكلمة المشجية:

«ويحكم ! أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون ؟».

إننا لا نشك في إن الأمة قد تعرضت في هذه الفترة لردة حضارية عجيبة، من

---

(١) حششتم: أوقدتم، اقتدح النار: حاول إخراج النار.

قبيل ما يقول تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[1].

وآية هذه الردة الحضارية التي تنتكس فيها الأمة هي أن يتحول الأولياء في حياة الأمة إلى موضع الأعداء، ويتحول الأعداء إلى موضع الأولياء.

وعندما يتبادل هذان القطبان: (الولاية والبراءة) في حياة الناس مواضعهما، ويأخذ كل منهما موضع الآخر، فإن هذه الأمة تواجه أخطر ما يمكن أن تواجهه أمة في تاريخها وهو (الردة الحضارية).

والأمة في هذه الردة تتنكر لنفسها وتنقلب عما هي عليه إلى شيء آخر؛ فإن هوية الأمة وشخصيتها بالولاء والبراءة، وعندما يتحول الولاء إلى موضع البراءة والبراءة إلى موضع الولاء، فإن هذه الأمة توجه حالة انتكاسة خطيرة.

وهذا هو ما يشير إليه الإمام في خطابه لجيش آل أبي سفيان يوم عاشوراء: «**فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم**».

وهي الحالة التي يتنكر فيها الإنسان لنفسه، ويعادي نفسه. فإن الإنسان عندما يتودد إلى عدوه، ويساعده ويعينه على أوليائه، فإنما يعينه على نفسه، ولا يمكن أن يقدم الإنسان على مثل ذلك، إلاّ إذا تنكر لنفسه ونسي نفسه.

والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق ومعبر:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2].

إن الذي ينسى الله ينسيه نفسه، والذي يتنكر لله يُنكِّر الله نفسه عليه.

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) الحشر: ١٩.

والإنسان في هذه الحالة، من السقوط والتردي، إنما يخسر نفسه، وشر أنواع الخسارة أن يخسر الإنسان نفسه. فإذا خسر الإنسان نفسه يفقد كل رأس ماله، ولا يبقى له شيء بعد ذلك يرجوا منه خيراً.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾[1].

ويقول عز شأنه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

وخسارة النفس تختلف عن أية خسارة أخرى، فإن الربح والخسارة هما الزيادة والنقصان فيما يملك الإنسان مع بقاء المحور: (الأنا). فكلما يكتسب الإنسان من فائدة مادية أو معنوية يدخل في حساب (الربح)، وكلما يفقد الإنسان من المواهب المادية والمعنوية التي آتاه الله تعالى يدخل في حساب (الخسارة).

ولكن الإنسان في هذه الأحوال جميعاً يحتفظ بـ(نفسه) التي هي المحور التي تدور حوله الأرباح والخسائر.

فإذا خسر الإنسان هذا المحور أي: خسر نفسه، لاما يملك من مواهب مادية ومعنوية، وسقط هذا المحور كان هو الخسران الأكبر، الذي لا تشبهه خسارة أخرى.

---

(١) الأعراف: ٩.

(٢) الزمر: ١٥.

والى هذا المعنى من الخسارة يشير القرآن الكريم بكلمة (وخسروا أنفسهم) في أكثر من آية[١]، ونلتقي في القرآن تعبيراً آخر عن هؤلاء الناس الذين يخسرون أنفسهم في الحياة الدنيا وهو (ظلم النفس).

يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].

والذين يعاقبهم الله بظلمهم، لم يظلمهم الله، وإنما كانوا هم الذين أقدموا على ظلم أنفسهم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣].

وأخيراً إن مآل الخير والشر هو النفس، وإن الذي يهتدي فإنما يهتدي لنفسه، والذي يضل فإنما يضل على نفسه.

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[٤].

أي يستقر الضلال والغي على نفسه، هؤلاء يضلون على أنفسهم، ويضل سعيهم وعملهم وتحركهم.

والخسارة والضياع الكبير: أن يضل الإنسان على نفسه، ويضل سعيه وعمله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٥].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٦].

---

(١) لاحظ سورة الإنعام: ١٢، والأعراف: ٩ و٥٣، وهود: ٢١، والمؤمنون: ١٠٣، والزمر: ١٥ وآيات أخرى مثل هذه الآيات.

(٢) البقرة: ٥٧.

(٣) النحل: ١١٨.

(٤) يونس: ١٠٨، والإسراء: ١٥.

(٥) الكهف: ١٠٤.

(٦) سورة محمد: ٨

فإن الإنسان إذا تنكر لنفسه وظلمها وعاداها خسرها.

وعندما يخسر الإنسان نفسه يضل سعيه وعمله، ويذهب هباءً كل جهده وعمله.

والى هذه الخسارة يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطابه الذي وجهه إلى أصحاب الحر في منزل البيضة:

«فأنا الحسين بن علي وأمي فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، ولكم فيّ أسوة...وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[1] وسيغني الله عنكم»[2].

إن هذه الظاهرة من أغرب ما يلتقيه الإنسان من ظواهر غريبة في حياته على ظهر الأرض.

إن الإنسان بهذا التحول الذي يشرح خطواته ومراحله القرآن الكريم يظلم نفسه، ويتنكر لها، فيخسرها، ويعود شيئاً آخر يختلف اختلافا كلياً عما كان عليه، يمشي ويتحرك بين الناس، ولكن من دون إرادة ووعي، بل بما يملى عليه ويراد منه.

يتحرك لا بإرادته، وإنما بإرادة الطاغوت الذي يستعبده ويحركه، لا بالاتجاه الذي ينفعه ويخدمه، وإنما بالاتجاه الذي يخدم عدوه.

---

(١) يشير الإمام إلى سنة الله تعالى في المحق.

(٢) وفي هذه الفقرة يشير إلى سنة «الاستبدال» بعد «المحق» تاريخ الطبري: ٢٢٩/٦.

هؤلاء هم الذي تنتكس قلوبهم ويختم الله عليها، صدق الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾[١]، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[٢].

ولن تعود لهم إرادة، ووعي، وفهم، ونور يتحركون به في الناس إلاّ أن يشاء الله.

وعندما يفقد الإنسان الوعي، والنور، والإرادة، والعزم في حياته ينقلب إلى أداة طيعة وسهلة بيد الطاغوت، يستخدمه في تحقيق أطماعه بالشكل الذي يريد، ويوجهه إلى ضرب أوليائه بأعدائه، وهذا التحول العجيب في حياة الناس هو الذي حدث في هذه الفترة من التاريخ على يد حكام بني أمية في هذه الأمة وواجهه الحسين عليه السلام بمرارة وألم.

لقد جرى ـ بالتأكيد ـ تحول خطير في نفوس هؤلاء الناس؛ حتى عاد أسفلهم أعلاهم، وأعلاهم أسفلهم، في انتكاسة رهيبة يقل نظيرها في التاريخ، حتى يخرج ثلاثون ألفاً منهم أو أكثر من الكوفة عاصمة أمير المؤمنين لمحاربة سيد شباب أهل الجنة، وابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ونجل أمير المؤمنين عليه السلام.

والتفسير الوحيد الذي يستطيع أن يفسر لنا سر هذه الانتكاسة والمسخ الحضاري في شخصية الأمة ـ أو طائفة كبيرة من الأمة على أقل التقادير ـ يكمن في الجهد الواسع الذي بذله بنو أمية في إرهاب الناس وإفسادهم لفرض سيطرتهم على المسلمين، ومسخ الهوية الإسلامية حتى عادت

(١) الأنعام: ١١٠.

(٢) البقرة: ٧.

ضمائرهم وإدراكهم و إراداتهم في قبضة بني أمية، يتحكمون فيها بالطريقة التي تعجبهم، وتخدم أهدافهم.

وكان لابد من هزة قوية عنيفة لضمير الأمة تعيد إليها وعيها، وإرادتها، وقيمها، وتشعرها بعمق الكارثة التي حلت بها، وتبعث الندم في نفوسهم، حتى لو لم تكن هذه الهزة تنفع هذا الجيل، فقد كانت تعتبر ضرورة من ضرورات المرحلة لإنقاذ الجيل الذي يأتي من بعد هذا الجيل؛ لئلا يسري إليه هذا الانحطاط الحضاري الذي لزم هذا الجيل.

وقد أحدثت المقاومة المسلحة التي قادها الإمامعليه السلام وتضحيته المأساوية هزة عميقة في وجدان الأمة، وكانت بحكم الصعقة التي تتطلبها الساحة السياسية والحالة الاجتماعية للناس يومئذٍ.

لقد نبّهت شهادة الحسينعليه السلام وأهل بيته وأصحابه بالطريقة المفجعة التي تمت بها ضمائر المسلمين، وأشعرتهم بالندم، ومكنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم من جديد، فيكّفروا ويتوبوا عن تخليهم عن نصرة ابن بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله.

لقد شعروا ـ بعد الانتباه ـ بالكابوس الرهيب الذي كان يلقي بثقله على صدورهم، وقلوبهم وعقولهم.

فقد هزت تضحية الإمام الحسينعليه السلام ضمائر المسلمين، هزة عنيفة، وأشعرتهم بفداحة الإثم، وضخامة الجريمة، وعمق الردة والانتكاسة في نفوسهم وحياتهم؛ فكانت هذه التضحية المأساوية مبدأً ومنطلقاً لحركات كثيرة، ومصدراً كبيراً للتحريك في التاريخ الإسلامي...وهذه هي الغاية (الحركية) في ثورة الإمام الحسينعليه السلام.

٢. سلب الشرعية من النظام:

رغم فداحة الخسائر التي لحقت بالمسلمين والانحراف والانحطاط الذي لزمهم في هذه الفترة من حكم بني أمية فقد كان هناك خطراً أكبر بكثير من كل ذلك يلحق الإسلام مباشرة وليس المسلمين فقط، وهو أن ينسحب هذا الانحراف على الإسلام نفسه، ويتعرض الإسلام لما تعرض له المسلمون من تحريف.

وذلك إن هذا الانحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلامية التي كانت تمتلك في نفوس المسلمين، رصيداً كبيراً من الشرعية والقدسية، وقد كان بنو أمية يعتمدون كثيراً عنصر الشرعية في موقعهم السياسي والاجتماعي، وكانوا يوحون إلى الناس بطريق أو آخر أن موقع الخلافة أقوى من موقع الرسالة، فيقول قائلهم: (إن خليفة أحدكم أفضل من رسوله)[١].

وكانوا يرون في هذا الموقع أداة لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر الطرق، وأسهلها؛ فلذلك دأب معاوية على تحكيم هذه الشرعية لنفسه ولأبنه يزيد من بعده.

وكان هذا الموقع الشرعي الذي حرص عليه حكام بني أمية اكبر الأخطار التي تلحق الإسلام من جانب حكومة بني أمية فقد كان الانحراف ينحدر إلى الناس من قصور الخلفاء في أطار من الشرعية.

---

(١) القائل هو الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي، مشيراً إلى المقارنة بين خلافة عبد الملك ورسالة رسول الله ﷺ. شرح النهج لابن ابي الحديد المعتزلي: ٢٣٨/٩.

وكان هناك في قصور الخلفاء من يبرر ويوجّه هذا الانحراف، ويعطيه الصبغة الشرعية من علماء البلاط، وبالتالي كان هذا الانحراف ينعكس وينسحب على الإسلام، ويفقد الإسلام أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمة.

وقد حرص الإمام عليه السلام في حركته على كسر هذا الإطار الشرعي، الذي كان يحتمي به حكام بني أمية، وسلب صفة الشرعية من حكومة بني أمية، وتجريدها عن القدسية والشرعية التي كان يحرص عليها بنو أمية كل الحرص، وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأموي في تحريف الإسلام.

كان الإمام يجهر بهذه الحقيقة إجهاراً، ويعلن عن رأيه في يزيد، وعدم أهليته للخلافة، وينال منه كلما واتته فرصة.

وقد أعلن رأيه هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر، قال عليه السلام له بعد كلام طويل، وهو يريد أن يسمع مروان رأيه في يزيد وموقفه من البيعة:

«أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل نفس، معلن بالفسق، فمثلي لا يبايع مثله»(١).

وقد كان لخروج الإمام على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض البيعة ليزيد، واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على يد جيش الخلافة؛ كان لذلك كله أثر كبير في إسقاط شرعية الخلافة، وتجريدها عنها.

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي: ١٨٤/١.

لقد أثار استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، بالصورة المفجعة التي حدثت في كربلاء مشاعر المسلمين جميعاً، (من الجيل الذي تعقب جيل القتلة في كربلاء)، وفي جيل القتلة على صعيد واسع، واستشعروا جسامة الجريمة وبشاعتها في وجدانهم وضمائرهم، ونقموا على يزيد، ومن لحقه من خلفاء بني أمية الذين خلفوا يزيد على السلطان والحكم. وسقطت القيمة الشرعية للخلافة، ولم تعد الخلافة تُعد موقعاً شرعياً، يمتلك رصيداً من الشرعية والقدسية في نفوس المسلمين.

ولا يمكن أن يشك أحد في أن هذه الجريمة التي اقترفها جهاز الخلافة الأموية في عهد يزيد في العراق تركت أثراً عميقاً في ضمائر المسلمين جميعاً، (إن لم يكن في نفس الجيل، ففي الجيل الذي تعقب هذا الجيل مباشرةً)، وأسقطت مكانة الخلافة الأموية في نفوس المسلمين وعادت الخلافة الأموية موقعاً سلطوياً يمتلكه الأقوى، كما في سائر المواقع التي يمتلكها أصحاب السلطة في دنيا الناس.

وعلاقة الناس بهذا الموقع لم تعد كما كانت علاقة دينية خالصة نابعة من إيمان الناس بشرعية هذا الموقع.

ولذلك فلم يعد للانحرافات التي يرتكبها جهاز الخلافة الأموية تأثير تحريفي كبير على الإسلام.

وسلم الإسلام من تحريفات الحكام بنسبة كبيرة، وأصبح المسلمون بعد هذا التاريخ يرجعون في أمور دينهم إلى طبقة أخرى غير طبقة الحكام الذين يرجع إليهم الناس في أمور دنياهم بحكم الضرورة والاضطرار.

ومن هذا التاريخ بدأ يتكون في المجتمع الإسلامي خط آخر غير خط الخلافة، وهو خط الفقهاء والعلماء الذين يضع المسلمون ثقتهم الدينية فيهم، وبقدر ما كان يبتعد هؤلاء الفقهاء والعلماء عن الحكام والسلاطين كانت تزداد ثقة المسلمين بهم.

والذي يواكب قراءة التاريخ الإسلامي يجد فارقاً نوعياً واضحاً في موقع الخلافة قبل موقعة الطف وبعدها، وجوهر هذا الفرق هو افتقاد الخلافة بعد معركة كربلاء للصيغة الشرعية والإطار الديني الذي كانت تمتلكه من قبل.

وخلاصة القول إن ثورة الإمام الحسين عليه السلام وقيامه كان خروجاً على يزيد ومقاومة مسلحة تتبعها تضحية مأساوية فجيعة نادرة في تاريخ الإسلام، ولم تكن حرباً نظامية عسكرية، تستهدف إسقاط النظام، ووعي هذه الحقيقة ضروري في فهم ثورة الحسين عليه السلام. فلم يكن يرى الحسين أن بإمكان العراق أن يقاوم الشام، ولا أن يصفو له العراق، ولا أن يقاوم أهل العراق إرهاب بني أمية وإغراءهم، فما كانوا ليصفو في أحسن الأحوال للإمام من العراق غير قلة قليلة من شيعته يخرج بهم على يزيد...وكان الإمام عليه السلام يعلم بهذه الحقيقة ويفهمها جيداً.

إذن لم يكن الإمام يطلب فتحاً عسكرياً، وإنما كان يطلب في خروجه تحريك ضمائر المسلمين، وإثارة الضمائر والنفوس والعواطف والعقول بقوة بفعل المأساة المفجعة، التي لقَيَها الحسين عليه السلام على يد جيش بني أمية في كربلاء. وكانت غاية الإمام الحسين في هذه المأساة الدامية المفجعة هي تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية، والنيل من شرعية جهاز الخلافة الأموية، وعزلهم سياسياً واجتماعياً في أوساط العالم الإسلامي، سيما في

الحجاز والعراق اللذين كانا يعتبران حينذاك قلب العالم الإسلامي، وتجريدهم من الشرعية التي كانوا يحرصون عليها كثيراً، وكان توفيق الإمام عليه السلام في تحقيق هذه الغايات جميعاً توفيقاً عظيماً من غير ريب.

وهذا هو الفتح والغلبة التي يشير إليها الإمام زين العابدين عليه السلام في جواب السائل المفجوع بمصرع الحسين في كربلاء، الذي سأل عليهم الحسين عليه السلام.

من الغالب، يا علي بن الحسين ؟

فقال له:«**إذا دخل وقت الصلاة وأذن المؤذن عرفت من الغالب**».

وهذه هي النتيجة (السياسية) لقيام الإمام عليه السلام ومن خلال هاتين النتيجتين اللتين تمخضنا عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وهما: المكاسب (الحركية)، و(السياسية)نستطيع ان نعي الدور التاريخي الكبير لثورة الإمام عليه السلام في التاريخ الإسلامي.

الحسين عليه السلام ومسؤولية الثورة *

الشيخ حسن موسى الصفار

* بحث مستلّ من كتاب "الحسين عليه السلام ومسؤولية الثورة" للشيخ حسن الصفار ـ من المؤلفين الإسلاميين المعاصرين ـ نشر مطابع دار السياسة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۞ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

النساء: ٧٤ ـ ٧٦.

ظروف الثورة..

سقط الامام علي بن أبي طالب عليه السلام صريعاً في محرابه وقد سبقته قطرات دمه الشريف الى مصلاه الطاهر، بعد ان علاه سيف البغي على رأسه..

وبقي على فراشه ثلاثة أيام ختم بها خلافته الرشيدة التي نعم الناس في ظلها بالحرية والأمن، وانتهى بذلك عهد مشرق بالعدالة والمساواة، ليبدأ عهد تعيس عانت الأمة فيه الظلم والكبت والتمزق والانحراف والويلات، وذلك حينما آل الأمر إلى بني أمية بعد أحداث جسام..

فقد أصبح معاوية «اميراً» للمؤمنين وخليفة للمسلمين، وبدأ في تطبيق برنامجه الجاهلي، وكان من أسوأ بنودها مايلي:

أولاً: تمزيق المجتمع الاسلامي:

لقد صنع الاسلام بمبادئه الانسانية الرائعة مجتمعاً متماسكاً متعاوناً، تسوده روح المساواة، وتفنى في اجوائه كل جراثيم الاحقاد والصراعات العنصرية والقومية والقبلية والطبقية، فالجميع امام القانون سواسية، وتقييم كل انسان انما هو من خلال كفائته وعمله، ولاقيمة بعد ذلك للعنصر أو

اللون أو الانتماء القبلي أو المستوى الاقتصادي. يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[1]. ويقول الرسول محمدﷺ: «**أيها الناس ان الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل الاّ بالتقوى**».

وعاشت الامة الاسلامية تضامنا انسانياً رائعاً لم يشهد التاريخ له مثيلاً، فبلال الحبشي أصبح أخاً لحمزة بن عبدالمطلب القرشي، وسلمان الفارسي صار كفرد من اسرة النبي، وزيد بن حارثة أُعتق وتزوج ابنة عمة النبيﷺ.

ولما جاء الحكم الاموي رأى ان بقاء المجتمع بهذا الشكل من التماسك والتضامن ليس من صالحه، بل يهدده بالسقوط والانهيار، حيث سيتركز اهتمام الشعب على تصرفات الحكم وبالتالي قد يواجه النظام رفضاً عاماً وثورة عارمة من قبل كل الشعب..

ولذلك بدأ معاوية يخطط لضرب وحدة الامة ولتمزيق تضامن الشعب بمختلف الاساليب والوسائل، فأذكى روح العصبية العنصرية حيث رفع مكانة العرب وحقر الموالي وسلب كرامتهم وحقوقهم وبلغ به الحال ان استدعى الاحنف بن قيس وسمرة بن جندب وقال لهما: اني رأيت هذه

---

(١) الحجرات: ١٣.

الحمراء ـ الموالي والعجم ـ قد كثرت و أراها قد قطعت على السلف، وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق!

وحاول اثارة النعرات القبلية بتفضيل قريش على بقية العرب، وباختلاق صراع عدائي بين المهاجرين والانصار، حتى استدرج شعراء الجانبين للتورط في الصراع، وانشأ شاعر معاوية الاخطل في هجاء الانصار ما جاء فيه:

ذهبت قريش بالمكارم كلها   واللؤم تحت عمائم الأنصار

بل وأثار الأحقاد حتى بين قبيلتي الأوس والخزرج الأنصاريتين.

وعمل معاوية كثيراً على اشعال نار الاحقاد السابقة بين صفوف الامة: فأرسل ابن الحضرمي الى البصرة سنة ٣٨ هجـ ليضرم الفتنة بين قبائلها باثارة ذكريات حرب الجمل وقتل عثمان ومن توجيهاته له: فأنزل في مضر واحذر ربيعة وتودد الازد وانع ابن عفان وذكرهم الوقعة التي أهلكتهم.

وأوقع بين الشيعة والخوارج، وهما فتنا المعارضة للحكم الاموي، فأراد ان يشغل أحداهما بالاخرى.

والاعجب من ذلك مايذكره الجاحظ من ان معاوية يحب أن يغري حتى بين قبيلته قريش![1]

وبجهود معاوية البغيضة وخططه الجاهلية فقدت الامة الاسلامية وحدتها وتماسكها وتحولت الى جبهات متصارعة وفئات متناحرة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع شرح النهج لابن أبي الحديد، وتاريخ الطبري، والدولة العباسية وسقوطها.

ثانياً: الارهاب ومصادرة الحريات:

كل حاكم ظالم لايطيب له ان يتاح المجال للرأي الحر والتفكير المستقل، ولايمكن أن يرضى بوجود رأي معارض، لان أقل معارضة في ظل الحرمان والظلم كفيل باستقطاب كافة أفراد الشعب، وبالتالي نسف عرش الحكم وكسح مواقعه. ولذلك تجند السلطات الحاكمة كل طاقاتها وقواها لاقبار أي معارضة والقضاء عليها في مهدها.

وهذا ما صنعه الحكم الاموي فقد ضرب بيد من حديد على كل من يحدثه ضميره بالمعارضة أو يعتنق لرأي ثوري مهما كانت مكانة ذلك المعارض أو شخصيته. فراح ضحية هذا الارهاب الجائر خيار أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وعظماء الامة كالامام الحسن بن علي عليهما السلام، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدي وأصحابه واشباههم من الثائرين المناضلين.

وكتب معاوية الى عماله في جميع المناطق: انظروا الى من قامت عليه البينة، انه يحب علياً وأهل بيته فأمحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه.. ومن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به وأهدموا داره!

وولى سمرة بن جندب على البصرة فأسرف في القتل فقتل ثمانية آلاف في فترة بسيطة حتى قال أبو سوار العدوي: قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلا قد جمع القرآن!

وأغار سمرة بن جندب بأمر معاوية على المدينة، فهدم دورها وجعل يستعرض الناس فلايقال له عن أحد انه اشرك في دم عثمان الا قتله، وسبى نساء همدان وعرضهن في الاسواق فكن أول مسلمات اشترين في الاسلام!

أما زياد بن سمية فكان يجمع الناس بباب قصره في الكوفة يحرضهم على لعن الامام علي فمن أبى عرضه على السيف! وقطع أيدي ثمانين رجلا لذلك!.

ووجّه معاوية بسر بن ارطاة الى الحجاز واليمن في جيش كثيف، فقتل من الحجازيين فقط ثلاثين ألفا عدا من أحرق بالنار![١].

وبذلك سيطر الارهاب والخوف على ارجاء المجتمع الاسلامي فأفقده كرامته وصادر حرياته.

ثالثاً: التلاعب باقتصاد الامة وخيراتها:

خلافاً لما يراه الإسلام من ان وظيفة الحكومة هي تنمية اقتصاد الامة، والانفاق من ثرواتها على ترفيه الشعب وتقدمه، واقامة المشاريع الحيوية والمصالح العامة، فان معاوية كان ينظر الى ثروات الامة كملك خاص له يتصرف فيه كيفما تشاء له اهوائه، وكان يقول: الارض لله وانا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركته كان جائزاً لي!

وفوق ذلك صار يتفنن في امتصاص دماء الفقراء والكادحين، واثقالهم بمختلف الضرائب، فقد فرض على الاهالي أن يقدموا له ضريبة يوم النيروز كهدية فكان يجمع باسم ذلك أكثر من عشرة ملايين درهم![٢].

(١) عن تفاصيل الارهاب في عهد معاوية، راجع شرح «نهج البلاغة» لابن أبي الحديد، ومروج الذهب للمسعودي.

(٢) محمد مهدي شمس الدين: «ثورة الحسين عليه السلام».

وبينما كان الشعب يعيش الازمات الاقتصادية والضغط المعيشي كان معاوية ينفق الأموال على لذاته وشهواته ولترفيه اسرته الحاكمة، ولشراء الضمائر وتدعيم عرشه.

رابعاً: احتكار الحكم والسلطة:

ليس من حق أي انسان ان يتسلط على الناس أو يفرض نفسه كحاكم على الامة، الا اذا رشحه الله ورسوله لذلك كالائمة الطاهرين، أو ينتخبه الشعب وفق مقاييس الهية معينة، كعصر ما بعد الائمة.

الا أن معاوية لم يكتف باغتصاب قيادة الامة، دون ترشيح من الله ولا رضى من الشعب، لم يكتف بذلك بل اراد أن يحتكر الحكم والسلطة لعقبه من بعده، فيجعل الحكم بالوراثة يستلمه الابن بعد الاب، ويبقى امتيازاً خاصاً للاسرة الاموية.

وبناء على ذلك قرر في اخريات حياته أن يفرض ابنه كخليفة للمسلمين من بعده، واستعمل كل مكره وارهابه في سبيل أخذ البيعة له من جموع الامة.

وهكذا أصبح المجتمع الاسلامي في عصر الحكم الاموي ممزقاً متناحراً، يسوده الارهاب، ويفتقد الحرية، وتنهب ثرواته وخيراته، ويعاني من الفقر والحرمان، وتصادر حقوقه السياسية.

الموقف الثوري..

والمواقف الخائنة..

ان الذي يهمنا خلال هذه السطور هو ان نعرف كيف استقبلت الامة حكم هذا المستهتر الذي سيواصل بها المسير على درب الشقاء والانحراف!!؟

يمكننا ان نجزم أن استياءاً بالغاً ساد أكثر أوساط الامة. ولكن ما نريد التعرف عليه هي المواقف التي اتخذها الناس. وليس مجرد الاستياء النفسي، الذي لايغير واقعاً ولايقدم أثراً..

حينما نلقي نظرة فاحصة على تاريخ تلك الفترة الحرجة الخطيرة من تاريخ الامة فاننا سنجد ان ردود الفعل لدى الامة تمثلت في عدة مواقف:

اولا: الموقف المصلحي النفعي:

هبَّ المخدوعون الى المسجد، لتبايع يزيد كرامتها ومستقبلها، حتى ضاق المسجد بالمحتشدين..

وهناك في صدر المسجد نصب منبران يعتلي احدهما معاوية بينما يحتل

الآخر ولده يزيد..

وخطب معاوية في الناس، ونجح في اظهار نفسه بمظهر المهتم بأمور الامة، وانه يفكر في مستقبلها وما يمكن ان يحدث لها بعد موته وغيابه.. انه يتخوف على الامة الانشقاق والانقسام.. ويتخوف ان يلي امر الامة من لايصلح لذلك، وضميره لايسمح له مع وجود هذه الاحتمالات ان يغامر بمستقبل الامة ومصيرها ويتركها على مهب الرياح!..

وتلافياً لكل تلك الأخطار المتوقعة فان معاوية حماية منه لمستقبل المسلمين يتبرع لا بل يفرض ترشيح ابنه يزيد خليفة وقائدا للامة.. ويجب على الامة أن تتقبل ذلك!..

وحري بأهل الشام أن يكونوا طليعة الامة في التسليم للخليفة الجديد وفي تقديم مراسيم الولاء والطاعة!..

وتسارع المخدوعون لمبايعة يزيد بخلافة المستقبل، وبينما هم يتزاحمون حول منبره، واذا بصوت رفيع يدعوهم للهدوء والانصات، فجلس الناس واصغت الآذان واشرأبت الاعناق، واذا بشاعر يقف على رأس معاوية بينما يتجه باشاراته الى يزيد ويقول:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد

بني خلفاء الله مهلا فانما ... يبوئها الرحمن حيث يريد

اذا المنبر الغربي خلاه ربه ... فان أمير المؤمنين يزيد!

وارتفع تصفيق حاد من الحاضرين بينما اسر معاوية الى الشاعر قائلا: لقد فرضنا لك عطاء وانت في بلدك فان شئت ان تقيم بها أو عندنا فأفعل فان

عطاءك سيأتيك.

ان هذا الشاعر وأسمه مسكين الدارمي ما هو الا انموذج يمثل طبقة من الناس لايخلو منها مجتمع وزمان. وهي الطبقة التي ترى في الجور والظلم أفضل فرصة لتحقيق مطامعها ولكسب المصالح والامتيازات، فتلتف حول النظام الحاكم، وتدعم وجوده وتصفق لتصرفاته، وتلعب دوراً رئيسياً في تمكين سيطرة الحكم على الشعب. وبذلك تنال المناصب العالية والامتيازات الواسعة في الدولة.

ولان هذه الطبقة تبيع ضميرها للباطل فلايهمها بعد ذلك ان كانت تدوس على القيم والمبادئ أو تتآمر على الابرياء. فهي قد فقدت انسانيتها وباعت ضميرها، فما الذي يردعها عن أي جريمة؟؟

فهذا سمرة بن جندب يسفك دماء ثمانية آلاف بريئاً من أهل البصرة وحينما يسأله زياد: هل تخاف أن تكون قد قتلت احداً بريئاً؟ فكان جوابه بكل وقاحة: لو قتلت اليهم مثلهم ما خشيت!

ومرة أخرى يقول سمرة عن نفسه: لو اطعت الله كما اطعت معاوية ما عذبني أبداً.

وحتى بعض أصحاب النبيصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والذين يؤمل منهم الدفاع عن الحق والعدل والتصدي للباطل والظلم، الا ان بعضهم مع الأسف سقطوا في هاوية المصالح والإجرام، وصاروا يستغلون صحبتهم للنبي واحترام الأمة لهم يستغلون ذلك في اختلاق الاحاديث في مدح الحكام الجائرين وينسبونها زورا وافتراء الى رسول الاسلام محمدصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. حتى قال أحدهم: سمعت

رسول اللهﷺ يقول: ان الله ائتمن على وحيه ثلاثة أنا وجبرئيل ومعاوية!

وفي حديث آخر يقول: رأيت ر سول اللهﷺ وقد ناول معاوية سهماً وقال له: خذ هذا السهم حتى تلقاني به في الجنة! الى كثير من الاحاديث الكاذبة المزيفة..

على أكتاف هؤلاء وامثالهم قام الحكم الاموي ويقوم كل حكم جائر، فهم أعداء الجماهير لايعجبهم ان تسود العدالة وان يسيطر الحق لانهم حينذاك لايستطيعون تحقيق مصالحهم وأهوائهم، ولذا فموقفهم مصلحي ظالم.

ثانياً: موقف الاستسلام والخنوع:

وطبقة أخرى لايسمح لها وجدانها الانساني بالتعاون مع الظالمين، ولا يقبل ضميرها بالجور والعدوان. ولكنها تكتفي بالموقف السلبي تجاه ما يحدث فهي لاتؤيد الظلم ولاتكلف نفسها مشقة مكافحته وجهاده، بل ترضى لنفسها الخنوع والسكوت والاستسلام للامر الواقع مع تكرار وترديد: انا لله وانا اليه راجعون.

وهذه تشكل طبقة عريضة في كل مجتمع في ظل غياب معارضة صادقة.

وتختلف المنطلقات والاسباب التي يبرر بها ابناء هذه الطبقة خنوعهم واستسلامهم. ولكن ابرزها ثلاثة عوامل:

١. التضليل الديني:

تخطط السلطات الظالمة كثيراً لكي تنتزع من الشعب ارادته وحريته، وتعمل بمثابرة على شل روح الثورة والرفض في أعماقه، وتستخدم شتى الوسائل والاسلحة في سبيل ذلك. ومن أبرع الاساليب وأفتك الاسلحة هو التضليل الديني. والذي يعني تخدير الجماهير وقمع روح التحرر والثورة فيهم باسم الدين، ليكون استسلامهم وخنوعهم بدافع مبدئي!..

ولقد أبدع الحكم الاموي في اختراع العديد من الأساليب الملتوية في هذا المجال.. فاستقطب معاوية مجموعة من الصحابة ورجال الدين واغراهم بالمال والمناصب وطلب اليهم القيام بهذه المهمة الخبيثة: تضليل الناس وتخديرهم دينيا.

فصار اولئك العملاء يتبارون في اختلاق الاحاديث الكاذبة على رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تحذر الناس من التمرد على أوامر السلطة مهما كان اتجاهها لان ذلك يعني انشقاق الامة وتفرقة المسلمين.

فهذا أحدهم يحدثنا قائلا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: انكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها. قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: أدوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم!

وينبري صحابي آخر فيقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فان من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية!..

ويأتي صحابي ثالث فيروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال: ستكون بعدي

هنات وهنات فمن أراد ان يفرق امر هذه الامة وهي جمع فأضربوه بالسيف كائنا ما كان.

ويقول العجاج سألني أبو هريرة: ممن أنت؟

ـ من العراق.

ـ يوشك ان يأتيك بقعان أهل الشام فيأخذوا صدقتك، فاذا اتوك فتلقهم بها، فاذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخل عنهم وعنها واياك أن تسبهم! فانك ان سببتهم ذهب اجرك! واخذوا صدقتك. وان صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة.

والاغرب من كل ذلك ماينقله لنا التاريخ من ان يزيد بن عبدالملك لما ولي الخلافة قال: سيروا بسيرة عمر بن عبدالعزيز. فما هي الا أيام حتى جاؤوا له بأربعين شيخا كلهم شهدوا له بأنه ما على الخلفاء من حساب ولا عقاب!![1].

وثمة عمل آخر قام به الحكم الاموي على صعيد التضليل الديني هو أشد خطورة من تزييف الاحاديث وهو تزييف وتحوير المفاهيم الاسلامية، وتحويلها الى أفكار تبريرية للواقع المنحرف والسلطة الظالمة، وقد نشأت من جراء ذلك مدارس وفرق متعددة تقوم على اساس تلك المفاهيم المغلوطة. كفرقة المرجئة وتتلخص فكرتها في ان الايمان عمل قلبي خالص لايتأثر بالسلوك الخارجي، وتصرفات الجوارح. وشعار مدرستهم

---

(١) ابن كثير ـ ص ١٣٢ ـ وعن الاحاديث السابقة راجع شرح ابن أبي الحديد ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ـ صحيح البخاري ـ وكثير من كتب الحديث.

هو حديث يروونه عن النبيﷺ: لا تضر مع الايمان معصية كما لاتنفع مع الكفر طاعة.

وهدف هذه المدرسة والتي كانت لمعاوية مساهمة فعالة في ارساء قواعدها هو اثبات ايمان بني أمية رغم كل تصرفاتهم وأعمالهم، فلعلهم يسبقون الناس الى الجنة ما دامت قلوبهم مؤمنة!..

وفرقة أخرى لعب الحكم دوراً بارزاً في تأييد فلسفتها، وهي فرقة المجبرة التي ترى ان الانسان في هذه الحياة لايملك حرية ولا ارادة. وان ما يجري على مسرح الحياة، من قيام حكم وسقوط آخر انما هو من صنع الله وبارادته وحده! وهل يستطيع الانسان مقاومة ارادة خالقه؟ وماذا تجدي الثورة اذا ما دام الله يريد بقاء الحكم الاموي؟

يقول الدكتور أحمد أمين (في ضحى الاسلام): وبنو أمية كما يظهر كانوا يكرهون القول بحرية الارادة، لا دينياً فقط ولكن سياسياً كذلك لان الجبر يخدم سياستهم فالنتيجة للجبر ان الله الذي يسير الامور قد فرض على الناس بني أمية كما فرض كل شيء، ودولتهم بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع للقضاء والقدر.

كل هذا التضليل والتحريف قد لعب دوراً مساعداً على تخدير نفوس الشعب وتثبيط عزائم المجتمع عن مقاومة الحكم الجائر.

٢.الفهم الخاطئ للدين:

بعد أن صلى كل منهم نوافله وأدى أوراده، تجمعوا حول قبر الرسول

الاكرم صلى الله عليه وآله في ساعة متأخرة من الليل وهم مجموعة من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وأعيان الامة، كان من بينهم الحسين بن علي عليهما السلام، وعبد الله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن الزبير.. وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، حول ماضي الامة المجيد وواقعها التعيس.. وفيما هم ماضون في ذلك واذا بهم يسمعون صوت خطى متسارعة ويرون شبحا قادما تأملوه جيداً فعرفوه: انه رسول والي المدينة الوليد بن عتبة. ولابد انه يقصدهم فماذا عسى أن يكون قد حدث؟ وتنبأ الحسين عليه السلام بهلاك معاوية وقيام يزيد مقامه وان الرسول يدعوهم الى الوالي حتى يأخذ منهم البيعة. ووصل الرسول فكانت مهمته كما قال الحسين عليه السلام، فصرفوه على أمل أن يأتوا خلفه.

ودار بينهم حديث خاطف حول الموقف الذي سيتخذونه ازاء بيعة يزيد.. فسارع عبدالله بن عمر بابداء رأيه وقال وهو يغادر أصحابه: أما انا فعليّ بقراءة القرآن ولزوم المحراب!

ان عبدالله بن عمر في موقفه هذا يعبر لنا عن خلفية قطاع كبير من الخانعين والمستسلمين للواقع الفاسد، حيث يفهم الدين فهما انطوائياً ينغلق به الانسان على ذاته وينعزل عن المشاركة في أحداث مجتمعه وواقع أمته.

فالدين في فهم هؤلاء الانهزاميين هو ان تصلي وتصوم وتواظب على صلاة ا لجماعة وتتردد على الحج في كل سنة وتنقلب بين روائع الادعية اليومية والساعاتية، ولا عليك بعد ذلك من فساد الحكم وانتشار الظلم وانحراف العلاقات العامة! أوليس الله تعالى يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ

يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[١]؟؟

هذا هو منطق التخلف والانهزام يبرر به المتقاعسون خنوعهم وسكوتهم على الجريمة. ولكن هل صحيح ان الدين يرضى من الانسان بهذا الموقف الاناني؟

كلا، والف كلا.. فالاسلام دين رسالي لاتنسجم روحه مع هذا الفهم الانعزالي الخاطئ، ويؤكد في كثير من النصوص والتعاليم واجب الفرد تجاه أمته ومجتمعه ويحمله مسؤولية مايحدث في الساحة الاجتماعية.

أما الآية الكريمة فان الانهزاميين يسيئون فهمها ويحرفونها عن مواضعها وأهدافها، فقد جاءت الآية في سياق مجموعة آيات تنعي على الانسان تأثره بمواقف الاخرين، متنازلا عن ارادته واستقلاليته مبررا سلوكه باتباعه للآخرين، فتأتي الآية الكريمة لتلفته الى استقلاليته ومسؤوليته في اصلاح نفسه وان اصر الآخرون على الانحراف، يقول تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[٢].

أرأيت كيف يحوّرون آيات القرآن ويحرّفون الكلم عن مواضعه؟!

أضف الى ذلك ان هذا الفهم يعتبر تجزيئا للدين. والاسلام لايقبل

---

(١) المائدة: ١٠٥.

(٢) المائدة: ١٠٤ ـ ١٠٥.

التجزئة والتبعيض ابدا، بل يهدد بعذاب الدنيا والآخرة للمجزئين الذين جعلوا القرآن عِضين، يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

فالذي أوجب الصلاة اليس قد أوجب الجهاد، أوليس الذي فرض الصوم قد فرض التضحية. والذي حرّم الخمر أليس قد حرّم السكوت على الظلم. والزم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر؟؟

فبأي مبرر يصنف هؤلاء الدين الى تكاليف مريحة واجبة وأخرى شاقة منسوخة؟

انها لمغالطة مفضوحة ارادوا بها التملص من المسؤولية الاجتماعية، والتهرب من الاهتمام بقضايا الامة المصيرية بينما يؤكد الرسول محمدﷺ ان هذا التملص انما يعني التخلي عن الاسلام كله يقولﷺ: «**من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**».

٣. الخوف والجبن:

الخوف ذلك الشبح الرهيب الذي يخيم على النفوس الضعيفة الجبانة، فيجعلها تلتمس المبررات للتقاعس والانهزام، ويضطرها للركوع أمام الطغاة الظالمين، لتأمن بطشهم وسطوتهم، فتراها خاضعة خانعة تستجدي الحياة والبقاء من ظالم مستبد، وتنشد الى الارض احتفاظا بالمال والراحة..

(١) البقرة:٨٥

ولكن ما قيمة الحياة في ظل حكم توجهه الاهواء والشهوات، ولا تحكمه أية مبادئ أو قيم، بحيث تصبح حياتك ومصيرك على شراع اهواء الحاكم ونزواته.

انها لحياة تعيسة تلك التي تكبت فيها حريتك، وتسلب حقوقك، وتداس مبادؤك وأنت تنظر وتتفرج! أنها حياة الذل والعار والبرم. أما الشهادة دفاعا عن العزة والحقوق والحرية فهي الحياة السعيدة الخالدة. يقول الامام الحسين عليه السلام: **«انّي لا أرى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما»**.

ثالثاً: موقف الايمان والثورة:

ان الايمان الصحيح يرفض الخضوع للظلم، والاستسلام للباطل، والسكوت على الجور والانحراف.

الايمان يقول: **«كونوا للظالم خصما وللمظلوم عونا»**.

ويقول أيضاً: **«من رأي سلطانا جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثا لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله»**.

ويقول: **«الساكت عن الحق شيطان أخرس»**.

ويحث القرآن على الجهاد في سبيل الله، والنضال من أجل الشعب المضطهد يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾[١]؟.

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٢].

ولكن القلة من الامة هي التي تنطلق من الايمان في مواقفها وتتحلى بالبطولة والتصميم على التضحية. وحتى هذه القلة تحتاج الى طليعة تنير لها طريق النضال وتثير في نفوسها دوافع الجهاد والثورة. ومن أولى من الامام الحسين عليه السلام بالتزام موقف الايمان والجهاد، وبشق طريق التضحية والنضال يقول عليه السلام: «**وأنا أحق من غيّر**».

❧

---

(١) النساء: ٧٥.

(٢) التوبة: ١١١.

منطلقات الثورة..

الانسان بطبيعته يخلد الى الراحة، ويحرص على الحياة والسلامة، ويحاول تجنيب نفسه أقل اذى أو ضرر بدافع حبه لذاته..

والثورة تعني ان يقتلع الانسان من نفسه كل ذلك، وان يقاوم جاذبية الحياة والراحة التي تشده الى أسفل.. وهذا شيء صعب لايستطيعه الا من تفاعل الايمان مع قلبه، وملأ الاخلاص نفسه، وسمى بشعوره الى افاق الحرية والكرامة.

وقد أكّد القرآن الكريم صعوبة هذه العملية: مقاومة حب الراحة والحرص على الحياة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[1].

ولذلك فالثائر يجب أن تبدأ ثورته من داخل نفسه وفي أعماق وجدانه

---

(١) التوبة: ٣٨.

وشعوره. والا فمن يعجز عن ابدال حب الحياة في نفسه بحب التضحية، والميل الى الراحة بالشوق الى الجهاد، والحرص على الدنيا بالبحث عن الشهادة.. هذا الانسان لايستطيع أن يغير المجتمع أو يثور على الواقع.

وهذا ما وفره الحسين عليه السلام في نفسه وفي نفوس أصحابه الثائرين، انه في البداية فجر الصراع داخل نفوسهم، وأعلن انطلاق الثورة من اعماق قلوبهم واحساسهم، ولم يمنح وسام الثورة الا لمن نجح في هذه المعركة وانتصر على نفسه، اما الذين أنهزموا أمام أنفسهم وأهوائهم فقد تفرقوا عنه بعد أن قطعوا معه شوطاً من الطريق!..

في أول اعلان جماهيري ادلى به الحسين عليه السلام عن ثورته في جموع الحجيج، وضع شرطاً أساسياً للالتحاق بثورته، وهو الاستعداد للتضحية وتوطين النفس على الشهادة. حيث قال عليه السلام: «**ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته موطنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا..**».

واثناء المسير كان يكرر الامتحان حتى يبلور نفوس أصحابه ويحافظ على حرارة الاخلاص لديهم وقوة الاندفاع في قلوبهم، ولكي يصرف عن مسيرته المقدسة ضعفاء النفوس، وعشاق الدنيا. فحينما انتهى الى منطقة (زبالة) قام خطيباً في أصحابه: «**فحمد الله واثنى عليه وذكر النبي 2 فصلّى عليه، ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس انما جمعتكم على أن العراق في قبضتي، وقد جاءني خبر صحيح أن مسلم بن عقيل وهاني بن عروة قتلا، وقد خذلتنا شيعتنا! فمن كان منكم يصبر على ضرب السيوف وطعن الرماح وألا فلينصرف من موضعه هذا، فليس عليه**

من ذمامي شيء، فسكتوا جميعاً وجعلوا يتفرقون يمينا وشمالاً حتى لم يبق عنده الا أهل بيته ومواليه وخلص أصحابه».

واستمر الحسين عليه السلام يتعاهد في أصحابه روح التضحية والجهاد في سبيل الله، حتى قبل المعركة بحوالي عشر ساعات.. حيث جمعهم ليلة العاشر من المحرم، ليتأكد من وفائهم واخلاصهم، وليضمن عدم تسرب شيء من الخوف والانهزام الى نفوسهم. اقبل عليهم وخطبهم بصراحته الثورية وصدقه المعهود، وقال لهم في خطبته: **«اثني على الله احسن الثناء واحمده على الشدة والرخاء، معاشر المؤمنين، لست أعلم اصحاباً خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبر وأوفى من أهل بيتي، فجزاكم الله عني أحسن الجزاء. واني أظن أن آخر أيامي مع هولاء القوم الظالمين غدا. وقد أبحتكم فما في رقابكم مني ذمام وهذا الليل لقد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في البيداء يميناً وشمالاً فان القوم يطلبونني دونكم، ولو اصابوني لذهلوا عمن سواي»**.

وما كاد الامام عليه السلام ينهي كلامه حتى ضجّوا باجمعهم برفض الفرار والاصرار على الصمود والجهاد معه، وقالوا: والله لانفارقك وانفسنا دون نفسك نفديك بارواحنا من جميع الاسواء، فاذا نحن قتلنا فقد قضينا ما علينا.

والآن ما هي المنطلقات التي انطلق منها الحسين عليه السلام واصحابه في ثورتهم الرائدة، والتي يجب أن ينطلق منها كل مؤمن في حياته وتحركه؟

أولاً: الضمير والوجدان الانساني:

وجدان الانسان يغضب حين يشاهد مظاهر الظلم والحرمان، وضميره يثور حين يرى حياة الجور والاضطهاد.. وكل انسان يحس بوخز الضمير وغضب الوجدان اذا ما رأى مظلوماً أو مستضعفاً. واذا لم تقف الانانية والمصلحية حاجزا بينه وبين ضميره، فانه سيثور طبيعياً وسيجد نفسه مضطراً للوقوف الى جانب المظلوم المضطهد ضد الظالم المعتدي.

أن الأرضية الخصبة التي تنبت فيها الثورة هي ارضية الظلم والحرمان، حيث يحرك الضمائر ويستثير الوجدان، وأكثر الثورات الانسانية انما تنطلق من هذا المنطلق، منطلق الدفاع عن المحرومين والمستضعفين..

ولنصغ الى أبي الفرج الاصفهاني وهو يحدثنا عن السبب المباشر لانطلاق ثورة أحد العلويين في عصر المأمون العباسي، يقول:

كان محمد بن ابراهيم الحسيني العلوي، يمشي في بعض طرق الكوفة، اذ نظر الى عجوز تتبع أحمال الرطب، فتلقط ما يسقط منها، فتجمعه في كساء عليها رث، فسألها عما تصنع بذلك، فقالت اني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤنتي، ولي بنات لايعدن على انفسهن بشيء، فانا اتتبع هذا من الطريق واتقوته أنا وولدي!.

فبكى محمد بكاء شديدا وقال: انت واشباهك تخرجوني غدا حتى يسفك دمي.

وفجر ثورته العظيمة والتي استمرت لفترة طويلة وتعاقب عليها بعد استشهاده العديد من القادة العلويين، وقد امتدت الثورة الى العراق والشام

والجزيرة واليمن.

هكذا ينتفض الوجدان رافضاً لواقع الظلم والانحراف.

وقد ظهر هذا المنطلق واضحاً في خطابات الحسين عليه السلام وكلماته عبر مسيرة الثورة، يقول عليه السلام في خطابه في اليوم العاشر من المحرم وامام حشود الجيش الاموي:

«تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، حين استصرختمونا والهين، فاصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفا لنا في ايمانكم، وحششتم علينا ناراً اوقدناها على عدونا وعدوكم، فاصبحتم إلباً على اوليائكم، ويداً عليهم لاعدائكم، بغير عدل افشوه فيكم، ولا امل اصبح لكم فيهم، الا الحرام من الدنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه..».

لاحظوا كيف يؤكد الحسين عليه السلام انه لايقاتل عدوا شخصياً له وانما يقاتل عدو الجماهير والشعب «**اوقدناها على عدونا وعدوكم**». وينبه الجنود المقاتلين بأنه انما ثار انتقاما لهم حينما رآهم يعيشون حياة الظلم والاستعباد والذي سيستمر بهم ان لم يقاوموه «**بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم..**» وعند التقائه عليه السلام بطليعة الجيش الاموي والذي كان بقيادة الحر الرياحي، اكد الحسين عليه السلام هذا المنطلق، كباعث ومبرر لثورته، يقول عليه السلام:

«ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، واظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء..».

فلأن بني أمية استأثروا بالفيء وخيرات الشعب فقد بقي الشعب يعاني

الحرمان والفقر، وذلك يكفي لكي يثور الحسين عليه السلام..

ثانياً: المسؤولية الدينية:

يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**قال الله تعالى: لاعذّبن كل رعية دانت بطاعة امام ليس مني وان كانت الرعية في نفسها برة**»[1].

وكيف يسمح لك الدين بان تتفرج على الجرائم وهي تنتشر، وعلى احكام الله وهي تخالف، وعلى القيم وهي تداس، تشاهد كل ذلك فلاتغضب ولاتثور، انك اذا شريك اساسي في كل ما يحدث، وسوف لاتشفع لك صلاتك ولاتقيك ادعيتك عقاب الله في الدنيا والاخرة!.

ففي الحديث: **أوحى الله الى النبي شعيب: اني معذب من قومك مائة الف: أربعين الفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم! فقال شعيب: يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار؟ فأوحى الله اليه: داهنوا اهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي**[2].

فالدين يوجب رفض الظلم ومكافحة الجور وعدم الاستسلام للاضطهاد.. وكلما كان الانسان اكثر وعياً بالدين وفهماً لأهدافه، كان أكثر اندفاعاً واشد ثورية من أجل الدين، وأقوى غيرة على قيمه ومبادئه.

وهذا هو بالضبط ما جعل الحسين عليه السلام يتحرك ويفجر ثورته بكل عنف

(١) البحار: ج: ٢٦ ص: ٣٤٩.

(٢) البحار: ج: ١٢ ص: ٣٨٦.

واصرار منطلقاً من وعيه للمسؤولية الدينية، ومن تفهمه لروح الاسلام واهدافه.

يقول عليه السلام: لقد قال جدي رسول الله صلى الله عليه وآله: **من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله.**

وقال عليه السلام: **ألا ترون الى الحق لايعمل به والى الباطل لايتناهى عنه فليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً.**

ثالثاً: العزة والكرامة:

اثمن ما يملك الانسان في هذه الحياة هي كرامته وحريته، فهي الفارق المميز بين الانسان وبين الحيوان، فالانسان خلقه الله حراً كما يقول الامام علي عليه السلام: «**ولاتكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً**».

ومنح الله الانسان حق الكرامة فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾[1].

ويأتي الايمان ليقوي عند الانسان شعوره بالعزة وتمسكه بالكرامة. فيقول تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[2].

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) المنافقون: ٨

وجاء في الحديث:**ان الله أوكل الى عبده المؤمن كل شيء ولم يوكل اليه ان يذل نفسه.**

ولقد وجد الحسينعليه السلام نفسه وامته على مفترق الطريق اما الحياة الذليلة الرخيصة في ظل الحكم الاموي المستبد، وأما الجهاد والتضحية والقتل في سبيل الله بالعز والشرف والكرامة.

وكان لابد أن يختار الامامعليه السلام الطريق الثاني، فيعلن رفض الذل والاستسلام، ويبدأ مسيرة الامة نحو الكرامة والحرية، وان كلفه حياته.. فرفع شعار الحرية والكرامة لتسير خلفه الطلائع المؤمنة في كل جيل.

وهتف بصوته الثوري الكريم: «**والله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل، ولا أقر لكم اقرار العبيد وهل هو الأ الموت والقدوم على رب كريم**»!.

وقالعليه السلام: «**الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين اما السلة أو الذلة، وهيهات منا الذلة يابى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طابت وحجور طهرت، ونفوس أبية وانوف حمية من ان نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام**».

أهداف الثورة..

تلك كانت منطلقات الامام الحسين عليه السلام في ثورته، ولكن ماذا كان يهدف من وراء الثورة؟.

أن الهدف الاساسي للامام الحسين عليه السلام هو اعادة بناء وصياغة المجتمع الاسلامي وفق مبادئ الدين القويم، بعد ان عاشت الامة فترة الانحراف العميق والشامل في ظل الحكم الاموي..

كان يهدف تغيير واقع المجتمع، ونسف الفساد والانحراف الذي صار يؤطر الحياة ويهيمن على اجوائها..

فلم يكن الفساد محصورا في جانب دون آخر بل أصبح يعشعش في جميع الحقول:

فالخليفة: «**شارب الخمور مرتكب الفجور**» يفقد أدنى مؤهلات الحكم والقيادة.

والاجهزة الحاكمة: هم جماعة النفاق والمصالح الذين «**لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن واظهروا الفساد**».

والشعب يعاني من ضغط اقتصادي وحرمان عام لان الاسرة الحاكمة واعوانها قد «**استأثروا بالفيء**».

ومبادئ الحق معطلة بينما الباطل يسود الحياة «**الحق لايعمل به والباطل لايتناهى عنه**».

والناس استعبدتهم المطامع اما الدين فقد تقلص من نفوسهم، واضمحل نفوذه في قلوبهم وما عاد يملك الا اطراف الالسن: «**الناس عبيد الدنيا والدين لعق على السنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم فاذا محصوا بالبلاء قل الدّيانون**».

وازاء هذا الوضع المؤلم فلابد وان يكون التغيير عميقا وشاملا، وان تكون الثورة عنيفة وقوية.

وقد خطط الحسينعليه السلام لهدفه ان يتم عبر النقاط التالية:

١. تحطيم السلطة الجائرة:

ان منبع آلام الامة وشقائها هو السلطة الظالمة، وكل اصلاح جزئي في ظلها محدود التأثير ولاغي المفعول، واهم عمل تغييري هو كسر هذا الطوق عن اعناق الشعب. وهذا مايراه الامام الحسينعليه السلام فقد كتب الى معاوية ذات مرة «**واني لا اعلم فتنة اعظم على هذه الامة من ولايتك عليها**».

ولذلك اتجه الحسينعليه السلام بثورته نحو العروش الحاكمة المرتفعة على اشلاء الشعب، والمغتصبة لقيادته. ليتسنى له بعد تحطيمها بناء جهاز اسلامي يحكم الناس بالعدل والحرية، ويعيد للمجتمع امنه واستقراره.

وقد رافقت الثورة حملة توعية مركّزة قادها الامام الحسينعليه السلام، لتعرية الحكام وكشفهم امام الامة، ففي مجلس والي المدينة قال الامامعليه السلام: «**إنّا اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا يختم ويزيد فاسق فاجر شارب الخمر قاتل النفس المحترمة ومثلي لايبايع مثله**».

ومرة اخرى وامام مقدمة الجيش الاموي قال الحسينعليه السلام وبكل صراحة: «**الا وان هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، واظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء واحلوا حرام الله، وحرموا حلاله**».

وفي اليوم العاشر من المحرم قال في خطبته: «**فسحقا لكم ياعبيد الامة، وشذاذ الاحزاب، ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومحرفي الكتاب، ومطفئ السنن، وقتلة اولاد الانبياء، ومبيدي عترة الاصفياء، وملحقي العهار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ ائمة المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين، ولبئس ما قدمت لهم انفسهم وفي العذاب هم خالدون**».

هكذا نجد الحسينعليه السلام يعمل على اسقاط الحكم المنحرف، واذا لم تسعف الظروف ثورة الامام كي تحقق هذا الهدف في حياة الامام الحسينعليه السلام، فقد تحقق بقتله وشهادته، حيث اثار الرأي العام وألّبَ النفوس، وبث الثورة في ارجاء الامة، فتوالت من بعد مقتل الحسينعليه السلام

الثورات الشعبية، ليس لاسقاط الحكم الاموي فقط وانما لتحطيم كل حكم ينحرف عن الشريعة ويتحدى العدالة.

٢. اصلاح الامة:

تلك الامة المجاهدة التي حطمت تيجان كسرى وعروش قيصر، والتي حملت رسالة العدل والحرية الى مشارق الارض ومغاربها، وانقذت الشعوب المستضعفة من حكامها الطغاة.. هذه الامة كيف تحطمت روحها الرسالية؟ وكيف تنازلت عن اهدافها المقدسة؟.

وكيف خضعت لحكم دكتاتوري منحرف؟.

لم يحدث كل ذلك لو لم تتغير نفسيتها ولو لم تفقد مقومات التقدم والعلو، ان الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[1]. فماذا تغيّر في نفسية الامة؟.

لقد استبدلت روح النضال والتضحية بحب الراحة والمصالح...

ولقد تحولت طموحاتها الرسالية الى أنانية وانغلاق..

ولقد تغيرت علاقاتها المبدئية الى انتماءات قبلية وعشائرية..

وثار الحسين عليه السلام على كل هذا التحول الرجعي الذي حدث في حياة الامة، واراد اصلاحها بايقاظ روح التضحية والنضال، في اعماقها، وباعادة ثقتها بنفسها، وبتذكيرها بالمبادئ الرسالية والاهداف المقدسة التي كانت تسود حياتها...

---

(١) الرعد: ١١.

هذا هو هدفه السامي الذي اعلنه في اول بيان عن ثورته حيث قال عليه السلام: **«أني لم اخرج اشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي.. »**.

٢.الامر بالمعروف والنهي عن المنكر:

واي معروف اهم من العدالة والحرية والجهاد في سبيل الله؟؟

وأي منكر ابشع من الظلم والجور والانحراف؟.

ولهذا كرّس الحسين عليه السلام ثورته من اجل هذا الهدف المقدس، من اجل ان يأمر الناس بالمطالبة بحقوقهم وكرامتهم، ومن اجل ان ينهاهم عن الخنوع والانهزام والاستسلام، يقول عليه السلام وهو يحدد اهداف ثورته: **«اريد ان آمر بالمعروف وانهى عن المنكر»**.

واستمر يوجه الناس نحو المعروف ويحذرهم عن المنكر بلسانه وسلوكه، فلما استشهد واصل دمه الزكي هذا الدور، فغير مجرى حياة الامة، وحفر منعطفات التاريخ.

مسؤولية الثورة..

الامة التي يشعر كل فرد فيها بدوره في المجتمع، ومسؤوليته عما يحدث، ويقوم باعباء المسؤولية، ويمارس حقه في صناعة الاحداث.. هذه الامة هي امة التقدم والنجاح والرقي.

والاسلام حينما اراد لامّته السعادة والتقدم، فقد وضع الضمان لذلك بزرع روح المسؤولية في جميع افراد الامة، فليس السياسيون أو العلماء أو الرجال أو الشيوخ فقط يتحملون المسؤولية.. وانما «**كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته**»، واكثر من هذا فان الرسولﷺ لايعترف باسلامية المتفرج على وضع مجتمعه بدون مشاركة ولا اهتمام يقولﷺ: «**من أصبح ولم يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم**».

ويؤكد القرآن الكريم مسؤولية المجتمع كل المجتمع، بشقّيه الرجال والنساء، في تطبيق الحق ومكافحة الانحراف، يقول تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾(1).

---

(1) التوبة: ٧١.

ومن المؤسف جدا ان يتهرب المجتمع من مسؤوليته الخطيرة، ويقف مكتوف اليدين، ليشاهد ما يجري على الساحة بسلبية وبرود، وينتظر النتائج بكل تواكل وجمود!.

وهذا هو بالضبط ما حدث للامة في عصر الحكم الاموي فقد رفع الناس شعار: ما لنا والدخول بين السلاطين، والذي يعني حصر نطاق الصراع بين السياسيين فقط واستعداد الامة للسير خلف من تكون له الغلبة!.

فكانت الحاجة ماسّة لقيام طليعة مؤمنة توعي الامة بمسؤوليتها الرسالية، ولابد أن يكون ذلك من خلال الممارسة النضالية وعبر التحمل الفعلي لمسؤولية الثورة.

وهذا ما حققته ثورة الامام الحسين عليه السلام حيث التفت حولها طليعة الامة الواعية ـ رغم قلتها ـ وضربت اروع مثل في الثبات والصمود وتحمل المسؤولية، وقد تشكلت تلك الطليعة من مختلف طبقات المجتمع واصنافه ففيها: المرأة تشارك الرجل مسؤولية الثورة، والعبيد ينافسون الاحرار في شرف التضحية، والشباب يسبقون الكبار الى معركة الحق، وحتى الاطفال ساهموا بدمائهم البريئة في كتابة بعض فصول الثورة..

ولنستعرض الآن بإيجاز خاطف بعض النماذج الثورية من مختلف الطبقات:

١ـ المرأة الواعية:

المرأة في الاسلام تقف الى جنب الرجل في تحمل مسؤولية الاصلاح،

وفي مكافحة الظلم والانحراف.. وهذا ما جسدته المرأة الواعية على ارض الثورة الاسلامية،كربلاء، فان التاريخ يسجل لها باكبار مواقف الصمود والكفاح والتضحية. ولنتأمل موقفا واحداً لاحدى نساء الثورة الواعيات:

لم يكن يتوقع ولا دار له في خيال، ان امه الحنون وهي لاتمتلك ولداً غيره، ولاتعدل به أي شيء في الحياة، ولم يكن يتوقع انها في يوم من الايام سوف تدفع به الى القتل، أو تسمح به للموت!.

ولكن ما لم يكن يتوقعه أو يتصوره حدث في يوم عاشوراء فقد جاءته امه وقالت له بكل تصميم واطمئنان: يا وهب قم وانصر الحسين!.

فتعجب وهب أو بالأحرى اعجب بهذه الروح العظيمة التي اصبحت امه تتحلى بها، روح البطولة والتضحية في سبيل الله.

واجابها: لأنعمنك عينا. ونهض فورا يستعد لدخول المعركة، وبعد ان تقلّد سيفه ولبس لامَةَ حربه، اقبل على الامام الحسين عليه السلام يستأذنه الخروج الى المعركة، ثم انحدر نحو الميدان وخاض عمليات القتال، واستطاع ان يصرع بعض ابطال العدو بينما اصابته جراح مؤلمة واستطاع الانفلات من الاعداء وعاد الى الخيمة، ووقف امام امه وسيفه يقطر دما وعليه آثار جراحات الرماح، وبادر امه قائلاً: ارضيت يا اماه؟

فاجابته: لا.. لا ارضى عنك حتى تقتل بين يدي ابن رسول الله...

فكانت كلمات امه بمثابة شحنة روحية جديدة تدفعه اكثر للجهاد في سبيل الله تعالى، وصمّم على الرجوع الى المعركة، الا ان زوجته استولت عليها العاطفة، وتعلقت به تثنيه عن العودة الى الميدان حيث الموت.. القتل،

وتدخلت امه تحمسه على القتال وترغبه في الشهادة، وتهاجم عاطفية زوجته.

وانحدر للمعركة يحمل على القوم بسيفه وهو ينشد:

اني زعيم لك أم وهب
بالطعن فيهم تارة والضرب
فعل غلام مؤمن بالرب
حتى يذيق القوم مر الحرب
اني امرؤ ذو مرة وعب
ولست بالخوار عند النكب
حسبي بنفسي من عليهم حسبي
اذا انتميت في كرام العرب..

وخاض معركة عنيفة، اصيب فيها بجراحات بالغة، ولكنه رغم ذلك بقي صامداً يحمل على القوم يميناً وشمالاً، واذا به يسمع صوت زوجته، وهي تحمل عموداً من اعمدة الخيمة وتنوي خوض المعركة وهي تقول:

فداك نفسي ياوهب.. قاتل دون الطيبين قاتل دون الصالحين..

اقترب منها منادياً: ماذا حل بك الم تنهيني قبل قليل عن القتال، وتحذريني الموت؟.

فقالت بعيون دامعة: لاتلمني ياوهب.. ان واعية الحسين قطعت نياط قلبي وهدت اركاني، ورغبت معها عن الحياة.. لقد سمعته يقول:

واغربتاه.. واوحدتاه.. واقلة ناصراه.. أما من مجير يجيرنا..؟ اما من

ذاب يذب عنا..؟

فاجبت استغاثته وخرجت لأقاتل معك، ولنذهب سوياً الى الجنة!.

حاول ان يرجعها الى الخيمة فرفضت، فاستعان بالحسين عليه السلام، فاقنعها الامام عليه السلام بالرجوع شاكراً لها هذه الروح الطيبة قائلاً: **جزيتم من اهل بيت خيراً.. ارجعي الى النساء بارك الله فيك..**

ورجعت الى الخيمة، وبعد قليل رأت وهب وهو يسقط صريعاً على الارض، فاسرعت اليه تهنيه بالشهادة، وجلست عند جسده الممزق بسيوف الاعداء، وصارت تصبغ شعرها من دمه وتقول:

هنيئا لك الجنة.. ياوهب.. وغاض العدو صمودها وإصرارها، فاصابها احد الجنود بالرمح فكور ظهرها وخرت شهيدة الى جنب زوجها وهب واختلط دمها بدمه!.

وقطعوا رأس وهب ورموا به الى امه، كي يبثوا الرعب في قلوب النساء، ولكنها استقبلت الرأس بكل شموخ واعتزاز، وصارت تمسح الدم وتزيل التراب عن وجهه الجميل وهي تردد: الحمد لله الذي بيض وجهي بشهادتك.. ورمت بالرأس الى معسكر العدو.

٢ـ العبيد المتحررون:

الحرية تبدأ من داخل نفس الانسان، وتنطلق من اعماقه، حيث يتحرر من شهواته واهوائه، ثم تنعكس على سلوكه ومواقفه، حيث يبحث عن جبهة الحق فينتمي اليها، ويتخذ موقعه في خندقها، غير متأثر باتجاه الناس

ولابضغوط السلطة، ولابالتهديد والتعذيب والقتل..

فالحر هو من لايخضع لأي قوة تريد زحزحته عن طريق الحق.. والعبد هو من يبيع حريته في اتخاذ القرار الصحيح، والموقف الصائب، في مقابل شهوة او اغراء أو تهديد...

وبهذا المقياس فان اغلب من يدعون الحرية هم في الواقع عبيد، حيث لايمارسون حريتهم. بينما يجسد الحرية في اجلى مظاهر واصدق مواقفها، بعض من يطلق عليهم الناس اسم العبيد.

وفي معركة كربلاء توفر النوعان، فجيش يزيد كلهم احرار مستعبدون بينما يوجد في أنصار الحسين عليه السلام عبيدٌ مارسوا الحرية بحق، واستحقّوها بجدارة.. وها نحن امام احدهم واسمه جون مولى ابي ذر الغفاري، وقد وقف بين يدي الحسين عليه السلام يستأذنه النزول الى المعركة.. فاجابه الحسين عليه السلام برقّة وعطف:

ياجون أنت في اذن مني فانصرف فانما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقتنا.

فلما سمع كلام الحسين عليه السلام تحركت الحرية في اعماق قلبه، ورفض أن تستعبده الحياة أو حب الراحة، وأجاب الحسين عليه السلام مستعيناً بدموعه التي تحاورت على اطراف لحيته قائلاً: يا ابن رسول الله انا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم؟

نفّس عليّ بالشهادة ليطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي!

واضاف: لا والله لا افارقكم حتى يختلط هذا الدم الاسود مع دمائكم..

واسرع الى المعركة، فاشتبك مع احدى مجموعات العدو، وهو ينشد:

كيف ترى الكفار ضرب الاسود
بالسيف ضربا عن بني محمد
اذب عنهم باللسان واليد
ارجو به الجنة يوم المورد

ومازال يناضل ببسالة وصمود حتى اردوه شهيداً الى الارض، فجاء اليه الحسين عليه السلام يهنيه بالشهادة ويدعو له قائلاً: **اللهم بيض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الابرار، وعرف بينه وبين آل محمد صلّى الله عليه وآله.**

٢. الشباب الرسالي:

احلى فرص الحياة، واجمل مناطق العمر، وامتع اوقات الانسان، هي مرحلة الشباب.. ففيها تشب طاقاته، وتشتد عضلاته، وتنمو مواهبه، ويحس حلاوة العيش، ويتذوق لذة الحياة..

وما احلى ان يضحي الشاب ويموت دفاعاً عن مبادئ دينه وكرامة امته.. انها الحياة الخالدة..

وقد كان اكثر ابطال ثورة الامام الحسين عليه السلام يعيشون ربيع العمر ومرحلة الشباب...

وهذا احدهم وهو علي الاكبر عليه السلام، الشاب الذي يصفه التاريخ بالجمال الباهر، والذكاء العظيم، والادب البارع، ويتحدث عنه ابوه الحسين بن علي عليهما السلام

بأنه: غلام اشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك محمد صلى الله عليه وآله وكنا اذا اشتقنا الى نبيك نظرنا اليه.

هذا الشاب سمع اباه اثناء الطريق وقد انتبه فزعاً وهو يقول: **انا لله و انا اليه راجعون!.**

قال: ابه خيراً ان شاء الله؟.

قال: **سمعت هاتفاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير خلفهم..؟**

فسأل الشاب اباه بكل ايمان: اولسنا على الحق؟

فاجابه الحسين عليه السلام فوراً: **بلى والذي اليه مصير العباد.**

قال الشاب والجدّ يسيطر على قسمات وجهه: اذاً ما نبالي وقعنا على الموت ام وقع الموت علينا!.

وفي كربلاء تقدّم الى أبيه الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من المحرم، ولم يكن عمره يتجاوز الثامنة عشرة، تقدم الى ابيه يطلب الرخصة للنزول الى المعركة... فنظر اليه الحسين عليه السلام نظرة حانية لاتملك الا دموع الوداع العزيز.. ولم ينتظر الشاب من أبيه التصريح بالبراز بل اكتفى بالتلميح والاشارة، وانقلب الى المعركة وشد على القوم وهو يقول:

أنا علي بن الحسين بن علي
نحن وبيت الله اولى بالنبي
تالله لايحكم فينا ابن الدعي
اضرب بالسيف احامي عن ابي
ضرب غلام هاشمي علوي

وكان بطلاً في حملاته على القوم، يعينه على ذلك شجاعة ضارية، وقوة شابة، مما جعل القوم يحقدون عليه، ويجدّون في القضاء على حياته، وما هي الا لحظات حاسمة حتى نال الاعداء منه ثأرهم، فهوى على الارض بعد ان مزّقت جسده سيوفهم الحاقدة...

٤ـ البراعم الثائرة:

لقد رسم اطفال كربلاء بدمائهم البريئة، صوراً وضّاءة للبراعم الثائرة... فلنستعرض احدها:

لتوه يتخطى العقد الاول من عمره، وهو وحيد امه المدلل، وقبل لحظات سقط ابوه على ارض المعركة شهيداً... وها هو الطفل يتقلد سيفا يبدو أنه يثقله، وهو يبحث عن الامام الحسين عليه السلام، فلما رآه واقفا على باب احدى الخيم، اسرع اليه، وبكل تأدب وقف بين يدي الامام عليه السلام، وأدّى اليه التحية: السلام عليك يا أبا عبدالله...

فردَّ الحسين عليه تحيته وسلامه. ثم نظر اليه بحنو وقال: نعم ماذا تريد يابني؟

ـ الاذن...

ـ الاذن في ماذا؟

ـ أبا عبدالله اريد أن تأذن لي بالخروج الى المعركة حتى الحق بابي في الجنة..

اعجب الحسين عليه السلام بهدوئه وتصميمه وبطولته على حداثة سنة.. وبكى للظروف التي ألجأته لمثل هذا الموقف الحزين..

والتفت الحسين عليه السلام الى من حوله قائلاً:

هذا قتل ابوه في المعركة، واخشى ان لاترغب امه في قتاله.

فرد الطفل بشجاعة: سيدي.. ان امي هي التي قلدتني حمائل سيفي... وامرتني بالجهاد بين يديك...

فَرَقَّ الحسين عليه السلام له ولامه وقال: **بارك الله فيكم.**

فاعتبرها الطفل رخصة: وهرول إلى المعركة وبدأ يهاجم الأعداء وهو ينشد:

أميـري حسين ونعم الأمير ... سرور فؤاد البشير النذير
له طلعة مثل شمس الضحى ... له غرة مثل بدر منير
علـي وفاطمة والـداه ... فهل تعلمون له من نظير

واحتوشته سيوف القوم الباغية، فتركوا جسده ممزقاً، تفيض منه دماء الطفولة البريئة تتحدى الظلم والانحراف، وتروي شجرة العدل والحرية..

المتخلفون عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام *

الشيخ محمد مهدي الآصفي

* بحث مستلّ من كتاب "في رحاب عاشوراء" للشيخ محمد مهدي الآصفي ـ ط ١ ـ ١٤١٩ ـ قم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المتخلفون عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام

(الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي)

﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

الصراع في مرحلتي التنزيل والتأويل:

مرت هذه الدعوة خلال مسيرتها بمرحلتين من الصراع: مرحلة التنزيل ومرحلة التأويل.

الأولى: في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله.

والثانية: تبدأ بخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

في المرحلة الأولى: كان الصراع يدور حول محور (التنزيل). وكانت الجاهلية المتمثلة يومذاك في مشركي قريش وحلفائها واليهود وحلفاؤهم

---

(١) التوبة: ١١٨.

يتصدّون لنفي (التنزيل) وإنكار علاقة هذا الدين بالله تعالى ونزول القرآن من لدن الله تعالى.

واستمر هذا الصراع قائماً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله كلّها. وانجلى هذا الصراع عن هزيمة قريش واليهود أمام الدعوة وانتصارها.

ويبدو لأول وهلة أنّ الجاهلية انسحبت عن مواقعها الهجومية أمام حركة الدعوة، واستسلمت وانقادت.. إلاّ أننا عندما نمعن النظر في تأريخ الإسلام نجد أنّ الجاهلية بدأت تخطط بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للالتفاف على هذه الدعوة وتحريفها والدسّ فيها وتشويه مفاهيمها.

وأحسّ ورثة الثورة بهذه المؤامرة الجديدة، وعرفوا قادة المؤامرات، وبدأت المرحلة الثانية من الصراع حول محور (التأويل) وأبرز المعارك في هذه المرحلة من الصراع: (صفّين) و (الطف).

والذي ينعم النظر في التأريخ الإسلامي يجد أنّ «صفّين» و«الطف» امتداد لـ «بدر» و «أحد» وأنّ الذين حاربوا علياً والحسن والحسين عليهما السلام في صفّين والطف هم الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل في بدر وأُحد.

ورحم الله عمّار بن ياسر فقد كان يقول في صفين لبعض من أنكر عليه محاربة معاوية وعمرو بن العاص: «هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن».

وقال لمن تردد يومئذٍ في قتال معاوية مع الإمام عليه السلام:

«أشهدت بدراً وأُحداً وحُنيناً، أو شهدها لك أب فيخبرك عنها؟

قال: لا، قال فإنّ مراكزنا على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ويوم أُحد ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب».

«هل ترى هذا المعسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أنّ جميع من أقبل مع معاوية ممن يرى قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته، والله لدماؤهم جميعاً أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟»[1].

شريحة المتخلفين عن الصراع:

وفي كل صراع ثلاثة أطراف، الطرفان المتصارعان والطرف المتفرج المتخلّف، والطرف الثالث أكثر تعقيداً من الطرفين الآخرين المتقابلين في ساحة الصراع والقتال، وفهم هذا الطرف «المتفرّج» على الساحة أشقّ من فهم الطرفين الآخرين.

وقد أعطى القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بتحليل هذا الطرف بالذات، والآية المباركة التي صدّرنا بها الحديث من سورة التوبة المباركة واحدة من الآيات القرآنية في استعراض وتحليل هذه الشريحة المتخلفة من المجتمع الإسلامي يومذاك.

ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نستعرض نموذجاً من المتخلّفين عن ثورة الحسين عليه السلام ندرس ونحلل مواقفهم.

ولا يكاد يختلف المتخلّفون عن معركة «الطف» عن المتخلّفين عن معركة «حنين» في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ أنّ تبوك تدور حول محور «التنزيل» والطف تدور حول محور «التأويل».

والصراع هو الصراع، ليس على أرض، ولا على مال، وإنّما هو صراع حضاري حول الإسلام والجاهلية، وتعود الجاهلية هذه المرة بعد أن

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم / تحقيق عبد السلام محمد هارون: ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

انكسرت شوكته، في بدر، وأُحد، والأحزاب، وحنين، من داخل صفوف المسلمين لتعاود الصراع مع الإسلام بتحريف الإسلام عن مسيره الصحيح وتشويه مفاهيمه وأفكاره وأصوله والدسّ فيه.

والصراع هذه المرّة كأي صراع حضاري يحمل نفس الضراوة والعنف ولا يقبل الهدنة ولا الصلح.

ولمّا كان الصراع في الطف نفس الصراع في حنين فإنّ المتخلّفين هنا هم من شريحة المتخلّفين هناك، والمواقف نفس المواقف، والقوانين والسنن في هؤلاء وأُولئك نفسها، ولنتأمّل في نموذج من هؤلاء المتخلّفين عن الحسين عليه السلام.

خبر الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي:

وهذا نموذج من المتخلفين عن الحسين عليه السلام وقصته معروفة في كتب السيرة.

رافق الإمام الحسين عليه السلام إلى ساحة المعركة ودخل المعركة معه وقاتل قتال الأبطال وأبلى بلاءً حسناً في القتال، استحسنه الإمام ولكنّه اشترط على الإمام عليه السلام منذ أن التحق به أن يجعله في حلّ منه إذا دارت دائرة الحرب عليه، ولم يعد ينفعه قتاله ودفاعه عنه.

فلمّا رأى أن المعركة قد دارت على الحسين عليه السلام ووجد أنّ الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام لا محالة مقتولين، ولم يعد ينفع الحسين قتاله ودفاعه، استأذن الحسين عليه السلام أن يترك ساحة القتال وينجو بنفسه، فأذن له الحسين كما وعده من قبل، فهرب الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي بنفسه من ساحة المعركة وترك الإمام ومن معه من أهل بيته وأصحابه للقتل في ساحة المعركة ونجا بنفسه.

فلنقرأ أولاً خبر الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي برواية الطبري من أبي مخنف، ثم نحاول أن نحلل هذا الخبر.

روى أبو مخنف عن الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، قال: قدمت ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين، ثم جلسنا إليه، فردّ علينا، فرحّب بنا، وسألنا عمّا جئنا له؟

فقلنا: جئنا لنسلّم عليك، وندعو الله لك بالعافية، ونُحدث بك عهداً، نخبرك خبر الناس وإنّا نحدّثك أنّهم قد أجمعوا على حربك، فَر رأيك.

فقال الحسين عليه السلام: «**حسبي الله ونعم الوكيل**».

قال: فتذمّمنا، وسلّمنا عليه، ودعونا الله له، قال: «**فما يمنعكما من نصرتي؟**».

فقال مالك بن النضر: عليّ دين ولي عيال، فقلت له: إنّ عليّ ديناً وإنّ لي لعيالاً، ولكنك إن جعلتني في حلّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً، قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً، قال: «**فأنت في حلّ**»(١).

قال أبو مخنف: «حدّثني عبد الله بن عاصم عن الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي قال: لما رأيت أصحاب الحسين قد أصيبوا وقد خلُص إليه وإلى أهل بيته ولم يبق معه غير سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي وبشير بن عمرو الحضرمي قلت له: يا ابن رسول الله قد علمت ما كان بيني وبينك، قلت لك: أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حلّ من الانصراف، فقلت لي: «نعم» فقال: «**صدقت، وكيف لك بالنجاة؟إن قدرت على ذلك فأنت في حلّ**». قال: فأقبلت إلى فرسي، وقد كنت حيث رأيت خيل أصحابنا تعقر أقبلت بها حتى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا

---

(١) تاريخ الطبري / طبعة ليدن: ج: ٧، ص: ٣٢١.

بين البيوت، وأقبلت أقاتل معهم راجلاً، فقتلت يومئذٍ بين يدي الحسين رجلين، وقطعت يد آخر وقال لي الحسين يومئذٍ مراراً: «**لا تشلل، لا يقطع الله يدك، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيّك**صلى الله عليه وآله، فلما أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط ثم استويت على متنها ثم ضربتها حتى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي وأتبعني منهم خمسة عشر رجلاً حتى انتهيت إلى «شفيّة» قرية قريبة من شاطئ الفرات، فلما لحقوني عطفت عليهم فعرفني كثير بن عبد الله الشعبي وأيوب بن مشرح الخيواني وقيس بن عبد الله الصائدي، فقالوا: هذا الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي هذا ابن عمنا ننشدكم الله لما كففتم عنه، فقال ثلاثة نفر من بني تميم كانوا معهم: بلى والله لنجيبن إخواننا وأهل دعوتنا إلى ما أحبّوا من الكف عن صاحبهم، قال: فلما تابع التميميّون أصحابي كفّ الآخرون، قال: فنجّاني الله»[1].

وقال السماوي في «إبصار العين»:

«بقي الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي مع الحسينعليه السلام حتى إذا أمر ابن سعد بالرماة فرموا أصحاب الحسين وعقروا خيولهم أخفى فرسه في فسطاط، ثم نظر فإذا لم يبق مع الحسين إلاّ سويد «بن عمر» وبشر بن عمرو الحضرمي فاستأذن الحسين، فقال له: «**كيف لك النجاة**؟ قال: إنّ فرسي قد أخفيته فلم يصب فأركبه وأنجو، فقال له: «**شأنك فركب ونجا بعد لأي**»[2].

---

(١) تأريخ الطبري / الطبعة الأوربية: ج: ٧، ص: ٣٥٤ـ٣٥٥. ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ص: ٢٩٨ـ٣٠٠.

(٢) إبصار العين ص: ١٠١.

تأمّلات في خبر الضحّاك:

أقبل الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين عليه السلام ليسلّما عليه، وليجددا به العهد، كما في رواية أبي مخنف، ويظهر أنّ هذا اللقاء تمّ في موقع كربلاء «الطف» بعدما استقرّ الحسين عليه السلام بأهله وأصحابه فيه، ولم يكن في الطريق، وقبل أن يحاصر الحسين عليه السلام، فقد استأذن مالك بن النضر الارحبي الحسين عليه السلام في الانصراف، وانصرف من دون أن يواجه مشكلة من قبل الجيش الأموي.

ويظهر من الرواية أنهما كانا عارفين بموقع الحسين عليه السلام وحقّه وذمّته وحرمته في الإسلام وموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله.

ففي رواية أبي مخنف: «وسلّمنا عليه، ودعونا الله له».

والتذمّم بمعنى حفظ الذمام، وحفظ العهد والحقّ والحرمة، كما في المدوّنات اللغوية.

إذن، فهما قد عظما وأكبرا ما على ذمتهما من حقّ الحسين وحرمته وعهده، فلما أرادا الانصراف استوقفهما الحسين عليه السلام وقال لهما: «**فما يمنعكما من نصرتي؟**».

ويلفت نظرنا أنّ الإمام يسألهما عمّا يمنعهما من نصرته قبل أن يسألهما النصرة ويدعوهما إليها.

وكأن في خروج الحسين عليه السلام على يزيد بتلك العصابة القليلة إلى العراق ما يغني عن الدعوة والاستنصار، فلا حاجة مع ذلك إلى أن يستنصر أحداً أو يدعوه، ففي خروج الحسين عليه السلام إلى العراق ودعوة واستنصار لكلّ المسلمين، وللحسين عليه السلام حقّ وحرمة على ذمّة كلّ المسلمين.

إذن يسأل الضحّاك وصاحبه: «**فما يمنعكما من نصرتي؟**».

أمّا مالك بن النضر الأرحبي فقد أراح نفسه وأراحنا بوضوحه وصراحته في الاعتذار عن الاستجابة للحسين والتخلّف عنه، فقال: «عليّ دين ولي عيال» فأعرض عنه الحسين عليه السلام، وانصرف هو لشأنه، فقد أقبلت السعادة والتوفيق عليه فأعرض عنها.

وأمّا الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، فأجاب الحسين عليه السلام بجواب معقّد، شديد الالتواء والتعقيد، فلا هو رفض دعوة الحسين، وأعرض عنها، كما رفضها صاحبه وأعرض عنه، ولا هو استجاب للحسين عليه السلام وقبل عنه، كما استجاب له أهل بيته وأصحابه.

ولنتأمّل في جواب الضحّاك، فإنه يمثّل شريحة واسعة من النفوس والمواقف إزاء «الدعوة».

وإننا ندرس من خلال الضحّاك بن عبد الله في موقع الطف، ومن خلال المتخلفين في مواقع حنين شريحة كبيرة في التأريخ الإسلامي، وشريحة كبيرة في تأريخنا المعاصر، ونحاول أن نرسم أبعاد هذه الشريحة في حياتنا المعاصرة، ونشخّص نقاط الضعف في شخصيتها عسى أن نقوّم من سلوكها ما يمكن تقويمه.

وسوف نجعل جواب الضحّاك للحسين عليه السلام في موضع التأمّل والدراسة ضمن مجموعة من النقاط:

النقطة الأُولى «الاعتذار»:

قدّم الضحّاك أول ما قدّم الاعتذار للإمام عليه السلام بما عليه من ديون ومال، شأنه في ذلك شأن صاحبه، فقال: «إنّ عليّ ديناً وإنّ لي لعيالاً».

وأول ما يلفت نظرنا في هذا الجواب، أنّ الضحّاك ومالك بن النضر لم يختلفا في الجواب، فكلّ منهما اعتذر عن تلبية دعوة الحسين عليه السلام بالعيال

والدين، غير أنّ الضحّاك استجاب لدعوة الحسين استجابةً محدودة ومقيدة ومشروطة بعد أن اعتذر أولاً، وأما صاحبه الأرحبي فلم يستجب مطلقاً لدعوته.

وفي هذا الاعتذار والاستجابة المشروطة من التعقيد ما ليس في موقف صاحبه، وقد كان أحرى به أن يستجيب استجابة محدودة ثم يعتذر، فلماذا قدّم الاعتذار على الاستجابة؟ إنّ في الأمر لسراً كامناً في أعماق نفس الضحّاك، فعندما طلب الحسين عليه السلام منه النصرة تزاحمت في نفسه حالة الشح وحالة الإنفاق، فغلبت حالة الشح حالة الإنفاق وسبقتها إلى البروز، ولكن لم تصادر الحالة الأخرى تماماً، كما كان في موقف مالك بن النضر الأرحبي.

ولنتأمّل إذن في اعتذار الضحّاك بعياله وديونه:

إنّ الابتلاء بالدين والعيال من سنن الله في حياة الإنسان، وقلما يشذّ عنه إنسان، شأنهما في ذلك شأن غيرهما من سنن الله تعالى في حياة الإنسان.

فلابد للإنسان من عيال، ولابد أن يدخل مع الناس في بيع وشراء، فيكون دائناً ومديناً، يطلب الناس ويطلبونه.

وجها الحياة الدنيا:

والدين والعيال هما وجهان مختلفان للدنيا، فالعيال تعبير عن تعلّق الإنسان بالدنيا وهو أحد وجهي الدنيا، وهو ما يسمّيه القرآن الكريم بـ «الشهوات» وتجمع هذه الآية الكريمة طائفة من هذه التعلّقات:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١].

والدين هو الوجه الآخر للدنيا، وهو وجه التبعات والمسؤوليات، والدنيا هي عبارة عن تعلّقات وتبعات، ومن أجل لذّة التعلّقات يتحمّل الإنسان مرارة التبعات، ولابد لكلّ إنسان من هذه التعلّقات ومن هذه التبعات ولا يشذّ عن هذه السنّة الإلهية في الحياة إلاّ القليل.

وهذه (التعلّقات) و (التبعات) بمجموعها هي العوائق في طريق الإنسان وحركته إلى الله تعالى، تعيق الإنسان عن الله سبحانه، وقد أعاقتا في هذه القضية مالك بن النضر الأرحبي إعاقة كاملة، وأعاقتا الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي إعاقة ناقصة.

فكيف نتعامل نحن في الدنيا مع هذه العوائق؟ وما هو موقف الإسلام منها؟

إنّ الحلّ الذي يعطيه الإسلام للتعامل مع هذه العوائق «التعلّقات والتبعات» دقيق في غاية الدقّة، وأكثر الذين شطّوا في فهم الحلّ الإسلامي لمسألة الدنيا بوجهيها كانوا ضحية عدم الدقّة في تناول هذا الحلّ بأبعاده الكاملة.

فليس في الإسلام أن يتخلّى الإنسان عن عيال أو دين، أو حتى أن يتخفف عنهما، والتخلّي أو التخفف من العيال والمال من الرهبانية التي يرفضها الإسلام.

وقد كان رسول الله ﷺ يعيش مع الناس ويتزوّج ويتعامل مع الدنيا، كما يتعامل غيره، وكان له عيال، وعليه ديون وتبعات، كما كان لغيره، وكان له بيت يضمّ عياله، وكان يدخل السوق في حاجاته وشؤونه كما كان الآخرين يعملون.

---

(١) آل عمران: ١٤.

وقوام الحلّ الإسلامي هو أن يتحرر الإنسان من أسر العيال والمال، وليس أن يتخلّى أو يتخفف منهما، وبين الأمرين بون بعيد، فليس من الإسلام أن يتخلّى الإنسان أو يتخفف من عياله وماله، ولكن من صلب الإسلام، وتعليماته وتوجيهاته أن يتحرر الإنسان من سلطان عياله وماله.

فلا يرفض الإسلام البيت أو السوق في حياة الإنسان، ولا يأمره أن يعتزل هذا أو ذاك، ولكن يرفض أن يتحول البيت أو السوق إلى سجن في حياة الإنسان يقيّدان حركته ويمنعانه عن الانطلاق ويحجزانه ويعيقانه عن الله تعالى.

وبشكل أوضح وتعبير أدق أنّ الإسلام يرفض أن يتحولَ العيال والمال في حياة الإنسان إلى عوائق تعيق حركة الإنسان، كما عاقت حركة مالك بن النضر الأرحبي والضحّاك بن عبد الله المِشْرقي.

كيف تتحوّل العوائق إلى منطلقات؟:

ومن عجب أن الطريقة الإسلامية الصحيحة للتعامل مع وجهي الحياة الدنيا تحوّل هذين الوجهين من الدنيا «التبعات والتعلّقات» من عوائق إلى منطلقات، فتكون الدنيا للإنسان منطلقاً إلى الله سبحانه وليست عائقاً، ويكون ماله وعياله مادة لحركته إلى الله تعالى ومنطلقاً لعروجه إليه عزّ وجلّ.

وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في كلمته، وقد سمع رجلا يذم الدنيا، فقال له فيما قال:

«إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها

الرحمة، ورحبوا فيها الجنة، فمن ذا يذمّها، وقد آذنت ببَيْنها[١]، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثّلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعاقبة، وابتكرت[٢] بفجيعة، ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غَداةَ الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتّعظوا»[٣]. ويقول عليه السلام في كلمة أُخرى:

«الدنيا دار ممر، لا دار مقر، والناس فيها رجلان رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها»[٤].

مقارنة بين زهير بن القين والضحّاك:

ولقد كان زهير بن القين يملك من المال والعيال ما كان يملكه الضحّاك بن عبد الله، وكان يعيش في دنياه، كما كان يعيش الضحّاك في دنياه، بل قد يكون حظّ زهير من الدنيا أعظم من حظّ الضحّاك، فقد كان زهير بن القين زعيماً في قومه، وجيهاً في بلده، ولم يحفل المؤرخون بأمر الضحّاك وصاحبه في شأن من شؤون الدنيا، وكان الضحّاك أقرب إلى الحسين عليه السلام وأكثر ميلاً إليه من زهير، فقد كان زهير عثمانيّ الهوى، كما يذكر أصحاب السير، وكان يحرص ألاّ يلتقي الحسين عليه السلام بمنزل في طريقه إلى العراق، فإذا وجد الحسين قد نزل منزلاً فيه ماء نزل غيره، وأمّا الضحّاك وصاحبه

---

(١) بينها: بعدها وزوالها عنهم.

(٢) ابتكرت: أصبحت، تبتكر أي تصبح.

(٣) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة: رقم ١٢٦.

(٤) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة: رقم ١٢٨.

مالك بن النضر فقد قصدا الحسين في كربلاء، وجلسا إليه، ودعوا له، ولم يكن يحدث شيء من ذلك لو لم يكن الضحّاك ومالك بن النضر من شيعة الحسين عليه السلام وممّن تميل إليه قلوبهم.

ومع ذلك كله فإن «العيال والمال» قد أعاقاهما عن الالتحاق به بشكل كامل أو بشكل ناقص.

وأمّا زهير بن القين فقد رجع من عند الحسين عليه السلام ولم يستغرق اجتماعه بالإمام في أغلب الظن بضع دقائق، وقد أعدّ نفسه للوفود على الله مع الحسين، والانصراف الكامل عن الدنيا، فأقبل إلى زوجته «دلهم» بنت عمرو (رحمها الله) وقال لها بقوّة وعزم وفي نفس الوقت بسهولة وراحة: «**إلحقي بأهلك فإنّي لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خيراً**» ثم قال لمن معه: «**من أحبّ منكم نصرة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وإلاّ فهو آخر العهد**»[1]، ولم يعقه عن ذلك مال ولا عيال.

وقد كانت زوجته «دلهم» رحمها الله هي التي دفعته وشجعته على الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام، فقد أصابه وأصاب رفاقه ذعر غريب عندما جاء رسول الحسين، وهو على الطعام، يدعوه إلى زيارة الإمام، فصمت وصمتوا، وكأنّ على رؤوسهم الطير.

فاخترقت المرأة المؤمنة الشجاعة «دلهم بنت عمرو» (رحمها الله) هذا الصمت والذعر بقوّة، وقالت لزوجها ـ ورسول الحسين يسمعها ويشهد الموقف ـ: «سبحان الله أيبعث إليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه، لو أتيته فسمعت كلامه؟!!»[2].

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ص: ١٨٨.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ القرشي: ج: ٣، ص: ٦٧.

ومع ذلك فلم يتوان زهير عندما قرر الوفود على الله تعالى مع الحسين أن يقول لزوجته دلهم ـ هذه المرأة الشجاعة ـ «الحقي بأهلك».

إذن ليست المسألة مسألة المال والعيال، وإنّما المسألة في أمر آخر، في طريقة التعامل مع المال والعيال.

والفرق بين الضحّاك وزهير لم يكن في أنّ الأول كان يملك من المال والعيال ما لا يملكه الثاني، وإنما كان في طريقة تعاملها مع المال والعيال.

فقد كان الضحّاك وصاحبه الأرحبي أسيرين للمال والعيال، فأعاقهما عن الانطلاق مع الحسين، وكان زهير بن القين متحرراً من أسر المال والعيال، فلم يعيقاه عن الحركة مع الحسين عليه السلام للوفود على الله.

النقطة الثانية «الاستجابة المشروطة»:

والنقطة الثانية في جواب الضحّاك أنه لم يرفض القتال إلى جانب الحسين عليه السلام، ولم يعتذر بصورة مطلقة، كما اعتذر صاحبه مالك بن النضر، بل قاتل مع الحسين وضرب الأعداء بين يديه، ودعا له الحسين عليه السلام.

وهذه نقطة أُخرى مشرقة في موقف الضحّاك من الحسين، فهو ليس من الذين وصفهم الفرزدق الشاعر بقوله: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك» وإنما كان قلبه وسيفه مع الإمام الحسين، وهو صادق في هذا وذاك، إلاّ أنه لم يعطِ سيفه للحسين عليه السلام، ولم يضع سيفه تحت أمر الحسين إلاّ بمقدار، وحدّد لذلك شرطين: إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً» وهذا شرط غريب.

إنّ الضحّاك يحصر نصرته للحسين عليه السلام بين شرطين:

١ـ أن يكون الحسين عليه السلام بحاجة إليه ولا يغني عنه غيره.

٢ـ وأن يكون قتاله دون الحسين عليه السلام نافعاً له فإن لم يكن هذا أو لم يكن ذلك فإن الضحّاك في حلّ من أمره.

ونحن لا يعجبنا أن نشكّك في صدق نية الضحّاك في موقفه من الإمام، رغم فراره من الزحف في اللحظات الأخيرة وتركه للإمام عليه السلام في أحرج اللحظات، وإيثاره للعافية، فإنّ لدينا ـ مع كلّ ذلك ـ من الشواهد ما يكفي لإثبات حسن نية الضحّاك، وصدقه في الوقوف إلى جنب الإمام، والدفاع عنه، إلاّ أننا نجد عنده إحساساً محدوداً بالمسؤولية تجاه الموقف، وتقتيراً شديداً في العطاء، في إطار هذه المسؤولية، ومحاولة جادة في إخضاع الإنفاق في سبيل الله لمعادلات دقيقة شديدة التعقيد.

فهو يعطي من نفسه لله تعالى ولكنه عطاء مشروط، ومحدود، وبحساب، وضمن تقديرات دقيقة، وليس كما يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[١].

والدقّة في المحاسبة، والمحاسبة الدقيقة أمر جيد لا نشكّ في حسنه وفائدته، ولكن عندما يكون طرف المحاسبة هو نفس الإنسان، وقد ورد في الحديث: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**» وأما عندما يكون طرف الحساب هو الله تعالى فإنّ المحاسبة بهذه الدقة وضمن هذه الشروط والقيود أمر قبيح مع الله سبحانه.

والضحّاك هنا يتعامل مع الله تعالى، وإن كان طرف التعامل في ظاهر الأمر هو الحسين عليه السلام.

ولا يطلب الحسين عليه السلام أمثال الضحّاك في حركته هذه، وإنما يطلب لنصرته أولئك الذين يبذلون كلّ ما عندهم من الأنفس والأموال لله تعالى،

---

(١) التوبة: ١١١.

من دون حساب وشروط وحدود وقيود، فقد خطب عليه السلام في الناس لما أراد الخروج من مكة إلى العراق وقال:

«ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[١].

ولاشكّ إنّ هذا العطاء الشحيح خير من النضوب، على كلّ حال، ولكن أصحاب هذا العطاء المحدود لا يستطيعون أن يسايروا الحسين عليه السلام في مثل هذه المرحلة.

وأعتقد أنّ عبارة (لم يوافق) في هذا الموضوع تساوي عبارة (لم يستطع)، فإنّ الضحّاك (لم يوافق) أن يقاتل من دون الحسين بلا حدود وقيوده وبنفس الملاك (لم يستطع) أن يساير الحسين إلى الشوط الاخير من رحلته.

العلاقة بين العمل والجزاء:

إنّ العمل والجزاء نوعان من العطاء، العمل ما يقدّمه الإنسان لله تعالى ﴿فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٢] والجزاء عطاء الله للإنسان في مقابل عمله، العمل من الإنسان، والجزاء من الله سبحانه، وبين الجزاء والعمل صلة وعلاقة يستعرضها القرآن الكريم بدقة وتفصيل، ولسنا الآن بصددها، وإنما نحن بصدد اختلاف الجزاء من عند الله باختلاف العمل من جانب الإنسان من حيث الحساب واللاحساب، وهي مسألة جديرة بالاهتمام وموضع

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد المقرم / منشورات مؤسسة البعثة ـ طهران ـ ص: ١٦٦، واللهوف على قتلى الطفوف للسيد ابن طاووس / ص: ٣٣. وابن نما / ص: ٢٠.

(٢) آل عمران: ٩٧.

الشاهد في حديثنا هذا، فإنّ عطاء الإنسان محدود على كل حال إلاّ أنه قد يعطى لله تعالى بحساب ومقدار، وقد يعطى من دون حساب وتقدير.

وهاتان طائفتان من الناس:

١ـ طائفة تعطي لله بحساب وتقدير، كالضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، يعطي لله شيئاً، ويحتفظ لنفسه بشيء، وإذا تواردت على شيء إرادة الله تعالى وهواه قدّم هواه على إرادة الله سبحانه.

٢ـ وطائفة أخرى تعطي لله ما آتاها الله تعالى من غير حساب ولا تقدير، وهؤلاء هم الذين تقول عنهم الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾(١).

هؤلاء اشترى منهم الله أنفسهم وباعوها لله تعالى، وقطعوا علاقتهم بأنفسهم، فهي لله عز وجل اشتراها منهم، ولا شأن له بها بعد، يصنع بها ما يشاء، والثمن مقبوض ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾.

فقد تمّ البيع وتم الشراء، وتم استلام الثمن، فلا يملك المؤمن من نفسه وماله إذن شيئاً، ليملك التقدير والحساب في عطائه وبذله، فهي كلّها لله تعالى يأخذ منها ما يشاء، ويدع منها ما يشاء، والله تعالى يجزي هؤلاء وأولئك على نحوين من الجزاء: جزاء محسوب ومحدود، وجزاء من غير حساب، وها نحن نشرح تفصيل هذا الأمر:

إنّ الأجر الذي يعطيه الله لعباده في مقابل أعمالهم كريم، وعظيم، وكبير، وحسن، وغير ممنون، وهذه خمسة أوصاف للأجر الذي يرزق الله عباده على حسناتهم:

---

(١) التوبة: ١١١.

١ـ فهو أجر كريم: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[١].

٢ـ وهو أجر عظيم: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

٣ـ وهو أجر كبير: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٣].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٤].

٤ـ وهو أجر حسن: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾[٥].

٥ـ وهو أجر غير ممنون: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[٦].

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٧].

وهذه الأوصاف الخمسة عامة شاملة لكل أجر يرزق الله عباده ممن يعطي لله بلا حساب أو بحساب، إلاّ أنّ الذين يعطون لله تعالى من دون حساب وتقدير يحاسبهم الله في السيئات حساباً يسيراً:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٨].

---

(١) الحديد: ١١.

(٢) آل عمران: ١٧٢و ١٧٩.

(٣) فاطر: ٧.

(٤) الحديد: ٧.

(٥) الفتح: ١٦.

(٦) القلم: ٣.

(٧) التين: ٦.

(٨) الانشقاق: ٧ و ٨.

هذا في حساب السيئات، اما في الحسنات فإن لله تعالى نوعين من الأجر: أجر محدود وبحساب، وأجر غير محدود ومن دون حساب.

والأول منهما للذين يعطون لله تعالى بحساب وتقدير، والثاني منهما للذين يعطون لله تعالى من أموالهم وأنفسهم بلا حساب وتقدير.

وليس معنى الحساب والتقدير من جانب الله المساواة بين العمل والجزاء في الحجم والكم وإنما معناه وجود التناسب بين العمل والأجر.

وأمّا عندما يكون عطاء العبد لله من دون حساب فإنّ جزاء الله تعالى له يكون من غير حساب وتقدير، يقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

وتستوقفنا هذه الآية المباركة من سورة النور طويلاً في شأن الجزاء عندما يكون العمل من جانب الإنسان، من غير حساب:

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢).

وهذه ثلاث خصائص للجزاء الإلهي:

الخاصية الأولى: (ليجزيهم أحسن ما عملوا)، فالجزاء من عند الله ليس بأسوأ ما يعمل العبد ولا بمتوسط ما يعمل العبد، وإنما بأحسن ما يعمله.

ولابد من توضيح لهذه الفقرة من الآية الكريمة:

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) النور: ٣٧ ـ ٣٨.

فإنّ للناس في الجزاء طريقين معروفين:

١ـ الجزاء بأسوأ ما يعمل الطرف الآخر، فقد يحسن الإنسان إلى صاحبه عمراً طويلاً ثم يسيء إليه مرّة واحدة، فيجعل صاحبه هذه الإساءة ميزاناً لعلاقته به وينسى كلما سبق له من فضل وإحسان إليه، وهذا هو الجزاء بالأسوأ.

٢ـ وقد يكون الجزاء فيما بين الناس بأوسط ما يفعلون، كما يقدّر المدرّسون درجات طلاّبهم بأوسط إجاباتهم في الامتحانات وهو الحساب بالمعدلات.

والله تعالى لا يجزي عباده بأسوأ ما يعملون ولا يجزيهم بأوسط ما يعملون، وإنما يجزيهم بأحسن ما عملوا، وله الحمد ربّ العالمين.

والخاصيةَ الثانية: للجزاء في هذه الآية المباركة هي: «**ويزيدهم من فضله**» ولا علاقة لهذا بأعمالهم إطلاقاً، فهو تعالى يزيدهم في الجزاء من فضله بما يشاء وكيفما يشاء.

والخاصّية الثالثة: «**والله يرزق من يشاء بغير حساب**» وهذا أعظم ما في هذه الآية، فإنّ رزق الله تعالى لعباده يوم القيامة في مقابل حسناتهم رزق من غير حساب ولا تقدير، فإنّ العبد لو كان يعطي لربّه مما آتاه من غير حدود ولا حساب فإنّ الله تعالى أولى بأن يعطي عبده يوم القيامة من غير حدود ولا حساب.

النقطة الثالثة «التحلّل من الالتزام»:

بعد أن يعتذر الضحّاك إلى الحسينعليه السلام بديونه وعياله، يطلب من الإمام أن يجعله في حل من الانصراف إذا شاء فيقول: «ولكنّك إن جعلتني في

حلّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك»، والحلّ في مقابل الالتزام، ولا يمكن أن يرتبط الإنسان بالتزامين متعاكسين في وقت واحد، فإذا كان الضحّاك ملتزماً تجاه ديونه وعياله، فمن الطبيعي أنه لا يستطيع أن يكون ملتزماً تجاه الإمام، ولابد من أن يتحرّر من أحد الالتزامين، وقد آثر أن يتحرر من التزامه تجاه الحسين دون التزامه تجاه ديونه وعياله، والالتزام تجاه الحسين هو الالتزام تجاه الدعوة والجهاد.

(التزام) و(حلّ):

والضحّاك يكشف لنا هنا عن موقف غريب في سلوكه وتعامله مع عياله وماله من طرف ومع الله تعالى من طرف آخر.

ولابد من أن تكشف في هذه الوقفة هذا الموقف لتكتمل عندنا الصورة التي نريد أن نرسمها للضحاك من خلال جوابه للحسين عليه السلام فهو يطرح أولاً عذره من خلال التزامه بالنسبة إلى عياله وديونه، ثم يطلب ثانياً منه أن يكون في حلّ من أمره عندما يريد الانصراف إذا لم يجد قتاله من دونه نافعاً له.

ثم يعرض على الحسين عليه السلام استعداده للقتال والدفاع عنه بصورة محدودة ومقيدة، فهو حسب هذا التسلسل الذي نجده في جوابه للإمام يقدّم التزامه تجاه عياله وديونه أولاً، ثم يطلب من الحسين عليه السلام أن يكون في حلّ من أمره ثانياً.

وواضح أنّ هذا الالتزام الذي يحرص عليه الضحّاك تجاه الدنيا، وهذا الحلّ الذي يطلبه الضحّاك من الحسين تجاه الله أمر غريب في شخصيّة الضحّاك، وقد كان أحرى به وأجدر أن يكون حريصاً بهذا الالتزام تجاه الله، وبهذا الحلّ والتحلّل والتحرر تجاه الدنيا.

إنّ تفكير الضحّاك بن عبد الله في هذا الموقف تفكير محتاط ومتحفّظ بصورة غريبة، فهو في الوقت الذي يستجيب لدعوة الإمام يبقي الأبواب من خلفه مفتوحة ليتمكّن من العودة إلى الدنيا عندما يبلغ المفترق الذي لا يستطيع بعده أن يجمع بين الدنيا والآخرة، ولابد من أن يختار أحدهما، إمّا ديونه وعياله وإمّا الآخرة، فيبقي الأبواب من ورائه مفتوحة ليتمكّن من أن يرجع إلى الدنيا في اللحظة الحرجة من المسير.

ونحن إذا استثنينا أُولئك الذين يتحركون على غير صراط الله، ويصدّون الناس عن الحركة إلى الله تعالى، نجد أنّ سائر الناس في تحرّكهم إلى الله على طائفتين:

الطائفة الأولى: تتحرّك إلى الله سبحانه في جدّ وعزم، وصدق، تهدم من ورائها جسور العودة إلى الدنيا، لا يطردون الدنيا ولا يهجرونها، ولكنهم إذا بلغوا المفترق الذي لابد لهم من أن يختاروا عنده الدنيا أو الآخرة لا يؤثرون على الآخرة شيئاً.

وهؤلاء هم «الصادقون» في التحرّك إلى الله ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾(١)، وموقعهم من الله عزّ وجلّ في الآخرة ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾(٢).

وطائفة أخرى من الناس يتحركون إلى الله في حذر واحتياط يحبّون الله ورسوله ولكن ما لم يزاحم دنياهم، وما لم يسلبهم دنياهم، فإذا بلغوا المفترق الذي لابد فيه من الاختيار الصعب آثروا الدنيا على الآخرة واختاروا شقّ الدنيا، وعادوا إليها، ولكيلا ينقطع طريق العودة عليهم في

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) القمر: ٥٥.

اللحظات الأخيرة لا يهدمون من ورائهم الجسور التي تنقلهم إلى الدنيا.

فهؤلاء يتحرّكون إلى الله سبحانه، ولا نشكّ في نيّتهم وصدقهم ـ في هذه الحدود ـ ولكن كلّما قطعوا شوطاً من الطريق، مدّوا من ورائهم بقدره جسراً ينقلهم إلى الدنيا.

وهكذا كان الضحّاك بن عبد الله اشترط على الحسين قبل كلّ شيء أن يكون في حلّ من الانصراف إلى دَيْنه وعياله، فدخل مع الحسين فيما دخل فيه من قتال جيش بني أميّة، وقاتل بين يدي الحسين عليه السلام وقتل منهم وجرح عدداً ولكنّه قد تحوّط لنفسه منذ أول ساعة فأخفى فرسه داخل فسطاط بين البيوت، وقاتل راجلاً بين يدي الحسين لتسلم له فرسه وليركبها ويفرّ بها إلى خارج ساحة المعركة ويهرب عن جند ابن زياد في اللحظة الحرجة التي لابد فيها من أن يختار أحد الأمرين.. فلمّا جدّ ذكّر الإمام الحسين بإذنه له في الانصراف متى شاء ومتى لم ينفعه دفاعه عنه وقتاله من دونه، فصدّقه الحسين، فركب فرسه وهرب من الآخرة إلى الدنيا.

إنّ هذا الرجل دقيق في تقدير المسافة التي يستطيع أن يساير الحسين عليه السلام فيها، يضبط حساباته في هذه الحركة بشكل دقيق، ويتحوّط للعودة إلى الدنيا عندما يصل إلى المفترق الذي يؤثر عنده الدنيا على الآخرة.

يشخّص المفترق بدقّة، ويحدد المسافة التي يساير فيها الحسين بدقّة، ويتحوّط للعودة من الله إلى الدنيا في اللحظة المناسبة، ويبقي من ورائه وهو يتحرّك مع الحسين عليه السلام إلى الله بابين مفتوحين يرجع من خلالهما إلى الدنيا عندما يريد:

أحدهما: موافقة الحسين عليه السلام أن يكون في حلّ من أمره عندما يريد الانصراف إلى الدنيا.

وثانيهما: فرسه التي احتفظ بها في فسطاط داخل البيوت عندما حاصر جيش بني أميّة الحسين عليه السلام ليستطيع أن يركبها في اللحظة المناسبة من الآخرة إلى الدنيا.

ومرّة أخرى نريد أن نقارن في هذه النقطة من البحث بين الضحّاك وزهير، كلّ منهما أقبل على الله تعالى مع الحسين عليه السلام.

الضحّاك دخل معركة الطف إلى جنب الإمام وقاتل وجاهد بين يديه، وزهير أقبل مع الحسين عليه السلام وجاهد وقاتل، ولكنّ الفرق بين هذا وذاك إنّ الضحّاك أقبل على الله وأبقى الأبواب مفتوحة من خلفه، بكلّ دقّة واحتياط، وأبقى الجسور قائمة من ورائه إلى الدنيا ليعود إليها في اللحظة التي يريد، وأمّا زهير فعندما قرّر الوفود على الله تعالى مع الحسين عليه السلام قطع كلّما كان بينه وبين الدنيا من جسور، وأغلق كلّ باب بينه وبين الدنيا، وقال لزوجته: «دلهم» في عزم وقوّة ويُسر: «الحقي بأهلك».

وإننا نتابع تفكير الضحّاك وما أخذه الضحّاك من احتياط لنفسه في مثل تلك الساعة وتلك المعركة فنرى أنّ هذه الدقّة في التقدير والضبط في الحساب، والتحفظ والاحتياط الشديدين جدير بالاحترام لو كان في علاقة الإنسان بنفسه ومحاسبته لها.

أمّا عندما يكون التعامل مع الله تعالى فمثل هذا التقدير والدقّة والاحتياط للعودة إلى الدنيا هو من الشحّ في العطاء، ومن التردد في العمل وفقدان العزم.

الجسر الذي مدّه الضحّاك إلى الدنيا من عمق «الطف»:

ولنستمع إليه مرة أُخرى:

(لمّا رأيت أصحاب الحسين قد أُصيبوا، وقد خَلُصَ إليه وإلى أهل بيته، ولم يبق معه غير سويد بن عمر الحنفي وبشير بن عمرو الحضرمي قلت له: يا بن رسول الله قد علمت ما كان بيني وبينك قلت لك: أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حلّ من الانصراف فقلت لي: «نعم»، فقال: «صدقت» **وكيف لك النجاة؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حلّ**، قال: فأقبلت إلى فرسي، وقد كنت حيث رأيت خيل «أصحابنا»[1] تعقر أقبلت بها حتى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت وأقبلت أقاتل معهم راجلاً.. فلمّا أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط ثم استويت على متنها، ثم ضربتها حتى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي..)[2].

إنّ أمر الضحّاك لغريب في نوعه، فهو يمدّ جسور الدنيا إلى عمق معركة الطف وإلى داخل خيام الحسين عليه السلام حيث لا يوجد فيها غير الآخرة، فهذه الفرس التي أخفاها الضحّاك في فسطاط لأصحاب الحسين عليه السلام بين البيوت يوم عاشوراء هو الجسر الذي مدّه الضحّاك لينقله إلى الدنيا.

وقد رأينا وسمعنا كثيراً عن امتداد الدنيا إلى أعماق النفس في مختلف

(١) يقول الضحّاك: خيل «أصحابنا» وهو عازم على مفارقتهم والانفلات من مصيرهم، وأيّ صحبة يا ترى بعد أن فارقهم وهجرهم إلى دينه وعياله ولحق بصاحبه مالك بن النضر الأرحبي؟؟!!

(٢) تأريخ الطبري/ الطبعة الاوربية: ج: ٧، ص: ٣٥٤ـ٣٥٥، ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ص: ٢٩٨ـ٣٠٠.

مراحل الطريق إلى الله سبحانه، ولكننا لم نَرَ فيما رأينا ولم نسمع فيما سمعنا أنّ الدنيا تنفذ وتمتدّ وتكمن في نفس الإنسان إلى هذا الحد، فيدخل الإنسان معركة الطف مع الإمام ويسقط أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه صرعى بين يديه، ويقاتل بين يديه عليه السلام، ويدعو له الحسين، وهو يرى الإمام واقفاً وحده بين يدي الأعداء ثم لم يفارقه حبّ الدنيا، ونفوذ الدنيا وسلطانها على نفسه في هذه المراحل جميعاً.

إنّ التصاق الدنيا بنفس الإنسان لغريب، ومن الخطأ أن يغترّ الإنسان بنفسه فيتصوّر أنه قد تحرر من سلطان الدنيا، ونفوذها، ولم يعد بحاجة إلى معاناة وتزكية وجهاد للنفس.

إنّ في نفس الإنسان خبايا عميقة، وأعماقاً مجهولة يكمن فيها حبّ الدنيا، ويبقى هذا التعلّق يطارد الإنسان في حركته إلى الله تعالى من حيث يعلم الإنسان أو لا يعلم، حتى إذا بلغ الإنسان نقطة الاختيار الصعب برز حبّ الدنيا من أعماق النفس المجهولة إلى السطح البارز للنفس، وغيّر وجهة الإنسان وحركته من الله تعالى إلى الدنيا.

إنّ حب الدنيا يلاحق الإنسان إلى هذه النقطة التي لا يكاد أن يبلغها الإنسان إلاّ بعد أن يخرج من مصفاة الابتلاء عشرات المرّات، ومع ذلك كلّه يبقى هذا الحب كامناً في نفسه.

إننا لا نريد أن نتّهم الضحّاك في صدقه وحبّه للحسين عليه السلام، وليس من سبب يدعونا أن نتّهم هذا الرجل الذي وقف هذا الموقف يوم عاشوراء من الحسين عليه السلام في نيته وصدقه، فلم يطلب الضحّاك من الدفاع عن الحسين عليه السلام ومن القتال بين يديه دنيا، وهذا حقّ يجب أن نقول به ونعترف له به، لكنه مع ذلك كلّه لم يتحرر من حب الدنيا ومن التعلّق بالدنيا ومن تبعات الدنيا، حتّى عندما ساقه التوفيق والسعادة الإلهية إلى هذه المعركة

الحاسمة بين الحقّ والباطل في التأريخ، ووضعه الله تعالى في أشرف موقع يتصوّره الإنسان، وهو موقع الدفاع عن الإسلام إلى جنب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

والآن بعد هذا التحليل النفسي لموقف الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي يجب أن نوجز مرّة أخرى العناصر التي تدخل في تكوين هذا الموقف الغريب، وأهم هذه العناصر هي:

١ـ حبّ الدنيا والتعلّق بها، وهو رأس هذه العناصر جميعاً، وهو أول شيء اعتذر به الضحّاك إلى الحسين عليه السلام عن مسايرته ونصرته، فلم يتخفف ولم يتحرّر الضحّاك من الدنيا وهو في وسط هذه المعركة المصيرية، كما تخفّف وتحرر عنها «زهير» من قبل.

٢ـ شحّة العطاء، وهي غير نضوب النفس، ففي حالة النضوب والجفاف ينقطع كلّ خير عن نفس الإنسان، أمّا في حالة «الشحّ» فيبقى للإنسان عطاء محدود وشحيح، وقد رأينا كيف وضع الضحّاك نصرته للحسين عليه السلام ضمن مجموعة من الشروط، ولم يبذل نصرته بذلاً، كما صنع سائر أصحاب الحسين عليه السلام، ولم يوطّن نفسه للقاء الله كما طلب الإمام الحسين من المسلمين في مكّة المكرمة.

٣ـ التحرّر عن الالتزامات التي تفرضها الدعوة والجهاد، والتحلّل عن القيود والعهود التي يفرضها الولاء لله تعالى ولرسوله ولأئمّة المسلمين.

وهذه العناصر الثلاثة تؤدي إلى ظواهر سلبية كثيرة في شخصية الإنسان من قبيل:

الخوف، والجبن، والخضوع، والانقياد للطاغوت، وانحسار سلطان الضمير عن حياة الإنسان وسلوكه.

ولسنا نريد أن نقول: إنّ هذه العناصر كانت موجودة مجتمعة في موقف الضحّاك بن عبد الله، ولكننا نريد أن نقول: إنّ أمثال هذه المواقف يمكن أن تنحلّ إلى هذه المجموعة من العناصر السلبيّة.

وفي ختام هذه التأملات نتعذر من الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي إذا كنّا قد أسأنا إليه، وتناولنا موقفه من الحسين عليه السلام بالتحليل والنقد بهذه الصورة، ولا نريد أن نبخسه حقّه، فقد نال ما حُرمنا منه نحن من شرف القتال بين يدي الحسين عليه السلام، ومن دعاء الحسين عليه السلام له.. وإنّما كنّا نريد أن نجعل من نقاط الضعف في موقفه وسيلة لتقويم نقاط الضعف في مواقفنا وسلوكنا.

رثاء عبيد الله بن الحر الجعفي للإمام الحسين عليه السلام*

د. أحمد دهمان

---

* بحث مطبوع ضمن كتاب "دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الحسين عليه السلام - ج٣" وقد انعقد المؤتمر في سوريا - محرم ١٤٢٤ - بالتعاون مع المجمع العالمي لاهل البيت عليهم السلام ومؤسسة الثقافة الإسلامية بطهران.

بسم الله الرحمن الرحيم

شخصية ابن الحر وعلاقاته في عصره

هو عبيد الله بن الحرّ بن عمرو بن خالد بن المجمع بن مالك بن عوف ابن حريم بن جُعفي بن سعد العشيرة. الشاعر الفاتك، كما وصفه ابن حزم[1]، والشجاع الفاتك كما وصفه البلاذري[2]. وهو ممن اشتهروا بالفتك في الإسلام، كما ذهب أُسامة بن منقذ[3]، يقتضينا هذا أن نحدد معنى الفتك، حتى نوفق بين آراء القدماء، فيما ذكروه من صلاحه وفضله وشجاعته، وما أكده شعره كذلك، فنذهب إلى أن الفتك هو الثورة أو التمرد، أو الخروج على العرف السياسي القائم، رفضاً له، ومقاومة لظلمه.

وذكر ابن خلدون[4] أن عبيد الله بن الحر الجعفي كان من خيار قومه صلاحاً وفضلا، وبذلك أكد ما أخبرنا به الطبري، حين ذكر في خبر مقتله

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٤١٠.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/٢٩٠.

(٣) لباب الآداب: ١٧١.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٣ / ١٤٨.

سنة ثمان وستين للهجرة أن ابن الحر كان رجلاً من خيار قومه صلاحاً وفضلا وصلاةً واجتهاداً. فلما قُتل عثمان وهاج الهيج بين علي ومعاوية، قال: أما إن الله ليعلم أني أحب عثمان، ولأنصرنه ميتاً. فخرج إلى الشام، فكان مع معاوية، فأقام عبيد الله عند معاوية وشهد معه صفين، ولم يزل معه حتى قُتل علي عليه السلام، فلما قتل علي قدم الكوفة، فأتى وإخوانه ومن خفّ في الفتنة، فقال لهم: يا هؤلاء، ما أرى أحداً ينفعه اعتزاله، كنا بالشام فكان من أمر معاوية كيت وكيت، فقال له القوم: وكان من أمر علي كيت وكيت، فقال ياهؤلاء، إن تُمكننا الأشياء فاخلعوا عُذركم، واملكوا أمركم. قالوا: سنلتقي، فكانوا يلتقون على ذلك[1].

يفيد هذا النص في تحديد الملامح العامة لشخصية هذا الشاعر، ويذكر جانباً من سيرة حياته في مرحلة بدء ظهوره على ساحة الأحداث. فقد كان عثماني الهوى، ثم رأى أن يستقل بموقف فدعا إلى رفض كل من طرفي الخصومة والصراع إبان صفين وبعدها، متخلياً عن عليّ ومعاوية معاً، طالباً من مريديه أن يرفضوا كل سلطة وأن يسوسوا أنفسهم. وقد التقوا على ذلك.

ويتابع الطبري قائلا: إنه بعد موت معاوية هاج الهَيْج في فتنة ابن الزبير، فقال ابن الحرّ: ما أرى قريشاً تنصف، أين أبناء الحرائر؟ فأتاه خليع كل قبيلة، فكان معه سبعمائة فارس، فقالوا: مُرنا بأمرك. فلما هرب عبيد الله بن زياد، ومات يزيد بن معاوية، قال عبيد الله بن الحر لفتيانه: قد بيّن الصبح لذي عينين، فاذا شئتم! فخرج إلى المدائن فلم يَدعْ مالا قُدّم من الجبل

---

(١) تاريخ الطبري: ١٢٨/٦.

للسلطان إلاّ أخذه، فأخذ منه عطاءه وأعطية أصحابه، ثم قال: إن لكم شركاء بالكوفة في هذا المال قد استوجبوه، ولكن تعجلوا عطاء قابل سلفاً. ثم كتب لصاحب المال براءة بما قبض من المال. ثم جعل يتقصى الكور على مثل ذلك»[1].

ويؤكد هذا الخبر أن ابن الحر وجماعته فقدوا كل أمل ورجاء بعد موت يزيد، وبذلك بدأوا حركة تمردهم وفعلهم في أخذ مال السلطان وتوزيعه عليهم جميعاً، ولو كانوا في الكوفة، بعيداً عن أرض الموقعة. وثمة ملمح آخر لشخصية هذا الشاعر، وهو أنه لا يعمل في الخفاء كاللصوص؛ لأنه صاحب قضية، سُدَّت في وجهه السبل الشرعية، فلم يجد ورفاقه بدأً من قطع الطريق سبيلا للحق، وللتعبير عن أنفسهم بكل شجاعة وعلانية؛ لأنه كان يكتب لصاحب المال «براءة» بما قبض.

ويتساءل الطبري: هل كان ابن الحر يتناول أموال الناس والتجار؟ فيذهب إلى أنه ما كان في الأرض عربيٌّ أغْيرَ على حُرَّة، ولا أكفَّ عن قبيح وعن شراب منه[2]. ويذكر أن شعره وضعَه عند الناس، وهو من أشعر الفتيان، وإن كنا نرى أن شعره أهم مظاهر شخصية الفارس، الحامي حقائق قومه، الباسل في المعارك، لأن شعره جزء من شخصيته، وهو وسيلته الفنية للتعبير عن رفضه للواقع السياسي والاجتماعي في عصره، فمن خلال أناشيد البطولة تتحدد رؤيتنا الفنية والأدبية لمرحلة عصيبة من تاريخ مجتمعنا العربي

---

(١) تاريخ الطبري: ٦ / ١٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٦ / ١٢٩.

الإسلامي، شهدت أحداثاً جساماً، منها قيام هؤلاء «العصاة» أو «الفُتاك» أو الخارجين، كما أطلقت عليهم السلطة ومن استظل بعطائها من المؤرخين. لقد وقف هؤلاء في وجه النظام الحاكم، وأسهموا في القلاقل السياسية والصراعات المذهبية، والأزمات الاقتصادية، والفتن الداخلية، وهي الظواهر الكبرى التي رافقت وجود ابن الحر إبان الحقبة الأُموية من الخلافة الإسلامية.

وأكد الطبري ذلك عندما تحدث عن علاقاته بأقطاب السياسة في عصره، إذْ أبى أن يبايع المختار الثقفي في البدء، ولكن مقتل الحسين عليه السلام وموقفه المعادي للأُمويين دفعاه إلى أن يبايعه على حذر، ولكنه أغار على أراضيه في ثلاثمائة من أصحابه في (الأنبار) و (كسكر)، فأرسل المختار جيشاً هدم دار ابن الحر وحبس امرأته أُم سلَمة الجُعفية. وأقسم المختار الثقفي أنه سيقتله وأصحابه، فلما بلغ ذلك عبيد الله أقبل في فتيانه حتى دخل الكوفة ليلاً، فكسر باب السجن وأخرج امرأته، وكل رجل كان فيه، فبعث إليه المختار من يقاتله، فقاتلهم ابن الحر حتى خرج من المِصْر، فقال حين حرّر زوجته من السجن قصيدة طويلة، مطلعها[1]:

ألـــم تعلَمـــي يـــا أُمَّ تَوبَـــةَ ... أنا الفارسُ الحامي حقائِقَ مَذْحِجِ

وكان ابن الحر يعبث بعمال المختار وأصحابه ويهاجم ضياعهم وينهبها، وكان يخاطب المختار بصفة الكذّاب:

ومـا تَـركَ الكـذّاب مِـنْ جُـل مالِنـا ... ولا الزَّرقُ مِنْ هَمْدانَ غيـرَ شـريدِ

(١) القصيدة في تاريخ الطبري: ٦ / ١٢٩ ـ ١٣٠. وشعراء أُمويون: ١٩.

وتؤكد أشعاره التي تناول فيها علاقته بالمختار الثقفي، فضلا عن أعمالهِ التي قام بها المختار انتقاماً منه، وكذلك المعارك التي دارت بينهما، عمقَ احتقاره للثقفي واستهانته به، وحقده عليه.

وقبل المختار كان لابن الحر صلات برجال عصره الآخرين كمعاوية ابن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وابنه الحسين عليه السلام، وابن زياد وغيره، فنمرُّ بذلك مروراً سريعاً رغبة في بيان جوانب صورة هذا الرجل. فقد جاء في أخباره(١): أنه صار مع معاوية، وكان يكرمه ثم خرج من عنده مُغضَباً يريد الكوفة في خمسين فارساً، ومضى لا يمر على قرية من قرى الشام إلاّ أغار عليها، حتى قَدِم الكوفة وكان له في الكوفة امرأة يقال لها الدرداء، وهي كبشة بنت مالك، فلما طالت غيبته فقده أهلُها، فزوجوها من رجل يدعى عكرمة بن الحنبص، فقاضاهم الإمام علي كرم الله وجهه، فكانت نتيجة ذلك أن قَضَى له بامرأته. وقد ذكر البغدادي(٢) أن أتصاله بالامام علي عليه السلام كان بعد أن اختلف ابن الحر مع معاوية، وقتل نفراً من أصحابه، وغنم ما بقي من عتادهم، وعندما قدم إلى الكوفة سأله علي عليه السلام قائلاً: يابن الحرّ أنت الممالئ علينا عدوّنا؟ فقال ابن الحر: أما إن ذلك لو كان لكان أثري معه بيننا، وكان ذلك مما يخاف من عدلك، وبعد أن قضى له بالمرأة، أقام عبيد الله معها منقبضاً عن كل أمر في يدي عليّ، حتى قُتل علي عليه السلام، وحتى وُلّي عبيد الله بن زياد العراق، وهلك معاوية،

---

(١) انظر أنساب الأشراف: ٦ / ٢٩٠، والطبري: ٦ / ١٢٨.

(٢) خزانة الأدب: ١ / ٢٩٧، وانظر الكامل في التاريخ: ٤ / ٢٨٧.

وولي يزيد بن معاوية.

ويرجح البغدادي أن ابن الحرّ كان يميل إلى علي، حباً بآل البيت. فقد ذكر أنه كان شجاعاً لا يعطي الأمراء طاعة، ثم صار مع معاوية فكان يكرمه، وكان ينتاب عبيد الله أصحاب له، فبلغ ذلك معاوية، فبعث إليه فدعاه، فلما دخل عليه قال: يابن الحر ما هذه الجماعة التي بلغني أنها ببابك؟ قال: أولئك بطانتي أقيهم وأتقي بهم إن ناب جَوْر أمير، فقال معاوية: لعلك يا بن الحر قد تطلّعت نفسُك نحو بلادك، ونحو علي بن أبي طالب، قال عبيد الله: إنْ زعمتُ أن نفسي تطلّع إلى بلادي وإلى علي، إني لجدير بذاك، وإنه لقبيح بي الإقامة معك، وتركي بلادي، فأما ما ذكرت من علي، فإنك تعلم أنك على الباطل، فقال له عمرو بن العاص: كذبتَ يابنَ الحرّ وأثمت، فقال له عبيد الله: بل أنت أكذب مني... ثم خرج عبيد الله مغضباً وارتحل إلى الكوفة[(١)].

وعلى الرغم من أنه كان مع معاوية، أو يميل إلى عثمان بن عفان، أو أنه شهيد صفين وهو في جيش معاوية، كما يذكر ابن الأثير[(٢)] وابن حزم[(٣)]، أو أنه كان أموي الأصل كما يزعم المبرّد[(٤)]، فقد كان الرجل ملتزماً بالقضية التي اجتمع وأصحابه عليها، عندها هاج الهيج بعد موت معاوية وفتنة ابن الزبير ثم موت يزيد بن معاوية، وشكّلوا الجماعة المحاربة، وأخذوا

(١) خزانة الأدب: ١ / ٢٩٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ٤ / ٢٨٧.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤١٠.

(٤) الكامل: ٤ / ٤٦٣.

يمارسون الفعل المضاد للسلطة. ومن جانب آخر يمكن أن يكون هذا الموقف أساساً أولياً لنوبات الحسرة والندم التي عبّر عنها ابن الحرّ بعد فاجعة كربلاء، على أن حبّ آل البيت والتعاطف معهم لما أصابهم من حيف وظلم وتشريد، ليس دليلا على التشيع، لأنه شرعةُ كل مسلم، وثمة أمر آخر نستنبطه من النص السابق إن كان صحيحاً، وهو مبلغ جرأته وصراحته، عندما أجاب معاوية بأن علياً لعلى الحق، وأن معاوية بذلك عالم، وكذلك رده على ابن العاص وعبيد الله بن زياد بعد ذلك. هذا الأمر يوضح الشيء الكثير من جوانب شخصية هذا الفارس الشجاع، كالجرأة والشجاعة والصراحة في التعبير عن الرأي أليس القائل في معرض رفضه للسلطة القائمة، ودعوته إلى خلع كل أمير بعد الخلفاء الأربعة: قاتلوا عن حريمكم، فإني قَلَبت ظهر المجن، وأظهرت لهم العداوة، ولا قوة إلاّ بالله[1]؟

أما عن علاقته بوالي الأمويين على العراق، عبيد الله بن زياد، فقد ذكر العلاّمة المؤرخ ابن خلدون[2] أنه بعد مقتل الحسين وتغيب ابن الحر عن ملحمته، سأل عنه ابن زياد فلم يره، ثم لقيه فأساء عذله، وعرّض له بالكون مع عدوه، فأنكر ابن الحر ذلك وخرج مغضباً، وراجع ابن زياد رأيه فيه فطلبه، فلم يجده، فبعث إليه فامتنع قائلا: «أبلغوه أني لا آتيه طائعاً أبداً». ويبدو أن ابن الحر كان غاضباً من ابن زياد لقتله الحسينعليه السلام، بمقدار ندمه على عدم نصرة الإمام الشهيد. فبعد قوله السابق أتى منزل أحمد بن زياد الطائي، فاجتمع إليه في منزله أصحابه ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى

---

(١) الكامل: ٤ / ٢٩٩ والمجن: الترس.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ١٤٩/٣.

مصارع القوم من أصحاب الحسين عليه السلام، فاستغفر لهم هو وأصحابه، ثم مضى حتى نزل المدائن، وقال في ذلك قصيدة مؤثّرة[١]، أرّخ فيها لهذه المأساة الدامية، وفيها يصف ابن زياد بالغدر، ويذكر الشهيد ابن فاطمة ومطلعها:

يقـــولُ أميـــرٌ غـــادرٌ حـــقَ غـــادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة

فيـــا نـــدمي ألا أكـــون نـــصرته ... ألا كـــل نفـــس لا تـــشدد نادمـــة

علاقته بالإمام الحسين عليه السلام

ربما لا نكون مغالين إذا ما قلنا: إن شعره الحماسي الحافل بالصراحة، والجرأة والكفاح من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، والثورة على العنف والظلم، وقسوة الحياة كان صدى أو مرآة لحياته الشجاعة، ومواقفه الجريئة التي تموج بالنخوة والمروءة والإقدام والمثل الرفيعة التي حضّ عليها الإسلام العظيم، وبصورة خاصة عندما نتبين دور شعر ابن الحر في حركة التوابين التي ظهرت بعدئذ، فأغلب الظن أن ندم ابن الحر وحسرته على خذلانه الحسين عليه السلام وتخليه عنه، وحديثه في شعره عن ذلك، ودعوته إلى الثأر له، وتحريضه على الوقوف في وجه الأمويين من أجله، كانت الإرهاصات الأُولى لظهور التوابين، كما يقول الدكتور يوسف خليف[٢]، فمن الواضح أن هذه المعاني التي أكثر من ترديدها في شعره هي نفسها

---

(١) القصيدة في الكامل: ٤ / ٢٨٨، وأنساب الأشراف: ٢٩٢/٥، وشعراء أمويون: ١١٥.

(٢) حياة الشعر في الكوفة: ٣٧٩، للتوسع في دراسة حركة التوابين، ينظر ضحى الإسلام: ٣ / ٣٠٤.

الأسس التي قامت عليها حركتهم، وهي نفسها الأهداف التي كانوا يعملون من أجلها.

فعلى الرغم من نصائح محبي الإمام كالمخزومي وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير والفرزدق الشاعر، الذين حاولوا إقناعه بعدم الخروج إلى العراق[١]، لخوفهم من هلاكه، وإشفاقهم عليه، لأن الذين يلحّون على قدومه، قلوبهم معه، وسيوفهم مع بني أُمية، إلاّ أنّه أصرَّ على موقفه حيث قدم الكوفة، وفي كربلاء وقعت المأساة الدامية، تلك الكارثة الكبرى في حياة العرب والمسلمين، حيث قتل عليه السلام وحُزَّ رأسه الكريم، بعد أن قاتل قتال الأبطال.

وكان قبل المعركة قد مال إلى السلم فعرض على قاتليه أن يذهب إلى يزيد بن معاوية، أو يعود من حيث أتى، أو أن يدعوه يلحق بالثغور، إلاّ أن عبيد الله بن زياد رفض كل عروضه، وأصرّ على قتاله، فكانت النتيجة المعروفة.. إبان هذه الأحداث وفي أثناء فترة الحصار الذي فرضه جيش ابن زياد على الحسين وأصحابه، كان الإمام قد انتهى إلى قصر بني مقاتل فنزل به، فإذا هو بفسطاط مضروب ويذكر الطبري[٢] أن الحسين عليه السلام قال: **لمن هذا الفسطاط؟** فقيل لعبيد الله بن الحرّ الجعفي، قال: **ادعوه لي**، وبعث إليه فلما أتاه الرسول قال: هذا الحسين بن علي يدعوك، فقال ابن الحر: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما خرجت من الكوفة إلاّ كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها، والله ما أريد أن أراه ولا يراني، فأتاه الرسول فأخبره، فأخذ الحسين

---

(١) الطبري: ٥ / ٣٨٢، وما بعدها.

(٢) الطبري: ٥ / ٤٠٦.

نعليه، فانتعل، ثم قام فجأة حتى دخل عليه، فسلَّم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه، فأعاد عليه ابن الحر تلك المقالة، فقال: **فإلاَّ تنصرنا فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا، فو الله لا يسمع داعيتنا أحدٌ ثم لا ينصرنا إلاَّ هلك**، قال: أمَّا هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله. ثم قام الحسين عليه السلام من عنده حتى دخل رحله.

ومن الواضح أنَّ ابن الحر كان مقدّراً نتائج المعركة غير المتكافئة، وهو المحارب المجرَّب. ولعلّه كان واثقاً أن الحسين لن يتراجع عن قراره، ومن هنا نشأت حالة الألم النفسي نتيجة الخذلان، وربما كان تأثير هذا الموقف في نفس الشهيد الحسين أقوى منه عند ابن الحر، وذلك لأنه بعد ذلك خفق برأسه خفقة ثم انتبه، وهو يقول كما كان جواب ابن الحر: (**إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين**) وفعل ذلك ثلاثاً فأقبل عليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، يا أبتِ جُعِلْتُ فِداك، ممّ حَمدتَ الله واسترجعت؟ قال: **يا بني إنّي خفقت برأسي فَعَنَّ لي فارسٍ على فَرَس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري اليهم فعلمت أنها أنفْسنا نُعِيَتْ الينا**، قال له: يا أبت، لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟ قال: **بلى، والذي إليه مرجع العباد**، قال: يا أبتِ إذاً لا نبالي نموت مُحقِّين، فقال له: **جزاك الله من ولد خيرَ ما جزى ولداً عن والده**[1].

---

(١) الطبري: ٥ / ٤٠٧.

ويذكر البغدادي أن ابن الحر قال عندما دخل الحسين عليه السلام طالباً مساعدته: ما رقفت على أحد قطّ رقّتي عليه حين رأيته يمشي والصبيان حوله، فقال له الحسين: **ما يمنعك يابن الحر أن تخرج معي؟** قال ابن الحر: لو كنتُ كائناً من أحد الفريقين لكنت معك، ثم كنت من أشد أصحابك على عدوّك، فأنا أحبّ أن تعفيني من الخروج معك، ولكن هذه خيل لي معدّة، وأولاء من أصحابي وهذه فرسي المُلْحَقَة فاركبها، فو الله ما طلبت عليها شيئاً قطّ إلاّ أدركته، ولا طلبني أحد إلاّ فتّه، فاركبها حتى تلحق بمأمنك، وأنا لك بالعيالات حتى أؤديهم إليك، أو أموت وأصحابي عن آخرهم، وأنا كما تعلم إذا دخلت في أمر لا يضيمني فيه أحد. قال الحسين عليه السلام: **أفهذه نصيحة لنا منك يابن الحر؟**..

قال نعم والله الذي لا فوقه شيء، فقال الحسين عليه السلام: **إني سأنصحُ لك كما نصحتَ لي. إن استطعت ألاّ تسمعَ صراخَنا ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع داعيتنا أحدٌ لا ينصرنا إلاّ أكبّه الله في نار جهنم**، ثم خرج الحسين عليه السلام من عنده.

أما صاحب الأخبار الطوال[1] فيذكر أن الحسين عليه السلام أجاب ابن الحر بعد عرضه: «**أما إذا رغبت بنفسك عنا، فلا حاجة لنا إلى فرسك**». وقد حرصنا على إيراد الخبر كاملاً لنستنتج منه عدّة حقائق، أهمها:

أولا: إن خروج ابن الحر من الكوفة عندما أيقن أن الحسين عليه السلام مغلوب

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٥١.

لا محالة، يدل أنه لا يريد أن يشارك في معركة خاسرة سلفاً، وهو إلى جانب ذلك يصرّح بأنه متحرج من دم الحسين وآله. وهذا تأكيد لموقف سياسي محايد تجاه طرفي الصراع في كربلاء، إن لم يكن مشفقاً على الحسين، أو لا يريد نقض هدنة مع الأمويين. وفي ذلك تأكيد لسلوك الفارس الذي لا يعرف الغدر أو النكوص.

ثانياً: إن طلب الحسين عليه السلام من ابن الحر نجدته، يدل على أنه يعول على الجعفي الذي ربما يغيّر نتيجة المعركة أو الموقف في حال المشاركة في الموقعة. وهذا دليل على قوة ابن الحر وجماعته.

ثالثاً: إن هذه الحادثة وما خلفته من نتائج دامية حزينة هي الدوافع إلى إعلان الشاعر أن قريشاً لا تنصف، وإلى الدعوة إلى الخروج عليها والتمرد، وممارسة العمل الثوري كالإغارة على مال السلطان، وتوزيع الثروة على مستحقيها من الفقراء.

أضف إلى ذلك أن بكاءه على شهداء كربلاء قد عصف بنفسية الشاعر مما أدى إلى الوقوف في وجه الأمويين. ولكن هل كان ابن الحر بهذه المنزلة حتى يعدّه الإمام الحسين مرجح النصر في كربلاء؟...

الفارس النادم على خذلان الحسين

هذا الشاعر الإنسان ربط المعنى البطولي بالبعد الأخلاقي للموقف التاريخي في موقفه من الإمام الحسين عليه السلام، ذلك الموقف الذي أصبح مغايراً لموقفه منه قبل حادث الاستشهاد المؤلم، إذ وضع نفسه في جانب الناقمين، ولهذا ظلت بعدئذ قصائده في الحسين، وفي تأنيب نفسه، تفيض

بمشاعر الرثاء الحزين، ومعاني الندم الممض، والشعور بالتقصير الذي أفقده كثيراً مما يجب عليه أن يؤديه، حين دعاه الحسين لنصرته، ويؤكد كذلك ما جاء في الأخبار مما يدعم الخبر الذي تضمن أن الشاعر صمّم على تركه وعدم الاستجابة؛ ولهذا كان رثاؤه للحسين نسيجاً من مشاعر التلهف إلى التفكير عن هذا الخطأ القاتل، واللوعة التي يبعثها تذكر الحادثة وما جرى فيها، وما سال من دماء الأبطال والنساء والأطفال على أيدي قساة غلاظ القلوب، وليس بينهم وبين حرمة آل البيت أي حجاب. كذلك تتعالى من هذا الشعر أنفاس التأثر الذي يتجاوز حدّ الحزن السرمدي، والاندفاع الذي حدّد موقفاً سياسياً فيما بعد أدّى إلى إعلان «أن قريشاً لا تنصف». وتتجلى معاني هذا الرثاء المؤلم والندم المفجع في هذه الدراسة النقديةَ التحليلية لهذا الفن الذي أقامه ابن الحر على ثلاثة أركان هي: رثاء الحسين، هجاء قاتله ابن زياد، الندم والحسرة اللذان أبكيا الفارس المغوار.

ففي الأبيات التالية: التي يرثي بها الحسين بن عليّ عليه السلام ما، يعبّر عن ندمه على تركه إجابة الحسين حين دعاه إلى نصرته قائلاً[1]:

فَيَالَكِ حَسْرَةَ ما دُمْتُ حيَّاً ... تَرَدَّدُ بَيْنَ حَلْقِي والتَّراقِي

حُسَيَن حين يطلبُ بَذْلَ نَصْري ... على أهْلِ العَداوةِ والشّقاقِ

ولو أنّي أُواسيهِ بنفسي ... لَنِلْتُ كرامةً يومَ التَّلاقِي

(١) وصف الجاحظ أحد رجال ابن الحر وهو الغداف، بأنه لم يكن في الأرض أشدّ منه، كان يقطع على القافلة وحده، بما فيها من الخفراء والحماة. انظر رسائل الجاحظ: ١ / ١٩٣، والأبيات في شعراء أُمويون: ١٠١، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

مع ابن المصطفى نفسي فداه ... فيا لله من ألم الفِراقِ
فما أنسى غداةَ يقول حُزناً ... أتتْرُكنا وتُزمِعُ لانطلاقِ
فلو فَلَقَ التَلَهُفُ قَلْبَ حيٍّ ... لَهَمَّ اليومَ قلبي بانْفلاقِ
فقد فاز الأُلى نصروا حُسَيْناً ... وخاب الآخرونَ أولو النِّفَاقِ

لقد هزته المأساة التي تركت الحسين وأصحابه صَرْعَى على أرض كربلاء الحزينة، فأثارت في نفسه مشاعر الحسرة التي يعبر عنها في هذه الأبيات بأسلوب فني جميل مؤثر، يحمل العاطفة الحزينة، ويبوح بكل معاني الصدق، ويرفض النفاق والرياء. فهو لاينكرُ تخليه عن الحسين حين طلب بذل نصره، ويصف خادعيه في القدوم إلى الكوفة وقاتليه بأهل الشقاق والعداوة، ويتمنى لو افتداه بنفسه لينال رضى الله تعالى يوم الحساب. لكن ألم الفراق وحزن الشاعر على خذلانه، أو عدم نصرته الحسين عليه السلام، يبدو ان في هذا المعنى النبيل المؤثر الذي يصف فيه قلبه بأنه يكاد ينفلق حسرة وندماً، فقد خسر شرف نصرة الحسين، ومن ثمة الفوز بالجنة، فخاب هو كما خاب المنافقون...

إنه الفارس الذي يذرف دموع الندم، والألم والتلهف والخسران، هذه الدموع التي تركت في نفوسنا أثراً كبيراً قوياً لصدق قائلها، وهو الرجل الذي لم يعرف الهزيمة الحربية في حياته، فكيف بالهزيمة النفسية التي تبكيه...

وقد ذكرنا آنفاً أن الشاعر خرج من مجلس ابن زياد مغضباً، لأنه أنّبهه على موقفه من قتله ابن المصطفى صلى الله عليه [وآله] وسلم، فأرسل إليه

الشُرَطَ فأجابهم: «أبلغوا عني أني لا آتيه طائعاً أبداً[١]»، وقال: لئن استطعت أن لا أرى له وجهاً لأفعلن، ورثى الحسين وأصحابه الذين قتلوا معه بادئاً القصيدة بهجاء ابن زياد قائلاً:

يقول أمير غادر وابن غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه

ونفسي على خذلانه واعتزاله ... وبيعة هذا الناكث العهد لائمه

فيا ندمي ألا أكون نصرته ... ألا كل نفس لا تسدّد نادمه

وإنّي لأنّي لم أكن من حماته ... لذو حسرة ما إن تفارق لازمه

هل ثمة تعبير يفي بمعاني التقريع أشدّ وضوحاً من هذا؟.. اللوم، الندم، الخذلان، هي مقومات هذا التعبير المؤثر، ثم يتابع وصفه لآلام الحسرة، فيدعو بالسقيا لأرواح الذين نصروه من الشهداء الصادقين الذين وقف الشاعر على مصارعهم قائلاً:

سقى الله أرواح الذين تأزروا ... على نصره سقيا من الغيث دائمه

وقفت على أجداثهم ومجالهم ... فكاد الحشا ينقض والعين ساجمه

ثم يصف استبسالهم وتضحيتهم بأنفسهم في سبيل نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ ملتفتاً إلى مشاعره التي تفيض بالأسى والحزن والدموع:

لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى ... سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمه

تآسوا على نصر ابن بنت نبيهم ... بأسيافهم آساد غيل ضراغمه

---

(١) الخبر والأبيات في الطبري: ٤٧٠/٥، الكامل في التاريخ: ٢٩٨/٤ ـ ٢٩٩، مع اختلاف في بعض الألفاظ عن روايتها في شعراء أمويون: ١١٥، وأشعار اللصوص: ٢٨٣/١.

ثم ينتقل من وصف مشاعره الخاصة تجاههم إلى وصف مشاعر الناس عامة نحوهم: فكل نفس مؤمنة على الأرض أضحت حزينة باكية لمقتلهم، ليس لأنهم شهداء فحسب، بل لأنهم أفضل الناس طرّاً:

فإن يُقتلوا فكل نفس تقية على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الرّاؤون أفضل منهم لدى الموت سادات وزهراً قماقمه

ويوجّه الكلام من جديد إلى الأمير الغادر القاتل الذي يعاتب ابن الحر ويرجو وداده، فيعلن أنه لن يكون معه أبداً، لأنه من الناقمين عليه، بل إنه يفكر في أن يشن عليه حرباً تطحنه، فتقضي على ظلمه وباطله وغدره، وكأنّ هذا الوعيد مما يخفف عن الشاعر بعض آلام الندم، ويواسيه في حسرته:

أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا فدع خطّة ليست لنا بملائمه
لعمري لقد راغمتمونا بقلتهم فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهُمُّ مراراً أن أسير بجحفل إلى فئة زاغت عن الحقّ ظالمه

إنه التعبير القوي الجريء عن السخط الشديد الممتزج بالحسرة والندم والبكاء الحار، تلك المشاعر والانفعالات التي لم تفارق ابن الحر حتى لو غادر الديار التي تطهرت بدماء الشهداء من أهل الحسين وأصحابه إلى المدائن أو غيرها. إنها أحزان يتقد فيها لهيب الغضب، وتشع منها روح الثورة والسخط، دون خوف من بطش ابن زياد الذي يصفه بالغدر واللؤم والظلم، والمراوغة، والخسة، وكأننا إزاء رجل يُحمّل نفسه تبعات هزيمة منكرة، ولا يجد ما يكفر به عن آلامه سوى الدعاء بالسقيا، وهذه التحية

النبيلة يلقيها على الأجداث الطاهرة، أو الإعداد لحرب تزيل من الوجود دولة ابن زياد الزائغة عن الحق، بجيش ضخم قوي أشد عليهم من جيوش أعدائهم.

ومن ناحية أُخرى فإن القصيدة تبوح بموقف سياسي جديد لابن الحر يتجلى في عدائه للأُمويين، لعل ذلك يؤكد معاني الندم التي ما فتئ يعبر عنها ويكررها في كل تجربة شعرية، وهذا الملمح التعبيري يعطي القصيدة الميمية هذه صفة الايجابية، وبذلك تختلف عن القصيدة السابقة (القافية)، التي اتصفت بسلبية الموقف السياسي والتعبيري.

وكما ذكرنا فإن الشاعر لا يمل من تكرار هذا المعنى في أبياته الشعرية، وكأن هجاءه لابن زياد يخفف بعض آلام سياط النفس، ويهدهد آلام الخذلان التي استقرت في أعماقه فأقضّت مضجعه، وقربته زلفى من دائرة التصديق. فهو في الأبيات التالية يقارن بين مشهدين متناقضين تماماً، الأول: يمثل الأمويين وهم نائمون سعداء يعيشون نشوة النصر، وهم بذلك مضيعو الإسلام؛ لأنهم يؤمّرون الحمقى على الناس، ومع ذلك يدوم نعيمهم على الرغم من ظلمهم وضلالهم وفساد حكمهم، والثاني: مشهد أولئك الشهداء الأبرار الذين تضرجت أجسادهم الطاهرة بدماء الشهادة، وبقتلهم ضاعت قيم الدين الحنيف، وتحول العدل إلى الظلم، والخير إلى الشر، يقول[1]:

يبيت النشاوى من أُمية نوّما ... وبالطفّ قتلى لا ينام حميمها

---

(١) شعراء أُمويون: ١١٥، وفي أشعار اللصوص: ٢٨٣/١: حياتي أو ملقي أمية خزية.... ولعل رواية القيسي أصوب. والعميم: كل ما اجتمع وكثر.

وما ضيّع الإسلام إلاّ قبيلة تأمّر نوكاها ودام نعيمها
وأضحت قناة الدين في كف ظالم إذا اعوج منها جانب لا يقيمها

وكعادته في خاتمة أنغامه الشعرية الشجية، يهدد الأُمويين ويتوعدّهم بأنه سيحاربهم وإلاّ فسوف تظل دموعه على الحسين منهمرة:

فأقسمت لا تنفك عيني حزينة وعيْنيّ تبكي لا يجف سجومها
حياتي أو مُلقي أُمية جزية يذلّ بها حتى الممات عميمها

ومثلما قارن قبل قليل بين مشهدين متناقضين، يعلن هنا أنه سيظل باكياً متحسراً إلى أن يذل رأس الأمويين بإرغامهم على دفع الجزية جزاء لما اقترفوه من آثام بحق الأُمة عامة، وأطهر شهدائها الحسين عليه السلام، بصورة خاصة.

وكما ذكرنا آنفاً فإن هذه الأنغام الحزينة التي بثت لنا رثاء الحسين عليه السلام، وأصحابه وأطفاله وآل بيته، لايمكن أن تكون بهذا الكمّ القليل؛ وذلك لأن هذا الغرض الشعري الوجداني الصادق يفتح المجال واسعاً أمام قيم تعبيرية وفنية تحملها لتعبّر عن رغبة الشاعر في الاعتراف بذنبه تكفيراً عنه. يؤيد هذا الرأي ربط الرثاء بهجاء الأُمويين وهم الحكام المنتصرون، الأقوياء، وكذلك بالتهديد الدائم بالحرب، وبشن الغارات ضدهم، وهو الشاعر الفارس (الفاتك) الذي كان شعره صدى لمسيرة حياته، يضاف إلى ذلك أنه ما برح يذكر هذه الحادثة الجليلة في كل مناسبة. فعندما دعاه مصعب إلى

نصرته في قتاله للأمويين وأهل الشام مقابل أن يكون لابن الحر خراج مقاطعة (بادوريا) أجابه الجعفي قائلاً[١]:

أيرجو ابن الزبير اليوم نصري لعاقبة ولم أنصر حسينا؟

فهل يرتقي طلب مصعب إلى منزلة طلب الحسين، وهل ينصره بعد أن خذل حب النبي الكريم ﷺ. وقد علمنا كيف كان يزدري مصعباً ويعاتبه ويعرّض بخزيه، وثمة غرض شعري يهجو فيه ابن الحر مصعباً ويفتخر بانتصاراته المتعددة عليه.

وهكذا تبدو أمامنا ملامح عامة لفن الرثاء الممض الذي تقرّب به ابن الحر زلفى من دائرة الغفران لذنب بدأ بخذلانه الحسين واستمر بعد مقتله، وفي رثاء الحسين أحسسنا برياح الثورة على العنف والظلم وقسوة القلوب، بل إن معاني هذا الفن ـ على قلة عدد أبياته ـ جعلتنا نشارك الشاعر وجدانياً، فنشفق عليه لما لاقاه من عذاب الضمير وآلام الحسرة والألم، والصراع الحاد بين نشوة الانتصارات وعذاب النفس المتخاذلة.

---

(١) شعراء أمويون: ١١٧.

الإمام الحسين عليه السلام على قمة هرم الحضارة الإنسانية*

د. أحمد راسم النفيس

* بحث مطبوع ضمن كتاب "دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الحسين عليه السلام - ج٣" وقد انعقد المؤتمر في سوريا - محرم ١٤٢٤- بالتعاون مع المجمع العالمي لاهل البيت عليهم السلام ومؤسسة الثقافة الإسلامية بطهران.

بسم الله الرحمن الرحيم

على قمة هرم الحضارة الإنسانية يتربع الإمام الحسين بن علي عليه وعلى آبائه وعلى أبنائه أفضل الصلاة وأتم السلام وعلى السفح وبين الشقوق يجثم السقوط بشقّيه المادي والدوني فسحقاً لمن رضي بالذل!

أما الدونية فتتمثل في أولئك الذين قال عنهم ربنا عز وجل: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[1] وهم الذين صمتوا حتى قتل الإمام الحسين عليه السلام حتى إذا جيء برأسه الطاهر ووضع بين يدي ابن زياد وأخذ يعبث به، قال قائلهم: (أمر عبد عبداً فاتخذ قوماً تلدا!! أيها الناس أنتم العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة فهو يستعبد خياركم). أما المادية فتتمثل في هؤلاء: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[2] وكانت السلطة والمال أكبر همهم وهدفهم الذين لا يبغون عنه حولاً.

إنها التقسيمة السائدة في دنيا المسلمين من يومها إلى يومنا هذا بين المادية الأُموية المتسلطة والدونية الذليلة التابعة التي تقوم بدور البوق والتي

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) الأنعام: ٧٠.

تحاول الآن عبثاً النهوض برأسها وانتزاع السلطة من بين أيدي المتسلطين مدّعية التقوى والورع وهيهات هيهات فقد ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾(١).

يخطئ من يظن أنه من الممكن لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها وأن تفيق من غفوتها التي طالت تحت قيادة أولئك الذين ما زالوا يحملون على أكتافهم أوزار البشرية جمعاء مع أثقالهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(٢) فالنقيضان لايجتمعان إرادة التحرر والانطلاق وتلك الأثقال والأوزار التي تكاثرت وما زالت تتكاثر لتوقر الأكتاف والأعناق حتى يأتي يومهم الذي يوعدون فيؤخذ بالنواصي والأقدام.

تلك العقد النفسية المرضية والازدواجية الأخلاقية التي حملها أعداء نهج الأئمة من الأولين وحتى أتباعهم الآخرون ومفكروهم المعطوبون والتي استمرأت قتل البشر وسلب حقوقهم وسبهم ولعنهم ولمزهم بالألقاب والافتراء عليهم وترويج الأكاذيب في حقهم لا لشيء إلا أتباعهم وموالاتهم لأهل بيت العصمة والنبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً؛ فأُصيبت عقولهم بالشلل ونفوسهم بالمرض وحيل بينها وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل، ثم ها هم يصرخون بعد أن

---

(١) آل عمران: ١١٢.

(٢) العنكبوت: ١٣.

دارت الدائرة عليهم وأحلّوا قومهم دار البوار والخسار منددين بالازدواجية الأخلاقية لقوى الاستكبار العالمي وكأنهم قدّموا طيلة هذه القرون النموذج الأمثل للجهر بالحق ومقاومة الظلم بينما يشهد لهم الواقع والتاريخ أنهم أضاعوا كل فرص النهوض والتحرر والانطلاق، ويزداد العجب حينما يردد هؤلاء حجتهم التاريخية البالية القائلة بأن الشيعة هم الذين خذلوا أبا عبد الله الحسين وهب أن هذا بعضه أو كله كان صحيحاً فمن الذي أعمل فيه السيوف ومن الذي وطأه بسنابك الخيل؟؟ إنها نفس الازدواجية الأخلاقية التي يمارسها هؤلاء اعتذاراً عن قتل عمار بن ياسر في مواجهة ما أخبر به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «**تقتلك الفئة الباغية**» فيقولون إنما قتله من أخرجه.

البشرية من القمة إلى القاع

على قمة البشرية يوجد أُولئك الذين عاشوا وما زالوا يعيشون بين الشهادة والشهود إنهم (محمد وآل محمد) يحيط بهم من أحبهم وأخلص لهم الولاء الواعي من ﴿**الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾[1] أي مبعدون عن القاع الدنيوي والأُخروي.

لقد كتبنا من قبل عن التمهيد التاريخي للنهضة الحسينية منذ الولادة الطاهرة بل ومنذ البعثة النبوية المباركة بدءاً من اللحظة التي دخل فيها الصراع بين الحق والباطل إلى بداية مرحلته النهائية تلك اللحظة التي تسلمت فيها الطليعة المحمدية (محمد وآل محمد) قيادة البشرية، وها نحن

---

(١) الأنبياء: ١٠١.

الآن نتحدث عن الحسين بن علي عليه السلام وقد عاش مرحلة الشهود قبل أن يكملها بالانتقال إلى الشهادة، الشهود المطلق للحضرة الإلهية حيث لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الإمام الحسين في عالم الشهود

وقف الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة قبيل توجهه للشهادة يدعو قائلاً:

«اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك وأسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك وخر لي في قضائك وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت.. ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك وكيف أتوسل بما هو محال أن يصل إليك أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك؟ أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت؟ إلهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي وما أرحمك بي مع قبيح فعلي! إلهي ما أقربك مني وأبعدني عنك وما أرأفك بي! فما الذي يحجبني عنك؟ إلهي علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إليَّ في كل شي حتى لا أجهلك في شي.

إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.. كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك و متى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا.

إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها، مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير إلهي، هذا ذلي ظاهر بين يديك وهذا حالي لا يخفى عليك منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي علّمني من علمك المخزون وصنّي بسترك المصون إلهي حققني بحقائق أهل القرب واسلك بي مسلك أهل الجذب إلهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري وباختيارك عن اختياري وأوقفني على مراكز اضطراري.

أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟ تعرفت لكل شيء

فما جهلك شيء وأنت الذي تعرفت إلي في كل شيء فرأيتك ظاهرا في كل شي، وأنت الظاهر لكل شي يا من استوى برحمانيته فصار العرش غيبا في ذاته محقت الآثار بالآثار ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار يا من احتجب في سرادقات عرشه عن أن تدركه الأبصار يامن تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته من الاستواء كيف تخفى وأنت الظاهر أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ إنك على كل شي قدير)[١].

كان هذا هو الإمام الحسين عليه السلام في ساحة الشهود في المرحلة التي سبقت توجهه إلى ساحة المواجهة المفروضة عليه حيث الظهور الإلهي الحقيقي في كل شيء ولكل شيء ولكنها ﴿**لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[٢]، ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[٣] حيث أشرقت الأنوار وزالت الأغيار وحيث الأنس الحقيقي بالحضرة الإلهية بعيداً عن الوحشة الإنسية الدنيوية فأنت أنت الذي هديت أولياءك حتى استبانت لهم المعالم وأنت أنت الذي آنستهم حين أوحشتهم كل هذه العوالم.

من هنا بدأ الانطلاق أي من حالة الشهود نحو الشهادة **(منك إليك)**

(١) من دعاء للحسين عليه السلام يوم عرفة.

(٢) الحج: ٤٦.

(٣) الإسراء: ٧٢.

(منك يا الله إليك لا إلى غيرك) لا إلى صعود موهوم نحو الدنيا ولا إلى الجاه ولا إلى السلطة ومن باب أولى لا إلى ذل وخنوع مفروض باسم الواقعية السياسية والحكمة الكهنوتية أو تقية القبور ولو كانت باسم الحسين وأهل البيتعليهم السلام، تلك الغيبوبة الاختيارية التي تركت العالم يتوجه نحو الحرية والديمقراطية وتفرغت لمهمة الاعتذار والتبرير، والأدهى أنها زعمت وما زالت تزعم أنها أهدى سبيلاً وبدلاً من أن تستضيء بنور الحسين اتخذت من كلام عمرو بن العاص (سلطان غشوم خير من فتنة تدوم) شعاراً ومناراً!

(منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك) ومن هنا كان الانتقال الواعي إلى التطبيق العملي أي الشهادة، فكيف يقول البلهاء والمزورون أن فلاناً نصحه وأن فلانا أشار عليه فأي منطق أن يستدل على طريق الوصول إليه بمن هو في وجوده مفتقر إليه؟ وأي لعين أغواهم فقال لهم: إن الحسين حين انتقل من حالة الشهود متوجهاً إلى الشهادة بعد أن أزال الحق جل وعلا الأغيار من قلبه حتى لم يحب سواه ولم ير أحداً غيره خرج يطلب الملك والدنيا؟

وما لم يقم العبد البرهان على صدق الشهود بالسعي إلى الشهادة حتى ولو لم يحصل عليها فعندها (يصدق عليه أن محاسنه مساوئ وحقائقه دعاوى) فسحقاً لأمة رضيت بالذل واختارت أن تتنقل بين المساوئ والدعاوى الفارغة واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير من دون أن

تحاول أن تستضيء بنور السماوات والأرض!

الحضارة بين المعاني والمباني

في البدء كانت الكلمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١] فأصل الحضارة كلمة لها معنى... وفعل له معنى... ومبنى له معنى...

لقد مثّل الحسينعليه السلام كلمة الحق والإخلاص والتوحيد في أمة عزّ فيها القائلون بالحق: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣] إنها أمة وصفتها سيدة نساء العالمين: «**أيها الناس المسرعة إلى قيل الباطل المعرضة عن قيل الحق**».

فالتوحيد كلمة ينطق بها اللسان ومعنى في القلب ومبنى تقام فيه الصلوات خالصة لله رب العالمين ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٤]﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ

---

(١) البقرة: ٣١.

(٢) الزخرف: ٢٨.

(٣) إبراهيم ٢٤ـ٢٥

(٤) الحج: ٣٢.

وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١).

ومن هنا فعندما يعتمد الإنسان تلك المعاني المقدسة مثل السجود والإخبات لله رب العالمين يأخذ كل شيء معه في رحلة الصعود والارتقاء بما فيها الأحجار والجمادات والمنشآت التي تصبح هي الأخرى مقدسة ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢) أما عندما يبدأ الإنسان رحلة المعاندة مع الله تصبح المباني قلاعاً في ساحة مواجهة مع جبار السماوات والأرض، تلك الساحة التي لا عاصم ولا معتصم فيها من أمره جل وعلا إلاّ من رحم ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٣) ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (٤) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (٥)؟؟

هذا على مستوى العلاقة بين المعنى والمبنى فالمعنى هو الروح والباطن

---

(١) الحج: ١٨.

(٢) المائدة: ٢١.

(٣) هود: ٤٣.

(٤) الحج: ٤٥.

(٥) الشعراء: ١٢٨ـ١٣٠.

والمبنى هو الظاهر، والباطن هو الذي يمنح الظاهر حيثية وجوده أو يسلبها منه وعندما يصبح الباطن في اتجاه، والظاهر في اتجاه معاكس ويستولي الشيطان على أوليائه؛ يتفرد الذين سبقت لهم من الله الحسنى مؤثرين الحق على الخلق والباطن على الظاهر تاركين الدنيا لأهلها مؤثرين ما عند الله وهو خير وأبقى حيث تتوحد إرادتهم مع إرادة الله ويصبح مرادهم هو مراد الله وعندها يسميهم ربّ العزة شهداء ويصبحون: ﴿أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وعلى الناحية الأخرى يتكوم أصحاب المباني خالية المعاني ويعيشون على ظهر الأرض ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2] فليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء.

لهذا كله كان الحسين بن علي عليه السلام هو سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة لا لأنه استشهد في معركة عادية بين الحق والباطل بل لأنه أبقى المعنى الإسلامي الرسالي الحقيقي حياً ودافئاً عندما روى شجرة الحرية والكرامة بدمه الطاهر وحقق ما عجزت عن تحقيقه جحافل المتكلمين الغوغائيين المهرطقين من يومها إلى يوم الدين.

ويكفي للدلالة على عظمة الوقفة الحسينية أن نعرف أن الأمويين فعلوا ما لم يفلح أبرهه في صنعه عندما هدّموا الكعبة في ظل الحكم اليزيدي

---

(١) آل عمران ١٦٩ـ١٧٠.

(٢) النحل: ٢١.

الذي أوقفته الصدمة الحسينية عند حده ومنعته من التمدد والاستمرار، إنه الصدام بين المعنى الرسالي الكامل وقاطرة الشر المتكامل التي ما كان لها أن تتوقف عندما تصطدم للوهلة الأولى بأي عقبة تواجهها بل لا بد لها أن تقطع مسافة طالت أم قصرت حتى تستلقي على جانبها وتتكوم وتذوق وبال أمرها، وهذا ما حدث بالفعل حيث لم يدم الحكم اليزيدي بعد استشهاد الحسين عليه السلام سوى عامين قام فيهما باستباحة المدينة المنورة وهتك حرمتها وبقي النوح والبكاء في دورها عاماً كاملاً ثم هدم الكعبة بعد قصفها بالمنجنيق وكان بين هدمه الكعبة وهلاكه أقل من أسبوعين.

إنه المعنى الذي عبر عنه أبو الأحرار الحسين بن علي بقوله: «**إذا كان دين جدّي لا يستقيم إلاّ بقتلي فيا سيوف خذيني**» إنه معلم الحرية الأول لكل أحرار العالم من المسلمين وغيرهم والنموذج الرسالي الأكمل فأين الثرى من الثريا وأين المعنى الأمثل من التشبيه والاستعارة والتمثيل؟؟.

امتداد الكلمة الحسينية إلى يوم يبعثون

كذب العادلون اختيارهم باختيار الله وضلّوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراناً مبيناً أُولئك الجهلاء الذين يتساءلون لماذا خرج الحسين بن علي؟ وأجهل منهم من يقول: إن المفسدة التي تحققت بخروج الحسين بن علي أكبر من المصلحة وأجهل من كل هؤلاء الذين يعتبرون ما يسمونه بالكربلائية نوعاً من الهروب والانسحاب من المواجهة وكأنهم يقولون: إن الحكومة الأموية الجائرة كانت أمراً أراده الله وكان أمر الله قدراً مقدوراً وسبحان من قال:

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(١) والله وحده يعلم كيف كان مصير الإسلام والمسلمين لو بقيت هذه الدولة الفرعونية التي ابتلي بها الإسلام في صدره الأول لو لم تتعرض لزلزال الثورة الحسينية وتوابعه الممثلة في حركة التوابين ثم ثورة المختار بن أبي عبيدة ثم ثورة زيد الشهيد وأخيراً ثورة يحيى بن زيد رضوان الله عليهم أجمعين، فقد بقيت دولة بني العباس عدّة قرون وكذلك بقيت دولة سلاطين بني عثمان حتى بداية القرن العشرين وبرغم كل ذلك كانت كلمة الله هي العليا تلك الكلمة التي أطلقها أبو عبد الله الحسين وجعلها (كلمة باقية) في عقبه إلى يوم يبعثون كلمة يهابها سلاطين الجور ويعملون لها ألف حساب حتى يأتي يوم الفصل الذي يحسم فيه الأمر مع المجرمين أجمعين ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾(٢).

الصراع بين المادية والدونية

ابتلي المسلمون بأنفسهم حينما نكثوا عهدهم من بعد أيمانهم ولم يوفوا ببيعهم الذي بايعوا به يوم غدير خم، فكان أن فقدوا إرادتهم وضربت

---

(١) الأعراف: ٢٨ـ٢٩

(٢) هود: ١٠٣ـ١٠٤.

عليهم الذلة والمسكنة والدونية وتحقق فيهم وعد الحسين بن علي حينما خاطبهم في آخر لحظاته في هذه الدنيا، وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقي الرمية ويفترص العورة ويشد على الخيل وهو يقول: «**أعلى قتلي تحاثون؟؟.. أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله.. الله أسخط عليكم لقتله مني وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله أن لو قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم**»[١].

إنها إذا تلك الدونية السائدة بين هؤلاء الأزلام المستخفين بكل التزام أخلاقي من يومها إلى يومنا هذا لحساب طغاة ذلك العصر وكل عصر من الماديين الدنيويين، فكيف يقدر الدونيون أن يواجهوا الماديين الدنيويين أو أن ينتصروا عليهم، هيهات هيهات وهكذا وما لم ينهض الحسينيون الرساليون الاستشهاديون الذين تنتظرهم كل البشرية ويأخذوا زمام المبادرة فلن يتحقق النصر أوالخلاص المأمول.

المسلمون والازدواجية الأخلاقية

يكثر العرب والمسلمون من انتقادهم للقوى الكبرى محملين إياها مسؤولية المآسي التي يعيشها العالَمان العربي والإسلامي!!

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٢.

أما أنهم يتحملون قسطاً لا يستهان به من المسؤولية فهذا مما لا شك فيه، أما الإصرار على تبرئة الذات وتحميلهم وحدهم كامل المسؤولية واتهامهم دون غيرهم بالازدواجية الأخلاقية فهذا ما لا نصدقه وما يكذبه الواقع والتأريخ فها هو الشاعر الوحيد الذي جرؤ يومها على رثاء الإمام الحسين يتساءل:

أتسألنا قيسٌ فنعطي فقيرها ... وتقتلنا قيس إذا ما النعل زلت

ألا إن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت

ثم يقولون لك إنها قضية تاريخية لا داعي لإثارتها لأنها ستفرق شمل الأمة.

إنها بالفعل خطيئة تاريخية ارتكبتها الأُمة، وما زال البعض مصراً على مباركتها لأنها ستفرق شمل الأمة إلى فريقين ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1] وهم يعنون أن اكتشاف الناس للحقيقة سيؤدي إلى انفضاضهم عن المحورين المتصارعين للاستيلاء على أشلاء الأمة من يومها إلى يومنا هذا محور السلطة والمال يقابله أحيانا ويعاونه أحيانا أُخرى محور الذل والذيلية والتبعية الذي يتطلع هو الآخر إلى اقتسام كعكة السلطة والمال.

فلماذا يتهم الاستكبار الغربي وحده بالازدواجية الأخلاقية مع أنه لم يقتل الحسين ولا اقتحم المدينة يوم الحرة ولا قتل ستة آلاف من أهل

---

(١) الأعراف: ٣٠

الكوفة من أصحاب المختار صبراً في يوم واحد بعد أن أخذوا الأمان؟

التحليل السياسي الحسيني لواقع الأمة الإسلامية عشية توجهه نحو الشهادة

تكلمنا سابقاً عن أن التحرك الحسيني نحو ساحة المواجهة ومن ثم الشهادة جاء منطلقاً من تكامل الوعي الإنساني مع الإرادة الإلهية تحقيقاً لكرامة الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1] ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ*كِتَابٌ مَّرْقُومٌ*يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] وهو نفس التكامل الذي ظهر واضحاً في الخطاب السياسي لأبي عبد الله الحسين عشية توجهه نحو ساحة المواجهة المفروضة والمقدرة سلفاً، ولقد جاء هذا التحرك الاستشهادي في مقابل سياسة تزييف الوعي الذي أدمنته النظم الأموية القديمة والمعاصرة ذلك الوعي القائم على قلب الحقائق ومخاطبة الجماهير بشعارات مبهمة تتحدث عن الاستقرار ووأد الفتنة من أجل التغطية والتعميه على مظالمها واستبدادها واستئثارها بالسلطة وإمعانها في انتهاك كرامة الإنسان عماد قوتها ومنبع وجودها وفشلها في تلبية احتياجات الأمة الإستراتيجية والأساسية ذلك الفشل الذي ظهرت معالمه واضحة جلية في الأزمة الراهنة التي يواجهها الإسلام والمسلمون والتي جاءت نتيجة تراكمات الماضي القريب والبعيد وعجز الأمة عن التحرك نحو الإصلاح حيث كان النظام الأموي نموذجاً واضحاً لكل هذه العورات والسيئات التي تراكمت حتى حولت الأمة الآن إلى مسخ شائه يعجز حتى عن الدفاع عن

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) المطففين: ١٨ـ٢٠.

الكرامة في أبسط صورها وأشكالها، فما بالك بحقيقتها، من هنا جاءت هذه الكلمات وجاء هذا الخطاب الذي يعرّي الحقائق ويبينها للناس لعلهم يتنبهون قبل أن يصل الحال إلى ما هو عليه الآن وما أقرب الليلة من البارحة!

«اعتبروا أيها الناس بما وعظ اللّه به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار؛ إذ يقول: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ﴾[١]،وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ*كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[٢]،وإنما عاب اللّه ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك، رغبة في ما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون، واللّه يقول: ﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[٣]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٤]،فبدأ اللّه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه؛ لعلمه بأنها إذا أديت وأقيمت، استقامت الفرائض كلها هينها وصعبها؛ وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى

---

(١) المائدة: ٦٣.

(٢) المائدة: ٧٨ـ٧٩.

(٣) المائدة: ٤٤.

(٤) التوبة: ٧١.

الإسلام، مع رد المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها.

ثم أنتم أيها العصابة، عصابة بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنصيحة معروفة، وبالله في أنفس الناس مهابة، يهابكم الشريف، ويكرمكم الضعيف، ويؤثركم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده، تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طلابها، وتمشون في الطريق بهيئة الملوك وكرامة الأكابر، أليس كل ذلك إنما نلتموه بما يرجى عندكم من القيام بحق الله، وان كنتم عن أكثر حقه تقصرون.

فاستخففتم بحق الأمة: فأما حق الضعفاء فضيعتم، وأما حقكم ـ بزعمكم ـ فطلبتم، فلا مالاً بذلتموه ولا نفساً خاطرتم بها للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله.

أنتم تتمنون على الله جنته ومجاورة رسله وأماناً من عذابه، لقد خشيت عليكم أيها المتمنون على الله أن تحل بكم نقمة من نقماته؛ لأنكم بلغتم من كرامة الله منزلة فُضّلتم بها، ومن يُعرَف بالله لا تَكرمون، وأنتم في عباده تُكرمون، وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون، وانتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون، وذمة رسول الله ﷺ محقورة، والعمي والبكم والزّمن في المداين مهملة، ولا ترحمون، ولا في منزلتكم تعملون، ولا من عمل فيها تعينون، وبالادّهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون.

كل ذلك مما أمركم اللّه به من النهي والتناهي، وأنتم عنه غافلون، وأنتم اعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسعون؛ ذلك بأن مجارى الأمور والأحكام على أيدي العلماء باللّه الأمناء على حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سلبتم ذلك؛ إلا لتفرقكم عن الحق، واختلافكم في السنة بعد البينة الواضحة، ولو صبرتم على الأذى وتحملتم المؤونة في ذات اللّه كانت أُمور اللّه عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم، وأسلمتم أُمور اللّه في أيديهم، يعملون بالشبهات، ويسيرون في الشهوات، سلطهم على ذلك فراركم من الموت، وإعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم.

فأسلمتم الضعفاء في أيديهم، فما بين مستعبد مقهور، وبين مستضعف على معيشته مغلوب، يتقلبون في الملك بآرائهم، ويستشعرون الخزي باهوائهم، اقتداءً بالأشرار، وجرأة على الجبار، في كل بلد منهم على منبره خطيب يصقع، فالأرض لهم شاغرة، وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم خول، لا يدفعون يد لامس، فمن بين جبار عنيد وذي سطوة على الضعيف شديد مطاع لا يعرف المبدئ المعيد.

فيا عجباً، وما لي لا أعجب، والأرض من غاش غشوم، ومتصدق ظلوم، وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم، فاللّه الحاكم فيما فيه تنازعنا والقاضي بحكمه فيما شجر بيننا!

اللهم إنك تعلم، أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنري المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسنتك في بلادك.

فإن لم تنصرونا وتنصفونا، قوي الظلمة عليكم، وعملوا في إطفاء نور نبيكم، وحسبنا اللّه وعليه توكلنا واليه أنبنا وإليه المصير»[(١)].

كانت هذه هي رؤية الإمام الحسين عليه السلام لواقع الأمة السياسي وما آلت إليه الأمور بعد تمكن الشيطان الأموي من الرقاب ذلك التمكن الذي مهد له وأعان عليه أغلب القوى السياسية والاجتماعية الكارهة للعدل، والذين لم يوفروا فرصة لمحاربة الحق والاستقامة المتمثلة في أئمة أهل البيت إلا وانتهزوها كراهية للذات ورغبة مفتوحة ألهبها الشيطان في نفوسهم **(ليبدلوا نعمة الله كفراً ويحلوا قومهم دار البوار)**[(٢)] وكأن المصائب والويلات التي لحقت بالأمة في مرحلة ما قبل الخلافة العلوية لم تكن كافية لتردع شيطانهم فكان أن أعلنت حرب مفتوحة على إمام الحق منذ اللحظة الأولى

---

(١) تحف العقول: ص ٢٧١.(المصحح).

(٢) اشارة الى الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ إبراهيم: ٢٨.(المصحح).

لولايته، وكأنها كانت فلتة من فلتاتهم السابقة، ثم ها هم بعد انتهاء دولة ابن آكلة الأكباد لم يأخذوا عبرة وعظة مما لحق بهم ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾(١) وغرّهم مخزون القوة والدفعة المعنوية التي نالها أولئك الأعراب بانتسابهم للرسالة الإسلامية المحمدية وظنوا أنهم إلى الله لايرجعون وكأن قائلهم يقول: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾(٢)، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾(٣)، وهكذا فقد استمرأ هؤلاء وأحفادهم وأحفاد أحفادهم ذلك الاختلال ورغبوا عن التصحيح والإصلاح حتى جاءهم يومهم الذي يوعدون وها هي الأساطيل والطائرات تحيط بهم فهلا قرر هؤلاء العودة إلى الله وإلى صراطه المستقيم ونهجه القويم «**كتاب الله وعترتي أهل بيتي**» بالرغم من أنهم كانوا ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(٤)؟

لقد جاء التحرك الحسيني دفاعاً عن كرامة الأمة كل الأمة وكرامة الإنسان كل إنسان، ولم يكن مجرد تحرك للدفاع عن سلطان مسلوب تنازل عنه الإمام الحسن بن علي عليه السلام لابن آكلة الأكباد ومن ثم فهو فتنة نصح فلان وعلان باجتنابها كما يقول المعطوبون ممن قام النظام الأموي

---

(١) محمد: ٢٥.

(٢) الكهف: ٣٥ـ ٣٦.

(٣) القصص: ٣٩.

(٤) التوبة: ١٢٦.

بتسليمهم القيادة الفكرية للأُمة ليتفرغ هو للقنص والقتل والاستمتاع بثروة الأُمة المنهوبة، ولو تأمل هؤلاء في خطابات الإمام الحسينعليه السلام لرأس النظام الأموي: «**ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة، جرأة على اللّه واستخفافا بعهده؟ أو لست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة فنحل جسمه وصفرت لونه بعد ما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبال ثم قتلته جرأة على الله واستخفافاً بذلك العهد؟ أو لست المدعى زياداً في الإسلام، فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول اللّهصلى الله عليه وآله أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل؟ سبحان اللّه! يا معاوية، لكأنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك أولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي صلوات الله عليه فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي ودين علي هو دين ابن عمهصلى الله عليه وآله الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها اللّه عنكم بنا منة عليكم**»؟

ويبقى السؤال ماذا كان يتوقع المسلمون من سكوتهم المتمادي على هذه الجرائم وخذلانهم لأئمة الحق من آل محمد واستخفافهم بهذه البشاعات وجريهم وراء وعاظ السلاطين الذين أفتوهم بوجوب السكوت على الظلم والرضا به والوقوف مع الظالم ضد المظلوم تحقيقاً لما يسمونه بالاستقرار وخوفاً من وقوع ما يسمونه بالفتنة إلا أن يأتيهم جورج بوش ليستبيح بيضتهم وينتهك حرمتهم بعد أن مهدوا بأنفسهم طريق الذل وفرشوه للناس بالورود، بل وجعلوا من كل هذا الرغام فرقة وحيدة ناجية ومن عداها من المقاومين الثائرين الأبرار في النار.

البكاء على الحسين عليه السلام *

السيد محسن الأمين الحسيني العاملي

* بحث مستلّ من كتاب "إقناع اللائم على إقامة المآتم" للسيد محسن الأمين الحسيني العاملي قدس سره ـ من كبار الفقهاء وعلماء الأمّة والمؤلفين المعاصرين ـ ط١ ـ مطبعة العرفان ـ صيدا ـ ١٣٤٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

١. بكاء رسول اللهﷺ على الحسينعليه السلام

من ادلة جواز البكاء على الحسينعليه السلام ورجحانه، ما ورد من بكاء النبيﷺ لأجل هذه المصيبة قبل وقوعها، فيدل على جوازه بعد وقوعها؛ للقطع بعدم الفرق، بل بطريق الأولوية؛ لأن المصيبة بعد وقوعها اعظم وافجع، وقد ورد ذلك بعدة طرق.

منها: ما ذكره الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي في كتابه اعلام النبوة[١]، فقال ما لفظه:

«ومن انذاره صلى الله عليه(وآله) وسلّم، ماررواه عروة عن عائشة قالت: دخل الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما على رسول اللهﷺ وهو يوحى إليه، فبرك على ظهره وهو منكب ولعب على ظهره، فقال جبرئيل: يا محمد ان امتك ستفتن بعدك ويقتل ابنك هذا من بعدك، ومد يده فأتاه بتربة بيضاء، وقال: في هذه الأرض يقتل ابنك، اسمها الطف، فلما ذهب جبرئيل خرج رسول اللهﷺ الى اصحابه والتربة في يده ـ وفيهم ابو بكر وعمر وعلي

---

(١) ص: ٨٣ طبع مصر.

وحذيفة وعمار وأبو ذر ـ وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله، فقال: **اخبرني جبرئيل ان ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة، فأخبرني ان فيها مضجعه**».

أقول: ولابد أن يكون الصحابة لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي لقتل ولده وتربته بيده واخبرهم بما اخبره به جبرئيل من قتله واراهم تربته التي جاء بها جبرئيل، اخذتهم الرقة الشديدة فبكوا لبكائه وواسوه في الحزن على ولده، فإن ذلك مما يبعث على اشد الحزن والبكاء لو كانت هذه الواقعة مع غير النبي صلى الله عليه وآله والصحابة، فكيف بهم معه.

فهذا أول مأتم اقيم على الحسين عليه السلام يشبه مآتمنا التي تقام عليه، وكان الذاكر فيه للمصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله والمستمعون أصحابه.

ومنها: ما في منتخب كنز العمال[١] للشيخ علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي، من علماء اهل السنة[٢]، قال: «اخرج الطبراني في الكبير عن المطلب بن عبدالله بن حنطب عن ام سلمة قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: **لايدخلن علي احد**، فانتظرت، فدخل الحسين، فسمعت نشيج النبي صلى الله عليه وآله يبكي، فاطلعت فإذا الحسين في حجره أو الى جنبه يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت به حتى

---

(١) ص: ١١٢ ج: ٥ بهامش مسند احمد بن حنبل.

(٢) قال الشعراني في الطبقات الكبرى: كان عالماً ورعاً زاهدا نحيف البدن من كثرة الجوع كثير الصمت كثير العزلة، له عدة مؤلفات منها: ترتيب الجامع الصغير للحافظ السيوطي ومختصر النهاية وغير ذلك (المؤلف).

دخل، قال النبيﷺ: **ان جبريل كان معنا في البيت، فقال: اتحبه، فقلت: أما من حب الدنيا فنعم، فقال: ان امتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء**، فتناول جبريل من ترابها فأراه النبيﷺ، فلما احيط بالحسين حين قتل قال: **ما اسم هذه الأرض** قالوا ارض كربلا، قال: **صدق ر سول اللهﷺ ارض كرب وبلاء**».

ومنها: ما في العقد الفريد[1]، قال:«ومن حديث ام سلمة زوج النبيﷺ قالت: كان عندي النبيﷺ ومعي الحسين فدنا من النبيﷺ فأخذته، فبكى فتركته، فدنا منه فأخذته فبكى، فتركته فقال له جبريل: اتحبه يامحمد قال: نعم، قال: أما ان امتك ستقتله، وان شئت اريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، فبسط جناحيه فأراه منها، فبكي النبيﷺ ».

ومنها: ـ من طرق اصحابنا ـ ماروواه الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي في اماليه، قال: « حدثنا أبي ثنا حبيب بن الحسين التغلبي ثنا عباد بن يعقوب عن أبي الجارود عن أبي جعفر (محمد الباقر بن علي بن الحسينعليه السلام)، قال: **كان النبيﷺ في بيت ام سلمة، فقال لها: لايدخل علي احد، فجاء الحسينعليه السلام وهو طفل فما ملكت معه شيئاً حتى دخل على النبيﷺ فدخلت ام سلمة على اثره، فإذا الحسينعليه السلام على صدره وإذا النبيﷺ يبكي وإذا في يده شيء يقلبه، فقال النبيﷺ: يا ام سلمة، ان هذا جبرئيل يخبرني ان ابني**

---

(١) الجزء الثاني في باب مقتل الحسين عليه السلام.

هذا مقتول، وهذه التربة التي يقتل عليها، فضعيها عندك فإذا صارت دما فقد قتل حبيبي...».

ومنها: ما في منتخب كنز العمال الآنف الذكر في باب مقتل الحسين(١) قال ـ ما لفظه ـ: «**قام عندي جبريل من قبل فحدثني: ان الحسين يقتل بشط الفرات، وقال: هل لك ان اشمك من تربته، قلت: نعم، فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فاعطانيها فلم املك عيني ان فاضتا**».

اخرجه احمد وابو يعلى في مسنديهما، وابن سعد والطبراني في الكبير عن علي، والطبراني في الكبير أيضاً عن ابي امامة وانس، واخرجه ابن عساكر عن ام سلمة، واخرجه ابن سعد والطبراني في الكبير عن عائشة، وابو يعلى في مسنده عن زينب أم المؤمنين، وابن عساكر عن أم الفضل بنت الحارث زوج العباس.

ومنها: ما في مسند الإمام احمد بن حنبل(٢)« فيما اخرجه من مسند علي بن ابي طالب عليه السلام، بسنده عن عبدالله بن نجى عن أبيه، انه سار مع علي عليه السلام ـ وكان صاحب مطهرته ـ(٣) فلما حاذى نينوى، وهو منطلق الى صفين،

---

(١) ص: ١١١ ج: ٥ بهامش مسند احمد بن حنبل طبع مصر.

(٢) ص: ٨٥ ج: ١.

(٣) المطهرة بفتح الميم وكسرها والفتح اكثر: اناء يتطهر به ويتوضأ منه، مثل سطل أو ركوة واناء صغير من جلد يتطهر به ويشرب منه، وهو الذي يسمى اليوم (مطرة) مخفف مطهرة، ومعنى صاحب مطهرته: انه الذي وكل اليه امر الماء الذي يتطهر به فيزال به الحدث أو الخبث أو الوسخ «المؤلف».

فنادى عليّ عليه السلام: **اصبر ابا عبدالله اصبر ابا عبدالله بشط الفرات، قلت:** وما ذاك، قال: **دخلت على النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي الله: اغضبك احد ما شأن عينيك تفيضان، قال: بل قام من عندي جبرئيل قبل، فحدثني ان الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال هل لك الى ان اشمك من تربته، قال: قلت نعم، فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم املك عيني ان فاضتا».**

ونقله صاحب منتخب كنز العمال الآنف الذكر[1] عن أبي شيبة، وأبي يعلى في مسنده وسعيد بن منصور في سننه، بسندهم عن نجى مثله.

وفي الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي[2]، « اخرج ابن سعد عن الشعبي قال: مر علي بكربلا عند مسيره الى صفين، وحاذى نينوى قرية على الفرات، فوقف وسأل عن اسم الأرض، فقيل كربلا، فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه، ثم قال: **دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يبكي، فقلت: مايبكيك، قال: كان عندي جبرئيل آنفاً، واخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطئ الفرات، بموضع يقال له كربلا، ثم قبض جبرئيل قبضة من تراب اشمني اياه، فلم املك عيني ان فاضتا».**

وحكاه سبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرة الخواص[3] عن ابن سعد عن الشعبي مثله.

---

(١) ص: ١١٢ ج: ٥ بهامش مسند احمد بن حنبل.

(٢) في الفصل الثالث من الباب الحادي عشر ص ١١٨ طبع عام ١٣٠٧.

(٣) ص: ١٤٢.

٢. بكاء أمير المؤمنين عليه السلام على الحسين عليه السلام

ومنها: ما في تذكرة الخواص[١] لسبط ابن الجوزي الحنفي، حيث قال ـ ما لفظه ـ: « وقد روى الحسن بن كثير وعبد خير، قالا: لما وصل علي عليه السلام الى كربلا وقف وبكى، وقال: **بأبي اغيلمة يقتلون هاهنا، هذا مناخ ركابهم، هذا موضع رحالهم، هذا مصرع الرجل**، ثم ازداد بكاؤه».

ومنها: مارواه الصدوق في الأمالي «بسنده عن ابن عباس، قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خروجه الى صفين، فلما نزل بنينوى ـ وهي بشط الفرات ـ قال بأعلى صوته: **يا ابن عباس اتعرف هذا الموضع**، قلت: لا ما اعرفه يا أمير المؤمنين، فقال: **لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتى تبكي كبكائي**، قال: فبكى طويلاً حتى اخضلّت لحيته، وسالت الدموع على صدره، وبكينا معه، وهو يقول: **آه آه مالي ولآل ابي سفيان مالي ولآل حزب الشيطان واولياء الكفر صبرا صبرا يا ابا عبدالله فلقد لقي ابوك مثل الذي تلقى منهم...**».

وروى ذلك غير الصدوق أيضاً، ممن يطول الكلام بذكرهم.

وروى نصر بن مزاحم المنقري في كتاب صفين «بسنده، ان علياً عليه السلام لما وصل كربلا في سفره الى صفين، جعل يشير بيده ويقول: **هاهنا هاهنا**، فسئل عن ذلك، فقال: **ثقل لآل محمد ينزل هاهنا فويل لهم منكم وويل لكم منهم**، فسئل عن معنى ذلك، فقال: **ويل لهم منكم تقتلونهم، وويل**

---

(١) ص: ١٤٢.

لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم إلى النار».

وروى فيه أيضاً «بسنده، ان علياًعليه السلام أتى كربلا فوقف بها، فقيل: يا أمير المؤمنين هذه كربلا، فقال: **ذات كرب وبلاء**، ثم أومأ بيده الى مكان، فقال: **هاهنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم**، واومأ بيده الى موضع آخر، فقال: **هاهنا مهراق دمائهم**».

وفي منتخب كنز العمال الآنف الذكر[1]، عند ذكر الأحاديث الواردة في مقتل الحسينعليه السلام ما لفظه:

١ـ « عن شيبان بن حرم، قال: اني لمع علي اذ أتى كربلا، فقال: **يقتل في هذا الموضع شهداء، ليس مثلهم شهداء إلا شهداء بدر**، (اخرجه الطبراني في الكبير).

٢ـ عن أبي هرثمة، قال: كنت مع علي بكربلاء، فقال: **يحشر من هذا الظهر سبعون زلفاً، يد خلون الجنة بغير حساب**،(اخرجه ابن أبي شيبة).

٣ـ عن علي، قال: **ليقتلن الحسين قتلا، واني لأعرف تربة الأرض التي بها يقتل قريباً من النهرين**، (اخرجه ابن ابي شيبة) ».

اقول: هذه الأحاديث الأخيرة، وان لم يكن فيها تصريح بالبكاء؛ لكنها تعضد ما تقدم، وفيها ـ سيما قوله: ليس مثلهم الا شهداء بدر، وقوله: يحشر من هذا الظهر سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ـ دلالة على عظيم فضل اولئك الشهداء، وانه ليس احد احق بالبكاء عليه، ونشر فضائله منهم،

---

(١) ص: ١١٢ ج: ٥ بهامش مسند احمد بن حنبل.

والأخير منها مؤيد لما مر من الأخبار الدالة على أن النبيﷺ كان أخبر علياًعليه السلام بقتل الحسينعليه السلام، وعرفه موضع قتله واراه تربته.

٣. بكاء الزهراء عليها السلام على ولدها الحسينعليه السلام

روى المفيد في أماليه «عن النيسابوري، ان ذرة النائحة رأت فاطمةعليها السلام فيما يرى النائم، انها وقفت على قبر الحسينعليه السلام تبكي، وامرتها أن تنشد:

أيها العينان فيضا ... واستهلا لا تغيضا
وابكيا بالطف ميتاً ... ترك الصدر رضيضا
لم امرضه قتيلاً ... لا ولا كان مريضا

وسيأتي في بكاء الصادقعليه السلام، قوله لأبي بصير: **يا أبا بصير إن فاطمة لتبكيه**، وقوله: **اما تحب ان تكون فيمن يسعد فاطمة.**

٤. بكاء علي بن الحسين عليه السلام على والده الحسينعليه السلام

روى ابن شهر آشوب في المناقب «عن الصادق جعفر بن محمدعليه السلام، انه قال: **بكى علي بن الحسين عشرين سنة، وما وضع بين يديه طعام الا بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله، اني اخاف أن تكون من الهالكين، قال**عليه السلام: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، إني لم اذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة**».

---

(١) يوسف: ٨٦

ورواه ابن قولويه في الكامل بسنده عن الصادقعليه السلام مثله، إلا أنه زاد بعد عشرين سنة أو اربعين سنة.

قال ابن شهرآشوب: « وفي رواية: **أما آن لحزنك أن ينقضي، فقال له: ويحك، ان يعقوب النبيعليه السلام كان له اثنا عشر ابنا فغيب الله واحدا منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه، واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حيا في الدنيا، وأنا نظرت الى ابي واخي وعمي وسبعة عشر من اهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني**».

قال [ابن شهرآشوب]: «وقد ذكر في الحلية نحوه، وقيل: انه بكى حتى خيف على عينيه، وكان إذا اخذ اناء يشرب ماء بكى، حتى يملأها دما، فقيل له في ذلك، فقال: **وكيف لا أبكي؛ وقد منع ابي من الماء، الذي كان مطلقا للسباع والوحوش**، وقيل له: انك لتبكي دهرك، فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا، فقال: **نفسي قتلتها، وعليها ابكي**».

وروى ابن قولويه في الكامل «بسنده، قال: اشرف مولى لعلي بن الحسينعليه السلام، وهو في سقيفة له ساجد يبكي، فقال له: ياعلي بن الحسين: أما آن لحزنك أن ينقضي، فرفع رأسه اليه، فقال: **ويلك** ـ أو ثكلتك امك ـ ،**أما والله قد شكا يعقوب الى ربه في اقل مما رأيت، حين قال: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾، وانه فقد ابنا واحدا، وأنا رأيت ابي وجماعة اهل بيتي يذحبون حولي**».

أقول: وهذا الذي روي عن زين العابدينعليه السلام، من بكائه على أبيه طول

عمره، مع كونه في نفسه حجة قاطعة؛ لما قدمناه، مشتمل على الاحتجاج بفعل نبي الله يعقوب عليه السلام، فيما هو اهون مما جرى على الحسين عليه السلام بمراتب.

٥ـ بكاء الإمام الصادق عليه السلام على جده الحسين عليه السلام

روى ابن قولويه في الكامل «بسنده عن ابن خارجة، قال: كنا عند أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام، فذكرنا الحسين بن علي عليه السلام، فبكى ابو عبدالله وبكينا، ثم رفع رأسه، فقال: **قال الحسين بن علي: أنا قتيل العبرة، لايذكرني مؤمن إلا بكى**».

وروى في الكتاب المذكور «بسنده عن مسمع كردين، قال: قال لي أبو عبدالله: **يامسمع: أنت من أهل العراق، أما تأتي قبر الحسين**، قلت: لا؛ أنا رجل مشهور من أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة؛ واعداؤنا كثيرة من اهل القبائل من النصاب وغيرهم؛ ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان، فيميلوا علي، قال لي: **افما تذكر ماصنع به**، قلت: بلى، قال: **فتجزع**، قلت: أي والله، وأستعبر لذلك، حتى يرى اهلي اثر ذلك علي، فامتنع من الطعام حتى يستبين ذلك في وجهي، قال: **رحم الله دمعتك، اما انك من الذين يعدون في اهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا، ويأمنون إذا أمنا**، ـ إلى أن قال ـ: ثم استعبر واستعبرت معه، فقال: **الحمد لله الذي فضلنا**

على خلقه بالرحمة، وخصنا اهل البيت بالرحمة، يامسمع: إن الأرض والسماء لتبكي منذ قتل امير المؤمنين رحمة لنا، وما بكى لنا من الملائكة اكثر، وما رقأت دموع الملائكة منذ قتلنا، وما بكى احد رحمة لنا ولما لقينا، إلاّ رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه...».

ومنه يعلم ما كان عليه شيعة اهل البيت عليهم السلام، ومحبوهم من الخوف والتقية من ملوك زمانهم، في زمن بني العباس، فضلا عن زمن بني امية، وسليمان المذكور: هو سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس، الذي كانت له امارة البصرة.

وروى الشيخ الطوسي في مصباح المتهجد «عن عبدالله بن سنان قال: دخلت على سيدي ابي عبدالله جعفر بن محمد عليهما السلام في يوم عاشورا، فلقيته كاسف اللون، ظاهر الحزن، ودموعه تنحدر من عينيه كاللؤلؤ المتساقط فقلت: يا ابن رسول الله: مم بكاؤك، لا ابكى الله عينيك، فقال لي: **اوفي غفلة أنت، أماعلمت أن الحسين بن علي اصيب في مثل هذا اليوم،** فقلت: ياسيدي: فما قولك في صومه، فقال لي: **صمه من غير تبييت، وافطره من غير تشميت، ولاتجعله يوم صوم كامل، وليكن افطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة من ماء؛ فإنه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم، تجلت الهيجاء عن آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وانكشفت الملحمة عنهم، وفي الأرض منهم ثلاثون رجلا صريعاً في مواليهم، يعز على رسول الله صلى الله عليه وآله مصرعهم، ولو كان في الدنيا يومئذ حياً،**

لكان صلوات الله عليه وآله هو المعزى بهم، قال: وبكى أبو عبدالله عليه السلام حتى اخضلت لحيته بدموعه...».

قوله: صمه من غير تبييت: أي من غير نية الصوم الشرعي، التي تبيّت من الليل بل مجرد ترك الطعام والشراب حزناً. قوله: **وافطره من غير تشميت** ـ التشميت بالشين المعجمة وبالمهملة أيضاً ـ: الدعاء، أي لاتدع عند الافطار بأدعية الإفطار المعروفة؛ فإن تلك للافطار من الصيام الشرعي، وهذا ليس كذلك، وفسرهما بقوله: **ولا تجعله**..الخ، وفيه دلالة على رجحان اظهار الحزن بجميع انواعه، حتى الإمساك عن الطعام والشراب.

وروى ابن قولويه في الكامل «بسنده عن ابي بصير، قال: كنت عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام، فدخل عليه ابنه، فقال له: مرحباً وضمه وقبّله، وقال: **حقر الله من حقركم، وانتقم ممن وتركم، وخذل الله من خذلكم، ولعن الله من قتلكم، وكان الله لكم ولياً، وحافظاً، وناصراً فقد طال بكاء النساء، وبكاء الأنبياء، والصديقين، والشهداء، وملائكة السماء**، ثم بكى، وقال: **يا ابا بصير: اذا نظرت الى ولد الحسين، اتاني مالا املكه بما اوتي الى ابيهم واليهم، يا ابا بصير: ان فاطمة لتبكيه**، الى أن قال: **اما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة؟** فبكيت حين قالها فما قدرت على المنطق من البكاء»..

٦. بكاء موسى الكاظم عليه السلام على جده الحسين عليه السلام

روى الصدوق في الأمالي «بسنده عن الرضا عليه السلام، انه قال: ان المحرم شهر كان اهل الجاهلية يحرمون فيه القتال، فاستحلت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا، واضرمت النار في مضاربنا، وانتهب ما فيها من ثَقَلنا، ولم ترع لرسول الله صلى الله عليه وآله حرمة في امرنا، ان يوم الحسين اقرح جفوننا، واسبل دموعنا، واذل عزيزنا، بأرض كرب وبلاء، واورثنا الكرب والبلاء الى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون، فإن البكاء عليه يحط الذنوب العظام، ثم قال: كان ابي إذا دخل شهر المحرم لايرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي عشرة أيام منه، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام».

٧. بكاء أهل البيت عليهم السلام على الحسين عليه السلام

روى ابن قولويه في الكامل «بسند معتبر عن أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام، في حديث طويل انه قال: ما اختضبت منا امرأة ولا ادهنت ولا اكتحلت ولا رجّلت حتى اتانا رأس عبيدالله بن زياد وما زلنا في عبرة بعده وكان جدي (يعني علي بن الحسين عليهما السلام) إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه وان الملائكة

الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة، الى أن قال، وما من عين احب الى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه وما من باك يبكيه إلا وقد وصل فاطمة واسعدها عليه ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وأدّى حقنا وما من عبد يحشر إلا وعيناه باكية إلا الباكي على جدي فإنه يحشر و عينه قريرة والبشارة تلقاه والسرور على وجهه...».

٨. بكاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على الحسين عليه السلام

ومن الصحابة الذين بكوا على الحسين عليه السلام (ام سلمة) ام المؤمنين رضوان الله عليها:

ففي تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي الحنفي ـ مالفظه ـ :« ذكر ابن سعد عن ام سلمة، انها لما بلغها قتل الحسين عليه السلام قالت: أوقد فعلوها، ملأ الله قبورهم ناراً، ثم بكت حتى غشي عليها».

وفي الصواعق المحرقة لابن حجر[١] «اخرج ابن سعد عنها (يعني ام سلمة) انها بكت عليه حتى غشي عليها».

ومن الصحابة الذين بكوا على الحسين عليه السلام (انس بن مالك):

ففي الصواعق المحرقة لابن حجر[٢] «ولما حمل رأسه (يعني

---

(١) في الفصل ٣ من الباب ١١ ص: ١٢٠ طبع عام ١٣٠٧.

(٢) في الفصل ٣ من الباب ١١.

الحسين عليه السلام) لابن زياد جعله في طست، وجعل يضرب ثناياه بقضيب، ويقول به في انفه، ويقول: ما رأيت مثل هذا حسنا، إن كان لحسن الثغر، وكان عنده أنس فبكى وقال: كان اشبههم برسول الله صلى الله عليه وآله. ورواه الترمذي وغيره».

وفي تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي الحنفي ـ مالفظه ـ :«وفي افراد البخاري عن ابن سيرين قال: لما وضع رأس الحسين بين يدي ابن زياد، جعل في طست وجعل يضرب ثناياه بالقضيب، وقال في حسنه شيئاً، و كان عنده انس بن مالك فبكى وقال: كان اشبههم برسول الله صلى الله عليه وآله».

وفي صحيح البخاري وشرحه ارشاد الساري للقسطلاني[1] «باسناده عن محمد (هو ابن سيرين) عن انس بن مالك، انه قال: أتي عبيدالله بن زياد برأس الحسين بن علي، فجُعل (الرأس الشريف) في طست فجعل (ابن زياد) ينكت (يضرب) بقضيب له في انفه وعينه، وقال في حسنه شيئاً، فقال: أنس كان اشبههم برسول الله صلى الله عليه وآله»[2]. ثم قال القسطلاني: «ولما قتل الحسين بكى الناس فاكثروا».

اقول: ومنه يعلم أن البكاء على الحسين عليه السلام سنّة جميع المسلمين من ذلك العهد الى اليوم، الاّ شاذ ممن اعماه الهوى والغرض.

ومن الصحابة الذين بكوا على الحسين عليه السلام: (زيد بن ارقم).

---

(١) ص: ١٢٨ ج: ٦.

(٢) وليس في هذه الرواية أن أنسا بكى كما نقله سبط ابن الجوزي؛ فلعله سقط من الناسخ.(المؤلف).

ففي الصواعق لابن حجر[1] وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي الحنفي عند ذكر وضع ر أس الحسينعليه السلام بين يدي ابن زياد، وضربه لثناياه بالقضيب ـ ما لفظه ـ :«روى ابن أبي الدنيا، انه كان عند ابن زياد زيد بن ارقم، فقال له: ارفع قضيبك؛ فوالله لطالما رأيت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقبل ما بين هاتين الشفتين، ثم جعل زيد يبكي، فقال له ابن زياد: ابكى الله عينيك، لولا انك شيخ قد خرفت لضربت عنقك، فنهض وهو يقول: ايها الناس انتم العبيد بعد اليوم؛ قتلتم ابن فاطمة وامّرتم ابن مرجانة، والله ليقتلن خياركم، وليستعبدن شراركم، فبعدا لمن رضي بالذل والعار، ثم قال: يا ابن زياد لأحدثنك بما هو اغظ عليك (حديثاً اغلظ عليك خ ل) من هذا: رأيت رسول اللهصلى الله عليه وآله اقعد حسنا على فخذه اليمنى وحسينا على فخذه اليسرى، ثم وضع يده على يافوخيهما ثم قال: **اللهم اني استودعك اياهما وصالح المومنين**، فكيف كانت وديعة النبي صلى الله عليه وآله عندك يا ابن زياد ».

ثم قال في تذكرة الخواص:«وقيل ان هذه الوقعة جرت ليزيد بن معاوية مع زيد بن ارقم».

وفي تاريخ الطبري «بسنده عن حميد بن مسلم، انه دخل على عبيدالله بن زياد، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، واذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة، فلما رآه زيد بن ارقم لايَنجِم عن نكته بالقضيب، قال له: اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين؛ فوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول اللهصلى الله عليه وآله على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم انفضخ الشيخ يبكي، فقال له

(١) في الفصل ٣ من الباب ١١.

ابن زياد: ابكى الله عينيك، فوالله لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك، فنهض فخرج وهو يقول: ملك عَبدٌ عُبُدا[١] فاتخذهم تُلْدا[٢]، انتم يامعشر العرب: العبيد بعد اليوم؛ قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل فبعداً لمن رضي بالذل».

واورده ابن الأثير في تاريخه باختصار يسير.

وفي ارشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني[٣] بعد ما ذكر وضع رأس الحسينعليه السلام بين يدي ابن زياد في طست وضربه بالقضيب في انفه وعينه، قال: «فقال له زيد بن ارقم: ارفع قضيبك؛ فقد رأيت فم رسول اللهصلى الله عليه وآله في موضعه».

قال [القسطلاني]: «وعند الطبراني، أنه كان يقرع ثنايا الحسين بقضيبه، فقال له زيد بن ارقم: ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين، فوالله الذي لا إله إلاّ هو لقد رأيت شفتي رسول اللهصلى الله عليه وآله على هاتين الثنيتين يقبلهما ثم بكى، فقال ابن زياد: ابكى الله عينك، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، لضربت عنقك، فقام وصرخ وقال: يامعشر العرب: أنتم بعد اليوم عبيد؛ قتلتم ابن فاطمة وامرتم ابن مرجانة ـ وهي ام زياد ـ فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فبعدا لمن رضي بالذل والعار».

---

(١) بضمتين جمع عبد كسقف وسُقُف (المؤلف).

(٢) التُلْد بالضم فالسكون ما ولد عندك من مالك (المؤلف).

(٣) ص: ١٢٩ ج: ٦.

٩. استنشاد أئمة اهل البيت عليهم السلام الشعر في رثاء الحسين عليه السلام

روى الصدوق في الأمالي وابن قولويه في الكامل« بسنديهما عن أبي عمارة المنشد عن أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام، قال: قال لي: **يا أبا عمارة انشدني في الحسين بن علي،** فأنشدته فبكى، ثم انشدته فبكى، قال: فوالله مازلت انشده فيبكي، حتى سمعت البكاء من الدار فقال: **يا أبا عمارة: من انشد في الحسين بن علي شعراً فأبكى خمسين فله الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى عشرين فله الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى عشرة فله الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى واحداً فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى فله الجنة، من انشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنة**».

وروى الكشي في كتاب الرجال «بسنده عن زيد الشحام قال كنا عند أبي عبدالله (يعني جعفر الصادق عليه السلام) ونحن جماعة من الكوفيين، فدخل جعفر بن عفان على أبي عبدالله فقربه وادناه، ثم قال: **يا جعفر** قال: لبيك جعلني الله فداك، قال: **بلغني انك تقول الشعر في الحسين عليه السلام وتجيد** فقال له: نعم جعلني الله فداك، قال: **قل،** فانشده فبكى ومن حوله حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته ثم قال: **ياجعفر: والله لقد شهدت ملائكة الله المقربون هاهنا، يسمعون قولك في الحسين ولقد بكوا كما بكينا واكثر، ولقد اوجب الله تعالى لك ياجعفر في ساعتك الجنة**

بأسرها، وغفر الله لك، فقال: **ياجعفر الا ازيدك**، قال: نعم ياسيدي، قال: **ما من احد قال في الحسين شعراً، فبكى وابكى به إلا اوجب الله له الجنة وغفر له**».

وروى ابن قولويه في الكامل «عن أبي هارون المكفوف، قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فقال لي: **انشدني**، فأنشدته، فقال: **لا، كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره**، فأنشدته:

امـرر علـى جـدث الحسـيـ ـن وقـل لأعظمـه الزكيـة[1]

قال: فلما بكى امسكت انا، فقال: مر، فمررت، ثم قال: **زدني**، فأنشدته:

يـا مريم قـومي وانـدبي مـولاك وعلـى الحسين فأسعدي ببكـاك

فبكى، وتهايج النساء فلما سكتن، قال لي: **يا ابا هارون: من انشد في الحسين فابكى عشرة فله الجنة**، ثم جعل ينتقص واحداً واحداً حتى بلغ الواحد، فقال: **من انشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنة**، ثم قال: **من ذكره فبكى فله الجنة**».

وروى الصدوق في ثواب الأعمال وابن قولويه في الكامل «بسنديهما عن أبي هارون المكفوف، قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: **يأبا هارون: انشدني في الحسين** فأنشدته فقال لي: **أنشدني كما تنشدون** (يعني بالرّقة)، قال: فأنشدته: امرر على جدث الحسين (البيت) فبكى، ثم قال: **زدني**، فأنشدته القصيدة الأخرى فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر

---

(١) هذا البيت للسيد الحميري كما يأتي انشده أبو هارون انشاداً ولم ينشئه انشاء (المؤلف).

فلما فرغت، قال: يا ابا هارون: من انشد في الحسين شعراً فبكى وابكى عشرة كتبت له الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فبكى وابكى خمسة كتبت له الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فبكى وابكى واحداً كتبت لهم الجنة، ومن ذكر الحسين عنده فخرج من عينيه من الدمع مقدار جناح ذباب كان ثوابه على الله عز وجل ولم يرض له بدون الجنة».

قوله: بالرِّقة بكسر الراء المشددة أي: بالطريقة التي تستعملونها عند الإنشاد التي فيها الرقة والطلاوة[1] والتي توجب التأثير في القلب، لامجرد التلاوة، وهو المراد بقوله في الرواية الأولى: كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره، وسها من فسر الرقة هنا: بالبلدة التي على الفرات التي هي بفتح الراء.

وروى ابن قولويه في الكامل «بسنده عن عبدالله بن غالب، قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فأنشدته مرثية الحسين بن علي، فلما انتهيت الى هذا الموضع ـ وذكر بيتا من القصيدة[2] ـ صاحت باكية من وراء الستر: يا ابتاه».

وروى الصدوق في ثواب الأعمال وابن قولويه في الكامل «بأسانيدهما عن أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام، قال: **من أنشد في الحسين بيتا من شعر فبكى وابكى عشرة فله ولهم الجنة، ومن انشد في الحسين بيتا**

(١) الطلاوة: الحسن والقبول، انظر صحاح الجوهري ج٦ مادة: طلا.(المصحح).

(٢) لم تذكره لأن النسخة مغلوطة ولايستقيم للبيت المذكور فيها معنى فليذكره من يجده صحيحاً (المؤلف).

فبكى وابكى تسعة فله ولهم الجنة، فلم يزل حتى قال: **من انشد في الحسين بيتاً فبكى** ـ واظنه قال أو تباكى ـ **فله الجنة**.

وروى ابوالفرج الأصبهاني ـ وهو من عظماء المؤرخين الموثوق بهم والمعترف بفضلهم وسعة اطلاعهم عند جميع المسلمين ـ في كتاب الأغاني[1] «بسنده عن علي بن اسماعيل التميمي عن أبيه، قال: كنت عند أبي عبدالله جعفر بن محمدعليه السلام، فاستأذن آذنه للسيد الحميري[2]، فأمر بإيصاله، واقعد حرمه خلف ستر، ودخل فسلم وجلس، فاستنشده، فأنشد قوله:

امرر على جدث الحسيـ ـن وقل لأعظمه الزكيه
آ اعظما لا زلت من وطفاء ساكبة رويه
واذا مررت بقبره فأطل به وقف المطيه
وابك المطهر للمطهـ ـر والمطهرة النقيه
كبكاء معولة اتت يوما لواحدها المنيه

قال: فرأيت دموع جعفر بن محمد تتحدر على خديه، وارتفع الصراخ من داره، حتى امره بالإمساك، فأمسك».

وروى ابوالفرج في الكتاب المذكور[3] «عن التيمي عن أبيه عن فضيل الرسان، قال أُنشد جعفر بن محمد قصيدة السيد:

---

(١) ص: ٧ ج: ٧.

(٢) اسمه اسماعيل بن محمد والسيد لقبه (المولف).

(٣) ص: ٧ ج: ٧.

لأم عمر باللوى مربع طامسة اعلامه بلقع

فسمعت النحيب من داره، فسألني: **لمن هي**، فأخبرته: أنها للسيد وسألني عنه، فعرّفته وفاته، فقال: **رحمه الله ...**».

وروى الصدوق في عيون أخبار الرضا «بسنده عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: دخل دعبل بن علي الخزاعي على ابي الحسن علي بن موسى الرضاعليه السلام بمرو، فقال له: يا ابن رسول الله: اني قد قلت فيكم قصيدة، وآليت على نفسي أن لا انشدها احدا قبلك، فقالعليه السلام: **هاتها**، فأنشده:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فلما بلغ الى قوله:

ارى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات

بكى ابو الحسن الرضاعليه السلام وقال له: **صدقت يا خزاعي**، فلما بلغ الى قوله:

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم اكفا عن الأوتار منقبضات

جعل ابو الحسن يقلب كفيه ويقول: **اجل والله منقبضات**، فلما بلغ إلى قوله:

لقد خفت في الدنيا وايام سعيها وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال الرضاعليه السلام: **آمنك الله يوم الفزع الأكبر**، فلما انتهى الى قوله:

وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات

قال له الرضاعليه السلام: **افلا الحق لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام**

قصيدتك، قال: بلى يا ابن رسول الله فقال عليه السلام:

وقبـر بطـوس يالهـا مـن مـصيبة   توقـد فـي الأحـشاء بالحرقـات

الـى الحشر حتـى يبعـث الله قائمـاً   يفـرج عنـا الهـم والكربـات

فقال دعبل: يا ابن رسول الله هذا القبر الذي بطوس قبر من هو، فقال الرضا عليه السلام: **قبري...**».

ثورة الإمام الحسين عليه السلام

من منظور السنن التاريخية في القرآن *

الشيخ محسن الأراكي

* محاضرة للمؤلف مطبوعة ضمن سلسلة مفاهيم إسلامية (٢) ـ منشورات بوك اكسترا ـ لندن ـ والمؤلف من المؤلفين الإسلاميين المعاصرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

تحتل السنن التاريخية موقعاً متميزاً ومساحة واسعة في القرآن الكريم، واختصت القوانين الاجتماعية التي تحكم تطور المجتمع البشري بحصة كبيرة من آيات الذكر الحكيم.

ونود ان نتجنب التعبير عن هذه الحقائق القرآنية بالنظرية فمصطلح النظرية يفهم منه أحياناً الحالة الفكرية والاجتماعية التي تعبر عن رأي انساني يصيب ويخطيء، وليس الامر في حقائق القرآن العظيم من هذا القبيل، إلا ان للقرآن الكريم نظرته الشمولية للنظام الاجتماعي. فهناك تفسير قرآني للمجتمع ولتطور التاريخ والاحداث الاجتماعية وبنسق وتكامل فريدين حقاً اذ يمكن تفسير كل حدث تاريخي على ضوء الموازين والمعايير التي يقدمها القرآن الكريم.

سُنَّتان تاريخيتان:

من السنن التاريخية التي يؤكد القرآن الكريم عليها في مواضع عديدة من آياته الشريفة سنتان تاريخيتان هما: سُنَّة الاستخلاف، وسُنَّة الاستبدال. ونريد في هذه العجالة تسليط الضوء على ثورة الامام الحسين عليه السلام من خلال هاتين السُنَّتين.

سُنّة الاستخلاف

ذكرت آيات القرآن الكريم ان الله (سبحانه وتعالى) جعل آدم خليفة على الأرض، قال تعالى﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]،وهنا سؤال لابد منه وهو ان آدم عليه السلام اذا استحق هذه الخلافة هل استحقها لكونه بشراً أم لكونه انساناً صالحاً عادلاً مطيعاً لله سبحانه وتعالى؟!

وهذه نقطة جوهرية بالغة الاهمية في تفسير هذه الآية الكريمة، فهل ان الخلافة الالهية اعطيت لآدم لكونه فرداً من البشر، أم انها أعطيت له لكونه انساناً يحمل مواصفات متميزة أهمها الصلاح والطاعة لله سبحانه. ومن خلال استعراض الآيات القرآنية نفهم ان الخلافه أعطيت لآدم بوصفه انساناً صالحاً عاملاً بأمر الله ونهيه. يقول عز اسمه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2]، ومن هنا نعرف ان سُنّة الاستخلاف تقتضي ان ينتهي الأمر الى وراثه الصالحين.

وسُنّة الاستخلاف تعني انه (جل وعلا) جعل لنفسه خلفاء يخلفونه على الأرض، يطبقون أوامره ويجتنبون نواهيه، وهذه بالذات هي فلسفة الخلافة، فحينما يقال ان فلاناً يخلف فلاناً في أهله، فالخلافة هنا تعني تنفيذ مقاصده فيما يخص الأهل، ومعنى ان يخلف الله سبحانه وتعالى أحداً في أرضه، يعني

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

تنفيذ المقاصد الألهية وتطبيق أوامره سبحانه وتعالى في الأرض.

وليس معنى الخلافة الالهية على الارض مجرد وجود انسان عاقل مريد ومختار يريد ويفعل. وبالتأكيد ليست هذه الميزة هي التي جعلت من الانسان خليفة لله سبحانه وتعالى.

ان الميزة التي جعلت من الانسان خليفة لله سبحانه وتعالى مضافاً إلى كونه انساناً مختاراً يريد فيفعل انه يريد ما يريده الله سبحانه وتعالى، تلك الميزة التي أهّلت آدم وجعلته خليفة لله على الارض.

ومن هنا نفهم ان الخلافة الالهية تتضمن ادارة الارض والمجتمع على وفق ما يريده الله سبحانه، وهذا معناه السلطة والحكم والقيادة السياسية. فخليفة الله (سبحانه وتعالى) على الارض مَن تُعطى له السلطة، لان السلطة لله تعالى وحده وليست لغيرة أبداً، فيعطيها لمن ينفذ ارادته في الارض هذه هي الخلافة كما نفهمها من القرآن الكريم.

والخلافة ـ كما نجد في القرآن الكريم ـ نوعان: خلافة فردية، وأخرى جماعية. وهي تبدأ بالفرد الاصلح، وتنتهي بالمجتمع الصالح، أو المجموعة الصالحة، لتصبح المجموعة التي استخلفها الله سبحانه وتعالى على وجه الارض. فالقائد المزكّى المنصوب من قبل الله والذي يقيم حكم الله سبحانه يربّي أُمّة، فاذا وجد المجتمع الذي تربى على يد القائد الأصلح وجد المجتمع الخليفة. والذي يكون خليفة لله تعالى أي المجتمع الذي يطبق أوامر الله ونواهيه يقول الحق تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ

وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

سُنَّة الاستبدال

والى جانب الاستخلاف في القرآن الكريم تعرض الآيات القرآنية الكريمة مفهوماً قرآنياً آخر وهو مفهوم سُنَّة الاستبدال.

ان لله تعالى مع عباده مواثيق عديدة، منها ميثاق النصرة وهو ميثاق الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين وهم من يمكن التعبير عنهم بالامة الخليفة، فلقد أخذ الله سبحانه وتعالى من الأمة الخليفة الميثاق والعهد على النصرة يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ الى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[٣].

وميثاق النصرة هو ميثاق الله مع المؤمنين، ان يبذلوا أموالهم وأنفسهم لنصرة دين الله، انه ميثاق وعهد بين الله سبحانه وتعالى وبين من يؤمن. ان يبذل المؤمن في سبيل الله كل ما يملك بازاء ان يمكنه الله في الدنيا وان يعطيه جنته ورضاه في الآخرة. ان ينصر المؤمن دين الله بماله ونفسه وبكل

---

(١) الانعام: ١٦٥.

(٢) التوبة: ١١١.

(٣) الأحزاب: ٢٣.

ما أوتي وان ينصره الله ويعطيه جنته ورضاه، هذا هو ميثاق نصرة الجماعة المؤمنة، او الأمة الخليفة، الأمة التي وكّل لها تطبيق حكم الله على الارض، فلو وفت الأمة الخليفة بميثاقها مع الله فنصرت دين الله وفّى الله لهم بوعده، يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1] ومكنهم الله في الارض قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾[2].

ويجعلهم قادة وملوكاً وأعزة بعز الله سبحانه وهو الذي جرى مع الامم السابقة كبني اسرائيل حسبما يقص لنا القرآن الكريم من تاريخهم وأحوالهم، فقد نصرهم الله اذ نصروه وأهلك عدوهم وجعلهم ملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين.

ثم يبين الله تعالى في قرآنه الكريم كيف ان الامة الخليفة اذا نقضت ميثاق النصرة وخانت بعهدها مع الله سبحانه ينفذ بحقها قانون آخر، وهو سُنّة الاستبدال قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[4].

---

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) النور: ٥٥.

(٣) محمد: ٣٨.

(٤) المائدة: ٥٤.

و سُنَّة الاستبدال انما تجري حينما تنقض الامة (الخليفة) ميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى، وقد حكى لنا القرآن الكريم مصير الأمة التي نقضت عهدها مع الله كيف استبدل الله عنها بقوم آخرين، وكيف سلبها عزها وسلطانها، وكيف تحولت الى أمة ذليلة مستكينة.قال سبحانه وتعالى حكاية لاحوال بني اسرائيل بعد نقضهم للميثاق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[٢].

ثم أن الامة المصابة بسُنّة الاستبدال لها مواصفات يحكيها القرآن الكريم منها:

١ـ قسوة القلب ﴿جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

٢ـ تحريف الحقائق الالهية﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾.

٣ـ الذل ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾.

٤ـ تكذيب الانبياء والسفراء الالهيين﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٣].

٥ـ قتل الأنبياء والصالحين ﴿وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) البقرة: ٦١.

(٣) البقرة: ٨٧.

﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[١].

٦ـ أكل المال الحرام ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾[٢] وغير ذلك من مواصفات الامة المصابة بقانون الاستبدال. ويبدو أنّ من أهم هذه المواصفات وأشدها وضوحاً في أحوال الامم المصابة بالاستبدال صفتان: صفة قتل الانبياء والصالحين، وصفة الذل والمسكنة والهوان.

مفهوما السلطة والحكم

يكشف القرآن الكريم حتمية التلازم بين مفهومي الاستخلاف والاستبدال واختصاصهما بالسلطة والحكم .وهنا لابد من التوقف عند مفهومي السلطة والحكم، فماذا تعني السلطة وماذا يعني الحكم، سواء أكان هذا الحكم اسلامياً أم ديمقراطياً او ديكتاتورياً، أو أي لون آخر من ألوان الحكم؟؟.

حقيقة الحكم هي خضوع ارادة الناس لارادة عُليا، فهناك إرادة عليا تخضع لها ارادة الآخرين، والارادة العليا هذه هي التي تحدد ارادة الآخرين، وتحد من حرياتهم وتوجه إراداتهم. والارادة العليا هذه تأمرهم وتنهاهم وتلزم عليهم أموراً وتمنعهم من أمور أخرى.

وهذا هو معنى السلطة.

وتأسيساً على التعريف السابق فصاحب السلطة هو الذي يكون له الحق

---

(١) آل عمران: ١١٢.

(٢) المائدة: ٦٢.

في الأمر والنهي وتوجيه إرادة الآخرين.

خلق الله سبحانه وتعالى بني الانسان كلهم سواسية في أنهم بشر، وهم موجودات لهم ارادة واختيار، فكما ليس لأحد أن يأمرنا وينهانا ليس لنا ان نأمر أو ننهى أحداً، فبنو الانسان كلهم سواء ليس لأحد على آخر أية ميزة. انما الذي له مطلق الحق في الأمر والنهي هو الله سبحانه وتعالى وليس غيره إلا من كان طريقاً الى أمر الله ونهيه وهو من نصبه الله للحكم ممن توفرت فيه شروط الطاعة المطلقة لله والخضوع لامر الله ونهيه، وهذا مفهوم عقيدي جوهري يتجلى في القرآن الكريم بأجلى بيان، وابلغ تعبير يقول عز من قائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

والحكم في القرآن الكريم يعني السلطة، حتى الامر والنهي كما هو معناه في اللغة دون حاجة إلى التوجيه والتأويل.

ومعنى السلطة هذا نجده في القرآن الكريم، وهو يحكي لنا دعاء ابراهيم عليه السلام اذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٢). كما يحكي لنا القرآن الكريم استجابة الحق جل وعلا لرسوله ابراهيم قائلاً: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾(٣).

---

(١) القصص: ٦٨ ـ ٧٠.

(٢) الشعراء: ٨٣.

(٣) البقرة: ١٢٤.

والحكم هنا ليس النبوة، فقد تكون هناك نبوة ولا حكم معها، اما اذا كانت نبوة ومعها حكم فسنرى المصطلح القرآني يعبر عن هذه النبوة بالرسالة، وبذا يختلف تعبير النبوة عن تعبير الرسالة. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

لقد بعث الله الرسل لاقامة حكم الله في الارض، وليس لتبليغ حكم الله فقط، بل لاقامة الحكم الالهي، لتبليغ حكم الله وتنفيذه، وحيث ان السلطة المطلقة هي لله سبحانه وليست لغيره فهو (عز شأنه) الذي يعين في الارض من يمثل سلطته وينفذها، كما انه ليس لأي انسان ان يطيع انساناً في أمر أو نهي إلا اذا كان هذا الأمر والنهي متصلاً بالله سبحانه وتعالى. عبر انسان مأذون منه جل وعلا لتكون الطاعة لله سبحانه وتعالى وهذا مفهوم أساسي وجوهري في القرآن، وهذه هي نظرية الاسلام في الامامة.

فالسلطة تحتاج الى إذن من الحق (عز إسمه)، وليس لأحد على أحد أية سلطة إلا اذا كانت هذه السلطة مشتقة من سلطة الله سبحانه وتعالى مخولة من قبله وهذا ما يحكيه القرآن نصاً اذ يقول عز من قائل: ﴿وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وهذا هو المعنى اللغوي الدقيق للمُلك الذي تفسره لنا الآية الاخرى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

---

(١) الحديد:٢٥.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾[١].

فالملك يعني السلطة، والله هو مالك الملك وهو الذي يؤتيه من يشاء وهو تعالى ينزعه ممن يشاء.

والخليفة الالهي هو ذلك الانسان الصالح الذي يؤتي الملك من قبل الله سبحانه وتعالى. فالله سبحانه استخلف آدم عليه السلام ـ الذي هو أول من خلق على وجه الأرض ليكون حاكماً على خلقه، ومنحه حق التصرف في هذا الكون تصرف الحاكم والمالك ليكون صاحب سلطة على هذه الارض. لذلك فالذي يفهم من القرآن الكريم ان الحكومة والسياسة ولدتا بولادة الانسان على هذه الارض. يقول الحق تعالى مشيراً الى هذه النقطة الجوهرية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

خلافة الأمة

إن المسيرة التكاملية للخلافة ـ كما تفهم من القرآن الكريم ـ تبدأ بالفرد الاصلح لتنتهي بالمجتمع الصالح، أي المجتمع الذي استخلفه الله سبحانه وتعالى على الأرض وهي الأمة التي تطبق حكم الله في الأرض، انها الامة الخليفة، المجتمع الخليفة قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ

(١) آل عمران:٢٦.

(٢) البقرة:٣٠.

الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢). وقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾(٣).

والخطاب القرآني هنا موجه الى الأمة الخليفة، الى المجتمع الخليفة الذي تربى على يد القائد المنصوب من قبل الله تعالى، الى المسلمين الخاضعين لقيادة الرسولﷺ المطبقين لأمر الله جل وعلا، جعلهم الحق تعالى شهداء على الناس وخلائف الأرض، أي خلفاء لله سبحانه في الارض. والمجتمع الخليفة، هو ذات المجتمع الصالح التابع لخليفة الله (الامام الصالح).

الخلافة والشهادة

يقول الحق جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٤).

ترى ماهي العلاقة بين مفهوم الخلافة ومفهوم الشهادة؟

---

(١) الانعام: ١٦٥.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) البقرة: ١٤٣.

ان العلاقة بين الخلافة والشهادة علاقة تلازمية. فالخلافة تلازم الشهادة على طول الخط، ولكن الخلافة تنسب الى الله جل وعلا بمعنى الخلافة عن الله، إلا أن الشهادة تكون على الآخرين، على الناس. فالخليفة الصالح هو الامام، والامام شاهد على أمته وخليفة عن ربه والأمة التي يربيها هذا الامام الصالح (أي الأمة التابعة للامام)، هذه الامة خليفة عنه سبحانه وتعالى، وشاهدة على سائر الامم. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وقال عزمن قائل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[1].

لقد بين الله سبحانه وتعالى في قرآنه العظيم انه نفذ سُنّة الاستخلاف على وجه الأرض على أمم عديدة، منها: بنو اسرائيل الذين رشحهم الحق تعالى لخلافته في الارض، وبتعبير آخر رشح الله تعالى بني إسرائيل ليكونوا الأمة الصالحة التي تطبق حكم الله أمراً ونهياً باتباع القائد الالهي الذي نصبه لهم وهو موسى على نبينا وآله وعليه السلام. لقد كان موسى القائد الالهي الاصلح الذي نصب من قبل الله سبحانه وتعالى فيما كانت أمة موسى عليه السلام بنو إسرائيل هي الأمة التي رشحت لتطيع القائد وتطبق حكم الله في الارض.

---

(١) الحج: ٧٨.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١).

وهذا التفضيل الذي يشير إليه القرآن الكريم انما هو تفضيل بالسلطة فالقرآن الكريم في آية شريفة أخرى يحكي كلام موسىعليه السلام لقومه بني اسرائيل قائلاً لهم: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾(٢).

أي جعلهم ملوكاً إلهيين، منحوا السلطة الالهية، فأصبحت القيادة والامامة الالهية في بني اسرائيل استجابة لدعاء ابراهيمعليه السلام قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٣).

فاستجاب الله تعالى لدعاء ابراهيم اذ قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٤).

فالخلافة (والامامة الالهية) أعطيت لبني ابراهيم، ومنهم بنو اسرائيل أي بنو يعقوب ولكن شريطة ان لا يكونوا ظالمين.

والخلافة خلافتان، خلافة الأمة، وخلافة الامام، وهذه هي سُنّة الاستخلاف (التي أشير إليها بايجاز)، لقد شاءت إرادة الحق جل وعلا أن تنصب خليفة في الأرض أي اماماً قائداً يحكم، وان يربي هذا الامام القائد

(١) البقرة:٤٧.

(٢) المائدة: ٢٠.

(٣) الشعراء: ٨٣.

(٤) البقرة: ١٢٤.

الحاكم أمة قائدة لغيرها من الأمم حيث تطبق أمر الله تعالى ونهيه، وهذه هي الأمة الخليفة. ثم إنه جل وعلا رشح وعلى مدى التاريخ أمماً لهذه المسؤولية الكبرى، منهم أمة بني اسرائيل فمكنهم من تطبيق الحكم الالهي تحت لواء القيادة الالهية الكفوءة المتمثلة في موسى على نبينا وآله وعليه السلام، وأخذ من بني اسرائيل العهد والميثاق على ان يطيعوه وينصروه ولا يخذلوه، وهذا هو ميثاق النصرة الذي يبرمه المؤمنون مع الله سبحانه وتعالى بأيمانهم حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ الى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[٢].

ميثاق النصرة هذا ميثاق الله تعالى مع المؤمنين، أي ان هناك تعاملاً وعهداً بين من يؤمن به، حيث يستلزم ان يبذل المؤمن ماله ونفسه في سبيل الله، أي لنصرة دين الله بماله ونفسه وبكل ما أوتي وبما يملك، هذا هو ميثاق نصرة الجماعة المؤمنة، أي الأمة الخليفة، الأمة التي أوكل لها تطبيق حكم الله تعالى في الارض. يقول أمير المؤمنين(سلام الله عليه):

«أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارُّوا على كِظَّة ظالم ولاسغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها

---

(١) التوبة: ١١١.

(٢) الانفال: ٧٤.

بكأس أولها ولألفيتم دُنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[١].

فهو يشيرعليه السلام هنا الى ميثاق النصرة من قبل الناس الذين أعلنوا نصرتهم (وقيام الحجة بوجود الناصر) فكان من الواجب عليه الاستجابة لهم وتلبية طلبهم لتقبل القيام بأعباء هذه المسؤولية الخطيرة وهي الامامة.

ثم يصور لنا القرآن الكريم أروع تصوير تخاذل بني اسرائيل، وتململهم في نصرة الحق، واعراضهم عن الانقياد الى القائد السياسي المنصوب من قبل الله تعالى وهو موسىعليه السلام، وكيف نقض بنو اسرائيل ميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى حاكياً قول موسىعليه السلام لهم: **﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾**[٢].

يطلق القرآن الكريم على مسلسل التداعي هذا، والتخاذل من قبل بني

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة الثالثة، ص٥٠.

(٢) المائدة: ٢١ـ ٢٥.

اسرائيل وعصيانهم للقائد الالهي موسى عليه السلام مصطلح نقض الميثاق اذ يقول الحق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

والقرآن الكريم في سننه التاريخية يبين لنا ان الامة الخليفة، والامة القائدة متى ما نقضت ميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى، نصرة القائد الاصلح المنصوب من قبل الله تعالى فانه ينفذ في حقها قانون آخر انه سُنّة الاستبدال، هذه السُنّة التاريخية الهامة التي تحكيها آيات عديدة شريفة من القرآن العظيم، منها قوله عز من قائل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[٢].

وقوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[٣].

لقد نقض بنو اسرائيل ميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى فحاقت بهم سُنّة الاستبدال، وكان الذل والهوان من نصيبهم. فالذل من نتائج سُنّة الاستبدال. يقول الله جل وعلا حاكياً عن بني اسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) محمد: ٣٨.

(٣) المائدة: ٥٤.

وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾(١). وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾(٢).

والعز والذل مفهومان أساسيان يمكن اعتبارهما من المفاهيم الاساسية التي يبنى عليها تفسير حركة التاريخ والتطور الاجتماعي في تاريخ الانسان، فبمقدار ما يكون العز من أمارات سلامة الشخصية الاجتماعية واستقامتها يكون الذل دليلاً على فسادها وانحراف صحتها وخوائها. وقد اهتم القرآن الكريم بهذين المفهومين كثيراً فأكد على ان من مواصفات المؤمن هو العز ولا يمكن للمؤمن ان يكون ذليلاً قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

فالشخصية المؤمنة يستحيل ان تصاب بالمرض الذي يفرغها من محتواها، ويبدلها الى خواء فارغ، ولا تصاب الشخصية الانسانية فرداً او مجتمعاً بالذل إلا إذا أفرغت من ايمانها، ومليء جوفها نفاقاً. وهذا ما تؤكده الآيات الكريمة في القرآن العظيم اذ يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٤).

وهكذا أكد القرآن الكريم على ان المنافقين فقدوا العز وأصيبوا بالذل

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) آل عمران: ١١٢.

(٣) المنافقون: ٨.

(٤) النساء: ١٣٨ـ ١٣٩.

فراحوا يبحثون عن مسند للعز يعتمدونه فلجأوا الى ولاية الكافرين، وخضعوا لهم فلم يزدهم ذلك إلا ذلاً على ذلهم.

أماالمؤمنون فأنهم أعزة لا يذلون ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١) أعلون لا يغلبون يقول تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢) يغلبون ولا يغلبون، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٣) لا يهنون ولا يستكينون ولا يجبنون ولا يضعفون ويصمدون في مواقع النزال مع الكفار ولا ينهزمون. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(٤).وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾(٥).

وهذا هو الذي كان يؤكد عليه أمير المؤمنين كثيراً حيث كان يقول: «**موت في عز خير من حياة في ذل**» وهو ما أكد عليه الحسين(صلوات الله عليه) في يوم عاشوراء اذ قال: «**ألا وان الدعي ابن الدعي قد ركز**

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) آل عمران: ١٣٩.

(٣) المائدة: ٥٦.

(٤) آل عمران: ١٤٦.

(٥) الأحزاب: ٢٢.

بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية ونفوس أبيه من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[(١)].

الأمة المُستَخلَفَة

لقد بشر الحق تعالى الامة (الخليفة)، ووعدها بالعز والسؤود.

فالامة المستخلفة التي وفت بعهدها مع الله سبحانه وتعالى في النصرة والطاعة للامام الالهي ستنال العز والغلبة ولا ترى الذل والهوان أبداً. وهذا ما حكاه لنا القرآن الكريم، وأكدته الآيات الكثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)]. وقوله عز من قائل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[(٣)].

ثم يؤكد الحق تعالى حقيقة الترابط بين الامامة الالهية، والملك الالهي وبين العز في الآية الشريفة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾[(٤)]. فالمجتمع الصالح الذي استخلفه الله تعالى على الأرض وهو المجتمع الممتثل لأمر الله سبحانه ونهيه موعود بالملك الإلهي المقرون بالعز.

---

(١) من خطاب الإمام الحسين عليه السلام أمام الجيش الأموي في كربلاء(عاشوراء،٦١ هـ).

(٢) المنافقون: ٨.

(٣) المائدة: ٥٦.

(٤) آل عمران: ٢٦.

أما الذل فهو قرين الاستبدال، وهو مصير الامة الناقضة لميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى، والناكثة لعهد الطاعة مع الامام الالهي فان الله سبحانه ينزع عنها لباس الملك والسيادة والعز ويحيق بها الهوان والذل. وهاتان السنتان الالهيتان مستمرتان على مدى الزمن فقد استبدل الله تعالى ببني اسرائيل أمة أخرى وهي الأمة الاسلامية فقد حاق ببني اسرائيل الاستبدال حين نقضوا عهدهم مع الله تعالى، يقول عز من قائل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[1].

واستبدل الله عنهم قوماً آخرين، وهم المسلمون فكانت الامة الاسلامية «خير أمة أخرجت للناس» وأصبحت هي الامة المستخلفة بجهادها، ووفاءها الاول لميثاق النصرة مع الله سبحانه ورسوله، وإطاعتها للقائد الالهي الذي هو خليفة الله سبحانه، وهو الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله.

الحسين عليه السلام الامامة المستخلفة

لقد من الله سبحانه وتعالى على المسلمين وعلى المجتمع الاسلامي بالقيادة الالهية، وهي قيادة الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله وكان من أمر الامة الاسلامية في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أن وفت في بدء أمرها بالميثاق مع الله ورسوله، وقد وفى الله لها بوعده فجعلها خير أمة أخرجت للناس فانتصرت على المشركين، وكبت أعداء الاسلام من اليهود والمشركين الذين كانوا يكيدون الاسلام في أطراف المدينة وأرجاء الجزيرة العربية، وأرسل

---

(١) البقرة: ٦١.

رسول الله صلى الله عليه وآله رسائل الى ملوك دول المنطقة وحكامها، وبدأت القبائل العربية ترسل وفودها الى رسول الله صلى الله عليه وآله معلنة إسلامها، وأقيمت دولة الاسلام عزيزة غالبة.

غير أن هذه الأمة افتُتِنت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كما وعد الله سبحانه بذلك اذ قال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(٢).

وقد كانت الفتن مريرة وكثيرة نجا منها اناس قليلون ثبتوا على الحق، ووفوا لله ورسوله بالعهد والميثاق، وهم الدين ثبتوا على طاعة الامامة الالهية والوفاء لها في كل الظروف والاحوال، وكان من ابرز مصاديق هذه القلة الوفية بالعهد اصحاب الامام الحسين عليه السلام فقد ثبتوا على العهد حتى النَفَس الاخير، فقضوا نحبهم مضمخين بالدماء أعزاء قاهرين غير مقهورين. أما الاكثرية من الأمة فقد قعدت عن نصرة الله ورسوله ونقضت ميثاقها مع الله سبحانه، ولم تستمر في وفائها بعهدها مع الله سبحانه وتعالى ورسوله.

وقد تمثل أوج هذا النقض في قعودها عن نصرة الحسين عليه السلام عندما استنفر الامة بكل طاقاتها وامكاناتها لنصرة دين الله وتطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى فتقاعست عن أداء واجب النصرة والوفاء بهذا الميثاق العظيم. فكان

---

(١) العنكبوت:٢.

(٢) آل عمران: ١٧٩.

أن حل بالأمة الإسلامية ما حل بها حتى استولى على امرها الظالمون فاستباحوا حريمها وأذاقوها من الذل والهوان ما قلَّ نظيره في تاريخ الانسان حتى بلغ الأمر بالامة التي كانت في يومها الاول عزيزة بطاعتها للقائد الالهي ان يستولي على أمرها الفاسقون والطغاة من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وبني مروان ونظرائهم ، وآلَ بها الأمر ان أصبحت عُرضةً لنهب الناهبين، وسطوة الظالمين وقتل الجبارين فهجمت عليها أقوام من الشرق تارة فاستباحت منها كل حرمة، وهجمت عليها أقوام من الغرب فمزقتها كل تمزيق واستمر هذا الإذلال حتى يومنا هذا، حتى أصبحنا ـ كمسلمين ـ من أذل أقوام الأرض وأهونهم على الله لا نملك لأنفسنا نفعاً، ولا ندفع عنها ضراً.

يحكمنا شرارنا، ويبالغون في ظلمنا، واستباحة اموالنا، وهتك اعراضنا، ولا نملك ان ندفع عن انفسنا بشيء، ولا نقدر ان نجلب لانفسنا نفعاً بان نستثمر طاقاتنا وامكاناتنا واموالنا ونحن من أغنى الامم في الارض ثروة واكثرها عدداً.

وفاء الامامة بالعهد

كانت ثورة الحسين عليه السلام تعني فيما تعني، ان الامامة قد وفت بعهدها مع الحق تعالى، وأنها نزلت الى ساحة المواجهة بكل زخمها وثقلها وما آتاها الله من امكانات، وبقي على الامة أن تفي بالتزاماتها تجاه الله سبحانه وتعالى.

والامامة الالهية ممثلة في الامام الحسين عليه السلام، إلا ان الامة تقاعست عن

أداء واجبها وخذلت إمامها ونقضت العهد والميثاق مع الله سبحانه فخذلت قائدها الالهي وهو الحسين عليه السلام بل واصطفت الى جانب اعداء الله سبحانه واعانتهم على قتل الصالحين وعلى رأسهم سيدهم وسيد المؤمنين الحسين بن علي عليه السلام فاستشهد عليه السلام مع أهل بيته وثلة من اصحابه المخلصين الذين ثبتوا على العهد ولم ينقضوا ميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى.

وبذلك حلت سُنّة الاستبدال بأمة الاسلام، واقترن بها الذل والهوان والشقاق والنفاق حتى يومنا الذي نحن فيه. وما أصابنا نحن المسلمين ـ والحديث هنا عن الأمة ككل وليس الحديث عن الاقلية فان هناك اقلية وفيّة في كل زمن كما كان في عصر الحسين عليه السلام ـ انما هو نتيجة قانون الاستبدال الذي يلازمه الذل على مدى الزمن. واذا اردنا ان نعود الى ذلك العز لابد لنا ان نعود الى الوفاء بالميثاق لله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

ليس لناخيار آخر فلابد ان نعود الى ميثاق نصرة الامام، ميثاق نصرة الاسلام، علينا ان ننصر دين الله فاذا نصرناه أصبحنا حسينيين. ثم ان الشعائر التي نقيمها في عزاء الحسين لها دلالاتها المهمة ولكنها ليست كافية، لماذا هذه الشعيرة؟

لماذا نكرر «ياليتنا كنا معكم» أليس في عصرنا اليوم حسين، امام مفترض

---

(١) التوبة: ١١١.

الطاعة؟! انه صاحب الامر فلنكن معه. لنقف عند مسؤولية كلمتنا، لقد تكرر (فرعون) في يزيد، وتكرر في الحجاج، وتكرر في كل ادوار الاسلام اليوم، كما ورث محمد موسى، وورث الحسين محمداً ، وورث صاحب الامر حسيناً، لقد رشح الله أمة موسى لتكون الامة الخليفة، ورشح الله أمة الاسلام لتكون الامة المستخلفة. فلو كان هذا الحماس الذي عندنا يصل الى درجة النصرة كان هو المطلوب، فالحسين عليه السلام كان يحتاج الى ناصر، ولهذا نجد الحسين عليه السلام ينادي في صحراء كربلاء (**هل من ناصر ينصرنا**) وهو يعلم انه ليس هنالك من مجيب، انها الاشارة الى ميثاق النصرة. لقد اعلن الحسين عليه السلام انه يحتاج الى انصار وما زال يعلن: **هل من ناصر ينصرنا، هل من ذاب يذب عن حرم الله، هل من مغيث يغيثنا؟!**

ان هذه هي مشكلة الأمة، فمشكلة الأمة ان الامامة ليس لها ناصر يفي بميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى. طالعوا الآيات القرآنية الكريمة التي تصف المؤمنين يقول تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1].

نصروه بميثاق النصرة. يجب أن لا ننسى هذا الميثاق.

ان بيننا وبين امام زماننا وولي أمرنا(سلام الله عليه) الذي هو حسين العصر ميثاق النصرة، فلو بلغنا الى الدرجة التي نفي بها فليس هناك ما يستوجب ان يبقى الامام سلام الله عليه غائباً، فلم يخلق الله سبحانه الامام ولم ينصبه لكي يغيب عنها، غيّبه نقضنا لميثاق النصرة، فلو وفينا بميثاق النصرة لظهر. وهذه هي النقطة الاساس فيما علينا بالنسبة للثورة الحسينية، وهو ان نفي للحسين

---

(١) الاعراف: ١٥٧ .

ولرسول الله صلى الله عليه وآله قبل الحسين عليه السلام ولأمير المؤمنين عليه السلام ولائمتنا سلام الله عليهم، ان نفي لهم جميعاً بميثاق النصرة.

جعلنا الله سبحانه وتعالى من أنصار أئمتنا، ومن أنصار الحسين سلام الله عليه، ومن أنصار ولي أمرنا وصاحب عصرنا انه سميع مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

والحمد لله رب العالمين.

سُنة التعميم في القرآن الكريم

وتطبيقاتها في ثورة الإمام الحسين عليه السلام*

الشيخ محمد مهدي الآصفي

---

* بحث مستلّ من كتاب "في رحاب القرآن - ج١" للشيخ محمد مهدي الآصفي - دار المشرق - طهران - ١٤٢٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

شأن نزول الآيات:

روى سعيد بن جبير في شأن نزول هذه الآية أنّه، لمّا نزل قوله تعالى:

(١) آل عمران: ١٨١ ـ ١٨٣

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[١]

قالت اليهود: يا محمّد، افتقر ربّك، فسأل عباده القرض، فأنزل الله:

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ...﴾[٢].

دلالة الآيات على سنّة التعميم:

تُدين هذه الآيات اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بأمرين قولهم:

﴿إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾.

﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

وقد سمع الله قولهم: ﴿إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾..

وأوعدهم أن يكتب عنهم ما قالوا من الإفك ويدينهم بما قالوا وبقتلهم الأنبياء بغير حق.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

ويذيقهم عذاب الحريق بما نطلقوا من الإفك وبما صنعوا من قتل الأنبياء بغير حق.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وتؤكّد الآية الكريمة لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ أنّهم إنّما استحقوا عقوبة عذاب الحريق بما قدّمت أيديهم من الإفك والإثم وليس

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٣٤.

الله بظلام للعبيد.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ثم تحكي عنهم الآية الكريمة أنّهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله: أن يأتيهم بقربان تأكله النار، حتّى يؤمنوا برسالته وقال إنّ الله عهد إليهم بذلك.

﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

فتُحاججهم الآية الكريمة بمن قد جاءهم من قبل، من الرسل بالبيّنات، وبالذي طلبوا من القربان الذي تأكله النار...

ومع ذلك فلم يؤمنوا، وأصرّوا على اللجاج والعناد، وقتلوهم بغير حق.

﴿قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وليس من شك أنّ المخاطبين في هذه الآيات من سورة آل عمران هم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله، والضمائر كلّها تعود إليهم.

فهم الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾.

وهم الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ...﴾.

والخطاب موجّه إليهم في هذا السياق وليس في ذلك شكّ، وقراءة سريعة للآيات الكريمة من آل عمران تكفي لتأكيد هذه الحقيقة.

ومع ذلك، فإنّ الله تعالى يدينهم ويوعدهم بعذاب الحريق بجرائم آبائهم في قتل الأنبياء من بني إسرائيل بغير حق، ولم يكن لهم أيّ دور في

ذلك بالنظرة السطحية التي ينظر الناس من خلالها التأريخ والمجتمع.

والآيات الكريمة صريحة في الإدانة وفي العقوبة معاً.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

فيدينهم الله تعالى ويعاقبهم بـ (ما فعلوا) وما (لم يفعلوا). ثمّ تُحاججّهم الآية الكريمة بما يلزم آباءهم من قتل الأنبياء بغير حق.. وهذه حجّة تُلزم آباءهم الذين قتلوا الأنبياء. أما الأبناء الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بقربان تأكله النار فلم يقتلوا نبيّاً. ولم يعاصروهم فكيف تُحجّهم الآية الكريمة بما لم يفعلوا، ولم يكن لهم فيه دور وشأن؟

وجواب هذه الأسئلة جميعاً في (سنّة التعميم).

فقد عمّم الله تعالى مسؤولية الآباء في قتل الأنبياء على الأبناء، كما عمّم الله تعالى عقوبة الآباء في هذه الجريمة على الأبناء، ثم عمّم الله الحجّة التي تُلزم الآباء على الأبناء وهذه التعميمات جميعاً تتبع سنّة إلهية عامّة هي سنّة «التعميم».

وهذه السنّة الإلهية هي دليل هذه الإدانة والعقوبة والاحتجاج.

ومعنى «التعميم» في هذه الآية الكريمة إنّ الله تعالى يشرك الأبناء في مسؤوليات الآباء وجرائمهم وعقوباتهم وما يُلزمهم ويُحجهم.

ـ الرضاء والسخط:

والرضا والسخط من الحب والبغض.

فإذا رضي الإنسان بعمل قوم أُشرك في عملهم، من خير أو شرّ. عوقب عليه إن كان شراً، وأُثيب عليه، إن كان خيراً.

وإذا سخط الإنسان على قوم تبرّأ منهم.

فالحبّ والرضا يلحقان الإنسان بالآخرين الذين يحبّهم ويرضى عنهم.

والبغض والسخط يفصلان الإنسان عن الآخرين الذين يبغضهم ويسخط عليهم.

فهو عامل للوصل والفصل.

وحيث كان اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ راضين بفعل آبائهم في قتل الأنبياء.. فإنّ الله تعالى يُحمّلهم مسؤولية جرائم آبائهم ويدينهم بها ويعاقبهم عليها، ويُلزمهم الحجّة بذلك، مع أنّهم لم يعاصروا أُولئك الأنبياء ولم يدركوهم فضلاً من أن يكون لهم دور في قتلهم.

روى عن أبي عبدالله الصادقعليه السلام:

«إنّ الله حكى عن قوم في كتابه لن ﴿نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال: **بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام، فألزمهم الله القتل برضاهم ما فعلوا**»(١).

وعن محمّد بن الأرقط عن أبي عبدالله الصادقعليه السلام:

قال: تنزل الكوفة؟

قلت: نعم.

قال: فترون قتلة الحسين بين أظهركم؟

قال: قلت: جعلت فداك ما رأيت منهم أحداً.

قال: فإذن أنت لاترى القاتل إلاّ من قتل أو مَن وَلي القتل؟

ألم تسمع إلى قول الله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فأيّ رسول قتل الذين كان محمّدصلى الله عليه وآله بين أظهرهم؟

ولم يكن بينه وبين عيسىعليه السلام رسول.

إنّما رضوا قتل أُولئك، فسمّوا قاتلين(٢).

---

(١) تفسير البرهان: ٣٢٨/١، اسماعيليان.

(٢) تفسير البرهان: ٣٢٨/١، اسماعيليان.

.الإشراك بـ(الرضا):

فالرضا يشرك الراضي في فعل مَن يرضى عنه، من خير أو شرّ، مارس الفعل أم لم يُمارسه، وفي كلّ الآثار: في المثوبة والعقوبة، والمسؤولية والإدانة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، برواية الشريف الرضي(في نهج البلاغة):

«أيّها الناس، إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب، لمّا عمّوه بالرضا».

قال سبحانه: ﴿**فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ**﴾[(١)].

فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة[(٢)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وعلى كلّ داخل في باطل أثمان: أثم العمل به، والرضا به»**[(٣)].

والإمام عليه السلام يحلّل: في هذه الكلمة العناصر التي تتركب منها الجريمة التي إثمين: «إثم العمل، وإثم الرضا به».

ولا يختصّ أمر هذا التعميم على الباطل والإثم، بل يعمّ الحقّ والثواب أيضاً.

---

(١) الشعراء: ١٥٧.

(٢) نهج البلاغة: ٢٠٧/٢.

(٣) نهج البلاغة: ١٩١/٣.

ـ المشاركة في التاريخ بالرضا والسخط:

ورد في بعض النصوص الجامعة في زيارة الأئمة عليهم السلام: الشهادة بأنّا قد شاركنا أولياءهم وأنصارهم والمقاتلين بين أيديهم في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين وهي شهادة غريبة لا يفقهها إلاّ مَن يفقه سنّة الله في التعميم وإليك هذا النص من بعض النصوص الجامعة لزيارة أئمة أهل البيت عليهم السلام:

فنحن نشهد أنا قد شاركنا أولياءكم وأنصاركم المتقدّمين في إراقة دماء الناكثين والقاسطين والمارقين وقتلة أبي عبدالله عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة بالنيّات والقلوب والتأسّف على فوت تلك المواقع.

فهذا باب واسع من الفقه في هذا الدين هو فقه «الرضا» و«السخط»، وانطلاقاً من هذا الفقه فنحن قد شاركنا إبراهيم عليه السلام رائد التوحيد في دعوة التوحيد، وفي تحطيمهم الأصنام ومقاومة طاغية عصره نمرود، وشاركنا موسى عليه السلام وعيسى بن مريم عليه السلام في دعوة التوحيد ورفض طغاة عصرهم، وشاركنا رسول الله صلى الله عليه وآله في حربه وغزواته ونشارك الصلحاء والأولياء وأئمة التوحيد والدعاة الهداة والذاكرين المسبّحين لله تعالى عبر التأريخ في الدعوة إلى الله والنصيحة لعباد الله والذكر والتسبيح والآلام والهموم وما أرقوا من دماء الظالمين وما أُريق لهم من الدماء وما هدموا من أركان الظلم والشرك وما أشادوا ومن أركان التوحيد والعدل...

وهذا باب واسع من الفقه والمعرفة لا يسعه هذا المقال.

وقد روى بطرق كثيرة: «**المرء مع مَن أحبَّ**»[١].

.كسب الأمة وكسب الفرد:

نلتقي في القرآن، ربّما لأوّل مرّة في تاريخ الثقافة بفهم جديد للأُمة.

وانطلاقاً من هذا الفهم الجديد للأُمة، ليست الأُمة بمعنى تجمع كمي من الناس، وإنّما هي حالة بشرية كيفيّة فلا تساوي الأُمة مجموعة الأفراد ولا يساوي فعل الأُمة وأثرها وقوّتها مجموع أفعال الأفراد وآثارهم وقوّتهم. وليست الأُمة من حيث الأساس من مقولة الكم، وإنّما هي من مقولة الكيف.

فلا تكون قوّة الجماعة مجموعة قوّة الأفراد.. بل «يد الله على الجماعة» و «مع الجماعة» و «يد الله» أمر آخر غير المجموعة الكميّة لقوّة الأفراد. ولا يختلف في ذلك الأُمة المؤمنة عن غيرها، فإنّ للأُمة في القرآن أحكاماً وآثاراً غير ما لمجموع الأفراد من الأحكام والآثار.

والأُمة الواحدة لا يحصرها الزمان والمكان ولا يضرّ بوجدتها تعدد المكان والزمان، والقرآن يعبّر عن هذه الأُمة المباركة بأنّها ملّة إبراهيم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾[٢].

(١) ميزان الحكمة: ٢ / ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) النساء: ١٢٥.

وعن إبراهيم عليه السلام بأنّ الأب الأوّل لهذه الأمة ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ﴾[(١)].

وعن هذه الوحدة التي تطوي الزمان والمكان يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[(٢)].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[(٣)].

وانطلاقاً من هذا كلّه فإنّ القرآن يقرّر أنّ للأمة فعلٌ و «كسب» غير فعل الفرد وكسبه ونتائج كسب الأمة تعم الأُمة كلّها في الخير والشر، حتّى مَن لم يشارك ولم يكن له دور في هذا الكسب...

إذا كان يشاركهم في الرضا والسخط، وأمّا نتائج كسب الأفراد فتخصّهم وحدهم ولا تعمّ غيرهم.

الطائفة الأُولى من الكسب ما يتعلّق بالأمة مثل الشعائر والأعراف والأعمال الجمعيّة. وما يرضى عنه الناس ويقرّوه ويدعموه بالتأييد، وتعمّ آثار هذه الأعمال الناس جميعاً مَن شارك فيها ومَن لم يشارك في الخير والشر معاً.

والطائفة الثانية من الكسب وما يخصّ الأفراد، ولا يكون له مردود على الهيئة الاجتماعية بشكل واضح في الدنيا والآخرة، وعن هذه الطائفة يقول تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[(٤)].

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) المؤمنون: ٥٢.

(٣) الأنبياء: ٩٢.

(٤) الأنعام: ١٦٤، فاطر: ١٨، الإسراء: ١٥، الزمر: ٧.

ويقول تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى*ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى﴾(١).

وعن «كسب الأمة» الذي يعمّ الأمة كلّها يقول تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

لكل أُمة ما كسبت من خير أو شر ولا تسأل أُمة عمّا كسبت أمة أخرى، ولا يخصّ كسب الأُمة الذين شاركوا في هذا الكسب. وإنّما يعمّهم جميعاً إذا عمّوه بالرضا(٣).

إنّ الخير والشر الذي تكسبه الأُمة يعم الأمة جميعاً العاملين وغير

---

(١) النجم: ٣٩ ـ ٤١.

(٢) البقرة: ١٣٤و١٤١.

(٣) تختلف هذه السنّة عن السنّة التاريخية والاجتماعية الأُخرى التي تقررها الآية ٢٥ من سورة الأنفال المباركة ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

فإنّ هذه الأخيرة تخصّ الدنيا فقط دون الآخرة وتعمّ الراضين وغير الراضين وهي تجري في الخير والشر جمعاً، فإذا استسقى قوم من المؤمنين المطر فأنزل الله عليهم الغيث عمّ الخير جميعهم في الدنيا حتّى من كان على غير ملّتهم ولا على هواهم، ولا يشاركهم في الرضا والسخط. وإذا أشعل قوم فتنة في المجتمع عمّ شرها الجميع، حتّى لو لم يشاركوهم في الرضا والسخط، وتختصّ آثار هذه السنّة بالدنيا فقط دون الآخرة، بينما تعمّ سنّة التعميم التي نحن بصدد الحديث عنها الناس في الدنيا والآخرة، وتعمّ الراضين فقط دون غيرهم ممن لا شاركهم في الرضا والسخط. وهذا هو الذي نقصده نحن من سنّة التعميم. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

العاملين إذا عمّوه بالرضا، وهذه السنّة سنّة عامّة في الدنيا والآخرة.

هذه السنّة تجمع وتفرق، وتُوصل وتفصل تَجمع الناس من بقاع شتّى من الأرض، وفي فترات متباعدة من التاريخ فتجعل منهم أُمة واحدة عند ما يجمعهم الرضا والسخط والولاء والبراء.

ويفرق الأُسرة الواحدة والبيت الواحد إلى أُمتين وجبهتين لا تلتئمان ولا تجتمعان إذا افترقا في الرضا والسخط وفي الولاء والبراء.

وهذه السنّة تصل فرداً بآخر، لا تجمعهم لغة ولا إقليم ولا زمان ولا تعارف، وتفصل الأخ عن أخيه الشقيق معه في بيت واحد أُسرة واحدة.

فيكسب الإنسان في الحالة الأُولى ممن لا يعرفه ولا يجمعه به بيت أو مكان أو زمان أول لسان، ولا يشاركه في أصل أو رحم.. يكسب الإنسان منه صالح أعماله جميعاً. أو سيئات أعماله جميعاً، إذا كان يجمعه به الرضا والسخط.

وينتظر في الحالة الثانية الأُسرة الواحدة والبيت الواحد، في السعادة والشقاء فيعد أحدهم بالجنّة ويشقى الآخر في النار، خالدين فيها، إذا كان يفترقان في الرضا والسخط.

سنّة التعميم سنّة عامّة شاملة، تشمل الدنيا والآخرة وتعمّ الخير والشرّ ومواردها ومصاديقها وأنحاؤها في حياة الناس كثيرة.

ونحن نذكر إنّ شاء الله فيما يلي بعض أنحاء ومواد هذه السنّة الإلهية في حياة الناس في ضوء النصوص الإسلامية من الكتاب والسنّة:

١. التعميم في الإدانة والمسؤولية والعقوبة:

إذا ارتكب قوم جريمة وعمّهم الآخرون بالرضا عمّتهم المسؤولية والإدانة.

وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك بداية هذا الحديث في تفسير الآيات الكريمة (١٨١ ـ ١٨٣) من آل عمران.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ووجدنا أنّ الله تعالى يُدين الأبناء بجرائم الآباء، ويعاقبهم بها، ويقول ذوقوا عذاب الحريق.

وقرأنا كلمة أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «**وإنّما قتلَ ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لمّا عموّه بالرضا، فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾**.

ولا تُغيّر في السنّة الإلهية في تعميم الإدانة والمسؤولية والعقوبة كثرةُ الراضين بها، فإنّ الإدانة والمسؤولية واستحقاق العقوبة يشملهم جميعاً مهما كثروا، إذا كانوا راضين بالجريمة.

عن أبي سعيد الخدري: «وُجد قتيل على عهد محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج صلى الله عليه وآله مغضباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **يقتل رجل من المسلمين، لا يُدرى من قتله، والذي نفسي بيده لو أنّ أهل السموات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله النار**»[(١)].

وعن سليمان بن خالد عن أبي عبدالله عليه السلام:

«**لو أنّ أهل السموات والأرض لم يحبّوا أن يكونوا شهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله لكانوا من أهل النار**»[(٢)].

ولا يُغيّر هذه السنّة الإلهية تباعد المكان، فلو أنّ رجلاً قتل آخر ظلماً بالمشرق فرضي به آخر في المغرب لاستحق بذلك النار.

روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لو أنّ رجلاً قُتل بالمشرق وآخر رضي به في المغرب كان كمن قتله وشرك في دمه**»[(٣)].

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٤ / ٣٨٤.

(٢) بحار الأنوار: ٧١ / ٢٦٢ ح٦.

(٣) بحار الأنوار: ١٠٤/٣٨٤، وروضة الوعظين: ٤٦١.

ودائرة الرضا دائرة واسعة تطوى الزمان والمكان، وتعمّ الناس في أوسع مساحة يتصوّرها الإنسان.

وقد روي: «**إنّ الراضين بقتل الحسين شركاء قتله ألا وإنّ قتلته وأعوانهم وأشياعهم والمقتدين بهم براء من دين الله**»[1].

وروي: «**إنّ القائم(عج) يقتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام لرضاهم بذلك**»[2].

٢. التعميم في الحجّة:

قرأنا بداية هذا البحث أنّ الله تعالى ألزم اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله بفعل آبائهم، واتّخذه حجّة عليهم عندما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يأتيهم بقربان تأكله النار ليؤمنوا به، فحاججهم القرآن بمن جاءهم قبل رسول الله صلى الله عليه وآله من الأنبياء بالبيّنات وبالقربان فقتلوهم ولم يؤمنوا بربهم.

﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾

﴿قُلْ: قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

(١) بحار الأنوار: ٣١١/٨ ح٧٩.

(٢) بحار الأنوار: ٣١٣/٥٢.

(٣) آل عمران: ١٨٣.

وفي سورة البقرة (٩١ ـ ٩٢) يحاجج القرآن اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بأنّهم إذا دعوا إلى الإيمان بما أنزل الله تعالى على رسوله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا، ويكفرون بما وراء ذلك مما أنزل الله على رسوله محمّد ﷺ بعد ذلك.

فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يحاججهم في ذلك ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وكيف يصح دعواهم بأنّه يؤمنون بما أنزل عليهم فقط دون غيرهم، إذ كانوا يقتلون الأنبياء الذين أُرسل اليهم؟

فيلزم القرآن الأبناء بالحجّة التي تلزم الآباء.

تأمّلوا في هذه الآيات من سورة البقرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾.

﴿قَالُواْ: نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

﴿وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

﴿قُلْ: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

٣ـ التعميم في الثواب:

وكما تعمّ المسؤولية والعقاب، يعمّ الثواب وحسن الجزاء، العاملين والراضين وهو من أبواب رحمة الله تعالى على عباده، فتحها على عباده

(١) الآيات من سورة البقرة: ٩١ـ٩٢.

يشركهم معه خلالها، في ثواب أعمال الصالحين وجهادهم ودعوتهم إلى توحيد الله وقيامهم وركوعهم بين يدي الله وذكرهم وتسبيحهم ومواقفهم... وهو من يقينيات الثقافة الإسلامية.

روى المحدث القمّي في كتابه القيّم (نَفَس المهموم) «بسند صحيح عن الريّان بن شبيب رحمه الله حال المعتصم.

قال: دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام في أوّل يوم من محرم. فقال: **يابن شبيب أصائمٌ أنت؟ فقلت: لا، فقال: إنّ هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريا ربّه عزّ وجلّ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[1] فاستجاب الله له وأمر الملائكة فنادت زكريا وهو قائم يصلّي في المحراب: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾[2] فمن صام هذا اليوم، ثم دعا الله عزّ وجل، استجاب الله له كما استجاب لزكريا.**

ثم قال: يابن شبيب، إنّ المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية فيما مضى يُحرّمون فيه الظلم والقتال لحرمته. فما عرفت هذه الأُمة حرمة شهرها، ولا حرمة نبيّها صلى الله عليه وآله. لقد قتلوا في هذا الشهر ذرّيته وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً.

يابن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابكِ للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام. فإنّه ذُبح كما يُذبح الكبش، وقُتل معه من أهل بيته ثمانية

(١) آل عمران: ٣٨.

(٢) آل عمران: ٣٩.

عشر رجلاً ما لهم شبيهون في الأرض...

يابن شبيب إن سرّك أن تلقى الله عزّ وجل ولا ذنب عليك فزر الحسين عليه السلام يابن شبيب إن سرّك أن تسكن الغرف المبنيّة في الجنّة مع النبيّ صلى الله عليه وآله فالعن قتلة الحسين عليه السلام.

يابن شبيب إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فقل متى ما ذكرته: يا ليتني كنتم معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

يابن شبيب إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى في الجنان فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا وعليك بولايتنا، فلو أن رجلاً تولى حجراً لحشره الله تعالى يوم القيامة»(١).

وروي في «بشارة المصطفى» «عن عطية العوفي: قال: خرجت مع جابر بن عبدالله الأنصاري رحمه الله زائرين إلى قبر الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فلمّا وردنا كربلاء دَنا جابر من شاطئ الفرات فاغتسل ثم أتزر بإزار وارتدى بآخر، ثم فتح صرّة فيها سعد فنثرها على بدنه، ثم لم يخط خطوة إلاّ ذكر الله حتّى إذا دنا من القبر، قال ألمسنيه، فألمسْتهُ فخرّ على القبر مغشياً عليه فرششت عليه شيئاً من الماء فأفاق.

ثم قال: يا حسين ثلاثاً، ثم قال حبيب لا يجيب حبيبه، ثم قال: وأنّى لك بالجواب وقد شُحطت أوداجك على أثباجك، وفرّق بين بدنك ورأسك،

---

(١) نفس المهموم: ٣٦، تحقيق الأستادي، وأمالي الصدوق: ٧٩، المجلس ٢٧.

فأشهد أنّك ابن النبيين وابن سيّد المؤمنين. وابن حليف التقوى وسليل الهدى و خامس أصحاب الكساء وابن سيّد النقباء. وابن فاطمة الزهراء سيّد النساء، ومالكَ لا تكون هكذا، وقد غذّتك كف سيّد المرسلين وربيتَ في حجر المتقين، ورضعت من ثدي الإيمان، وفُطمت بالإسلام، فطبت حيّاً وميتاً، غير أن قلوب المؤمنين غير طيّبة بفراقك ولا شاكّةً في الخيرة لك. فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد إنّك مضيت على ما مضى عليه إخوان يحيى بن زكريا.

ثم جال ببصره حول القبر وقال: السلام عليكم أيّها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين وأناخت برحله أشهد أنّكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتّى أتاكم اليقين.

والذي بعث محمّداً بالحقّ لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

قال عطية: وكيف؟ ولم نهبط وادياً ولم نعل جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأوتمت أولادهم، وأرملت الأزواج.

فقال: يا عطية سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: «**مَن أحبّ قوماً حُشر معهم، ومَن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم**»، والذي بعث محمّداً بالحق نبيّاً أنّ نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه، خذوا بيّ نحو أبيات كوفان، فلمّا مررنا في بعض الطرق فقال لي: يا عطية هل أوصيك؟

وما أظن إنّني بعد هذه السفرة ملاقيك! أحبَّ محبَّ آل محمّد ما أحبّهم، وبغض مبغض آل محمّد ما أبغضهم، وإن كان صواماً قواماً، وأرفق بمحبّ محمّد و آل محمّد فإنّه، إن تزل لهم قدم بكثرة ذنوبهم تثبت لهم أُخرى بمحبّتهم. فإنّ محبّهم يعود إلى الجنّة ومبغضهم يعود إلى النار»[1].

٤. التعميم في نسبته في العمل:

والله تعالى ينسب جرائم الآباء، في قتلهم للأنبياء إلى الأبناء في اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله وليس فقط، يُحمل الأبناء مسؤولية جرائم الآباء ويُدينهم بها ويعاقبهم عليها، وإنّما ينسب فعل الآباء إلى الأبناء مباشرة وبالصراحة.

قال: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله بالتأكيد: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

وأفصح وأصرح من ذلك كلّه قوله تعالى في خطابه لليهود المعاصرين لرسول الله ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4] والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله (الأبناء) من غير شكّ.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/١٣١ ـ ١٣٠ ح ٦٢ و١٠١/١٩٥ ح٣١، وبشارة المصطفى: ٧٤ ط ١٣٨٣ هـ.

(٢) آل عمران: ١٨٣.

(٣) البقرة: ٩١.

(٤) آل عمران:١٨٢.

٥.التعميم في الشهود والحضور:

وتتجاوز هذه السنّة الإلهية في التعميم حدود المسؤولية والإدانة والثواب والنسبة، وتشمل الشهود والحضور فتنسب إلى الغائبين الحضور والشهود للموقع الذي غابوا عنه وتفصله عنهم مئات السنين والمسافات الممتدة الطويلة.

والشهود والحضور أعمق مراتب التعميم.

يقول الشريف الرضي في (نهج البلاغة): لمّا أظفر الله تعالى أمير المؤمنين عليه السلام بأصحاب الجمل قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك.

فقال عليه السلام: **أهوى أخيك معنا؟**

قال: نعم.

فقال: **فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف الزمان بهم، ويقوى بهم الإيمان»**[١].

وفي النهروان بعد أن استتبّت المعركة، وانتهت فتنة الخوارج تمنّى أحد أصحابه أن يكون قد حضر أخ له المعركة.

فقال عليه السلام: **لقد شهد في هذا الموقف أناس لم يخلق الله آباءهم**[٢].

رحم الله السيّد الحميري يعكس هذا الوعي العميق للتاريخ وإرتباط الخلف بالسلف وتعميم الحضور في تاريخ الآباء للأبناء.. في أبيات من

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) بحار الأنوار: ٢٦٢/٧١ ح ٥ و ٦.

الشعر كلّها وعي ومعرفة، يقول رحمه الله:

أنّي أدين بما دان الوصي[(١)] به   يوم الريبضة[(٢)] من قتل المحلّينا
وبالذي دان يوم النهر[(٣)] دنت به   وصافحت كفّه كفي بـ (صفينا)
تلك الدماء جميعاً ربّ في عنقي   ومثلها معها آمين آمينا[(٤)]

«من شهد أمراً فكرهه كان كمن غاب عنه، ومن غاب عن أمر فرضيه، كان كمن شهده»[(٥)].

أنّ (الرضا) يُحضر الغائب البعيد عبر القرون و(السخط) يغيب الحاضر الشاهد.

وعن الرضا عليه السلام: **«مَن غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهده وأنساه»**[(٦)].

٦. التعميم في النتائج والسنن الإلهية في المجتمع والتاريخ:

للطاعة والعصيان آثار ونتائج في حياة الناس الإجتماعية.

يقول تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ**

---

(١) الوصي: أمير المؤمنين.

(٢) يوم الربيضة: معركة الجمل.

(٣) يوم النهر: النهروان.

(٤) أعيان الشيعة للسيد الأمين: ٤١٦/٣.

(٥) تحف العقول: ١٠٠، وبحار الأنوار: ١٠٠/٨١ ح ٣٨.

(٦) بحار الأنوار: ٣٢٠/١١ و ٢٨٣/٥.

مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ*ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

وهذه النتائج والآثار تجري في حياة الناس بموجب سنن الله تعالى وهي سنن حتميّة تجري بأمر الله.

إلاّ أنّ هذه السنن لا تخصّ العاملين والحاضرين فقط، وإنّما تشمل الحاضرين والغائبين، إذا كان يجمعهم الرضا والسخط.

تأمّلوا في الآيات المباركات من سورة البقرة (٦١) وآل عمران (١١٢) حيث يذكر الله تعالى العقوبات التي عاقب بها اليهود على جرائمهم الكثيرة وقتلهم للنبيين.

وهذه العقوبة هي الذلّ والمسكنة والبدء بغضب الله. وهذه الذلّة والمسكنة تجري في حياتهم السياسية والاقتصادية والإجتماعية بموجب سنن الله تعالى، في إذلال العصاة والمتمردين.

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) آل عمران: ١٣٧.

ولكن الله تعالى عاقب أجيال الأبناء من اليهود، بهذه السنّة بجرائم الآباء، فعمّتهم العقوبة الإلهية في الدنيا.

تأمّلوا في هاتين الآيتين من «سورة البقرة» و «آل عمران»:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[١].

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[٢].

وليس من شكّ أنّ هذه العقوبة التي سنّها الله تعالى لهم لم تخصّ أجيال اليهود الذين كانوا يقترفون جرائم قتل النبيّين بل تعمّ أجيال اليهود ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾[٣] وهي من مصاديق سنّة التعميم.

٧. التعميم في النتائج والسنن الإلهية في نفس الإنسان:

تتحقق السنن الإلهية في حياة الناس في مساحتين:

مساحة المجتمع والتاريخ.

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) آل عمران: ١١٢.

(٣) الأحزاب: ٦١.

وفي مساحة النفس.

وقد تحدثنا عن سنّة التعميم في السنن الإلهية في مساحة المجتمع والتاريخ ونقول الآن أنّ سنّة التعميم، تشمل السنن الإلهية في مساحة النفس البشرية كذلك.

ففي سورة البقرة يحدثنا القرآن عن مسلسل طويل من تعنّت بني إسرائيل وكفرهم بأنعم الله وعنادهم ولجاجتهم وتشكيكهم في آيات الله وقتلهم للنبيّين وعصيانهم وتمرّدهم.

ثم يقول القرآن الكريم بعد ذلك في بيان سنّة الله تعالى في عقوبة بني إسرائيل بعد كلّ هذا الجحود والكفران والعصيان:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[1].

ولاشك أنّ هذه القسوة في قلوبهم والتي يصفها الله تعالى بتحجّر القلوب أو أشد من ذلك كانت نتيجة لتلك الجرائم والجحود والمعاصي وتعبير القرآن دقيق **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾** أي: من جرّاء هذه المعاصي.

ولاشكّ أنّ المخاطبين بهذه الآية اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله بدليل سياق آيات سورة البقرة وبدليل ضمير الخطاب في الآية الكريمة **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾**.

---

(١) البقرة: ٧٤.

٨ـ تعميم اللعن والبراءة:

من مصاديق التعميم.. تعميم اللعن والبراءة للقتلة والمجرمين والراضين بجرائمهم.

وفي النصوص المأثورة عن أهل البيت في زيارة الحسين عليه السلام نتلقى هذا التعميم بوضوح وصراحة.

ففي النص المعروف بزيارة وارث نقرأ:

«**لعن الله أُمّةً قتلتك..**

ولعن الله أُمّةً ظلمتك..

ولعن الله أُمّة سمعت بذلك فرضيت به».

وهو نص عجيب، يستوقف الإنسان للتأمّل والتفكّر.

فهذه طوائف ثلاثة تعمّهم اللعن والبراءة من القتلة، والذين أيّدوا القتلة بالدعم والإسناد، والذين رضوا عنهم.

واللعن والبراءة هو إعلان الفصل والبينونة الكاملة ولا يصح ولا يجوز اللعن إلاّ عند ما ينقطع آخر الخيوط من وشائج الولاء في هذه الأُمّة.

فإذا انقطعت هذه الخيوط خيطاً بعد خيط ووشيجة بعد وشيجة، عند ذلك يكون كلّ من الفريقين أُمّة منفصلة عن الفريق الآخر، فإذا كانت إحدى الأُمتين موضع رحمة الله «مرحومة» فلا محالة تكون الأُمّة الأُخرى موضع غضب الله «ملعونة». وهذا هو الحد الفاصل والحاسم بينهما.

فإنّ الله تعالى قد وصل بين المسلمين بوشيجة الولاء، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[1].

وهي أقوى الوشائج الحضارية في تاريخ البشرية، ومَن يدخل في مساحة الولاء من المؤمنين يستحق من أعضاء هذه الأُسرة الكبيرة، النصر والسلام والعصمة، وأقصد بالعصمة أن يحفظوا دمه وعرضه «كرامته» وماله، وقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله حقّ المسلم على المسلمين في «العصمة» في خطاب عام ألقاه على المسلمين في مسجد الخيف بمنى، في آخر حَجّة

(١) التوبة: ٧١.

حجّها رسول الله صلى الله عليه وآله بالمسلمين فقال: «**يا أيّها الناس: اسمعوا ما أقول لكم واعقلوه، فأنّي لا أدري لعلي لا ألقالكم بعد عامنا هذا**». ثم قال: **أيّ يوم أعظم حرمة**؟ قالوا: هذا اليوم قال: **فأيّ شهر أعظم حرمة**؟ قالوا: هذا الشهر. قال: **فأيّ بلد أعظم حرمة**؟ قالوا: هذا البلد. قال: **فان دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه. فنسألكم أعمالكم، ألا هل بَلَغت** قالوا: نعم. قال: **اللهمّ اشهد، ألا مَن كانت عنده أمانة فليؤدها، فإنّه لا يحلّ دم امرئ مسلم، ولا ماله إلاّ بطيبة نفسه، ولا ترجعوا بعدي كفّار**».

ويحقّ عليه تجاه المسلمين العزة والسلام والعصمة ونقصد بالسلام أن يسلم المسلمون من يده ولسانه.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك: «**المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه**».

ولا نعرف فيما نعرف من العلاقات الحضارية علاقة أقوى وأمتن، وفي نفس الوقت أرق من علاقة الولاء.

ويدخل في دائرة الولاء، هذه كل مَن يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، فإذا أشهدها دخل في عصمة الولاء وعصم من المسلمين دمه وماله وعرضه.

وإذا انقطع ما بينهما من العصمة كان كل فريق منهما أُمة ورحم الله زهير بن القين كان واعياً لهذه الحقيقة لمّا خاطب جيش بني أُمية يوم عاشوراء فقال لهم: «**يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار. أنّ**

حقاً على المسلم لنصيحة أخيه المسلم، وحن حتّى الآن أُخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف فاذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أُمة وأنتم أُمة»(١).

وهذا وعي دقيق لحقيقة كبرى من حقائق هذا الدين، فإنّ العصمة إذا ارتفعت بين فريقين من المسلمين ووقع بينهما القتل، وبغى أحدهما على الآخر، كان كل فريق منهما أُمّة فإذا كانت إحداهما مرحومة كانت **الأُخرى ملعونة لا محالة**».

الطوائف الملعونة في زيارة (وارث):

نعود إلى الطوائف الثلاثة التي ورد اللعن عليهم في زيارة وارث وهم: القتلة، والمؤيّدين لهم، والراضين من فعلهم والنص كما يلي:

«لعن الله أُمّةً قتلتكم..

ولعن الله أمّةً ظلمتكم..

ولعن الله أُمّة سمعت بذلك فرضيت به».

والطائفة الأُولى محدودة بمن حضر كربلاء، في محرم سنة ٦١ هجرية.

والطائفة الثانية أوسع من الطائفة الأُولى لأنّها تشمل كلّ الذين دعموا وأيّدوا القتلة وظلموا الحسين عليه السلام، حضروا كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٤٣/٦.

هجرية أم لم يحضروا كربلاء في هذا التاريخ.

والطائفة الثالثة أوسع هذه الطوائف جميعاً وتمتدّ على امتداد التاريخ وتتصل حلقاتها إلى يومنا الذي نعيش فيه.

ومن العجيب أنّ هذه الطائفة تستحق من اللعن والعذاب والبراءة ما تستحقه الطائفة الأُولى والثانية.

وكان الحسين عليه السلام إذا طلب النصرة من أحد فلم يستجب له ينصحه أن يبتعد عن الموقع لئلا يسمع استغاثته، فلا يغيثه، وكان يقول لهم مَن سمع واعينا فلم يعتنا، كان حقاً على الله أن يكبّه على منخره في النار.

وينعكس هذا الوعي للتاريخ وربط الحاضر بالمّاضي والأجيال بعضها ببعض في «زيارة عاشوراء» بصورة واضحة وبنصوص مؤثّره. وفيما يلي: ننقل بعض هذه النصوص:

«لعن الله أُمّةً أسّست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت، ولعن الله أُمّةً دفعتكم عن مقامكم وأزالتكم عن مراتبكم التي رتّبكم الله فيها، ولعن الله الممهّدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم وأوليـاءهم: إنّي سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة».

عاشوراء في خارطة الولاء والبراءة:

الحياة ساحة صراع، والصراع هو العمود الفقري للتاريخ.

ولا نستطيع أن نعرّف التاريخ بأفضل من هذا التعريف. فإنّ التاريخ هو

الصراع وما عدا ذلك فهو على هامش التاريخ وليس من صلب التاريخ.

ولا أقصد بالصراع، الصراع الطبقي كما يقول ماركس، ولا نظرية التحدي والاستجابة في التنافس العسكري والاقتصادي والسياسي وإنّما أقصد بالصراع الصراع بين التوحيد والشرك، وهو صراع الحقّ والباطل، وهذا هو بالذات جوهر التاريخ والعمود الفقري للتاريخ، وكل صراع آخر عدا هذا الصراع، فهو على هامش التاريخ، وليس من صلب التاريخ.

وهذا هو الصراع الذي به نهض بإمامته إبراهيم عليه السلام في التاريخ وتبعه في ذلك أنبياء الله ورسله والصالحون من عباده وساحة الحياة يتقاسمها هذا الصراع.

والناس، كلّ الناس، بين جبهتي هذا الصراع بدرجات ومواقع مختلفة، وتتداخل أطراف هذا الصراع وتتشابك الخطوط في الساحة حتّى يصعب التمييز مَن الحق والباطل في ساحة الصراع.

ولابدّ للإنسان الذي يريد أن يلتزم جانب الحقّ في هذا الصراع من معرفة دقيقة لهذه الساحة ووعي وبصيرة نافذة لفرز الحقّ عن الباطل ولا يستطيع الإنسان أن يأخذ موقعه الصحيح في هذه الساحة المتشابكة من غير هذا الوعي والمعرفة.

والعامل الأهم في هذا الوعي هو التقوى.

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[(١)].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[(٢)].

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) الطلاق: ٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[١].

و«عاشوراء» عامل دقيق للفرز بين الحقّ والباطل في هذه الساحة التي طالما اختلط فيها الحقّ والباطل.

ولست أدري أي سرّ أودع الله تعالى في هذا اليوم العجيب من أيام التاريخ، فقد كان عاشوراء منذ سنة ٦١ هجرية عاملاً أساسياً يشطر الناس إلى شطرين متميّزين شطر مع الحسين عليه السلام، وشطر ضد الحسين عليه السلام.

والشطر الأوّل هو الشطر الذي وقف على امتداد التاريخ مع الأنبياء والمرسلين وهو شطر الصالحين من الناس.

والشطر الثاني هو الشطر الذي تصدّى لدعوة الأنبياء في التاريخ وهو شطر المجرمين والمفسدين من الناس.

ذلك إنّ الحسين وارث الأنبياء والمرسلين، ودعوة الحسين عليه السلام إمتداد لدعوة الأنبياء، ويزيد كان على نهج الطغاة في التاريخ، يرث عنهم بطغيانهم وطيشهم وصدّهم عن سبيل الله، وكبرياءهم وخُيلاءهم.

وهذا الشطران من الناس منتشران على كل مساحة التاريخ، ولذلك فهما يصبغان كل التاريخ بصبغتهما الخاصة، فكل مَن ورث التوحيد وقِيَمه وكان مع الحق كان راضياً بموقف الحسين عليه السلام، وساخطاً على موقف بني أُمية في عاشوراء. كان مع الحسين، وعلى خط الأنبياء والمرسلين.

وكل مَن ورث بطر بني أُمية وثرائهم واستكبارهم وخروجهم على

---

(١) الحديد: ٢٨.

حدود الله وأحكامه وصدّهم عن سبيل الله، وسخطهم على الحسين عليه السلام في عاشوراء فهو ضد الحسين عليه السلام وعلى خط الطغاة والمستكبرين في التاريخ.

وعاشوراء، علامة فارقة بين هذين الشطرين من التاريخ والمجتمع، يشطر التاريخ والمجتمع إلى شطرين متميّزين.

وكل أحداث الصراع بين الحقّ والباطل يمكن أن تكون علاقة فارقة بين الحقّ والباطل في التاريخ والمجتمع، ولكنّ الله تعالى خصّ عاشوراء، من بين أحداث كثيرة بهذه الميزة العظيمة الواضحة.

«الموقف» من هذين الشطرين «الولاء» و «البراء»، الولاء للشرط الأول والبراءة للشطر الثاني والحسين عليه السلام هو العلامة الفارقة والفاصلة بين هذا الشطرين.

«إنّي سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم وولي لم والاكم وعدوّ لمن عاداكم».

وتمتد مساحة كل من هذين الشطرين على إمتداد التاريخ والمجتمع، وهي أوسع المساحات جمعاً في حياة الناس.

ذلك أنّ عامل «الرضا» و«السخط» يدخل في تلوين هذه الساحة بلون الولاء والبراءة والأولياء والأعداء.

الولاء والبراءة بالموقف والعمل وليس بالنيّة:

و«الولاء» و «البراءة» ليس بمعنى أن يضمر الإنسان الحبّ والبغض والإقبال والإدبار، وإنّما هما موقفان بكلّ ما في الموقف

من معنى.

ولربّما يكون أصدق كلمة في التعبير عن هذين الموقفين هذه الجملة القوية والمؤثّرة في زيارة عاشوراء: «**إنّي سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم وولي لم والاكم وعدوّ لمن عاداكم**».

ومساحة هذا «السلم» و «الحرب» من أولياء الحسين عليه السلام وأعداء الحسين عليه السلام ليست عاشوراء أو كربلاء فقط، وإنّما مساحة التاريخ والمجتمع... وعامل هذا البسط والسعة هو «الرضا» و«السخط»، فنفهم من زيارة عاشوراء، هذا الوعي الدقيق للموقف من التاريخ والمجتمع.

«**لعن الله أمّةً قتلتكم ولعن الله الممهّدين لهم بالتمكين**».

وهاتان طائفتان تمتدان على مساحة واسعة من المجتمع. وتضيف زيارة وارث طائفة ثالثة إلى دائرة اللعن والبراءة.

«**ولعن الله أمّة سمعت بذلك فرضيت به**».

فلا يبقى بعد هذه التوسعة مساحة من التأريخ أو المجتمع لا يشملها موقف «السلم» و «الحرب» و «الولاء» و «البراءة» الذي تحدثنا عنه.

«عاشوراء» إذن بطاقة انتهاء إلى كلّ من هاتين الجبهتين المتصارعين على امتداد التاريخ، جبهة الحقّ وجبهة الباطل، وجبهة التوحيد وجبهة الشرك.

والانتهاء إلى كل من هاتين الجهتين يتمّ من خلال عاملين، هما «العمل» و «الرضا».

الرضا الضحل والرضا العميق:

هذا كلّ إذا كان «الرضا» صادقاً، فان الأُمنية الكاذبة، والرغبة الكاذبة، والحبّ الضحل لا يُدخل الإنسان في دائرة الولاء ولا يخرجه عن دائرة البراءة.

ولا يكون الرضا السخط صادقين إلاّ إذا اقترنا بالعزم والعمل.

أما عند ما يكون «الرضا» و «السخط» مجردين عن الموقف والعزم والعمل فلا قيمة لمثل هذا الرضا والسخط.

وكان الشاعر الفرزدق رحمه الله دقيقاً في وعي هذه الحقيقة عندما سأله الحسين عليه السلام عما وراءه في العراق بعد أن غادر الحسين عليه السلام الحجاز إلى العراق في ذي الحجة سنة ستين هجرية، فأجابه على الخير وقعت «قلوبهم معك، وسيوفهم عليك».

فان القلوب إذا افترقت عن السيوف. فكانت القلوب في جانب الحسين عليه السلام والسيوف في جانب بني أُمية وخاضعة لإرادتهم وسلطانهم.. فسوف لن يكون بوسع هذه القلوب.

أن تُخرج أصحابها من دائرة «أعداء الله» وتُدخلهم في دائرة «أولياء الله».

وقد وجدنا أنّ هذا الحبّ الضحل والضعيف الذي كان يضمره الناس في العراق يومئذ للحسين عليه السلام لم يخرجهم من جبهة بني أُمية ولم يُدخلهم يومئذ في جبهة الحسين عليه السلام.

وليس بوسعنا نحن أن نضع (ولاءنا) في التاريخ والمجتمع في مثل هذا الموضع الضحل من الرضا والسخط والحبّ والبغض، وإنّما نوالي الذين صدقوا في رضاهم وحبّهم لأولياء الله وصدقوا في سخطهم وبغضهم لأعداء الله.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا حبّ أوليائه والرضا بمواقفهم وبغض أعدائه، والسخط عليهم، وأن يرزقنا الصدق في هذا الرضا والسخط والحبّ والبغض جميعاً.

الفهرس